التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

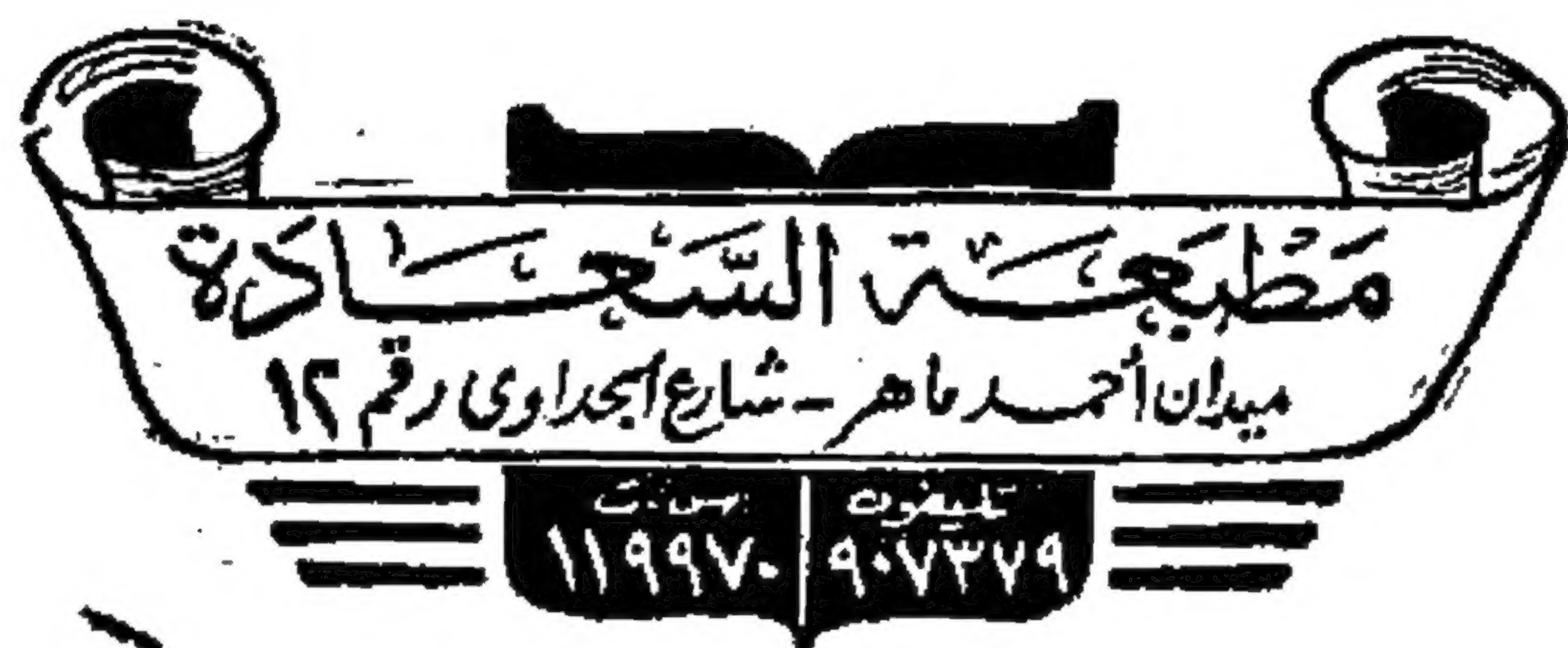
تفسير سورة آل عمران

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء الثالث

الطبعة الثانية

١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م


مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - شارع البجلاوى رقم ١٢
تليفون
٩٠٧٣٧٩
ص. ب
١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير مفصل لسورة آل عمران ، حاولت فيه أن أكشف عن بعض ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات قويمة ، وهدايات جامعة . وإرشادات حكيمة ، ووصايا جليلة ، وآداب عالية ، وحجج باهرة. تقذف حقها على باطل الضالين فتدمغه فإذا هو زاهق . . .

وقد رأيت من الخير-قبل أن أبدأ فى تفسيرها أن أسوق كلمة بين يديها تكون بمثابة التعريف بها ، وبيان فضلها، ومقاصدها الإجمالية، والموضوعات التى اهتمت بالحديث عنها . . .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، ونافعا لعباده ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول .

وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

القاهرة — مصر الجديدة

٢٠ من رجب سنة ١٣٩٣ هـ

١٩ أغسطس سنة ١٩٧٣ م

المؤلف

محمد سيد طنطاوى

تعريفُ بسورة آل عمران

سورة آل عمران هى السورة الثالثة فى ترتيب المصحف ، إذ تسبقها فى الترتيب سورتا الفاتحة والبقرة .

وتبلغ آياتها مائتى آية . وهى مدنية باتفاق العلماء .

وسميت بسورة آل عمران ، لورود قصة آل عمران بها بصورة فيها شيء من التفصيل الذى لا يوجد فى غيرها .

والمراد بآل عمران عيسى ، ويحيى ومريم ، وأمها . والمراد بعمران والد مريم أم عيسى ـ عليه السلام ـ .

وقد ذكر العلماء أسماء اخرى لهذه السورة منها :

أنها تسمى بسورة الزهراء ، لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتاب من شأن عيسى ـ عليه السلام ـ .

وتسمى بسورة الأمان ، لأن من تمسك بها أمن الغلط فى شأنه .

وتسمى بسورة الكنز ، لتضمنها الأسرار التى تتعلق بعيسى ـ عليه السلام ـ .

وتسمى بسورة المجادلة ، لنزول أكثر من ثمانين آية منها فى شأن مجادلة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لوفد نصارى نجران .

وتسمى بسورة طيبة ، لجمعها الكثير من أصناف الطيبين فى قوله ـ تعالى ـ « الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ... » .

قال القرطبى ما ملخصه : وهذه السورة ورد فى فضلها آثار وأخبار ... فمن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم عن النواس بن سمعان الكلابى قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : يؤتى بالقرآن يوم القيامة وبأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران ـ وضرب لهما رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة أمثال مانسيتهن بعد قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق - أى ضوء - أو كأنهما فرقان ، أى قطعتان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما ...

ثم قال : وصدر هذه السورة نزل بسبب وفد نجران ، وكانوا قد وفدوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إثر صلاة العصر ، عليهم ثياب الحبرات[1] . . .

فقال بعض الصحابة : مارأينا وفداً مثلهم جمالا وجلاله .

وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا فى المسجد إلى المشرق . فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : دعوهم . ثم أقاموا بها أياماً يناظرون رسول - صلى الله عليه وسلم - فى شأن عيسى ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرد عليهم بالبراهين الساطعة ونزل فيهم صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية ، إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المباهلة[2] ...

أما النصف الثانى من سورة آل عمران فقد كان نزول مايقرب من ستين آية منه[3] فى أعقاب غزوة أحد .

هذا، ونرى من الخير قبل أن نبدأ فى تفسير هذه السورة الكريمة بالتفصيل أن نذكر على سبيل الإجمال ما اشتملت عليه من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وأحكام جليلة ، وتشريعات قويمة ...

إنك عندما تفتح كتاب الله - تعالى - وتطالع سورة آل عمران تراها

---

(١) الحبرات : جمع حبرة . وهى ثياب يمانية .
(٢) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٣ .
(٣) من الآية ١٢١ - ١٧٩ .

فى مفتتحها تثبت أن المستحق للعبادة إنما هو الله وحده ، وتقيم البراهين الساطعة على ذلك . . .

« ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان.

ثم بعد أن مدحت أصحاب العقول السليمة لقوة إيمانهم ، وشدة إخلاصهم وكثرة تضرعهم إلى خالقهم ــ سبحانه ــ وبشرتهم بحسن العاقبة . . . بعد أن فعلت ذلك ذمت الكافرين وتوعدتهم بسوء المصير فقالت : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار . . . » .

ثم تحدثت عن الشهوات التى زينت للناس ، وبينت ما هو خير منها ، وصرحت بأن الدين الحق الذى ارتضاه الله لعباده هو دين الإسلام ، وأن أهل الكتاب ما تركوا الحق الذى جاءهم به محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلا بسبب ما استولى على قلوبهم من بغى وجحود ، وأنهم بسبب ما ارتكبوه من كفر وجرائم فى الدنيا ، سيكون حالهم يوم القيامة أسوأ حال وسيكون مصيرهم أشنع مصير « فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . . . » .

ثم نهت السورة الكريمة المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء يلقون إليهم بالمودة ، وذكرتهم بأن الله ــ تعالى ــ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه ــ سبحانه ــ سيحاسب كل نفس بما كسبت « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . . . » .

فإذا ما طالعت ــ أيها القارىء الكريم ــ الربعين : الثالث والرابع منها ، وجدت فيهما حديثا حكيما عن آل عمران .

فقد تحدثت السورة الكريمة عما قالته امرأة عمران - أم مريم - عندما أحست بالحمل فى بطنها ، وعما قالته عندما وضعت حملها . . .

« قالت ربى إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم . . . . »

وتحدثت عن الدعوات الخاشعات التى تضرع بها زكريا إلى ربه ، سائلا إياه الذرية الطيبة ، وكيف أن الله - تعالى - أجاب له دعاءه فبشره بيحيى مصدقا من الله وسيداً وحصورا ونبياً من الصالحين . . . »

وتحدثت عن اصطفاء الله - تعالى - لمريم . وتبشيرها بعيسى - عليه السلام وتعجبها من أن يكون لها ولد دون أن يمسها بشر ، وكيف أن الله - تعالى - قد رد عليها بما يزيل عجبها .

قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . . . »

وتحدثت عن الصفات الكريمة . والمعجزات الباهرة التى منحها الله - تعالى - لعيسى - عليه السلام - وعن دعوته الناس إلى عبادة الله وحده ، وعن موقف أعدائه منه ، وعن صيانة الله له من مكرهم وعن تشابه عيسى وآدم فى شأن خلقهما بدون أب . . . وكيف أن الله - تعالى - أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتحدى كل من يجادله بالباطل فى شأن عيسى فقال :

« ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . . . . »

ثم وجهت السورة الكريمة أربع نداءات إلى أهل الكتاب ، دعتهم فيها إلى عبادة الله وحده. وإلى ترك الجدال الباطل فى شأن أنبيائه ، وبختهم على كفرهم وعلى خلطهم الحق بالباطل .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . . . » يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . . .

« يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون » .

« يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون »

ثم واصلت السوره الكريمة فى الربعين : الخامس والسادس منها حديثها عن أهل الكتاب ، فمدحت القلة المؤمنة منهم ، وذمت من يستحق الذم منهم - وهم الأكثرون - وحكت بعض الرذائل التى عرفت عن أشرارهم وعلمائهم .

« وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

ثم بينت أن الله - تعالى - قد أخذ الميثاق على أنبيائه بأن يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأنهم قد أقروا بذلك ، وأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - بأن يجابه مخالفيه بكلمة الحق التى جاء بها من عند الله ، وأن يخبرهم بأن من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه .

« قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ؛ لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

ثم ساقت السورة الكريمة بعض الشبهات التى أثارها اليهود حول ما أحله الله وحرمه عليهم من الأطعمة ، وردت عليهم بما يفضحهم ويثبت كذبهم ، ووبختهم على كفرهم وعلى صدهم الناس عن طريق الحق . . . وحذرت المؤمنين من مسالكهم الخبيثة التى يريدون من ورائها تفريق كلمتهم ، وفصم عرى أخوتهم بالاعتصام بحبل الله . وذكرتهم بنعمة الإيمان التى بسببها نالوا ما نالوا من الخير ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . . . . ،

ثم بشرت السورة الكريمة المؤمنين بأنهم خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم هم الغالبون ما داموا معتصمين بدينهم . . . وذكرت بعض العقوبات التى عاقب الله ـ تعالى ـ بها اليهود بسبب كفرهم بآياته ، وقتلهم لأنبيائه ، وعصيانهم لأوامره . . . . وأثنت على من يستحق الثناء من أهل الكتاب فقالت : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون ، وأكثرهم الفاسقون لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ـ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ـ وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ليسوا سواء . . . .

وبعد أن أقامت السورة الكريمة ـ فى عشرات الآيات منها ـ الأدلة الواضحة ، وساقت الحجج الساطعة على صحة دين الإسلام . . . انتقلت إلى الحديث عن معارك السيف والسنان التى دارت بين أهل الحق وأهل الباطل . . .

فتحدثت فى الربع السابع والثامن والتاسع والعاشر منها عن غزوة أحد

وكان حديثها عن هذه الغزوة زاخرا بالتوجيهات الحكيمة والتربية القويمة ، والوصايا الحميدة ، والعظـات الجليلة ، والتشريعات السامية ، والآداب العالية ..

كان حديثها عنها هاديا للمسلمين فى كل زمان ومكان إلى الطريق الذى يوصلهم إلى النصر ليسلكوه ، وموضحا لهم طريق الفشل ليجتنبوه ...
كان حديثها عنها يدعو المسلمين كافة إلى الاعتبار بأحداث الحياة، وكيف أنها تسير على سنن وقوانين علينا أن نطلبها ونسلك السبيل إلى تعلمها ، وأن أحداث الحياة ليست مجموعة من المصادفات المتوالية ، أو التدفق العشوائى ، وإنما للنصر قوانين ، وللهزيمة قوانين . ومن الممكن أن ينهزم المسلمون فى حرب ولو كان فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ما خالفوا عن أمره ، وسلكوا غير سبيل النصر ، وأن لهم النصر على عدوهم وإن فاقهم عدداً وعدة إذا ما استطاعوا أن يرتفعوا إلى مافوق فاعلية عدوهم إيمانا وعلما وتنظيما ... »[1]

لقد بدأت سورة آل عمران حديثها عن غزوة أحد بتذكير المؤمنين بما فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - قبل بدء المعركة من إعداد وتنظيم للصفوف ، وبما هم به بعضهم من فشل ، وبما تم لهم من نصر على أعدائهم فى غزوة بدر .. استمع إلى القرآن وهو يحكى كل ذلك فيقول : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم . إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون ..... »

وفى هذا الربط بين الغزوتين تذكير للمؤمنين بأسباب انتصارهم فى بدر

---

(١) من كتاب « دروس من غزوة أحد » ص ١١ للدكتور عبدالعزيز كامل .

وأسباب هزيمتهم فى أحد ، حتى يسلكوا فى مستقبل حياتهم السبيل التى توصلهم إلى الظفر ، ويهجروا الطريق التى تقودهم إلى الفشل .

ثم وجهت السورة نداء إلى المؤمنين نهتهم فيه عن التعامل بالربا ، وحثتهم على المسارعة إلى الأعمال الصالحة التى توصلهم إلى رضوان الله ، لأنه إذا كان أعداؤهم يجمعون المال من كل طريق لحربهم، فعليهم هم أن يتحروا الحلال فى جمعهم للمال ، وأن يتبعوا الوسائل الشريفة التى تبلغهم إلى غايتهم النبيلة ثم حضتهم على الاعتبار بسنن الله فى خلقه ، وأمرتهم بالتجلد والصبر، ونهتهم عن الوهن والضعف ، وبشرتهم بأنهم هم الأعلون ، وشجعتهم على مواصلة الجهاد فى سبيل الله فإن العاقبة لهم ، وأخبرتهم بأن ما أصابهم من آلام وجراح فى أحد ، قد أصيب أعداؤهم بمثلها ، وأن الأيام دول ، وأن هزيمتهم فى أحد من ثمارها أنها ميزت قوى الإيمان من ضعيفه ، لأن المصائب كثيرا ما تكشف عن معادن النفوس ، وخفايا الصدور ....

قال - تعالى - « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين .... »

ثم بينت السورة الكريمة أن الآجال بيد الله وحده ، وأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - رسول قد خلت من قبله الرسل ، وسيدركه الموت كما أدركهم . وأن الأخيار من أتباع الرسل السابقين كانوا يقاتلون معهم بثبات وصبر من أجل إعلاء كلمة الله .. . فعلى المؤمنين فى كل زمان ومكان أن يقدموا على الجهاد فى سبيل الله بعزيمة صادقة ، وبنفوس مخلصة ، لأن الإقدام

لا ينقص شيئا من الحياة ، كما أن الإحجام لا يؤخرها . فما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا . . »

ثم حذرت السورة الكريمة المؤمنين من طاعة الكافرين ، لأن طاعتهم تفضى بهم إلى الخسران ، وبشرتهم بأن الله ـ تعالى ـ سيلقى الرعب فى قلوب أعدائهم ، وأخبرتهم بأنه ـ سبحانه ـ قد صدق وعده معهم ، حيث مكنهم فى أول معركة أحد من الانتصار على خصومهم ، وأنهم ما أصيبوا بما أصيبوا به فى أحد إلا بسبب فشلهم وتنازعهم وتطلعهم إلى الغنائم . ومخالفتهم لوصايا رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . .

قال ـ تعالى ـ «ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . . . »

ولقد ذكرت السورة الكريمة المؤمنين بما حدث من بعضهم من فرار من المعركة حتى لا يعودوا إلى ذلك مرة أخرى فقالت :

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم . . . » وبينت لهم كيف أن الله ـ تعالى ـ قد شملهم برحمته ، حيث أنزل عليهم النعاس فى أعقاب المعركة ليكون أمانا لهم من الخوف ، وراحة لهم من الآلام التى أصابتهم . . . ، وكيف أنه ـ سبحانه ـ قد فضح المنافقين ، ورد على أقوالهم وأراجيفهم بما يدحضها ويبطلها . . .

قال ـ تعالى ـ « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . يقولون هل لنا من الأمر من شىء ، قل إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم

مالا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . . . . »
ثم وجهت السورة الكريمة حديثها إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فوصفته بأكرم الصفات وأفضلها، ونزهته عن كل قول أو فعل يتنافى مع منزلته الرفيعة . . . وأمرته باللين مع أتباعه وبالعفو عنهم وبالاستغفار لهم، وبمشاورتهم فى الأمر .

ثم عادت السورة الكريمة فأكدت للمؤمنين أن ما أصابهم فى أحد كان سببه من عند أنفسهم، فهم الذين خالفوا ما أمرهم به نبيهم - صلى الله عليه وسلم . . .

قال - تعالى - : « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا، قل هو من عند أنفسكم . . . » .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن غزوة أحد ببيان فضل الشهداء، وما أعده الله لهم من ثواب جزيل، وبالثناء على المؤمنين الصادقين « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح . . . » والذين لم يرهبهم قول المرجفين: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، بل إن هذا القول زادهم إيمانا على إيمانهم، وجعلهم يفوضون أمورهم إلى الله ويقولون : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

ولقد ذكر - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يحدث ما حدث فى أحد حتى يتميز الخبيث من الطيب فقال - تعالى - :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء، فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

وبعد هذا الحديث الحكيم المستفيض عن غزوة أحد، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن أهل الكتاب. فذكرت جانباً من رذائل اليهود، الذين حكى الله – تعالى – عنهم قولهم: «إن الله فقير ونحن أغنياء» وأنهم قالوا: «لن نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار..».

وأنهم قد نقضوا عهودهم مع الله، وباعوا دينهم بدنياهم الفانية.

وقد توعدهم الله - تعالى - على إرتكابهم لهذه الرذائل والمنكرات بالعذاب المبين، «وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون».

ثم تحدثت السورة الكريمة في أواخرها عن صفات أولى الألباب، وحكت عنهم ما كانوا يتضرعون به إلى الله من دعوات خاشعات، وإبتهالات طيبات وكيف أنه - سبحانه - قد أجاب لهم دعاءهم ببركة قوة إيمانهم، وصفاء نفوسهم، وطهارة قلوبهم.

وكانت الآية الخاتمة فيها تدعوا المؤمنين إلى الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله، لأن المؤمن الذى تتوفر فيه هذه الصفات يكون أهلا للفلاح في الدنيا والاخرة. قال - تعالى -:

«يأيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون».

هذا، ونستطيع بعد هذا العرض الإجمالى لأهم المقاصد التى إشتملت عليها سورة آل عمران أن نستخلص ما يأتى:

أولا: أن السورة الكريمة قد اهتمت بإثبات وحدانية الله – تعالى – وإقامة الأدلة الساطعة على ذلك، وإثبات أن الحق الذى إرتضاه الله – تعالى - لعباده هو دين الإسلام، أرسل به نبيه محمداً – عليه الصلاة والسلام –.

وقد ساقت السورة الكريمة لإثبات هذه الحقائق آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ... »

وقوله - تعالى - : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام » .

وقوله - تعالى - : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ..... » .

وقوله - تعالى - : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين .... » .

ثالثاً : أن السورة الكريمة قد فصلت الحديث عن أحوال أهل الكتاب ، بأسلوب مقنع حكيم يحق الحق ويبطل الباطل .

فأنت إذا طالعتها بتدبر تراها تارة تتحدث عن الكفر الذى إرتكسوا فيه بسبب إختلافهم وبغيهم « وما إختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم .... » .

وتارة تتحدث عن نبذهم لكتاب الله وتحاكمهم إلى غيره . « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون .... » .

وتارة توبخهم على كفرهم بآيات الله ، وعلى مجادلتهم بالباطل ، وعلى سوء أدبهم مع الله - تعالى - وعلى نقضهم لعهودهم ومواثيقهم ، وعلى كتمانهم لما أمرهم الله بإظهاره من حقائق ...

وقد توعدتهم السورة الكريمة بسوء العذاب بسبب هذه الرذائل والمنكرات « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم وإشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون »

وتارة تحذر المؤمنين من شرورهم فتقول : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

ولا تغفل السورة الكريمة عن مدح من يستحق المدح منهم ، لأن القرآن الكريم لا يذم إلا من يستحق الذم ، فقد قال - تعالى - « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . . . » .

وقال - تعالى - « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما . . » .

وقال - تعالى -

« منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . . . » .

هذا جانب من حديث سورة آل عمران عن أهل الكتاب ، وهو حديث يكشف عن حقيقتهم حتى يكون المؤمنون على بينة من أمرهم .

وقد تحدثت السورة - أيضا - عن المشركين وعن المنافقين إلا أن حديثها عن أهل الكتاب كان أكثر وأشمل .

ثالثا : أن السورة الكريمة قد اهتمت اهتماما بارزا بتربية المؤمنين تربية ينالون باتباعها النصر والسعادة فى الدنيا والفوز والفلاح فى الآخرة .

فقد وجهت إليهم سبع نداءات أمرتهم فيها بتقوى الله ، وبالصبر والمصابرة والمرابطة ، ونهتهم عن طاعة الكافرين ، وعن التشبه بهم ، وعن اتخاذهم أولياء ، كما نهتهم عن تعاطى الربا وعن كل ما يتنافى مع آداب دينهم وتعاليمه . . . .

وهذه النداءات السبعة تراها فى قوله - تعالى - :

يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته . .

يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا . .

يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين .

يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . .

يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا :.

يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا . .

يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة . . .

وبجانب هذه النداءات التي اشتملت على أسمى ألوان التربية الفاضلة ، والتوجيه القويم . نرى السورة الكريمة تسوق للمؤمنين في آيات كثيرة منها ما يهديهم إلى الخير والرشاد ويبعدهم عن الشر والفساد . فهي تحكي لهم ألوانا من الدعوات التي يتضرع بها الأخيار من الناس لكي يتأسوا بهم . وتبين لهم أن حب الشهوات طبيعة في الناس إلا أن العقلاء منهم يجعلون حبهم لما يرضى الله فوق أي شيء آخر . وتحرضهم على الاعتصام بحبل الله ، وتحثهم على المسارعة إلى الأعمال الصالحة التي توصلهم إلى رضا الله .

إلى غير ذلك من التوجيهات الحكيمة التي زخرت بها سورة آل عمران والتي من شأنها أن تزيد المؤمنين إيمانا مع إيمانهم ، وأن تهديهم إلى الصراط المستقيم .

رابعا : أن السورة الكريمة عرضت أحداث غزوة أحد عرضا حكيما زاخرا بالعظات والعبر ، وفصلت الحديث عنها تفصيلا لا يوجد في غيرها من السور ، وساقت ما دار فيها بأسلوب بليغ مؤثر يخاطب العقول والعواطف ، ويكشف عن خفايا القلوب ونوازعها ، وطوايا النفوس وخواطرها ، ويعالج الأخطاء التي وقع فيها بعض المسلمين حتى لا يعودوا لمثلها ، ويشجعهم على المضي

فى طريق الجهاد حتى لا يؤثر ما حدث لهم فى أحد فى عزيمتهم ، ويبشرهم بأن الله - تعالى - قد عفا عمن فر منهم ، ويذكرهم بمظاهر فضل الله عليهم خلال المعركة وبعدها ، ويبصرهم بسنن الله التى لا تتخلف ، وبقوانينه التى لا تتبدل ، وبتعاليمه التى من سار عليها أفلح وانتصر ، ومن أعرض عنها خاب وخسر «ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا» .

أما بعـــد :

فهذا عرض إجمالى لسورة آل عمران رأينا أن نسوقه قبل البدء فى التفسير المفصل لآياتها ، ولعلنا بذلك نكون قد قدمنا تعريفاً موجزاً نافعاً عن هذه السورة الكريمة يعين على فهم بعض أسرارها ومقاصدها وتوجيهاتها .

والله نسأل أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم ، وأن يجنبنا فتنة القول والعمل ؛ وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا خالصة لوجهه ونافعة لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

(تفسير سورة آل عمران)

بسم الله الرحمن الرحيم

« الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) » .

افتتحت سورة آل عمران ببعض حروف التهجى وهو قوله ـ تعالى ـ : « ألم » .

ويبلغ عدد السور القرآنية التى افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة .

وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود من حروف التهجى التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال اختلافهم فى رأيين رئيسين :

الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس ـ فى إحدى الروايات عنه ـ كما ذهب إليه الشعبى ، وسفيان الثورى وغيرهما من العلماء ، فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : « إن لكل كتاب سرا ،

وإن سر هذا القرآن فواتح السور » : وروى عن ابن عباس أنه قال : « عجزت العلماء عن إدراكها » .

وعن على بن أبى طالب أنه قال « إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى » وفى رواية أخرى للشعبى أنه قال : (سر الله فلا تطلبوه) :

ومن الإعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس ،لأنه من المتشابه فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل التكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يفهم المراد بها ، وكذلك بعض الصحابة المقربين . ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور . وهناك مناقشات للعلماء حول هذ الرأى لا مجال لذكرها هنا .

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها معلوم . وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه . وأصحاب الرأى قد إختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتى :

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبى - صلى الله عليه وسلم - (من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح) . وبدليل إشتهار بعض السور بالتسمية بها ، كسورة (ص) . وسورة (يس) وسورة (ق) . الخ .

ولا يخلو هذا القول من ضعف لأنه لا يلزم من التسمية ببعضها أن تكون جميع الحروف المقطعة أسماء للسور التى بدئت بها . ولأن كثيرا من السور قد إفتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، فلو كانت أسماء للسور لم تتكرر لمعان مختلفة ، لأن الغرض من التسمية رفع الاشتباه .

٢ — وقيل : إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على إنقضاء سورة وإبتداء أخرى .

٣ — وقيل : إنها حروف مقطعة بعضها من أسماء الله - تعالى - ، وبعضها من صفاته ، فمثلا : (الم) أصلها أنا الله أعلم .

٤ — وقيل : إنها إسم الله الأعظم. إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال . والتي أوصلها السيوطي في كتابه (الإتقان) إلى أكثر من عشرين قولا .

٥ — ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في إفتتاح بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو جنس ما تؤلفون منه كلامكم . ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك .

ومما يشهد لصحة هذا الرأي : أن الآيات التي تلي هذه الحروف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل، وعن كونه معجزة للرسول — صلى الله عليه وسلم — في أغلب المواضع .

وأنت ترى هذه الآيات كثيرا ما تتصدر صراحة باسم الإشارة الذي يعود إلى القرآن كما في قوله - تعالى - : (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه . . .) أو ضمنا كما في قوله - تعالى - : (المص . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه . . .) وأيضا فان هذه السور التي افتتحت بالحروف المقطعة إذا ما تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية إثبات صحة الرسالة المحمدية عن طريق هذا الكتاب الذي جعله الله — تعالى — معجزة لنبيه — صلى الله عليه وسلم —

هذه خلاصة موجزة لآراء العلماء فى المراد بالحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية . ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع إلى ما كتبه العلماء فى هذا الموضوع[١] .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بما يليق به من جلال وكمال فقال : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » .

ولفظ الجلالة « الله » يقول بعض العلماء : إن أصله إله « دخلت عليه أداة التعريف « أل » وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله

قال القرطبى : قوله « الله » هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها . حتى قال بعضهم : إنه اسم الله الأعظم ، ولم يتسم به غيره ، ولذلك لم يثن ولم يجمع. فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية ، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقى ، لا إله إلا هو - سبحانه - »[٢] .

ولفظ « إله » قالوا : إنه من أله أى عبد . فالإله على هذا المعنى هو المعبود وقيل هو من أله أى تحير . . . وذلك لأن العبد إذا تفكر فى صفاته - تعالى - تحير فيها ، ولذا قيل : تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله »[٣] .

و « الحى » أى : المتصف بالحياة التى لا بدء ولا فناء لها .

و « القيوم » الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم ، والمعطى لهم ما به قوام حياتهم . وهو مبالغة فى القيام . وأصله قيووم - بوزن فيعول - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره .

والمعنى : الله - تعالى - هو الإله الحق المتفرد بالألوهية التى لا يشاركه فيها سواه . وهو المعبود الحق وكل معبود سواه فهو باطل ، وهو ذو الحياة

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج١ص٢١ طبعة مكتبة المشهد الحسينى
(٢) تفسير القرطبى ج ١ ص ١٠٢
(٣) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٢١

الكاملة . وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياطتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم .

قال الآلوسى : « ولفظ الجلالة « الله » مبتدأ . وما بعده خبر . والجملة مستأنفة ، أى : هو المستحق للعبودية لا غيره . و « الحى القيوم » خبر بعد خبر ، أو خبر لمبتدأ محذوف أى : هو الحى القيوم . . . وأياً ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق العبودية به - سبحانه - أخرج الطبرانى وابن مردويه من حديث أبى أمامة مرفوعا أن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور . فى سورة البقرة ، وآل عمران ، وطه .

وقال أبو أمامة : فالتمستها فوجدت فى البقرة « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » .

وفى آل عمران « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وفى طه « وعنت الوجوه للحى القيوم » (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه هو وحده المستحق للعبودية ، أتبع ذلك ببيان بعض مظاهر فضله ورحمته فقال : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه » . والكتاب - كما يقول الراغب - فى الأصل مصدر ، ثم سمى المكتوب فيه كتابا . والكتاب فى الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه . والكتب ضم أديم إلى أديم بالخياطة ، وفى التعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط » (٢) .

والمراد بالكتاب المنزل : القرآن الكريم . وفى التعبير عنه باسم الجنس إيذان بتفوقه على بقية أفراد الكتب المنزلة . فكأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ٧٤ .

(٢) مفردات القرآن ص ٤٢٣ للراغب الأصفهانى بتصرف وتلخيص .

وعبر بنزل - بصيغة التضعيف - للاشارة إلى أن نزول القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - كان منجما ولم يكن دفعة واحدة . ومن المعروف أن القرآن قد نزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - على حسب الوقائع والحوادث وغيرها فى مدة تزيد على عشرين سنة .

وقد ذكر العلماء حكما كثيرة لنزول القرآن منجما منها : تثبيت فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتقوية قلبه. ومنها: التدرج فى تربية الأمة وتربية قويمة سليمة، ومنها: مسايرة الحوادث فى تجددها وتفرقها . ومنها تيسير حفظه وتسهيل فهمه ، ومنها : تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين ومنها : الإجابة على أسئلة السائلين ، وبيان حكم الله - تعالى - فيما يحصل من قضايا ، ولفت أنظار المخطئين إلى ما وقعوا فيه من أخطاء ، وكشف حال الكافرين والمنافقين . ومنها : الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه من عند الله - تعالى - « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . فأنت تقرأ ما نزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - من قرآن فى مكة ، وما نزل عليه فى المدينة، فترى الجميع محكم السرد ، دقيق السبك ، رصين الأسلوب ، بليغ التراكيب ، فصيح الألفاظ .. بينما ترى كلام الأدباء والبلغاء يختلف فى جودته من وقت إلى وقت ، ومن موضوع إلى موضوع ... »[1] .

وقد بين - سبحانه - أن هذا القرآن قد نزل مقترنا بأمرين متصلا بهما :

أما أولهما فهو قوله : « بالحق » . وأما ثانيهما فهو قوله : « مصدقا لما بين يديه » أى : الله - عز وجل - الذى لا إله إلا هو ، والذى هو الحى القيوم ،

(١) إن شئت المزيد من المعرفة عن الحكم والأسرار فى تنجيم القرآن فراجع - على سبيل المثال - كتاب « مناهل العرفان فى علوم القرآن » ج ١ ص ٤٦ إلى ٥٦ لفضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى :

هو الذى نزل عليك يا محمد هذا القرآن تنزيلا ملتبسا بالحق ، ومصاحبا له ، ومقترنا به ، ومشتملا عليه . فكل ما فيه من أوامر ، ونواه ، وقصص ، وأحكام ، وعقائد ، وآداب ، وشرائع وأخبار . . حق لا يحوم حوله باطل وصدق لا يتطرق إليه كذب .

وهو الذى جعل هذا الكتاب المنزل عليك موافقا ومؤيدا لما اشتملت عليه الكتب السماوية من الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، وإلى الوصايا والشرائع التى تسعد الناس فى كل زمان ومكان . وهذا يدل على أن الشرائع الإلهية واحدة فى جوهرها وأصولها . قال - تعالى - : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . . . »[1] .

وقوله « بالحق » متعلق بمحذوف فيكون فى محل نصب على الحال من الكتاب . وقوله « مصدقا » حال مؤكدة من الكتاب . أى نزله فى حال تصديقه الكتب .

وفائدة تقييد التنزيل بهذه الحال حث أهل الكتاب على الإيمان بالمنزل ، وتنبيههم على وجوبه ؛ فإن الإيمان بالمصدق يوجب الإيمان بما يصدقه حتما .

قال الجمل : وقوله « مصدقا لما بين يديه » فيه نوع مجاز ؛ لأن ما بين يديه هو أمامه ، فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره . واللام فى « لما » لتقوية العامل . نحو قوله - تعالى - : « فعال لما يريد » . وهذه العبارة أحسن من تعبير بعضهم بالزائدة »[2] .

---

(١) سورة الشورى . الآية ١٣

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٥

ثم أخبر - سبحانه - عن بعض الكتب الأخرى التي أنزلها فقال: «وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان».

والتوراة: اسم عبراني للكتاب الذي أنزله الله - تعالى - على موسى - عليه السلام - ليكون شريعة له ولقومه.

قال القرطبي ملخصة: والتوراة معناها الضياء والنور. مشتقة من ورى الزند وورّى لغتان إذا خرجت ناره.. وقيل مأخوذة من التورية، وهي التعريض بالشيء والكتمان لغيره: فكان أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح.

والجمهور على القول الأول لقوله - تعالى -: «ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين» يعني التوراة»[١].

والإنجيل: كلمة يونانية معناها البشارة، وهي اسم للكتاب الذي أنزله الله على عيسى.

قالوا: والإنجيل إفعيل من النجل وهو الأصل. يقال: لعن الله ناجليه أي والديه. وقال قوم: الإنجيل مأخوذ من نجلت الشيء إذا استخرجته وأظهرته، ويقال الماء الذي يخرج من البئر: نجل: وقيل: هو من النجل الذي هو سعة في العين. ومنه طعنة نجلاء أي واسعة. وسمي الإنجيل بذلك لأنه سعة ونور وضياء أخرجه الله - تعالى - لبني إسرائيل على يد عيسى عليه السلام[٢].

وهذا الكلام الذي نقلناه عن القرطبي والفخر الرازي هو قول لبعض

---

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٥

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٧ ص ١٧١ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٧ - ١٩٣٨.

العلماء الذين يرون أن لفظي التوراة والإنجيل يدخلهما الاشتقاق والتصريف .

وهناك فريق آخر من العلماء يرى أن هذين اللفظين لا يدخلهما الاشتقاق والتصريف لأنهما اسمان أعجميان لهذين الكتابين الشريفين .

قال الفخر الرازي بعد أن أورد كلاما طويلا يدل على عدم ارتضائه المذهب الذي يرى أصحابه أن هذين اللفظين يدخلهما الاشتقاق والتصريف : « فالتوراة والإنجيل اسمان أعجميان . أحدهما بالعبرية ، والآخر بالسريانية، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بتطبيقهما على أوزان لغة العرب ، فظهر أن الأولى بالعاقل أن كلا يلتفت إلى هذه المباحث »[1] .

وقوله « من قبل » متعلق بأنزل ، و « هدى » حال من التوراة والإنجيل ولم يثن لأنه مصدر . ويجوز أن يكون مفعولا لأجله والعامل فيه أنزل .

أي : وأنزل التوراة والإنجيل من قبل تنزيل القرآن لأجل هداية الناس الذين أنزلا عليهم إلى الحق الذي من جملته الإيمان بالنبي - صلى الله عليه وسلم - واتباعه حين يبعث ، لأنهما قد اشتملتا على البشارة به والحض على طاعته .

قالوا . فالمراد بالناس من عمل بالتوراة والإنجيل وهم بنو إسرائيل . ويحتمل أنه عام بحيث يشمل هذه الأمة وإن لم نكن متعبدين أي مكلفين ومأمورين بشرع من قبلنا ؛ لأن فيهما ما يفيد التوحيد وصفات الباري والبشارة بالنبي - صلى الله عليه وسلم - »[2] .

قال الآلوسي : وعبر في جانب التوراة والإنجيل بقوله « أنزل »

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٧ ص ١٧١ .

(٢) تفسير الآلوسي جـ ٣ ص ٧٦

للإشارة إلى أنهما لم يكن لهما سوى نزول واحد ، بخلاف القرآن فإن له نزولين : نزولا من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من سماء الدنيا جملة واحدة ، ونزولا من ذلك إليه - صلى الله عليه وسلم - منجما في ثلاث وعشرين سنة على المشهور ، ولهذا يقال فيه نزّل وأنزل ... »[١] .

هذا ، وليست التوراة التي بين أيدي اليهود اليوم هي التوراة التي أنزلها الله على موسى ، فقد بين القرآن في أكثر من آية أن بعض أهل الكتاب قد امتدت أيديهم الأثيمة إلى التوراة فحرفوا منها ما حرفوا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ... » .

وقوله تعالى - : فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به » .

ومن الأدلة على أن التوراة التي بين أيدي اليهود اليوم ليست هي التي أنزلها الله على موسى : انقطاع سندها ، واشتمالها على كثير من القصص والعبارات والمتناقضات التي تتنزه الكتب السماوية عن ذكرها[٢] .

وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل ؛ إذ ليست هذه الأناجيل التي يقرؤها المسيحيون اليوم هي الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ، وإنما هي مؤلفات ألفت بعد عيسى - عليه السلام - ونسبت إلى بعض الحواريين من أصحابه :

أما الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ، والذي وصفه الله بأنه هداية للناس فهو غير هذه الأناجيل[٣] .

---

(١) تفسير الآلوسي ج ٣ ص ٧٩ .

(٢) راجع ما كتبناه في ذلك في كتابنا « بنو إسرائيل في القرآن والسنة » ج ١ من ص ٨٦ - ص ٩٣ .

(٣) راجع تاريخ الأناجيل في كتاب « محاضرات النصرانية » لفضيلة أستاذنا المرحوم محمد أبو زهرة .

و «الفرقان» كل ما فرق به بين الحق والباطل، والحلال والحرام. وهو مصدر فرق يفرق بين الشيئين فرقا وفرقانا.

١ - والمراد به عند أكثر المفسرين: الكتب السماوية التي سبق ذكرها وهي التوراة والإنجيل والقرآن. أي: أنزل بهذه الكتب ما يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، وبذلك لا يكون لأحد عذر في جحودها والكفر بها.

وأعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيما سبق على طريق العطف بتكرير لفظ الإنزال، تنزيلا للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي.

٢ - وقال بعضهم المراد بالفرقان هنا القرآن. وإنما أعاده بهذا العنوان بعد ذكره باسم الجنس تعظيما لشأنه، ورفعا لمكانه، ومدحا له بكونه فارقا بين الحق والباطل، وللإشارة إلى الاتصال الكامل بين شرائع الله - تعالى -، وأنه تتميم لما سبقه، وأنه كمال الشرائع كلها:

٣ - وقال بعضهم: المراد به جنس الكتب السماوية التي أنزلها الله - تعالى - على رسله لهداية الناس وسعادتهم. وقد عبر عنها بالفرقان ليشمل هذا الوصف ما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم، إثر تخصيص مشاهيرها بالذكر.

وقد ذكر صاحب الكشاف هذه الأقوال وغيرها فقال: «فإن قلت: ما المراد بالفرقان؟ قلت: جنس الكتب السماوية لأنها كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل. أو الكتب التي ذكرها. كأن قال بعد ذكر الكتب الثلاثة: وأنزل ما يفرق به بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب. أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور. أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له من كونه فارقا بين الحق والباطل...»(١).

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٣٦ طبعة دار الكتاب العربي ببيروت.

أما الفخر الرازى فإنه لم يرتض كل هذه الأقوال، بل أتى برأى جديد فقال - ما ملخصه - :

٤ - « والمختار عندى أن المراد من هذا الفرقان : المعجزات التى قرنها الله - تعالى - بإنزال هذه الكتب، وذلك لأنهم لما أتوا بهذه الكتب، وادعوا أنها كتب نازلة عليهم من عند الله، افتقروا فى إثبات هذه الدعوى إلى دليل حتى يحصل الفرق بين دعواهم وبين دعوى الكذابين، فلما أظهر الله على وفق دعواهم تلك المعجزات، حصلت المفارقة بين دعوى الصادق وبين دعوى الكاذب. فالمعجزة هى الفرقان. فلما ذكر الله أنه أنزل الكتاب بالحق، وأنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل ذلك، بين أنه - تعالى - أنزل معها ما هو الفرقان الحق، وهو المعجز القاهر الذى يدل على صحتها، ويفيد الفرق بينها وبين سائر الكتب المختلفة.... »[1].

والذى نراه أقرب إلى القبول أن المراد بالفرقان هنا جنس الكتب السماوية لأنها جميعها فارقة بين الحق والباطل فيندرج تحتها القرآن وغيره من الكتب السماوية.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المنحرفين عن طريق الحق، الكافرين بآيات الله، فقال: « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام » أى: إن الذين كفروا بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته، وصدق رسله فيما يبلغون عنه، لهم عذاب شديد منه - سبحانه - بسبب كفرهم وجحودهم « والله عزيز » أى منيع الجانب، غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وفى قوله « والله عزيز » إشارة إلى القدرة التامة على العقاب. وفى قوله

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ٧ ص ١٧٣.

« ذو انتقام » إشارة إلى كونه فاعلا للعقاب ، ينزله متى شاء ، وكيف شاء ، بمقتضى قدرته وحكمته وإرادته . والوصف الأول صفة للذات ، والثانى صفة للفعل .

ثم أخبر - سبحانه - عن شمول علمه لكل شىء فقال : « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » .

أى أنه - سبحانه - هو المطلع على كل صغير كبير ، وجليل وحقير ، فى هذا الكون ، لأنه هو الخالق له ، والمهيمن على شئونه . وصدق - سبحانه - حيث يقول : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

وذكر - سبحانه - السماء والأرض ، للإشارة إلى أن علمه قد وسع كل شىء ، وسع السموات والأرض ، وليس الإنسان بالنسبة لهما إلا كائنا صغيرا فكيف لا يعلم - سبحانه - ما يسره هذا الإنسان وما يخفيه ؟

وفى تكرير حرف النفى « لا » تأكيد لنفى خفاء أى شىء عليه - سبحانه - . والآية الكريمة وعيد شديد للكافرين بآياته ، لأنه - سبحانه - هو العليم بما يسرونه وما يعلنونه ، وسيجازيهم بمقتضى علمه بما يستحقونه .

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بشمول قدرته وعلمه فقال : « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

وقوله « يصوركم » من التصوير وهو جعل الشىء على صورة لم يكن عليها . وهو مأخوذ من مادة صار إلى كذا بمعنى تحول إليه . أو من صاره إلى كذا بمعنى أماله وحوله .

والله - تعالى - القادر على كل شىء قد حكى لنا أطوار خلق الإنسان فى آيات متعددة منها قوله - تعالى - : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة

فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

والأرحام : جمع رحم ، وهو مستودع النطفة فى بطن المرأة ، ومكان تربية الجنين ونموه وتكوينه بالطريقة التى يشاؤها الله ، حتى يبرزه إلى الوجود بشراً سوياً .

والمعنى : الله الذى لا إله إلا هو ، والذى هو الحى القيوم ، هو الذى يصوركم فى أرحام أمهاتكم كيف يشاء ، بأن جعل بعضكم طويلا وبعضكم قصيرا ، وهذا أبيض وذاك أسود ، وهذا ذكر وتلك أنثى ، فهو وحده القادر على تصوير خلقه بتلك الصور المختلفة المتفاوتة ، ومن كان شأنه كذلك ، فهو المستحق للعبادة والخضوع . لا إله إلا هو « العزيز » الذى يقهر كل شىء بقوته وقدرته « الحكيم » فى كل شئونه وتصرفاته .

وهذه الآية الكريمة فى مقام التعليل للآية التى قبلها . لأن التى قبلها بينت أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، إذ هو العليم بما يسره الإنسان من كفر أو إيمان أو غيرهما . وهذه الآية تفيد أنه - سبحانه - يعلم أحوال الإنسان لا بعد استوائه بشرا سويا ، بل يعلم أحواله وهو نطفة فى الأرحام ، بل إنه - سبحانه ليعلم أحواله قبل ان يكون شيئا مذكورا ، فهو - كما يقول القرطبى - العالم بما كان وما لا يكون .

ومن كان هذا شأنه فمن الواجب على الذين أوجدهم - سبحانه - فى بطون أمهاتهم ، ورباهم ورعاهم وخلقهم خلقا من بعد خلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا .

وقوله - تعالى - « كيف يشاء » إخبار منه - سبحانه - بأن هذا التكوين والتصوير فى الأرحام تبع لمشيئته وقدرته ، وليس خاضعا لقانون الأسباب والمسببات ، إذ هو الفعال لما يريد . فمن شاء هدايته هداه ، ومن شاء إضلاله أضله .

و « كيف » فى موضع نصب على أنه حال ، وناصبه الفعل الذى بعده وهو

« يشاء » . ومفعول المشيئة محذوف والتقدير : هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء تصويركم ، من ذكر وأنثى ، وجميل ودميم ، وغير ذلك من مظاهر التفاوت والاختلاف فى الصور والأشكال والعقول والميول .

وقوله - تعالى - « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » تأكيد لما قبله ، من إنفراده بالألوهية ، وحقيقة المعبودية بعد أن أقام الأدلة الساطعة على ذلك من كونه حيا قيوما ، منزلا للكتب الهادية للناس إلى الحق ، عالما بكل شىء ، مصورا لخلقه وهم فى أرحام أمهاتهم كيف يشاء . . . وكل ذى عقل سليم يتدبر هذه الآيات الكريمة ، يقبل على الإيمان بالحق بقوة وإخلاص ؛ ويسارع إلى العمل الصالح بقلب منيب . ونية صادقة .

هذا ، وقد ذكر كثير من المفسرين أن سورة آل عمران من مطلعها إلى بضع وثمانين آية منها قد نزل فى وفد نصارى نجران الذين قدموا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى السنة التاسعة من الهجرة ، ليناقشوه فى شأن عيسى - عليه السلام - وقد رد عليهم - صلى الله عليه وسلم - بما يبطل أقوالهم التى تخالف الحق ، وأرشدهم إلى الطريق المستقيم وهو طريق الإسلام ، الذى إرتضاه الله لعباده دينا . وسنذكر قصة هذا الوفد عند تفسيرنا لآية المباهلة وهى قوله - تعالى - فى هذه السورة . « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » الآية ٦١ .

وبعد أقام - سبحانه - الأدلة الواضحة على أنه هو المستحق للعبادة . عقب ذلك ببيان أن القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه ، وببيان موقف الناس منهما فقال - تعالى - :

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ

ما تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ (٧) » .

قوله - تعالى - : « محكمات » من الإحكام - بكسر الهمزة - وهذه المادة تستعمل فى اللغة لمعان متعددة ، ترجع إلى شىء واحد هو المنع . يقال : أحكم الأمر أى أتقنه ومنعه عن الفساد . ويقال : أحكمه عن الشىء . أى رجعه عنه ومنعه منه . ويقال حكم نفسه وحكم الناس . أى منع نفسه ومنع الناس عما لا يليق . ويقال أحكم الفرس أى جعل له حكمة تمنعه من الجموح والاضطراب ...

وقوله : « هن أم الكتاب » أى أصله الذى فيه عماد الدين وفرائضه وحدوده وما يحتاج إليه الناس فى دنياهم وآخرتهم . وأم كل شىء : أصله وعماده .

قال ابن جرير : والعرب تسمى الأمر الجامع لمعظم الشىء أمًّا له . فيسمون راية القوم التى تجمعهم فى العساكر أمهم . ويسمون المدبر لمعظم أمر البلدة والقرية أمها ... »[1] .

وقوله « متشابهات » من التشابه بمعنى أن يكون أحد الشيئين مشابها للآخر ومماثلا ومشاكلا له مشاكلة تؤدى إلى الالتباس غالبا . يقال : أمور مشتبهة ومشبهة - كمعظمة - أى مشكلة . ويقال : شبه عليه الأمر تشبيها : لبس عليه .

ولقد جاء فى القرآن ما يدل على أنه كله محكم كما فى قوله - تعالى -

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ١٧٠ طبعة مصطفى الحلبى .

(كتاب أحكمت آياته ... ، وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه كما فى قوله - تعالى - « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها ... » .

وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه كما فى الآية التى نحن بصدد تفسيرها . ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة ، لأن معنى إحكامه كله : أنه متقن متين لا يتطرق إليه خلل أو إضطراب . ومعنى كونه كله متشابها أنه يشبه بعضه بعضا فى بلاغته وفصاحته وإعجازه وهدايته . ومعنى أن بعضه محكم وبعضه متشابه . فسنبينه بعد سرد بعض الأقوال التى قالها العلماء فى تحديد معنى كل منهما .

فمنهم من يرى أن المحكم هو الواضح الدلالة الذى لا يحتمل النسخ ، والمتشابه هو الخفى الذى لا يدرك معناه وهو ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة ، والروح .

ومنهم من يرى أن المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان . والمتشابه هو الذى لا يستقل بنفسه ، بل يحتاج إلى بيان ، فتارة يبين بكذا ، وتارة يبين بكذا ، لحصول الاختلاف فى تأويله .

ومنهم من يرى أن المحكم هو الذى لا يحتمل فى تأويله إلا وجها واحدا والمتشابه هو الذى يحتمل أوجها . ومنهم من يرى أن المحكم ما كانت دلالته راجحة وهو النص والظاهر . أما المتشابه فهو ما كانت دلالته غير راجحة ، وهو المجمل والمؤول والمشكل .

هذه بعض الأقوال فى تحديد معنى المحكم والمتشابه (١) ، وقد إختار كثير من المحققين هذا القول الأخير .

ومعنى الآية الكريمة — بعد هذا التمهيد الموجز :

---

(١) إذا أردت المزيد فراجع الاتقان للسيوطى . وتفسير الآلوسى ج ٣ ص ٨٠ والتفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ١٨٧ .

الله - عز وجل - الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، والذى أنزل الكتب السماوية لهداية الناس ، والذى صورهم فى الأرحام كيف يشاء ، هو الذى أنزل عليك - يا محمد - هذا الكتاب الكريم المعجز العظيم الشأن ، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يجعل هذا الكتاب « منه آيات محكمات » أى واضحات الدلالة ، محكمات التراكيب ، جليات المعانى ، متقنات النظم والتعبير ، حاويات لكل ما يسعد الناس فى معاشهم ومعادهم ، بينات لا التباس فيها ولا اشتباه .

وقوله « هن أم الكتاب » أى هذه الآيات المحكمات الواضحات الدلالة المانعات من الوقوع فى التباس لانكشاف معانيها لكل ذى عقل سليم ، هن أصل الكتاب الذى يعول عليه فى معرفة الأحكام ، ويرجع إليه فى التمييز بين الحلال والحرام ، ويرد إليه ما تشابه من آياته ، وما استشكل من معانيها .

والجار والمجرور « منه » خبر مقدم ، و « آيات » مبتدأ مؤخر ، و « محكمات » صفة لآيات . وقوله « هن أم الكتاب » صفة ثانية للآيات .

قال الجمل : وأخبر بلفظ الواحد وهو « أم » عن الجمع وهو « هن » لأن الآيات كلها فى تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة ، وكلام الله واحد . أو أن كل واحدة منهن أم الكتاب كما قال - تعالى - : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » أى كل واحد منهما . أو لأنه مفرد واقع موقع الجمع .: »[1] .

وقوله « وأخر متشابهات » أى ومنه آيات أخر متشابهات وذلك كالآيات التى تتحدث عن صفات الله - تعالى - مثل : الاستواء ، واليد والغضب ، ونحو ذلك من الآيات التى تحدثت عن صفاته - سبحانه - ، وكالآيات التى

(١) حاشية الجمل على الجلالين - بتصرف يسير - ج ١ ص ٢٤٢

تتحدث عن وقت الساعة ، وعن الروح ، وعن الجن والملائكة وكالحروف المقطعة فى أوائل السور .

قال الشيخ الزرقانى ما ملخصه : ومنشأ التشابه إجمالا هو خفاء مراد الشارع من كلامه . أما تفصيلا فذكر أن منه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ من جهة غرابته كلفظ الأب فى قوله - تعالى - « وفاكهة وأبا » أو من جهة اشتراكه بين معان عدة كما فى قوله - تعالى - « فراغ عليهم ضربا باليمين » أى فأقبل إبراهيم على الأصنام يضربها بيمينه ، أو بقوة ، أو بسبب اليمين التى حلفها . ومن هذا النوع فواتح السور المبدوءة بحروف التهجى لأن التشابه والخفاء فى المراد منها جاء من ناحية ألفاظها .

ومنه ما يرجع خفاؤه إلى المعنى ، ومثاله كل ما جاء فى القرآن وصفا لله - تعالى - أو لأهوال القيامة ، أو لنعيم الجنة ... فإن العقل البشرى لا يمكن أن يحيط بحقائق صفات الخالق ، ولا بأهوال يوم القيامة ، ولا بنعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ....

ثم قال - رحمه الله - : ويمكننا أن ننوع المتشابهات ثلاثة أنواع :

النوع الأول :

ما لا يستطيع البشر جميعا أن يصلوا إليه كالعلم بذات الله وحقائق صفاته ، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه مما استأثر الله بعلمه ...

النوع الثانى :

ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس . كالمتشابهات التى نشأ التشابه فيها من جهة الإجمال والبسط والترتيب . والأمثلة على ذلك كثيرة ، فمثال التشابه بسبب الإجمال قوله - تعالى - :

« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء .. فإن خفاء المراد فيه جاء من ناحية إيجازه : والأصل : وإن

خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من النساء .

النوع الثالث : مايعلمه خواص العلماء دون عامتهم ، ولذلك أمثلة كثيرة من المعانى العالية التى تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم لكتاب الله »[1] .

ثم بين - سبحانه - موقف الذين فى قلوبهم مرض وانحراف عن الحق من متشابه القرآن فقال : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فالجملة الكريمة تفصيل لإجمال اقتضاه الكلام السابق .

والزيغ - كما يقول القرطبي - الميل ، ومنه زاغت الشمس ، وزاغت الأبصار . ويقال : زاغ يزيغ زيغا إذا ترك القصد ، ومنه قوله - تعالى - : فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » . وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة ، وإن كانت الإشارة بها فى ذلك الوقت إلى نصارى نجران . . . » .

والابتغاء : الاجتهاد فى الطلب . يقال : بغيت الشىء وابتغيته ، إذا طلبته بجد ونشاط .

والفتنة : من الفتن : وأصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته والمراد بها هنا الإضلال وإثارة الشكوك حول الحق .

---

(١) مناهل العرفان فى علوم القرآن لفضيلة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ج ٢ ص ١٧٤ .

والتأويل : يطلق بمعنى التفسير والتوضيح والبيان . ويطلق بمعنى حقيقة الشيء، وما يئول إليه أمره . مأخوذ من الأول وهو الرجوع إلى الأصل . يقال : آل الأمر إلى كذا يئول أولا أي رجع وأولته إليه رجعته .

والمعنى لقد اقتضت حكمتنا - يا محمد - أن نزل عليك القرآن مشتملا على آيات محكمات هن أم الكتاب ، وعلى أخر متشابهات . فأما الفاسقون الذين في قلوبهم انحراف عن طلب الحق ، وميل عن المنهج القويم . وانصراف عن القصد السوى ، فيتبعون ما تشابه منه ، أي : يتعلقون بذلك وحده ، ويعكفون على الخوض فيه ، ولا تتجه عقولهم إلى المحكم ليردوا المتشابه إليه . وإنما يلازمون الأخذ بالمتشابه كما يلازم التابع متبوعه ، لأنه يوافق اعوجاج نفوسهم ، وسوء نياتهم ، وتحكم أهوائهم وشهواتهم .

وقد بين - سبحانه - أن اتباع هؤلاء الزائفين المتشابه إنما يقصدون من ورائه أمرين :

أولهما : « ابتغاء الفتنة » أي طلبا لفتنة المؤمنين في دينهم ، وتشكيكهم في عقيدتهم، وإثارة الريب في قلوبهم بأوهام يلقونها حول المتشابه الذي جاء به القرآن ، بأن يقولوا - كما حكى القرآن عنهم - أئذا متنا وكنا ترابا أئنا لفي خلق جديد » . وبأن يقولوا : كيف يكون نعيم الجنة » وما حقيقة الروح ولماذا يعذبنا الله على أعمالنا مع أنه هو الخالق لكل شيء ، إلى غير ذلك من الشبهات الزائفة التي يثيرها الذين في قلوبهم زيغ طلبا لتشكيك المؤمنين في دينهم .

وثانيهما : « وابتغاء تأويله » أي : ويتعلقون بالمتشابه ويتبعونه طلبا لتأويل آيات القرآن تأويلا باطلا ، وتفسيرها تفسيرا فاسدا بعيدا عن الحق زاعمين أن تفسيرهم هذا هو الحق بعينه ، لأنه يتفق مع أهوائهم وشهواتهم وميولهم الأثيمة .

وفى جعل قلوبهم مقرا للزيغ مبالغة فى عدولهم عن سنن الرشاد، وإصرارهم على الشر والفساد .

وفى تعليل الاتباع - كما يقول الآلوسى - بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقيقة . إيذان بأنهم ليسوا من أهل التأويل - فى عير ولا نفير ولا قبيل ولا دبير - وأن ما يتبعونه ليس بتأويل أصلا لا أنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه » .

وقد ذم النبى - صلى الله عليه وسلم - هؤلاء الذين يتبعون ما تشابه من القرآن طلبا للفتنة والتأويل الباطل ، وحذر منهم فى أحاديث كثيرة . ومن ذلك ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية : هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات . . . إلخ الآية » . قالت : قال رسول الله - صلى عليه وسلم - فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم (١) .

وقد استجاب الصحابة - رضى الله عنهم - لوصايا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فكانوا يتباعدون عن الذين فى قلوبهم زيغ ، ويزجرونهم ويكشفون عن باطلهم

قال القرطبى : حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى ، قال : أنبأنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن يزيد بن حازم . عن سليمان بن يسار أن صبيغ ابن عسل قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن وعن أشياء ، فبلغ ذلك عمر - رضى الله عنه - فبعث إليه عمر فأحضره وقد أعد له عراجين من عراجين النخل . فلما حضر قال له عمر : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ . فقال عمر . وأنا عبد الله عمر . ثم قام إليه فضرب رأسه بعرجون فشجه ، ثم

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ج ٦ ص ٤٢ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٥ هـ .

تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه ، فقال حسبك يا أمير المؤمنين ! ! فقد والله ذهب ما كنت أجد فى رأسى »(١)

ثم بين - سبحانه - أن تأويل المتشابه مرده إلى الله - تعالى - ، وأن الراسخين فى العلم يعلمون منه ما يوفقهم الله لمعرفته فقال : وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » .

وقوله - تعالى - «والراسخون فى العلم» من الرسوخ وهو الثبات والتمكن وأصله فى الأجرام ، أن يرسخ الجبل والشجر فى الأرض ، واستعمل فى المعانى ومنه رسخ الإيمان فى القلب أى ثبت واستقر وتمكن .

والألباب ، جمع لب وهو - كما يقول الراغب - العقل الخالص من الشوائب وسمى بذلك لكونه خالص ما فى الإنسان من معانيه ، كاللباب واللب من الشىء ، وقيل هو ما زكى من العقل ، فكل لب عقل وليس كل عقل لبا ، ولهذا علق الله - تعالى - الأحكام التى لا تدركها إلا العقول الزكية بأولى الألباب(٢).

قال الآلوسى وقوله « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم » فى موضع الحال من ضمير يتبعون باعتبار العلة الأخيرة . أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله - تأويلا فاسدا - والحال أن التأويل المطابق للواقع - كما يشعر به التعبير بالعلم والإضافة إلى الله تعالى - مخصوص به - سبحانه - وبمن وفقه - عز شأنه - من عباده الراسخين فى العلم . أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ولم يتزلزلوا فى مزال الأقدام ، ومداحض الأفهام ، حيث إنهم بمعزل عن تلك الرتبة . هذا ما يقتضيه الظاهر فى تفسير الراسخين ... »(٣) .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٤ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٦٤٤

(٣) تفسير الآلوسى جـ ٣ ص ٨٣

«وقوله. يقولون آمنا به كل من عند ربنا» جملة موضحة لحال الراسخين في العلم، ومبينة لما هم عليه من قوة الإيمان وصدق اليقين.

أي يقول الراسخون في العلم عندما يقرءون ما تشابه من آيات القرآن آمنا به وصدقنا وأذعنا، فنحن لا نشك في أن كلا من الآيات المتشابهة والآيات المحكمة من عند الله وحده، فهو الذي أنزلها على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بمقتضى حكمته ومشيئته.

وقوله «وما يذكر إلا أولو الألباب» معطوف على جملة «يقولون...» وقد ختم به - سبحانه - هذه الآية على سبيل المدح لهؤلاء الراسخين في العلم.

أي. وما يدرك هذه الحقائق الدينية ويعتبر بها ويتذكر ما اشتمل عليه القرآن من أحكام وآداب وهدايات وتشريعات إلا أصحاب العقول السليمة، والألباب المستنيرة التي لا تتأثر بالأهواء والشهوات، ولا تركن إلى البدع الزائفة، والأفكار الفاسدة.

قال ابن كثير. وقوله - تعالى - «وما يعلم تأويله إلا الله» اختلف القراء في الوقف هنا. فقيل الوقف على لفظ الجلالة، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال. التفسير على أربعة أنحاء، فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها. وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله». وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول. لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به.. الآية، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يسألون عنه».

وحكى ابن جرير أن قراءة عبد الله بن مسعود. إن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به. واختار هذا القول ابن جرير - وهو مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين وأتباعهم خصوصا أهل السنة.

ومنهم من يقف على قوله «والراسخون فى العلم» وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول ، وقالوا الخطاب بما لا يفهم بعيد . وقد روى عن ابن عباس أنه قال . أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله . وروى عن مجاهد أنه قال والراسخون فى العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به .

وفى الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا لابن عباس فقال: « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل . . . » .

والذى نراه أنه إذا فسر المتشابه بما استأثر الله - تعالى - بعلمه كقيام الساعة ، وحقيقة الروح ، كان الوقف على لفظ الجلالة . وكانت الواو فى قوله «والراسخون» للاستئناف . والراسخون مبتدأ ، وجملة « يقولون » خبر عنه .

أى والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ويفوضون علمه إليه - سبحانه ولا يقتحمون أسواره ، كأهل الزيغ والضلال الذين أولوه تأويلا فاسدا . . . وإذا فسر المتشابه بما لا يتبين معناه إلا بعد نظر دقيق بحيث يتناول المجمل ونحوه كان الوقف على لفظ العلم . وكانت الواو فى قوله « والراسخون الراسخون للعطف .

أى ، لا يعلم تأويل المتشابه تأويلا حقا سليما إلا الله والراسخون فى العلم، أما أولئك الذين فى قلوبهم زيغ فهم أبعد ما يكونون عن ذلك .

ويجوز الوقف على هذا الرأى أيضاً على لفظ الجلالة ، لأنه لا يعلم تأويل هذا المتشابه علماً كاملا إلا الله . أولا يعلم كنهه وحقيقته أحد سواه .

وإذا فسر المتشابه بما قام الدليل القاطع على أن ظاهره غير مراد ، مع عدم قيام الدليل على تعيينه . كمتشابه الصفات أو ما يسمى بآيات الصفات مثل قوله - تعالى - « الرحمن على العرش استوى » . جاز الوقف والعطف عند من يؤولون هذه الصفات تأويلا يليق بذاته - تعالى - . وهم جمهور علماء الخلف . ووجب الوقف على لفظ الجلالة عند من يفوضون معانى هذه المتشابهات إلى الله - تعالى - مع تنزيهه عن ظواهرها المستحيلة وهم جمهور علماء السلف وهذه المسألة من المسائل التى أفاض القول فيها الباحثون فى علم الكلام .

هذا وقد ذكر العلماء حكما متعددة لاشتمال القرآن على المحكم والمتشابه، منها: الابتلاء والاختبار، لأن الراسخين فى العلم سيؤمنون به وإن لم يعرفوا تأويله، ويخضعون لسلطان الربوبية. ويقرون بالعجز والقصور وفى ذلك غاية التربية ونهاية المصلحة. وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيؤولونه تأويلا باطلا طلبا لإضلال الناس وتشكيكهم فى دينهم.

ومنها: رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذى لا يطيق معرفة كل شىء، فقد أخفى — سبحانه — على الناس معرفة وقت قيام الساعة كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها، وكيلا يفتك بهم الخوف فيما لو أدركوا بالتحديد قرب قيامها..

ومنها — كما يقول الفخر الرازى —: أنه متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب. ومنها أن القرآن إذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة. أما لو كان كله محكما لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية، فحينئذ يبقى فى الجهل والتقليد. ومنها أن اشتماله على المحكم والمتشابه يحمل الإنسان على تعلم علوم كثيرة كعلم اللغة والنحو وأصول الفقه وغير ذلك من أنواع العلوم. ومنها: أن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام، وطبائع العوام تنبو فى أكثر الأمر عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام فى أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه، ظن أن هذا عدم ونفى فوقع فى التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه، وبذلك يكون مخلوطا بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الأول وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر يكون من المتشابهات، والقسم الثانى وهو الذى يكشف لهم فى آخر الأمر هو المحكمات»(١).

(١) تفسير الكبير للفخر الرازى ج ٧ ص ١٨٤. بتلخيص يسير.

ومنها - كما يقول الجمل نقلا عن الخازن - : فإن قيل القرآن نزل لإرشاد الناس فهلا كان كله محكما ؟ فالجواب أنه نزل بألفاظ العرب وعلى أسلوبهم . وكلامهم على ضربين : الموجز الذى لا يخفى على سامع هذا هو الضرب الأول. والثانى المجاز والكنايات والإشارات والتلويحات وهذا هو المستحسن عندهم، فأنزل القرآن على ضربين ليتحقق عجزهم فكأنه قال : عارضوه بأى الضربين شئتم ، ولو نزل كله محكما لقالوا : هلا نزل بالضرب المستحسن عندنا »(١).

قال بعض العلماء : والذى يستخلص من مصادر الشريعة ومواردها ، أن الآيات المتشابهة لا يمكن أن يكون موضوعها حكما تكليفيا من الأحكام التى كلف عامة المسلمين أن يقوموا بها ، وأنه لا يمكن أن تكون آية من آيات الأحكام التكليفية قد انتقل النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الرفيق الأعلى دون أن يبينها ، ولا تشابه بينها بعد أن بينتها السنة النبوية ، لأن الله - تعالى - يقول : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم » ولاشك أن من أول بيان مانزل إليهم بيان الأحكام التكليفية .

لذلك نقول عازمين : إنه ليس فى آيات الأحكام آية متشابهة ، وإن اشتبه فهمها على بعض العقول ، لأنه لم يطلع على موضوعه ، فليس ذلك لأنها متشابهة فى ذاتها ، بل لاشتباه عند من لا يعلم . واشتباه من لا يعلم لا يجعل آية فى القرآن متشابهة »(١) .

وبعد أن بين - سبحانه - موقف الناس من محكم القرآن ومتشابهه ، شرع فى بيان ما يتضرع به المؤمنون الصادقون الذين يؤمنون بكل ما أنزله الله - تعالى - فقال :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة بمجلة لواء الإسلام العدد التاسع — السنة الثامنة .

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ (٩) » .

اشتملت هاتان الآيتان على دعوات طيبات ، ويرى بعض العلماء أن هذه الدعوات من مقول الراسخين فى العلم ، فهم يقولون : « آمنا به كل من عند ربنا » ويقولون أيضاً « ربنا لا تزغ قلوبنا . . . » . ويرى بعضهم أن هذا كلام جديد ، وهو تعليم من الله - تعالى - لعباده ليكثروا من التضرع إليه بهذه الدعوات وأمثالها

والزيغ - كما أشرنا فى الآية السابقة - الميل عن الاستقامة ، والانحراف عن الحق ، يقال : زاغ يزيغ أى مال ومنه زاغت الشمس إذا مالت .

والمعنى : نسألك ياربنا ونضرع إليك ألا تميل قلوبنا عن الهدى بعد إذ ثبتنا عليه ومكنتنا منه . وأن تباعد بيننا وبين الزيغ الذى لا يرضيك ، وبين الضلال الذى يفسد القلوب ، ويعمى البصائر . « وهب لنا من لدنك رحمة » أى وامنحنا من عندك ومن جهتك إنعاما وإحسانا تشرح بهما صدورنا ، وتصلح بهما أحوالنا . « إنك أنت الوهاب » لا غير ، فأنت مالك الملك وأنت القائل « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده . . . »(١) .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد تضمنت سؤال المؤمنين ربهم تثبيت الإيمان فى قلوبهم ، ومنحهم المزيد من فضله وإنعامه وإحسانه .

---

(١) سورة فاطر الآية ٢ .

قال الفخر الرازى - ما ملخصه - : وقال - سبحانه - « رحمة » ليكون ذلك شاملا لجميع أنواعها التى تتناول حصول نور الإيمان والتوحيد والمعرفة فى القلب ، وحصول الطاعة فى الأعضاء والجوارح . وحصول سهولة أسباب المعيشة والأمن والصحة والكفاية فى الدنيا ، وحصول سهولة سكرات الموت عند حضوره . وحصول سهولة السؤال فى القبر ، وغفران السيئات والفوز بالجنات فى الآخرة ، وقوله « من لدنك » يتناول كل هذه الأقسام ، لأنه لما ثبت بالبراهين الباهرة أنه لا رحيم إلا هو أكد ذلك بقوله « من لدنك » تنبيها للعقل والقلب والروح على أن هذا المقصود لا يحصل إلا منه - سبحانه - . . . ثم قال : « إنك أنت الوهاب » كأن العبد يقول : إلهى هذا الذى طلبته منك فى هذا الدعاء عظيم بالنسبة إلى، حقير بالنسبة إلى كمال كرمك ، فأنت الوهاب الذى من هبتك حصلت حقائق الأشياء وذواتها وماهياتها ووجوداتها ، فكل ما سواك فمن جودك وإحسانك فلا تخيب رجاء هذا المسكين ، ولا ترد دعاءه واجعله أهلا لرحمتك . . . (١)

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير وغيره بعض الأحاديث النبوية عند تفسيرهم لهذه الآية ومن ذلك ما أخرجه أبو داود والنسائى وابن مردويه عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - كان إذا استيقظ من الليل قال : « لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك . اللهم زدنى علما ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »(٢) .

وروى الترمذى عن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا كان عندك ؟

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٧ ص ١٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٤٨ .

قالت : كان أكثر دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » فقلت : يا رسول الله ، ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ؟ قال : يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ » فتلا معاذ - أحد رجال سند هذا الحديث - « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا »(١) .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كثيراً ما يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . قلنا : يا رسول الله قد آمنا بك ، وصدقنا بما جئت به ، أفيخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها تبارك وتعالى » .

ثم حكى - سبحانه - ضراعة أخرى تضرع بها المؤمنون إلى خالقهم فقال : « ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه » .

أي : يا ربنا إنك جامع الناس : محسنهم ومسيئهم ، مؤمنهم وكافرهم ، ليوم لا شك في وقوعه وحصوله وهو يوم الحساب والجزاء ، لتجازي الذين أساؤا بما عملوا وتجازي الذين أحسنوا بالحسنى . فأنت - سبحانك - لم تخلق الخلق عبثا . ولن تتركهم سدى ، وإنما خلقتهم لرسالة عظمى هي عبادتك وطاعتك ، فمن استجاب لك تفضلت عليه بالثواب العظيم ، ومن أعرض عن طاعتك عاقبته بما يستحقه .

وقوله « إن الله لا يخلف الميعاد » تعليل لمضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب في وقوع يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب .

أي إنك يا مولانا لا تخالف ما أخبرت به عبادك من أن هناك يوما لا شك في وقوعه ، تجازي فيه الناس على أعمالهم بمقتضى إرادتك ومشيئتك.

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٣ ص ٢٠ .

وفى هذه الآية الكريمة إشعار بأن نهاية أمل المؤمنين أن يظفروا بالجزاء الحسن من خالقهم يوم القيامة. لأنهم بعد أن سألوه تثبيت الإيمان وسعة الرحمة. توجهوا إليه بالمقصود الأعظم وهو حسن الثواب يوم القيامة. فكأنهم قالوا - كما يقول الرازى - : ليس الغرض من تلك الدعوات ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها فانية؛ وإنما الغرض الأعظم منه ما يتعلق بالآخرة فإنا نعلم أنك يا إلهنا جامع الناس للجزاء فى يوم القيامة، ونعلم أن وعدك لا يكون خلفا. وكلامك لا يكون كذبا فمن زاغ قلبه بقى هناك فى العذاب أبد الآباد، ومن أعطيته التوفيق والهداية والرحمة وجعلته من المؤمنين، بقى هناك فى السعادة والكرامة أبد الآبدين. فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ما يتعلق بالآخرة(١).

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على دعوات كريمات بليغات، من شأنها أن تسعد الناس فى دينهم ودنياهم. والله نسأل أن ينفعنا بها إنه مجيب الدعاء، وأرحم الراحمين.

وبعد هذا الدعاء الجامع الحكيم الذى حكاه الله - تعالى - عن عباده المؤمنين عقب ذلك بالحديث عن الكافرين، وعن أسباب كفرهم وغرورهم، وعن سوء عاقبتهم فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ٧ ص ١٩٥

كافِرَةٌ يَرَوْنَهم مِثْلَيْهِمْ رَأْى العَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إنَّ فى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَار (١٣) ›

الوقود - بفتح الواو - هو ما توقد به النار كالحطب وغيره . وأصله من وقدت النار تقد إذا اشتعلت . والوقود - بضم الواو - هو المصدر عند أكثر اللغويين .

والمعنى : إن الذين كفروا بالحق لما جاءهم وعموا وصموا عن الاستجابة له ، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم يوم القيامة ، ولن تدفع عنهم شيئا من عذاب الله الذى استحقوه بسبب كفرهم ، واغترارهم بكثرة المال ، وعزة النفر ، وقوة العصبية وقد أكد - سبحانه - هذا الحكم ردا على مزاعمهم الباطلة من أن ذلك سينفعهم فقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : « نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » . فبين - سبحانه - أنه بسبب كفرهم الذى أصروا عليه ، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم أى نفع من وقوع عذاب الله عليهم .

و « من » فى قوله « من الله » لابتداء الغاية ، و « شيئا » منصوب على المصدرية . أى شيئا من الإغناء ، أو النفع ، لأن الذى ينفع الناس يوم القيامة إنما هو إيمانهم وعملهم الصالح .

والإشارة فى قوله « وأولئك هم وقود النار » لأولئك الكافرين الذين غرهم بالله الغرور . أى : وأولئك الكافرون الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ولم يعيروا أسماعهم أى التفات إلى الحق هم وقود النار أى حطبها . أى أن النار يشتد اشتعالها فيهم حتى لكأنهم هم مادتها التى بها تتقد وتشتعل .

وجىء بالإشارة فى قوله « وأولئك » لاستحضارهم فى الأذهان حتى لكأنهم بحيث يشار إليهم ، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما سيأتى من الخبر وهو قوله « هم وقود النار » وكانت الإشارة للبعيد ، للاشعار بغلوهم فى الكفر ، وانغماسهم فيه إلى منتهاه . ولذلك كانت العقوبة شديدة .

وقوله « وأولئك » مبتدأ ، وهم ضمير فصل والخبر قوله « وقود النار » والجملة مستأنفة مقررة لعدم الإغناء . وفى هذا التذييل تهديد شديد للكفار الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ببيان أن ما اغتروا به لن يحول بينهم وبين الخلود فى النار .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : اعلم أن كمال العذاب هو أن يزول عن الانسان كل ما كان منتفعا به . ثم يجتمع عليه جميع الأسباب المؤلمة . أما الأول فهو المراد بقوله « لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » وذلك لأن المرء عند الخطوب والنوائب فى الدنيا يفزع إلى المال والولد ... فبين الله - تعالى - أن صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا . ونظير هذه الآية قوله - تعالى - « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . وأما القسم الثانى من أسباب العذاب فهو أن يجتمع عليه الأسباب المؤلمة ، وإليه الإشارة بقوله : « وأولئك هم وقود النار » وهذا هو النهاية فى العذاب ، فإنه لاعذاب أزيد من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها فى الحطب اليابس »(١) .

ثم بين - سبحانه - أن حال الكافرين بالحق الذى جاءهم به النبى - صلى الله عليه وسلم - كحال الذين سبقوهم فى الجحود والمنادفقال - تعالى - : « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ... » .

الدأب : أصله الدوام والاستمرار . يقال : دأب على كذا يداب دأبا ودءوبا ، إذا دوام عليه وجد فيه وتعب . ثم غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة ؛ لأن من يستمر فى عمل أمدا طويلا يصير عادة من عاداته ، وحالا من أحواله . فهو من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم .

وآل فرعون : هم أعوانه ونصراؤه وأشياعه الذين استحبوا العمى على الهدى واستمروا على النفاق والضلال حتى صار دينا لهم .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ١٩٨

قال الراغب : الآل مقلوب عن الأهل . ويصغر على أهيل إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون المنكرات ودون الأزمنة والأمكنة. يقال آل فلان ولا يقال آل رجل . . . ولا يقال آل الخياط بل يضاف إلى الأشرف والأفضل ، فيقال آل الله وآل السلطان والأهل يضاف إلى الكل فيقال أهل الله وأهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا . . . »[1] .

والمعنى : حال هؤلاء الكافرين الذين كرهوا الحق الذى جئت به - يا محمد - ولم يؤمنوا بك . حالهم فى استحقاق العذاب . كحال آل فرعون والذين من قبلهم من أهل الزيغ والضلال ، كفروا بآيات الله ، وكذبوا بما جاءت به من هدايات ، فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر حيث أهلكهم بسبب ما ارتكبوه من ذنوب ، والله - تعالى - شديد العقاب لمن كفر بآياته .

والجار والمجرور وهو قوله « كدأب آل فرعون » فى موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف . أى شأن هؤلاء فى تكذيبك يا محمد كشأن آل فرعون والذين من قبلهم فى تكذيبهم لأنبيائهم .

والمقصود بآل فرعون هو وأعوانه وبطانته لأن الآل يطلق على أشد الناس التصاقا واختصاصا بالمضاف إليه. والاختصاص هنا فى المتابعة والتواطؤ على الكفر؛ ولأنه إذا وجد العناد فى التابع فهو فى الغالب فى المتبوع أشد وأكبر، ولأنهم هم الذين حرضوه على الشرور والآثام والطغيان ، فلقد حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله - تعالى - «وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟ قال : سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم . وإنا فوقهم قاهرون »[2] .

وخص القرآن آل فرعون بالذكر من بين الذين سبقوهم فى الكفر

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣٠

(٢) سورة الأعراف الآية ١٢٧

لأن فرعون كان أشد الطغاة طغيانا ، وأكبرهم غرورا وبطرا وأكثرهم استهانة بقومه ، واحتقاراً لعقولهم وكيانهم ، ألم يقل لهم - كما حكى القرآن - « أنا ربكم الأعلى »(١) ألم يبلغ به غروره أن يقول لهم : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون »(٢) ، ألم يقل لوزيره : « ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ... »(٣) .

ولقد وصف الله - تعالى - قوم فرعون بهوان الشخصية ، وتفاهة العقل ، والخروج عن كل مكرمة فقال : « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين »(٤) ، لأن الأمة التى تترك الظالم وبطانته يعيثون فى الأرض فساداً لا تستحق الحياة ، ولا يكون مصيرها إلا إلى التعاسة والخسران .

وجملة « كذبوا بآياتنا » تفسير لصنيعهم الباطل ، ودأبهم على الفساد والضلال . والمراد بالآيات ما يعم المتلو فى كتب الله - تعالى - ، والبراهين والمعجزات الدالة على صدق الأنبياء فيما يبلغونه عن ربهم .

وفى إضافتها إلى الله - تعالى - تعظيم لها ، وتنبيه على قوة دلالتها على الحق والخير . وقوله « فأخذهم الله بذنوبهم » بيان لما أصابهم بسبب كفرهم وتكذيبهم للحق ، وفى التعبير بالأخذ إشارة إلى شدة العقوبة ، فهو - سبحانه - قد أخذهم كما يؤخذ الأسير الذى لا يستطيع فكاكا من آسره .

والباء للسببية أى أخذهم بسبب ما اجترحوه من ذنوب . أو للملابسة والمصاحبة وأى أخذهم وهم متلبسون بذنوبهم دون أن يتوبوا منها أو يقلعوا

(١) سورة النازعات الآية ٢٤

(٢) سورة الزخرف الآية ٥١

(٣) سورة غافر الآية ٣٦

(٤) سورة الزخرف الآية ٥٣

المطلق فى هذا الوجود ، بحيث تتصرف فيه كيف تشاء ، إيجاداً وإعداماً . وإحياء وإماتة ، وتعذيبا وإثابة ، من غير أن ينازعك فى ذلك أى منازع .

فكأن فى هذه الجملة الكريمة « قل اللهم مالك الملك » دعاءين خاشعين : أما الدعاء الأول فهو بلفظ الجلالة المعبر عنه بقوله « اللهم » أى يا الله ، وفى هذا النداء كل معانى العبودية والتنزيه والتقديس والخضوع . وأما الدعاء الثانى فهو المعبر عنه بقوله « مالك الملك » أى يامالك الملك ، وفى هذا النداء كل معانى الإحساس بالربوبية ، والضعف أمام قدرة الله وسلطانه .

فقوله « مالك » منصوب بحرف النداء المحذوف . كما فى قوله « قل اللهم فاطر السموات والأرض » أى يافاطر السموات والأرض .

ثم فصل - سبحانه - بعض مظاهر خلقه التى تدل على أنه هو مالك الملك على الحقيقة ، فقال - تعالى - « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » .

أى : أنت وحدك الذى تعطى الملك من تشاء إعطاءه من عبادك ، وتنزعه ممن تشاء نزعه منهم ، فأنت المتصرف فى شئون خلقك ، لا راد لقضائك ولا معقب لحكمك .

وعبر بالإيتاء الذى هو مجرد الإعطاء دون التمليك المؤذن بثبوت المالكية، للتنبيه على أن المالكية على الحقيقة إنما هى مختصة بالله رب العالمين ،أما مايعطيه لغيره من ملك فهو عارية مسترده ، وهو شىء زائل لايدوم .

والتعبير عن إزالة الملك بقوله « وتنزع الملك ممن تشاء » يشعر بأنه - سبحانه - فى قدرته أن يسلب هذا العطاء من أى مخلوق مهما بلغت سعة ملكه، ومهما اشتدت قوته ؛ وذلك لأن لفظ النزع يدل على أن المنزوع منه الشىء كان متمسكا به ، فسلبه الله منه بمقتضى قدرته وحكمته .

والمراد بالملك هنا السلطان ، وقيل النبوة ، وقيل غير ذلك .

قال الفخر الرازى : وقوله « تؤتى الملك من تشاء » محمول على جميع أنواع

الملك فيدخل فيه ملك النبوة . وملك العقل ، والصحة والأخلاق الحسنة ، وملك النفاذ والقدرة ، وملك المحبة ، وملك الأموال ، وذلك لأن اللفظ عام فالتخصيص من غير دليل لايجوز »[١] .

ومفعول المشيئة فى الجملتين محذوف أى : تؤتى الملك من تشاء إيتاءه وتنزعه ممن تشاء نزعه منه .

أما الأمر الثانى الذى يدل على أنه ـ سبحانه ـ هو مالك الملك على الحقيقة ، فهو قوله : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » .

العزة ـ كما يقول الراغب ـ حالة مانعة للإنسان من أن يغلب ، من قولهم : أرض عزاز : أى صلبة ، وتعزز اللحم : اشتد وعز ، كأنه حصل فى عزاز يصعب الوصول إليه . . . والعزيز الذى يقهر ولا يقهر .

وتذل ، من الذل : وهو ما كان عن قهر ، يقال : ذل يذل ذلا إذا قهر وغلب »[٢] والعزة صفة نفسية يحس بها المؤمن الصادق فى إيمانه ؛ لأنه يشعر دائما بأنه عبد الله ـ تعالى ـ وحده وليس عبدا لأحد سواه ، قال ـ تعالى ـ « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » فالمؤمنون الصادقون أعزاء ولو كانوا فى المال والجاه فقراء . أما الكافرون فهم أذلاء ، لأنهم خضعوا لغير الله الواحد القهار .

والمعنى : أنت يا الله يامالك الملك ، أنت وحدك الذى تؤتى الملك لمن تشاء أن تؤتيه له ، وتنزعه ممن تريد نزعه منه . وأنت وحدك الذى تعز من تشاء إعزازه بالنصر والتوفيق ، وتذل من تشاء إذلاله بالهزيمة والخذلان .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بهذا التسليم المطلق من المؤمنين لذاته فقال ـ تعالى ـ : « بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٧ ؛ طبعة عبد الرحمن محمد .
(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ج ١٨١ ص ٣٣٣

أى : أنت وحدك الذى تملك الخير كله ، وتتصرف فيه حسب إرادتك ومشيئتك ، لأنك على كل شىء قدير .

وأل فى الخير للاستغراق الشامل ، إذ كل خير فهو بيده - سبحانه - وقدرته ، وتقديم الجار والمجرور « بيدك » لإفادة الاختصاص ، أى بيدك وحدك على الحقيقة لا بيد غيرك وجملة « إنك على كل شىء قدير » تعليلية .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قال « بيدك الخير » فذكر الخير دون الشر ؟ قلت : لأن الكلام إنما وقع فى الخير الذى يسوقه إلى المؤمنين وهو الذى أنكرته الكفرة فقال بيدك الخير ، تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك ، ولأن أفعال الله - تعالى - من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة . فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه .(١) .

ثم ذكر - سبحانه - مظهرا حسيا من مظاهر قدرته الباهرة فقال : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » .

الولوج فى الأصل الدخول ، والإيلاج الإدخال . يقال : ولج فلان منزله إذا دخله ، فهو يلجه ولجا وولوجا . وأولجته أنا إذا أدخلته . ثم استعير لزيادة زمان النهار فى الليل وعكسه ، بحسب المطالع والمغارب .

أى أنت يا الله يا مالك الملك . أنت الذى بقدرتك أن تدخل طائفة من الليل فى النهار فيقصر الليل ويزيد النهار ، وتدخل طائفة من النهار فى الليل ، فيقصر النهار ويزيد الليل ، وأنت وحدك الذى بقدرتك أن تجعلهما متعاقبين بأن تأتى بالليل رويدا رويدا فى أعقاب النهار ، وتأتى بالنهار شيئا فشيئا فى أعقاب الليل . وفى كل ذلك دليل على سعة قدرتك ، وواسع رحمتك ، وتذكر واعتبار لأولى الألباب .

ثم ذكر - سبحانه - مظهرا حسيا آخر من مظاهر قدرته فقال : « تخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » .

---

(١) تفسير الكشاف حـ ١ ص ٣٥٠ .

قال الفخر الرازى : ذكر المفسرون فيه وجوها أحدها : يخرج المؤمن من الكافر كإبراهيم من آزر ، والكافر من المؤمن مثل كنعان من نوح . والثانى يخرج الحيوان - وهو حى - من النطفة ، - وهى ميتة - ، - والدجاجة - وهى حية - من البيضة أو العكس والثالث: يخرج السنبلة من الحبة وبالعكس، والنخلة من النواة وبالعكس . ثم قال : والكلمة محتملة للكل : أما الكفر والإيمان فقال - تعالى - « أو من كان ميتا فأحييناه » يريد كان كافرا فهديناه ، فجعل الموت كفرا والحياة إيمانا ، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء ، وجعل ما قبل ذلك ميتة فقال : « يحيى الأرض بعد موتها » . وقال : « فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها » وقال : كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم »(١) .

وفى الحق - إن المتدبر فى هذا الكون وما يعترى سكانه من موت وحياة ، ليشهد ويذعن بأن لهذا الكون خالقا قادرا هو الله الواحد القهار .

ثم ختم - سبحانه - مظاهر قدرته ورحمته بقوله « وترزق من تشاء بغير حساب » . والرزق - كما يقول الراغب - يقال للعطاء الجارى تارة دنيويا كان أو أخرويا وللنصيب تارة ، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة أخرى ، يقال : أعطى السلطان رزق الجند ، ورزقت علما . قال - تعالى - « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت . . . » أى من المال والجاه والعلم . . .(٢) .

أى أنت يا الله يا مالك الملك ، أنت وحدك الذى ترزق من تشاء أن ترزقه بغير حساب أى رزقا واسعا عظيما ، لأنك أنت صاحب الجود والكرم ، ولأنك ليس معك شريك فيحاسبك ، بل أنت المعطى بدون محاسب ، وبدون محاسبة من تعطيه ، ولأن خزائن ملكك لا ينقصها العطاء مهما كثر .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٠ بتصرف يسير

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٩٤ .

ومن كانت هذه صفاته ، وتلك بعض مظاهر قدرته : من إيتاء الملك لمن يشاء ونزعه ممن يشاء ، وإيلاج الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، وإخراج الحى من الميت والميت من الحى ، كان من حقه أن يفرد بالعبادة والخضوع . « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

قال ابن كثير : روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى هذه الآية : قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير »[1] .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد وصفتا الخالق - عز وجل - بما هو أهله ، من قدرة تامة وسلطان نافذ ، ورحمة واسعة ، وهذا الوصف من شأنه أن يحمل كل عاقل على إخلاص العبادة له - سبحانه - ، وعلى الاستجابة لكل ما أمر به أو نهى عنه رغبة فى ثوابه ، ورهبة من عقابه .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه هو وحده مالك الملك ، وأنه على كل شىء قدير ، عقب ذلك بنهى المؤمنين عن موالاة أعدائه بسبب قرابة أو صداقة أو نحوهما . فقال - تعالى - :

« لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ ، إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) » .

أورد المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات :

منها أن جماعة من اليهود كانوا يصادقون جماعة من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم . فقال رفاعة بن المنذر ، وعبد الله بن جبير ، وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر من الأنصار : «اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا ملازمتهم ومباطنتهم لئلا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢٢ .

يفتنوكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية »[١] .

وقوله « أولياء » جمع ولى ، والولاء والتوالى - كما يقول الراغب : أن يحصل شيئان فصاعداً حصولا ليس بينهما ما ليس منهما ، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ، ومن حيث النسبة ، ومن حيث الدين ، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد .

والولاية - بكسر الواو - النصرة - والولاية - بفتحها - تولى الأمر ، وقيل هما بمعنى واحد ... »[٢] .

و « لا » ناهية . والفعل « يتخذ » مجزوم بها ، وهو متعد لمفعولين أولهما « الكافرين » وثانيهما « أولياء » .

والمعنى : لا يحل للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء ونصراء ، بل عليهم أن يراعوا ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين ، وأن يقدموها على ما بينهم وبين الكفار من قرابة أو صداقة أو غير ذلك من ألوان الصلات ، لأن فى تقديم مصلحة الكافرين على مصلحة المؤمنين تقديما للكفر على الإيمان ، ومن شأن المؤمن الصادق فى إيمانه أن لا يصدر منه ذلك .

وقد ورد مثل هذا النهى فى كثير من الآيات ، ومن ذلك قوله - تعالى - « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة »[٣] .

وقوله - تعالى - « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ... »[٤]

قال الآلوسى : وقوله « من دون المؤمنين » حال من الفاعل ، أى متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالا أو اشتراكا ، ولا مفهوم لهذا الظرف ، إما لأنه ورد فى قوم بأعيانهم والوا الكفار دون المؤمنين فهو لبيان الواقع ،

(١) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ١٢٠

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٥٣٣

(٣) سورة الممتحنة الآية ١ (٤) سورة المائدة الآية ٥١

أو لأن ذكره للإشارة إلى أن الحقيق بالموالاة هم المؤمنون ، وفى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفار .. »(١) .

قالوا : والموالاة الممنوعة هي التي يكون فيها خذلان الدين أو إيذاء لأهله أو إضاعة لمصالحهم. وأما ما عدا ذلك كالتجارة وغيرها من ضروب المعاملات الدنيوية فلا تدخل فى ذلك النهى ، لأنها ليست معاملة فيها أذى الإسلام والمسلمين »(٢) .

وكرر - سبحانه - لفظ « المؤمنين » بأداة التعريف أل ، الإشارة إلى أن الثانى هو عين الأول ، وفى ذلك إشعار بأن المؤمنين الذين يتخذون الكافرين أولياء ونصراء ، يتركون أنفسهم ويهملونها ، ويتخذون من عدوهم نهاية لها .

ثم قال - تعالى - « ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء » أى : ومن يتخذ الكافرين أولياء وأنصارا من دون المؤمنين ، فإنه فى هذه الحالة يكون بعيداً عن ولاية الله ، ومنسلخاً منها رأساً ، وليس بينه وبين الله صلة تذكر

فاسم الإشارة « ذلك » يعود على الاتخاذ المفهوم من الفعل يتخذ .

والتنوين فى « شىء » للتحضيض أى ليس فى شىء يصح أن يطلق عليه إسم الولاية ، لأن موالاة الولى وموالاة عدوه متنافيان كما قال الشاعر .

تود عدوى ثم تزعم أننى صديقك ليس النوك عنك بعازب(٣)

و « من » شرطية ، و « يفعل » فعل الشرط ، وجوابه « فليس من الله فى شىء » واسمه ضمير يعود على « من » ، وقوله « فى شىء » خبرهما . أى فليس الموالى فى شىء كائن من الله - تعالى - . والجملة معترضة بين المستثنى والمستثنى منه .

وقال - سبحانه - فليس من الله » ولم يقل « فليس من ولاية الله »

(١) تفسير الالوسى ج ٣ ص ١٢٠ (٢) تفسير المنار ج ٣ ص ٢٧٨ .

(٣) النوك الحمق . والعازب البعيد

للإشعار بأن من إختار مناصرة المشركين وموالاتهم فقد ترك ذات الله - تعالى - ، وكان مؤثرا لقوة الكفار على قوة العزيز الجبار ، فهو فى هذه الحالة يعاند الله نفسه .

ثم إستثنى - سبحانه - من أحوال النهى حال التقية فقال : (إلا أن تتقوا منهم تقاة) وقوله : (تتقوا) من الإتقاء بمعنى تجنب المكروه . وعدى بمن لتضمينه معنى تخافوا و (تقاة) مصدر تقيته - كرميته - بمعنى إتقيته ووزنه فعلة ، ويجمع على تقى ، كرطبة ورطب . وأصل تقاة : وقية من الوقاية . فأبدلت الواو المضمومة تاء والياء ألفا لتحركها وإنفتاح ما قبلها .

والاستثناء مفرغ من عموم الأحوال ، والتقدير : لاتتخذوا أيها المؤمنون الكافرين أولياء فى أى حال من الأحوال إلا فى حال إتقائكم منهم أى إلا أن تخافوا منهم مخافة . أو إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب إتقاؤه من الضرر فى النفس أو المال أو العرض .

كأن كان الكفار غالبين ظاهرين ، أو كنتم فى قوم كفار فيرخص لكم فى مداراتهم باللسان ، على ألا تنطوى قلوبكم على شىء من مودتهم ، بل تدارونهم وأنتم لهم كارهون . وألا تعملوا ما هو محرم كشرب الخمر ، أو إطلاعهم على عورات المسلمين ، أو الانحياز إليهم فى مجافاة بعض المسلمين ، وإذن فلا رخصة إلا فى المداراة باللسان .

ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التهديد الشديد حيث قال - تعالى - (ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) .

والتحذير : هو التخويف لأجل الحذر واليقظة ، من أن يقع الانسان فى قول أو عمل منهى عنه .

ونفسه : منصوب على نزع الخافض . والمصير : المرجع والمآل .

أى : ويحذركم الله - تعالى - من نفسه أى من عقابه وإنتقامه ، وإليه - سبحانه - مرجعكم ومصيركم فيحاسبكم على أعمالكم

وقوله (ويحذركم الله نفسه . . .) فيه ما فيه من التهديد والتخويف من موالاة الكافرين ، لأن التحذير من ذات الله ، يقتضى الخوف ووقوع الرهبة فى النفس من الذات العلية ، وذلك كما يقال : - ولله المثل الأعلى - احذر الأسد فإن هذا القائل يريد أن ذات الأسد فى كل أحوالها مرهوبة ، ولأن كلمة (نفس) تقال لتأكيد التعبير عن الذات . أى أن التذير قد جاءكم من الله - تعالى - لا من غيره فعليكم أن تمتثلوا أمره . فإن إليه وحده المآل ، وانتهاء أمر العباد ، وسيجازيهم على أعمالهم بما يستحقون ، فاحذروا التعرض لعقابه وقوله (وإلى الله المصير) تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومحقق لوقوعه .

هذا ، ولبعض العلماء كلام طويل عن التقية - وهى أن يظهر الانسان خلاف ما يبطن مخافة الأذى الشديد - فقد قال الآلوسى ما ملخصه :

(وفى الآية دليل على مشروعية التقية ، وعرفوها بالمحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء .

والعدو قسمان الأول : من كانت عداوته مبنية على إختلاف الدين كالكافر والمسلم .

والثانى : من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية كالمال والمتاع والامارة ومن هنا صارت التقية قسمين : أما القسم الأول فالحكم الشرعى فيه أن كل مؤمن وقع فى محل لا يمكن له فيه أن يظهر دينه لتعرض المخالفين له بالعداوة فإنه يجب عليه أن يهاجر من ذلك المكان إلى مكان يستطيع فيه أن يظهر دينه ، إلا إذا كان ممن لهم عذر شرعى كالنساء والصبيان والعجزة فقد قال - تعالى - : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً) .

وإذا كان التخويف بالقتل ونحوه، جاز له المكث والموافقة لهم ظاهرا بقدر الضرورة مع السعى فى حيلة للخروج والفرار بدينه.

والموافقة لهم حينئذ رخصة، وإظهار ما فى قلبه عزيمة فلو مات مات شهيداً بدليل ما روى من أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال نعم، نعم، فقال له: أتشهد أنى رسول الله؟ قال: نعم. ثم دعا الثانى فقال له أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال نعم. فقال له: أتشهد أنى رسول الله؟ قال أنى أصم. قالها ثلاثا، فضرب عنقه. فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: أما هذا المقتول فقد مضى على صدقه ويقينه فهنيئا له، وأما الآخر فقد قبل رخصة الله فلا تبعة عليه».

وأما القسم الثانى وهو من كانت عداوته بسبب المال والإمارة وما إلى ذلك، فقد إختلف فى وجوب هجرة صاحبه، فقال بعضهم تجب لأن الله قد نهى عن إضاعة المال. وقال آخرون لا تجب، لأنها لمصلحة دنيوية ولا يعود على من تركها نقصان فى الدين.

وعد قوله من باب التقية الجائزة مداراة الكفار والفسقة والظلمة وإلانة الكلام لهم والتبسم فى وجوههم لكف أذاهم، وصيانة العرض منهم بشرط أن لا تكون هذه المداراة مخالفة لأصول الدين وتعاليمه. فإن كانت مخالفة لذلك فلا تجوز.

روى البخارى عن عائشة قالت: إستأذن رجل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا عنده فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: بئس أخو العشيرة. ثم أذن له فألان له القول. فقلت يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألنت له القول؟ فقال: يا عائشة إن من شر الناس من يتركه الناس إتقاء فحشه».

إلى غير ذلك من الأحاديث. لكن لا تنبغى المداراة إلى حيث يخدش الدين، ويرتكب المنكر، وتسىء الظنون»(١).

(١) تفسير الالوسى بتصريف وتلخيص حـ ٣ ص ١٢١.

ثم يبين - سبحانه - أنه عليم بالظواهر والبواطن ، وأمر بأن يكثروا من العمل الصالح الذى ينفعهم يوم القيامة . وأن يلتزموا طاعة الله ورسوله لكى يسعدوا فى دينهم ودنياهم ، وأن يراقبوا الله - تعالى - فى أقوالهم وأعمالهم لأنه - سبحانه - لا تخفى عليه خافية فقال - تعالى - :

« قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) » .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وقل لغيرهم ممن يوجه إليهم الخطاب قل لهم على سبيل الإرشاد والتحذير « إن تخفوا فى صدوركم أو تبدوه » من ولاية الكفار أو غيرها من الأقوال والأفعال « يعلمه الله » فيجازيكم عليه بما تستحقون .

وفى أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بتوجيه هذا القول إلى المخاطبين ترهيب لهم من الآمر وهو الله - تعالى - لأن هذا التنويع فى الخطاب من شأنه أن يربى المهابة فى القلوب . وذلك - ولله المثل الأعلى - كأن يقول الملك للمخالفين من رعيته : أحذركم من مخالفتى ، ثم يأمر أحد أصفيائه بأن يكرر هذا التحذير وأن يبين لهم سوء عاقبة المخالفين .

وقوله « ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض » جملة مستأنفة وليست معطوفة على جواب الشرط وهو « يعلمه الله » ، وذلك لأن علمه - سبحانه -

بما فى السموات والأرض ليس متوقفا على شرط فلذلك جيء به مستأنفا . وهذا من باب ذكر العام بعد الخاص وهو ماف صدوركم تأكيدا له وتقريرا .

وقوله « والله على كل شيء قدير » تذييل قصد به الإخبار بأنه مع علمه الواسع المحيط . فهو ذو قدرة نافذة على كل شيء . وهـــذا لون من التهديد لأن المجرم لا يقدم على جريمته إلا لأحد أمرين : الجهل بجريمة المجرم ، أو العجز عن تنفيذ وعيده ، فلما أعلمهم — سبحانه — بأنه محيط بكل شيء وقادر على كل شيء ، ثبت أنه — سبحانه — متمكن من تنفيذ وعيده .

قال صاحب الكشاف : وقوله « والله على كل شيء قدير » أي هو قادر على عقوبتكم ، وهذا بيان لقوله « ويحذركم الله نفسه » ، لأن نفسه وهي ذاته المميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتي لا يختص بمعلوم دون معلوم . فهي متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور ، فهي قادرة على المقدورات كلها ، فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب ، فإنه مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب . ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الإطلاع على أحواله ، فوكل همه بما يورد ويصدر ، ونصب عليه عيونا . وبث من يتجسس عن بواطن أموره : لأخذ حذره وتيقظ فى أمره ، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به ، فما بال من علم أن العالم بالذات - يعني أن علمه بذاته لا بعلم زائد على ذاته كعلم الحوادث. وهذا عند المعتزلة - الذي يعلم السر وأخفى ، مهيمن عليه وهو آمن . اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترك »(١) .

ثم كرر - سبحانه - التحذير من الحساب يوم القيامة . وما يقع فيه من أهوال ، ورغب المؤمنين فى العمل الصالح فقال : « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . » قال الآلوسي :

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٢٥ .

الأمد: غاية الشيء ومنتهاه، والفرق بينه وبين الأبد أن الأبد مدة من الزمان غير محدودة، والأمد مدة لها حد مجهول. والمراد هنا الغاية الطويلة، وذهب بعضهم إلى أن المراد بالأمد البعيد المسافة البعيدة. ولعله الأظهر، فالتمني هنا من قبيل التمني في قوله ـ تعالى ـ: «ياليت بيني وبينك بعد المشرقين»(١).

والمعنى: راقبوا ربكم أيها المؤمنون، وتزودوا من العمل الصالح، واذكروا «يوم تجد كل نفس ما عملت» في الدنيا «من خير» وإن كان مثقال ذرة «محضرا» لديها، مشاهدا في الصحف، حتى لكأنه قد أحضر من الدنيا إلى الآخر فيرى رأي العين «وما عملت من سوء» تراه أيضا ظاهرا ثابتا مسجلا عليها، وتتمنى لو أن بينها وبين هذا العمل السيء زمنا طويلا، ومسافة بعيدة، وذلك لأن الإنسان يتمنى دائما أن يكون بعيدا بعدا شاسعا عن الشيء المخيف المؤلم خصوصا في هذا اليوم العصيب وهو يوم القيامة.

وقوله «يوم» متعلق بمحذوف تقديره اذكروا، وهو مفعول به لهذا المحذوف. و«تجد» يجوز أن يكون متعديا لواحد فيكون بمعنى تصيب وتصادف، ويكون «محضرا» على هذا منصوبا على الحال. قال الجمل: وهذا هو الظاهر. ويجوز أن يكون بمعنى تعلم فيتعدى لاثنين أولهما «ماعملت» والثاني «محضرا»(٢).

وقوله «وما عملت من سوء» معطوف على قوله «ماعملت من خير».

ويرى بعضهم أن «ما» في قوله «وما عملت من سوء» مبتدأ، وخبرها جملة «تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا»، فيكون المعنى تجد ما عملت من سوء وتتمنى كل نفس أن يكون بينها وبينه أمدا بعيدا.

وأتى ـ سبحانه ـ بقوله «محضرا» في جانب الخير فقط مع أن عمل السوء أيضا يكون محضرا، للإشعار بكون عمل الخير هو المراد بالذات.

(١) تفسير الآلوسي ـ ج ٣ ص ١٢٧

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٥٩.

وهو الذى يتمناه الإنسان ويرجو حصوله فى هذا لما يترتب عليه من ثواب، وأما عمل الشر فتتمنى كل نفس اقترفته لو بعد عنها ولم تره بسبب ما يترتب عليه من عقاب.

وقوله - سبحانه - «ويحذركم الله نفسه» تكرير للتحذير الأول الذى جاء فى قوله - تعالى - لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ...» والسر فى هذا التكرير زيادة التحذير من عقاب الله وانتقامه، فإن تكرار التحذير من شأنه أن يغرس فى القلوب التذكر والاعتبار والوجل.

وقيل إن التحذير الأول ذكر للنهى عن موالاة الكافرين. والذى هنا ذكر للحث على عمل الخير والتنفير من عمل الشر.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: «والله رءوف بالعباد» ومن مظاهر رأفته ورحمته أنه حذر عباده قبل أن يعاقبهم: وأنه يعفو عن كثير من ذنوب عباده، وأنه فتح لهم باب التوبة حتى يقلعوا عن خطاياهم، إلى غير ذلك من مظاهر رأفته ورحمته.

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرشد الناس إلى الطريق الذى متى سلكوه كانوا حقا محبين لله، وكانوا ممن يحبهم - سبحانه - فقال - تعالى -: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ...».

قال بعضهم: عن الحسن البصرى قال: قال قوم على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - يا محمد إنا نحب ربنا فأنزل الله الآية. وروى محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: نزلت فى نصارى نجران وذلك أنهم قالوا: إنما نعظم المسيح ونعبده حبا لله وتعظيما له فأنزل الله هذه الآية ردا عليهم».

(١) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ١٣٠. وتفسير ابن جرير ج ٣ ص ١٣٢

ومحبة العباد لله — كما يقول الزمخشري — مجاز عن إرادة نفوسهم إختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها ومحبة الله عباده: أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم .

والمعنى : قل يا محمد للناس على سبيل الإرشاد والتبيين : إن كنتم تحبون الله حقاً كما تدعون . فاتبعوني ، فإن أتباعكم لي يؤدي إلى محبة الله لكم وإلى غفرانه لذنوبكم . وذلك لأن محبة الله ليست دعوى باللسان ، وإنما محبة الله تتحقق باتباع ما أمر به ، وإجتناب ما نهى عنه على لسان رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي أرسله رحمة للعالمين .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من إدعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، بأنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي . والدين النبوي في كل أقواله وأعماله . كما ثبت في الصحيح عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم - أنه قال :

« من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد »(١) .

وقوله « يحببكم الله » جواب الأمر . وهو قوله « فاتبعوني » وهذا رأي الخليل .

ويرى أكثر المتأخرين من النحاة أن قوله « يحببكم الله » جواب لشرط مقدر دل عليه المقام والتقدير : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ، وإن اتبعتموني يحببكم الله . أي يمنحكم الثواب الجزيل ، والأجر العظيم ، والرضا الكبير .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن أول علامات محبة العبد لربه ، هي إتباع رسوله — صلى الله عليه وسلم — وأن هذا الإتباع يؤدي إلى محبة الله — تعالى — لهذا العبد وإلى مغفرة ذنوبه .

ومحبة الله لعبده هي منتهى الأماني ، وغاية الآمال . ولذا قال بعض الحكماء: « ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب » .

ومحبة الله إنما تتأتى بإخلاص العبادة له ، والوقوف عند حدوده ، والاستجابة

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥٨ .

لتعاليم رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكل من يدعى أنه محب لله وهو معرض عن أوامره ونواهيه فهو كاذب فى دعواه كما قال الشاعر الصوفى :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بوصفين جليلين فقال : (والله غفور رحيم) أى أنه ـ سبحانه ـ كثير الغفران والرحمة لمن تقرب اليه بالطاعة ، واتبع رسوله فيما جاء به من عنده .

ثم كرر ـ سبحانه ـ الأمر لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يحض الناس على اتباع ما يسعدهم فقال : (قل أطيعوا الله والرسول)

أى قل لهم يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا رسوله فى جميع الأوامر والنواهى وإن من يدعى أنه مطيع لله دون أن يتبع رسوله فإنه يكون كاذباً فى دعواه ولذا لم يقل ـ سبحانه ـ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، للإشعار بأن الطاعة واحدة وأن طاعة الرسول طاعة لله ـ تعالى ـ كما قال ـ سبحانه ـ ، من يطع الرسول فقد أطاع الله (١) .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ عاقبة العصاة المعاندين فقال : (فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) أى : فإن أعرضوا عما تأمرهم به يا محمد ولم يستجيبوا لك واستمروا على كفرهم ، فإنهم لا ينالون محبة الله ، لأنهم كافرون .

ففى هذه الجملة الكريمة دلالة على أن محبة الله لا ينالها إلا من يتبع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه ـ سبحانه ـ نفى حبه عن الكافرين ، ومتى نفى حبه عنهم فقد أثبت بغضه لهم ، ولأنه عبر عن تركهم لإتباع رسوله بالتولى ـ وهو أفحش أنواع الإعراض ، ومن أعرض عن طاعة رسول الله كان بعيدا عن محبة الله .

---

(١) سورة النساء من الآية ٨٠

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ساقت للناس من التوجيهات السامية، والآداب العالية، ما من شأنه أن يغرس فى النفوس إخلاص العبادة لله، والخشية من عقابه، والأمل فى ثوابه، والإكثار من العمل الصالح الذى يؤدى إلى رضا الله ومحبته.

وبعد هذا الحديث الحكيم المتنوع - من أول السورة إلى هنا - عن وحدانية الله، وقدرته النافذة وعلمه المحيط، وعن أحقيته للعبادة والخضوع، وعن الكتب السماوية وما اشتملت عليه من هدايات، وعن محكم القرآن ومتشابهه، وعن رعاية الله - تعالى - لعباده المؤمنين، وعن تهديد الكافرين بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم، وعن بيان الشهوات التى يميل الإنسان بطبعه إليها وعما هو أفضل منها، وعن دين الإسلام وأنه هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده، وعن بعض الرذائل التى عرفت عن أكثر أهل الكتاب، وعن حث الناس على مراقبة الله - تعالى - وإخلاص العبادة له حتى يكونوا ممن يحبهم ويحبونه فيسعدوا فى دينهم ودنياهم وآخرتهم ... بعد كل ذلك تحدث القرآن - فى أكثر من ثلاثين آية - عمن اصطفاهم الله من عباده. وعن جانب من قصة مريم، وقصة زكريا وابنه يحيى - عليهما السلام - وعن قصة ولادة عيسى - عليه السلام - وما صاحبها من خرق للعادات، وما منحه - سبحانه - من معجزات، وعن محاجة الكافرين من أهل الكتاب فى شأنه وكيف رد القرآن عليهم ... استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول:

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ - وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ

وإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ ! ! قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) » .

قوله « اصطفى » من الاصطفاء وهو الاختيار والانتقاء وطلب الصفوة من كل شىء .

وقوله « وآل إبراهيم » الآل - كما يقول الراغب - مقلوب عن الأهل إلا أنه خص بالإضافة إلى عموم الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة. يقال آل فلان ولا يقال آل رجل ولا آل زمان كذا أو موضع كذا . . . ويضاف إلى الأشرف الأفضل فيقال آل الله وآل السلطان ولا يقال آل الحجام . . . ويستعمل الآل فيمن يختص بالإنسان اختصاصا ذاتيا إما بقرابة قريبة أو بموالاة قال - تعالى - « آل إبراهيم وآل عمران »[1] .

والمعنى : إن الله - تعالى - قد اختار واصطفى « آدم » أبا البشر ، بأن جعله خليفته فى الأرض ، وعلمه الأسماء كلها ، وأسجد له ملائكته .

واصطفى « نوحا » لأنه - كما يقول الآلوسى - آدم الأصغر ، والأب الثانى للبشرية ، وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله لقوله - سبحانه - « وجعلنا ذريته هم الباقين »[2] .

واصطفى « آل إبراهيم » أى عشيرته وذوى قرباه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما .

واصطفى « آل عمران » إذ جعل فيهم عيسى - عليه السلام - الذى آتاه الله البينات ، وأيده بروح القدس .

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣٠

(٢) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ١٧١

والمراد بعمران هذا والد مريم أم عيسى - عليه السلام - فهو عمران بن ياشم بن ميشا بن حزقيا .. . وينتهي نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - .

وإن فى ذلك التسلسل دليل على أن الله - تعالى - قد اقتضت حكمته أن يجعل فى الإنسانية من يهديها إلى الصراط المستقيم ، فقد ابتدأت الهداية بآدم أبى البشر كما قال - تعالى - : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » . ثم جاء من بعده بقرون لا يعلمها إلا الله نوح - عليه السلام - فمكث يدعو الناس إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق « ألف سنة إلا خمسين عاما » . ثم جاء من بعد ذلك إبراهيم - عليه السلام - فدعا الناس إلى عبادة الله وحده ، فكان هو وآله صفوة الخلق ، وفيهم النبوة ، فمن إسماعيل بن إبراهيم كان محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى ختمت به الرسالات السماوية .

ومن إسحاق وبنيه كان عدد من الأنبياء كداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ... ومن فرع إسحاق كان آل عمران وهم ذريته وأقاربه كزكريا ويحيى وعيسى الذى كان آخر نبى من هذا الفرع .

وفى التعبير بالاصطفاء تنبيه إلى أن آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران صفوة الخلق ، إذ أن الرسل والأنبياء جميعا من نسلهم .

وقوله « على العالمين » أى على عالمى زمانهم . أى أهل زمان كل واحد منهم .

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بتسلسل هذه الصفوة الكريمة بعضها من بعض فقال : « ذرية بعضها من بعض » وأصل الذرية - كما يقول القرطبى - فعلية من الذر ، لأن الله - تعالى - أخرج الخلق من صلب آدم كالذر حين أشهدهم على أنفسهم . وقيل مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا خلقهم ، ومنه الذرية وهى نسل الثقلين ... »[1] .

والمعنى : أن أولئك المصطفين الأخيار بعضهم من نسل بعض ، فهم

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ١٠٧

متصلو النسب ، فنوح من ذرية آدم . وآل إبراهيم من ذرية نوح ، وآل عمران من ذرية آل إبراهيم ، فهم جميعا سلسلة متصلة الحلقات فى النسب ، والخصال الحميدة .

وقوله « ذرية » منصوب على الحال من آل إبراهيم وآل عمران .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « والله سميع عليم » أى هو - سبحانه - سميع لأقوال عباده فى شأن هؤلاء المصطفين الأخيار وفى شأن غيرهم ، عليم أحوال خلقه علما تاما بحيث لا تخفى عليه خافية تصدر عنهم .

والجملة الكريمة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها ، ومؤكد له .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته إمرأة عمران عندما أحست بعلامات الحمل فقال - تعالى - : « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى » والظرف « إذ » فى محل النصب على المفعولية بفعل محذوف منه والتقدير . أذكر لهم وقت قولها رب إنى نذرت . . الخ . وقيل وهو متعلق بقوله « والله سميع عليم » أى أنه - سبحانه - يعلم علم من يسمع فى الوقت الذى قالت فيه امرأة عمران ذلك القول .

وامرأة عمران هذه هى حنة » بنت فاقوذا بن قنبل وهى أم مريم وجدة عيسى عليه السلام وعمران هذا هو زوجها ، وهو أبو مريم .

وقوله « نذرت » من النذر وهو التزام التقرب إلى الله - تعالى - بأمر من جنس العبادات التى شرعها - سبحانه - لعباده ليتقربوا بها إليه .

وقوله «محررا» أى عتيقا مخلصاً للعبادة ، متخليا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس . يقال : حررت العبد إذا خلصته من الرق . وحررت الكتاب إذا أصلحته ولم تبق فيه شيئاً من وجوه الخطأ ، ورجل حر إذا كان خالصاً لنفسه ليس لأحد عليه سلطان .

والمعنى : أذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن لجأت إمرأة عمران إلى ربها تدعوه بضراعة وخشوع فتقول : يا رب إنى نذرت لخدمة بيتك هذا الجنين الذى فى بطنى مخلصا لعبادتك متفرغا لطاعتك فتقبل منى هذا النذر

الخالص ، وتلك النية الصادقة ، (إنك أنت السميع) لقولى ولأقوال خلقك (العليم) بنيتى وبنوايا سائر عبادك .

فأنت ترى فى هذا الدعاء الخاشع الذى حكاه القرآن عن امرأة عمران أسمى ألوان الأدب والإخلاص ، فقد توجهت إلى ربها بأعز ما تملك وهو الجنين الذى فى بطنها ، ملتمسة منه - سبحانه - أن يقبل نذرها الذى وهبته لخدمة بيته واللام فى قوله (لك) للتعليل أى نذرت لخدمة بيتك .

وقوله (محررا) حال من (ما) والعامل فيه (نذرت) .

قال بعضهم : (وكان هـذا النذر يلزم فى شريعتهم فكان المحرر عندهم إذا حرر جعل فى كنيسة يخدمها ولا يبرح مقيما فيها حتى يبلغ الحلم ، ثم يتخير فإن أحب ذهب حيث شاء ، وإن اختار الإقامة لا يجوز له بعد ذلك الخروج . ولم يكن أحد من أنبياء بنى إسرائيل وعلمائهم إلا ومن أولاده من حرر لخدمة بيت المقدس ولم يكن يحرر إلا الغلمان ، ولا تصلح الجارية لخدمة بيت المقدس لما يصيبها من الحيض والأذى)(١) .

وجملة (إنك أنت السميع العليم) تعليلية لاستدعاء القبول ، من حيث أن علمه - سبحانه - بصحة نيتها وإخلاصها مستدع لذلك تفضلا منه وكرما .

ثم حكى - سبحانه - ماقالته بعد أن وضعت ما فى بطنها فقال - تعالى - : فلما وضعتها قالت : رب إنى وضعتها أنثى .

قالوا : إن هذا خبر لا يقصد به الإخبار ، بل المقصود منه إظهار التحسر والتحزن والاعتذار ، فقد كانت امرأة عمران تتوقع أن يكون ما فى بطنها ذكرا ، لأنه هو الذى يصلح لخدمة بيت الله والانقطاع للعبادة فيه ، لكنها حين وضعت حملها ووجدته أنثى قالت على سبيل الاعتذار عن الوفاء بنذرها رب إنى وضعتها أنثى ، والأنثى لا تصلح للمهمة التى نذرت ما فى بطنها لها

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٤٦٢

وهى خدمة بيتك المقدس ، وأنت يا إلهى القدير على كل شىء ، فبقدرتك أن تخلق الذكر ، وبقدرتك أن تخلق الأنثى .

والضمير فى قوله «فلما وضعتها» يعود لما فى بطنها . والتأنيث باعتبار حاله فى الواقع ونفس الأمر وهو أنه أنثى .

وقوله « أنثى » منصوب على الحال من الضمير فى « وضعتها » وهى حال مؤكدة ، لأن كونها أنثى مفهوم من تأنيث الضمير فجاءت أنثى مؤكدة .

وقوله « والله أعلم بما وضعت » جملة معترضة سيقت للإيماء إلى تعظيم المولود الذى وضعته وتفخيم شأنه ، والإشعار بأن هذه الأنثى لا تصلح لما يصلح له الذكور من خدمة بيته ، أى والله - تعالى - أعلم منها ومن غيرها بما وضعته ، لأنه هو الذى خلق هذا المولود وجعله أنثى ، وهو العليم بما سيصير إليه أمر هذه الأنثى من فضل ، إذ منها سيكون عيسى - عليه السلام - ، وسيجعلهما - سبحانه - آية ظاهرة دالة على كمال قدرته ، ونفوذ إرادته .

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب (والله أعلم بما وضعت) - بضم التاء - ، وعلى هذه القراءة لا تكون الجملة معترضة وإنما هى من تتمة ما قالته ، ويكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الإسم الظاهر وهو لفظ الجلالة إذ لو جرت على مقتضى قولها (رب إنى وضعتها) لقالت : وأنت أعلم بما وضعت .

ويكون قولها هذا من تتمة الإعتذار إلى الله - تعالى - حيث وضعت مولودا لا يصلح لما نذرته - فى عرف قومها وتسلية لنفسها ، أى ولعل لله - سرا وحكمة لا يعلمهما أحد سواه فى جعل هذا المولود أنثى ، أو لعل هذه الأنثى تكون خيرا من الذكر .

وقوله - تعالى - (وليس الذكر كالأنثى) يحتمل أنه منه - سبحانه - وهو الظاهر - فتكون الجملة معترضة كسابقتها ، ويكون المعنى : وليس الذكر الذى طلبته كالأنثى التى ولدتها ، بل هذه الأنثى وإن كانت أفضل منه فى العبادة

والمكانة إلا أنها لاتصلح عندهم لسدانة بيت الله — تعالى — بسبب حرمة إختلاطها بالرجال ، وما يعتريها من حيض وغير ذلك مما يعترى النساء .

ويحتمل أنه من كلامها الذى حكاه الله — تعالى — عنها فلا تكون الجملة معترضة ويكون المعنى : وليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التى وضعتها ، بل هو خير منها لأنه هو الذى يصلح لسدانة بيتك وخدمته ، ومع هذا فأنا فى كلتا الحالتين راضية بقضائك ، مستسلمة لإرادتك .

ثم حكى — سبحانه — أيضا بعض ما قالته بعد ولادتها فقال « وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

قالوا : إن كلمة مريم معناها فى لغتهم العابدة فأرادت بهذه التسمية التقرب إلى الله ، والالتماس منه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها .

ومعنى « أعيذها بك » أمنعها وأجيرها بحفظك . مأخوذ من العوذ ، وهو أن تلتجىء إلى غيرك وتتعلق به . يقال : عاذ فلان إذا إستجار به ، ومنه العوذة ، وهى التميمة والرقية .

والشيطان فى لغة العرب : كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شىء . وهو مشتق من شطن إذا بعد ، فهو بعيد بطبعه عن كل خير .

والرجيم : فعيل بمعنى مفعول . أى : أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير . وقيل رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والشرور .

والمعنى : وإنى يا خالق مع حبى لأن يكون المولود ذكرا لتتهيأ له خدمة بيتك ، فقد رضيت بما وهبت لى وإنى قد سميت هذه الأنثى التى أعطيتنى إياها مريم ، أى العابدة الخادمة لك ، وإنى أحصنها وأجيرها بكفالتك لها ولذريتها من الشيطان الرجيم ، الذى يزين للناس الشرور والمساوىء .

قال القرطبى : وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه .

ثم قال أبو هريرة : إقرءوا إن شئتم : وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

قال علماؤنا : فأفاد هذا الحديث أن الله - تعالى - إستجاب دعاء أم مريم .... ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال الممنخوس فإن ذلك ظن فاسد ، فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ، ومع ذلك عصمهم الله مما يرومه الشيطان كما قال - تعالى « إن عبادي ليس عليهم سلطان ... »(١) .

وقوله : « وإنى سميتها مريم ... » معطوف على « إنى وضعتها أنثى » وما بينهما إعتراض . وهذا على قراءة الجمهور التى جاءت بتسكين التاء فى « وضعت » فى قوله - تعالى - « والله أعلم بما وضعت » :

وأما على قراءة غير الجمهور التى جاءت بضم التاء فى قوله . « وضعت » فيكون أيضا معطوفاً على « إنى وضعتها أنثى » ويكون هذا القول وما عطف عليه فى محل نصب بالقول ، والتقدير : قالت : إنى وضعتها أنثى ، وقالت : الله أعلم بما وضعت ، وقالت : ليس الذكر كالأنثى ، وقالت : إنى سميتها مريم .

وأتى فى قوله : « وإنى أعيذها » بخبر إن فعلا مضارعا للدلالة على طلبها إستمرار الاستعاذة دون إنقطاعها ، بخلاف « وضعتها وسميتها » حيث أتى بالخبرين ماضيين لانقطاعهما .

وقوله : « وذريتها » معطوف على الضمير المنصوب فى أعيذها . وفى التنصيص على إعاذتها وإعاذة ذريتها من الشيطان الرجيم ، رمز إلى طلب بقائها على قيد الحياة حتى تكبر وتكون منها الذرية الصالحة .

تلك هى بعض الكلمات الطيبات ، والدعوات الخاشعات ، التى توجهت

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٦٨ .

بها أمرأة عمران إلى ربها عندما أحست بالحمل فى بطنها ، وعند ما وضعت حملها ، حكاها القرآن بأسلوبه البليغ المؤثر . فماذا كانت نتيجتها ؟

كانت نتيجتها أن أجاب الله دعاءها وقبل تضرعها، وقد حكى - سبحانه - ذلك بقوله : « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا » .

والفاء فى قوله : « فتقبلها » تفريع على الدعاء مؤذن بسرعة الإجابة ، والضمير يعود إلى مريم . والتقبل - كما يقول الراغب - قبول الشىء على وجه يقتضى ثوابا كالهدية ونحوها .

وإنما قال - سبحانه - «فتقبلها ربها بقبول» ولم يقل بتقبل : للجمع بين الأمرين : التقبل الذى هو الترقى فى القبول ، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة »(١) .

والمعنى : أن الله - تعالى - تقبل مريم قبولا مباركا ، وخرق بها عادة قومها ، فرضى أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته كالذكور ، مع كونها أنثى وفاء بنذر الأم التقية التى قالت « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا » .

« وأنبتها نباتا حسنا » أى ورباها تربية حسنة ، وصانها من كل سوء ، فكان حالها كحال النبات الذى ينمو فى الأرض الصالحة حتى يؤتى ثماره الطيبة .

وهكذا فيض الله - تعالى - لمريم كل ألوان السعادة الحقيقية ، فقد قبلها لخدمة بيته مع أنها أنثى ، وأنشأها تنشئة حسنة بعيدة عن كل نقص خلق أو خلق ، وهيأ لها وسائل العيش الطيب من حيث لا تحتسب ، فقد قال - تعالى - : « وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ج ٣٩٢ .

قوله « وكفلها زكريا » أى ضمها إلى زكريا. لأن الكفالة فى أصل معناها الضم . أى ضمها الله - تعالى - إليه وجعله كافلا لها وضامنا لمصالحها .

وقرىء « وكفلها » بتخفيف الفاء ، وبرفع « زكريا » على أنه فاعل . وعلى هذه القراءة تنطق كلمة زكريا بالمد قبل الهمزة فقط أى « زكرياء » .

أما على القراءة الأولى فيجوز فى زكريا المد والقصر .

وزكريا هو أحد أنبياء بنى إسرائيل وينتهى نسبه الى سليمان بن داود - عليهما السلام - وكان متزوجا بخالة مريم ، وقيل كان متزوجا بأختها .

وكانت كفالته لها نتيجة اقتراع بينه وبين من رغبوا فى كفالتها من سدنة بيت المقدس ، يدل على ذلك قوله - تعالى - « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

قال صاحب الكشاف : روى أن (حنة) حين ولدت مريم ، لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار وهم فى بيت المقدس ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم . .

فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ، عندى خالتها . فقالوا : لا ، حتى نقترع عليها . فانطلقوا إلى نهر وألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم فتكفلها) (١) .

وقوله : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) بيان لكفالة الله - تعالى - لرزقها ورضاه عنها ، ورعايته لها .

والمحراب الموضع العالى الشريف ، والمراد به الغرفة التى كانت تتخذها مريم مكانا لعبادتها فى المسجد . سمى بذلك لأنه مكان محاربة الشيطان والهوى

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٥٧ بتلخيص يسير .

قال الآلوسي ماملخصه : « والمحراب - على ماروى عن ابن عباس - غرفة بنيت لها فى بيت المقدس ، وكانت لايصعد إليها إلا بسلم . وقيل المراد به المسجد إذ قد كانت مساجدهم تسمى المحاريب . وقيل المراد به أشرف مواضع المسجد ومقدمها وهو مقام الإمام من المسجد . وأصله مفعال : صيغة مبالغة - كمطعان - فسمى به المكان ، لأن المحاربين نفوسهم كثيرون فيه و « كلما » ظرف على أن « ما » مصدرية ، والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها الوقت ، والعائد محذوف والعامل فيها جوابها .

والمعنى : كل زمان دخل عليها أو كل وقت دخل عليها فيه « وجد عندها رزقا » أى أصاب ولقى بحضرتها ذلك أو وجد ذلك كائنا بحضرتها . أخرجه ابن جرير عن الربيع قال : إنه كان لايدخل أحد سوى زكريا فكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف ، والتنوين فى « رزقاً » للتعظيم ...(١) .

وهذا دليل على قدرة الله - سبحانه - على كل شيء ، وعلى رعايته لمريم ، فقد رزقها - سبحانه - من حيث لاتحتسب ، ودليـــل على وقوع الكرامة لأوليائه - تعالى - .

ولقد كان وجود هذا الرزق عند مريم دون أن يعرف زكريا - عليه السلام - مصدره ، مع أنه لايدخل عليه أحد سواه ، كان ذلك محل عجبه ، لذا حكى القرآن عنه أنه : « قال يامريم أنى لك هذا » أى : من أين لك هذا الرزق العظيم الذى لا أعرف سببه ومصدره . و « أنى » هنا بمعنى من أين .

والجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال زكريا عند مشاهدة هذا الرزق ؟ فكان الجواب : قال يامريم من أين لك هذا .

ولقد كانت إجابة مريم على زكريا تدل على قوة إيمانها ، وصفاء نفسها .

(١) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ١٣٩ .

فقد أجابته بقولها - كما حكى القرآن عنها - « قالت هو من عند الله » أى : قالت له إن هذا الرزق من عند الله - تعالى - فهو الذى رزقنى إياه وساقه إلى بقدرته النافذة .

وقوله - تعالى - « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » جملة تعليلية . أى إن الله - تعالى - يرزق يشاء أن يرزق رزقا واسعا عظيما لايحده حد ، ولا تجرى عليه الأعـــداد التى تنتهى ، فهو - سبحانه - لايحاسبه محاسب ، ولا تنقص خزائنه من أى عطاء مهما كثر وعظم .

وهذه الجملة الكريمة يحتمل أنها من كلام الله - تعالى - فتكون مستأنفة ، ويحتمل أنها من كلامها الذى حكاه القرآن عنها ، فتكون تعليلية فى محل نصب داخلة تحت القول .

هذا ، وفى تلك الآيات التى حكاها القرآن عن مريم وأمها نرى كيف يعمل الإيمان عمله فى القلوب فينقيها ويصفيها ويحررها من رق العبودية لغير الله الواحد القهار ، وكيف أن الله - تعالى - يتقبل دعاء عباده الصالحين ، وينبتهم نباتا حسنا ، ويرعاهم برعايته . ويرزقهم من حيث لايحتسبون .

ولقد كان مارآه زكريا - عليه السلام - من أحوال مريم من الأسباب التى جعلته - وهو الشيخ الهرم - يتضرع إلى الله أن يرزقه الذرية الصالحة ، وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال - تعالى - :

« هُنَالِكَ دعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ المَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى المِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ ، وَقَدْ بَلَغَنِىَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ ؟ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١) » .

قوله - تعالى - « هنالك دعا زكريا ربه . . . » كلام مستأنف ، وقصة مستقلة ، سيقت فى تضاعيف قصة مريم وأمها لما بينهما من قوة الارتباط ، وشدة الاشتباك ، مع ما فى إيرادها من تقرير ما سيقت له قصة مريم وأمها من بيان اصطفاء آل عمران .

و « هنا » ظرف يشار به إلى المكان القريب كما فى قوله - تعالى - « إنا ههنا قاعدون » وتدخل عليه اللام والكاف « هنالك » أو الكاف وحدها « هناك » فيكون للبعيد . وقد يشار به للزمان إتساعاً .

والمعنى فى ذلك المكان الطاهر الذى كان يلتقى فيه زكريا بمريم ، ويرى من شأنها مايرى من فضائل وغرائب ، تحركت فى نفس زكريا عاطفة الأبوة وهو الشيخ الكبير الذى وهن عظمه واشتعل رأسه شيبا ، وبلغ من الكبر عتياً - فدعا الله - تعالى - بقلب سليم ، وبنفس صافية ، وبجوارح خاشعة ، أن يرزقه الذرية الصالحة . ولقد حكى القرآن دعاءه بأسلوبه المؤثر فقال :

« قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » .

أى ، قال زكريا مناجيا ربه : يارب أنت الذى خلقتنى ، وأنت الذى لا يقف أمام قدرتك شىء ، وأنت الذى جعلتنى أرى أحوال مريم ما يشهد بقدرتك النافذة ، وفضلك العميم . فهب لى ياخالقى من عندك ذرية صالحة تقربها عينى ، وتكون خلفا من بعدى « إنك سميع الدعاء » أى إنك عليم بدعائى علم من يسمع قريب الإجابة لمن يدعوك . فأن أجبت لى سؤالى فبفضلك ، وإن لم تجبه فبعدلك وحكمتك . فأنت ترى فى هذا الدعاء الذى صدر عن زكريا - عليه السلام - أسمى ألوان الأدب والخشوع والإنابة ، فقد رفع أكف الضراعة فى مكان مقدس طاهر ، وفى التعبير بقوله « دعا ربه » إشارة إلى تسليمه لله وإلى شعوره

بقدرة الله على كل شيء ، فهو الذي خلقه ورباه وتولاه برعايته في كل أدوار حياته .

وفى قوله « هب لى من لدنك » إشعار بأنه يريد من خالقه - عز وجل - أن يعطيه هذه الذرية بلا سبب عادي ، ولكن بإرادته وقدرته لأنه لو كان الأمر فى هذا العطاء يعود إلى الأسباب والمسببات العادية لكان الحصول على الذرية مستبعداً ، إذ هو قد بلغ من الكبر عتيا،وزوجته قد تجاوزت السن التى يحصل فيها الإنجاب فى العادة .

أى هب لى من عندك لا من عندى ، لأن الأسباب عندى أصبحت مستبعدة . وفى تقييد الذرية بكونها طيبة ، إشارة إلى أن زكريا لقوة إيمانه، ونقاء سريرته ، وحسن صلته بربه ، لايريد ذرية فحسب ، وإنما يريد ذرية صالحة يرجى منها الخير فى الدنيا والآخرة .

وجملة « إنك سميع الدعاء » تعليلية ، أى انى ما التجأت اليك يا إلهى إلا لأنك مجيب للدعاء غير مخيب للرجاء .

قال القرطبي ما ملخصه:دلت هذه الآية على طلب الولد وهى سنة المرسلين والصديقين ، قال الله - تعالى - : ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية « ... وقد ترجم البخاري على هذا « باب طلب الولد » وقال النبي - صلى الله عليه وسلم لأبى طلحة حين مات إبنه « أعرستم الليلة » قال نعم قال : بارك الله لكما فى غابر ليلتكما ، فقال رجل من الأنصار . فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن « ..... والأخبار فى هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد لما يرجوه الإنسان من نفعه فى حياته وبعد مماته .

قال - صلى الله عليه وسلم - إذا مات أحدكم إنقطع عمله الا من ثلاث : فذكر منها«أوولد صالح يدعوله» ولولم يكن الا هذا الحديث لكان فيه كفاية (١)

(١) تفسير القرطبى حـ ٤ ص ٧٢ .

هذا، وقد حكى لنا القرآن فى سورة مريم دعاء زكريا بصورة أكثر تفصيلا فقال: «ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا. قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا. وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا. يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا».

هذا هو دعاء زكريا حكاه الله - تعالى - فى أكثر من موضع فى كتابه الكريم، فماذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع، والتضرع الخالص؟ لقد كانت نتيجته الإجابة من الله - تعالى - لعبده زكريا، فقد قال - تعالى -: «فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى».

أى: فنادت الملائكة زكريا - عليه السلام - وهو قائم يصلى فى المحراب، يناجى ربه، ويسبح بحمده، بأن الله قد استجاب دعاءك، ويبشرك بغلام اسمه يحيى، لكى تقر به عينك ويسر به قلبك.

والتعبير بالفاء فى قوله «فنادته» يشعر بأن الله - تعالى - فضلا منه وكرما - قد استجاب لزكريا دعاءه بعد فترة قليلة من هذا الدعاء الخاشع، إذ الفاء تفيد التعقيب.

ويرى فريق من المفسرين أن الذى ناداه هو جبريل وحده، ومن الجائز فى العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع.

قال ابن جرير: كما يقال فى الكلام: خرج فلان على بغال البريد، وإنما ركب بغلا واحدا، وركب السفن، وإنما ركب سفينة واحدة، وكما يقال: ممن سمعت هذا؟ فيقال: من الناس. وإنما سمعه من رجل واحد، وقد قيل: إن من قوله - تعالى - (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ...) والقائل كان فيما ذكر واحد ...[1]. ويرى فريق آخر منهم أن الذى نادى زكريا وبشره بمولوده يحيى، جمع من الملائكة لأن الآية صريحة فى أن هذا النداء قد صدر

(١) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ٢٤٩

من جمع لا من واحد ، ولأن صدوره من جمع يناسب هذه البشارة العظيمة ، فقد جرت العادة فى أمثال هذه البشارات العظيمة أن يقوم بها جمع لا واحد ، ولا شك أن حالة زكريا وحالة زوجه تستدعيان عددا من المبشرين لإدخال السرور على هذين الشخصين اللذين كادا يفقدان الأمل فى إنجاب الذرية .

وقد رجح هذا الإتجاه ابن جرير فقال: (وأما الصواب من القول فى تأويله فأن يقال : إن الله — جل ثناؤه — أخبر أن الملائكة نادته ، والظاهر من ذلك أنها جماعة من الملائكة دون الواحد . وجبريل واحد ، فلا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل فى لسن العرب دون الأقل ما وجد إلى ذلك سبيلا ، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد . فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفى من الكلام والمعانى)(١) .

وقوله (وهو قائم) جملة حالية من مفعول النداء ، و (يصلى) حال من المستكن فى قائم أو حال آخرى من مفعول النداء على القول بجواز تعدد الحال . وقوله (فى المحراب) متعلق يصلى . والمراد بالمحراب هنا المسجد ، أو المكان الذى يقف فيه الإمام فى مقدمة المسجد .

وقرأ جمهور القراء (أن الله يبشرك) - بفتح همزة أن - على أنه فى محل جر بباء محذوفه . أى : نادته الملائكة بأن الله يبشرك بيحيى .

وقرأ ابن عامر وحمزة : (إن الله يبشرك) - بكسر الهمزة - على تضمين النداء معنى القول ، أى : قالت الملائكة إن الله يبشرك بيحيى .

وقوله (بيحيى) متعلق بيبشرك ، وفى الكلام مضاف أى يبشرك بولادة يحيى ، لأن الذوات ليست متعلقا للبشارة .

وفى إقتران التبشير بالتسمية بيحيى ، إشعار بأن ذلك المولود سيحيى اسمه

(١) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ٢٥٠

وذكره بعد موته ، وبذلك تتحقق الإجابة لدعاء زكريا تحققا تاما ، فقد حكى القرآن عنه فى سورة مريم أنه قال : « يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » قال الجمل : و « يحيى » فيه قولان : أحدهما وهو المشهور عند أهل التفسير أنه منقول من الفعل المضارع ، وقد سموا بالأفعال كثيرا نحو يعيش ويعمر ... وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل ، نحو يزيد ويشكر وتغلب . والثانى أنه أعجمى لا إشتقاق له ، وهذا هو الظاهر، فامتناعه للعلمية والعجمة ... »[1] .

ثم وصف الله - تعالى - يحيى - عليه السلام - بأربع صفات كريمة فقال: « مصدقا بكلمة من الله . وسيداً . وحصورا ، ونبيا من الصالحين » .

فالصفة الأولى من صفات يحيى - عليه السلام - أنه كان « مصدقا بكلمة من الله » وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة إتجاهان . أما الإتجاه الأول فيرى أصحابه - وهم جمهور العلماء - أن المراد بكلمة الله هو عيسى - عليه السلام - لأنه كان يسمى بذلك أى أن يحيى كان مصدقا بعيسى ومؤمنا بأنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .

وقد كان يحيى معاصراً لعيسى . وكانت بينهما قرابة قوية إذ أن والدة يحيى كانت أختا لأم مريم وقيل إن أم يحيى كانت أختا لمريم .

وأما الإتجاه الثانى فيرى أصحابه أن المراد بكلمة الله كتابه ، أى أن يحيى من صفاته الطيبة أنه كان مصدقا بكتاب الله وبكلامه ، وذلك لأن الكلمة قد تطلق ويراد منها الكلام . والعرب تقول أنشد فلان كلمة أى قصيدة ، وقال كلمة أى خطبة .

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لأن القرآن قد وصف عيسى بأنه كلمة الله فى أكثر من موضع فيه ومن ذلك قوله - تعالى - « يا أهل

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٦٧ .

الكتاب لا تغلو فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ..» وقوله - تعالى - «يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم .» ولأن فى التعبير عن عيسى الذى صدقه يحيى - بأنه كلمة من الله . إشعاراً بأن ولادتهما متقاربة من حيث الزمن ، وإيماء إلى أن زكريا - عليه السلام - قد أوتى علما بأن المسيح عهده قريب ، وأن يحيى - عليه السلام - سيعيش حتى يدرك عيسى .

وقوله «مصدقا» منصوب على الحال المقدرة من يحيى ، أى على الحال التى سيكون عليها فى المستقبل ، والمراد بهذا التصديق الإيمان بعيسى - كما سبق أن أشرنا - . قيل : هو أول من آمن بعيسى وصدق أنه كلمة الله وروح منه(١) .

و «من» فى قوله «من الله» للابتداء . والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة ، أى مصدقا بكلمة كائنة من الله - تعالى - .

والصفة الثانية من صفات يحيى عبر عنها القرآن بقوله «وسيدا» والسيد - كما يقول القرطبى - الذى يسود قومه وينتهى إلى قوله . وأصله سيود يقال: فلان أسود من فلان على وزن أفعل من السيادة ، ففيه دلالة على تسمية الإنسان سيداً . وفى الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لبنى قريظة - عندما دخل سعد بن معاذ - «قوموا إلى سيدكم» وفى الصحيحين أنه قال فى الحسن (إن ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)(٢) .

والمراد أن يحيى - عليه السلام - من صفاته أنه سيكون سيداً ، أى يفوق غيره فى الشرف والتقوى وعفة النفس ، بأن يكون مالكا لزمامها ، ومسيطرا على أهوائها .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ١٤٧ .

(٢) تفسير القرطبى - بتصرف يسير - ج ٤ ص ٧٧

والصفه الثالثة : من صفاته عبر عنها القرآن بقوله . (وحصورا) وأصل لحصر . المنع والحبس . يقال حصرنى الشيء وأحصرنى إذا حبسنى ...

والمراد أن يحيى - عليه السلام - من صفاته أنه سيكون حابسا نفسه عن شهوات ، حتى لقد قيل عنه إنه امتنع عن الزواج وهو قادر على ذلك زهادة ه واستعفافا ، وليس صحيحا ماقيل من أنه كان لا يأتى النساء لعدم قدرته لى ذلك .

وقال ابن كثير : وقد قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء : اعلم أن ثناءالله لى يحيى بأنه كان (حصورا) معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتيها كأنه صور عنها . وقيل : مانعاً نفسه من الشهوات ، وقيل ليست له شهوة فى النساء قد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل فى كونها وجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله - تعالى - كيحيى - عليه سلام - ثم هى فى حق من قدر عليه وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه : رجة عليا وهى درجة نبينا - صلى الله عليه وسلم الذى لم تشغله كثرتهن عن بادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وهدايته لهن . . . والمقصود أن دح يحيى بأنه حصور ليس معناه أنه لا يأتى النساء ، بل معناه أنه معصوم من فواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن لإيلادهن ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : هب لى من لدنك ذرية طيبة كأنه قال ولدا له ذرية ونسل وعقب)[1] .

أما الوصف الرابع من أوصاف يحيى - عليه السلام - فهو قوله - تعالى - ونبيا من الصالحين) وفى هذا الوصف بشارة ثانية لزكريا بأن ابنه سيكون ن الأنبياء الذى اصطفاهم الله لتبليغ دعوته إلى الناس ، وهذه البشارة أسمى أعلى من الأولى التى أخبره الله فيها بولادة يحيى ، لأن النبوة منزلة لا تعدلها زلة فى الشرف والفضل .

(١) تفسير ابن كثير بتصرف يسير ج ١ ص ٣٦١

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما قاله زكريا بعد أن ساقت له الملائكة تلك البشارات السارة فقال - تعالى - : « قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » أى هنا بمعنى كيف . و « عاقر » أى عقيم لا تلد لكبر سنها من العقر وهو العقم . يقال عقرت المرأة تعقر عقراً وعقراً فهى عاقر إذا بلغت سن اليأس من الولادة .

أى قال زكريا على سبيل التعجب بعد أن نادته الملائكة وبشرته بما بشرته به . يارب كيف يكون لى غلام والحال أننى قد أدركنى الكبر الكامل الذى أضعفنى، وفوق ذلك فإن امرأتى عاقر أى عقيم لا تلد لشيخوختها وبلوغها العمر الذى ينقطع معه النسل ؟

قال بعضهم : وإنما قال ذلك استفهاماً عن كيفية حدوث الحمل . أو استبعادا من حيث العادة . أو استعظاماً وتعجبا من قدرة الله - تعالى - لا استبعادا أو إنكاراً فلا يرد . كيف قال زكريا ذلك ولم يكن شاكا فى قدرة الله - تعالى -(١) .

والجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل . فماذا قال زكريا عندما بشرته الملائكة ؟ فكان الجواب قال رب أنى يكون لى غلام ...

وقد خاطب زكريا ربه مع أن النداء له صدر من الملائكة ، للإشعار بالمبالغة فى التضرع وأنه قد طرح الوسائط واتجه إلى خالقه مباشرة يشكره ويظهر التعجب من قدرته لأنه سبحانه - أعطاه ما لم تجر العادة به .

قال الآلوسى : وقوله « يكون » يجوز أن تكون من كان التامة فيكون فاعلها هو قوله « غلام » ويكون الظرف « أنى » والجار والمجرور « لى » متعلقان بها .

ويجوز أن تكون من كان الناقصة و « لى » متعلق بمحذوف وقع حالا لأنه لو تأخر لكان صفة . وفى الخبر حينئذ وجهان : أحدهما « أنى » لأنها بمعنى كيف أو من أين والثانى الخبر الجار و « أنى » منصوب على الظرفية »(٢) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٢٦٨

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣ ص ١٤٨ .

وقوله «قد بلغنى الكبر» جملة حالية من ياء المتكلم ، أى أصابنى الكبر أدركنى فأضعفنى وأفقدنى قوتى .

والكبر مصدر كبر الرجل إذا أسن . وقد قال زكريا «وقد بلغنى الكبر» لم يقل وقد بلغت الكبر للإشارة إلى أن الكبر قد تابعه ولازمه حتى أصابه الضعف والآلام والأسقام .

وقوله «وامرأتى عاقر» جملة حالية أيضا إما من ياء «لى» أو ياء «بلغنى»

فأنت ترى أن زكريا — عليه السلام — قد أظهر التعجب عندما بشرته الملائكة بغلامه يحيى ، لأنه كان شيخا مسنا ، ولأن امرأته كانت عقيما لا تلد إما لكبر سنها - أيضا - وإما لأنها من الأصل كانت على غير استعداد للحمل والإنجاب .

قال ابن عباس : كان زكريا يوم بشر بيحيى ابن عشرين ومائة سنة . وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة[1] .

ثم حكى القرآن أن الله - تعالى - قد رد على زكريا بما يزيل عجبه ويمنع حيرته فقال - تعالى - «قال كذلك الله يفعل ما يشاء» .

أى قال - سبحانه - : مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى رأيته من أن يكون لك غلام وأنت شيخ كبير وامرأتك عاقر مثل ذلك الفعل يفعل الله ما يشاء أن يفعله ، لأنه - سبحانه - هو خالق الأسباب والمسببات ، ولا يعجزه شىء فى هذا الكون ، وبقدرته أن يغير ما جرت به العادات بين الناس .

فالجملة الكريمة بجانب تضمنها إقناع زكريا وإزالة عجبه ، تتضمن أيضا تقرير قضية عامة ، وهى أن الله - تعالى - يفعل ما يشاء أن يفعله بدون تقيد بالأسباب والمسببات والعادات ، فهو الفعال لما يريد .

ثم حكى القرآن أن زكريا - لشدة لهفته على تحقق البشارة — سأل ربه أن يجعل له علامة تكون دليلا على تحقيق الحمل عند زوجته فقال - تعالى - : «قال رب اجعل لى آية» .

(١) تفسير للفخر الرازى ج ٨ ص ٤٢

أى قال زكريا مناجيا ربه : يا رب إنى أسألك أن تجعل لى « آية » أى علامة تدلنى على حصول الحمل عند زوجتى : لأبادر إلى القيام بشكر هذه النعمة شكراً جزيلا ، ولأقوم بحقها حق القيام .

وقد أجابه — سبحانه — إلى طلبه فقال : « قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » .

أى قال الله - تعالى - لعبده زكريا : آيتك أى علامتك ألا تقدر على كلام الناس من غير آفة فى لسانك لمدة ثلاثة أيام إلا « رمزا » أى إلا عن طريق الإيحاء والإشارة .

وأصل الرمز الحركة . يقال أرتمز أى تحرك ، ومنه قيل للبحر الراموز . وفعله من باب نصر وضرب . ثم أطلق الرمز على الإيماء بالشفتين أو بالحاجبين وعلى الإشارة باليدين ، وهو المراد هنا .

قال صاحب الكشاف : قال الله - تعالى - لزكريا آيتك ألا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام : وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة ، مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله ، ولذلك قال : « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار » يعنى فى أيام عجزك عن تكليم الناس وهى من الآيات الباهرة . فإن قلت : لم حبس لسانه عن كلام الناس ؟ قلت : ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره ، توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها الذى طلب الآية من أجله ، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له : آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر . وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه . « إلا رمزا » أى إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما(١) .

وعلى رأى صاحب الكشاف يكون احتباس لسان زكريا عن كلام الناس اضطراريا وليس عن اختيار منه .

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦١ .

ويمكن أن يقال : إن المراد بقوله ـ تعالى ـ « قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً . . . » أن زكريا ـ عليه السلام ـ عند ما طلب آية يعرف بها أن زوجته قد حملت بهذا الغلام الذى بشره الله به ، أخبره ـ سبحانه ـ أن العلامة على ذلك أن يوفق إلى خلوص نفسه من شواغل الدنيا حتى أنه ليجد نفسه متجها إتجاها كليا إلى ذكر الله وتمجيده وتسبيحه ، دون أن يكون عنده أى دافع إلى كلام الناس أو مخالطتهم مع قدرته على ذلك ، وعلى هـــذا يكون انصراف زكريا ـ عليه السلام ـ عن كلام الناس اختياريا وليس إضطراريا كما يرى صاحب الكشاف .

ثم أمره الله ـ تعالى ـ بالإكثار من ذكره وتسبيحه فقال : « واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار » .

و « العشى » جمع عشية وقيل : هو واحد ، وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب وأما « الإبكار » فمصدر أبكر يبكر إذا خرج الأمر فى أول النهار . . ومنه الباكورة لأول الثمرة . والمراد به هنا الوقت الذى يكون من طلوع الفجر إلى الضحى .

أى عليك أن تكثر من ذكر الله ـ تعالى ـ ومن تسبيحه فى أول النهار وفى آخره وفى كل وقت لاسيما فى تلك الأيام الثلاثة شكراً لله ـ تعالى ـ على ما أعطاك من نعم جليلة لا تحصى ، فقد وهبك الذرية بعد أن بلغت من الكبر عتيا ، وجعل هذا المولود من أنبياء الله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته .

وفى هذا الأمر الإلهى لزكريا حض لكل عاقل على الإكثار من ذكر الله ومن تسبيحه وتمجيده لأن ذكر الله به تطمئن القلوب ، وتسكن النفوس وتغسل الخطايا والذنوب ويكفى للدلالة على فضل الذكر أن الله ـ تعالى ـ أمر به حتى فى حالة الحرب فقال : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت لنا جانبا من قصة زكريا - عليه السلام - فيه الكثير من العبر والعظات لقوم يعقلون.

وبعد أن بين - سبحانه - مايدل على مظاهر قدرته فى ولادة يحيى - عليه السلام حيث وهبه لوالديه بعد أن بلغا مبلغا كبيرا من العمر يستبعد معه فى العادة الإنجاب ... بعد أن بين كل ذلك ساق قصة أخرى أدل على قدرة الله ونفاذ إرادته من قصة ولادة يحيى، وهذه القصة هى قصة ولادة عيسى - عليه السلام - من غير أب. وقد مهد القرآن لولادة عيسى ببيان أن الله - تعالى - قد اصطفى مريم وطهرها من كل فاحشة، وفضلها على نساء زمانها، وصانها من كل مايخدش المروءة والشرف. استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول:

« وإِذْ قالَتْ الملائِكَةُ يامرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالمِينَ (٤٢) يا مرْيَمُ اقنُتِى لِربِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِليكَ، وما كُنْتَ لدَيْهِمْ إِذْ يلقُونَ أَقلامَهُمْ أَيُّهم يَكفُلُ مرْيَمَ وما كُنْتَ لدَيْهِم إِذ يَخْتَصِمونَ (٤٤) إِذْ قالَتِ الملائِكَةُ يا مريمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بكَلِمَةٍ مِنْهُ اسمُهُ المَسيحُ عيسَى ابنُ مريمَ، وَجِيهاً فى الدُّنيَا والآخِـــــرةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ (٤٥) ويُكَلِّمُ الناسَ فى المَهْدِ وكَهْلاً ومِنَ الصَّالحِينَ (٤٦) قالَتْ ربِّ أَنَّى يكونُ لى وَلَدٌ ولَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ؟ قالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يشَاءُ إِذا قضَى أَمْراً فإِنَّمَا يقُولُ لهُ كُن فيَكُونُ (٤٧) » .

وقوله - تعالى - « وإذ قالت الملائكة يامريم .... إلخ » معطوف

على قوله « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى . . الخ » عطف القصة على القصة ، فإن الله - تعالى - بعد أن ذكر ما قالته امرأة عمران عندما أحست بالحمل ، وبعد ولادتها لمريم . وما كان من شأنها وتربيتها وكفالتها بعد أن ذكر ذلك ، بين - سبحانه - ما كان من أمر مريم بعد أن بلغت رشدها واكتمل تكوينها . وجاء بقصة زكريا بين قصة الأم وابنتها لما بينهما من مناسبة،إذ أن دعاء زكريا ربه ، كان سببه ما رآه من إكرامه - سبحانه - لمريم ولأن الكل لبيان اصطفاء آل عمران .

والمعنى ، واذكر يا محمد للناس وقت أن قالت الملائكة لمريم - التى تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا - يامريم ، إن الله اصطفاك ،أى اختارك واجتباك لطاعته ، وقبلك لخدمة بيته ، وطهرك ، من الأدناس والأقذار ، ومن كل ماينافى مع الخلق الحميد، والطبع السليم ،واصطفاك على نساء العالمين ، بأن وهب لك عيسى من أب دون أن يمسك بشر ، وجعلك أنت وهو آية للعالمين .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد مدح مريم مدحا عظيما بأن شهد لها بالاصطفاء والطهر والمحبة ، وأكد هذا الخبر للاعتناء بشأنه ، والتنويه بقدره .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : والاصطفاء الأول إشارة إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة فى أول عمرها بأن قبل الله - تعالى - تحريرها-أى خدمتها لبيته - مع أنها أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث ، وبأن فرغها لعبادته وخصها فى هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة ، وبأن كفاها أمر معيشتها فكان يأتيها رزقها من عند الله ... وأما الاصطفاء الثانى فالمراد به أنه - تعالى - وهب لها عيسى - عليه السلام من غير أب ، وجعلها وابنها آية للعالمين »[1] .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٤٦ .

ولا شك أن ولادتها لعيسى من غير أب ودون أن يمسها بشر ، هو أمر اختصت به مريم ولم تشاركها فيه امرأة قط فى أى زمان أو مكان . فهى أفضل النساء من هذه الحيثية .

أما من حيث قوة الإيمان، وصلاح الأعمال، فيجوز أن يحمل اصطفاؤها على نساء العالمين على معنى تفضيلها على عالمى زمانها من النساء . وبعضهم يرى أفضليتها على جميع النساء فى سائر الأعصار .

هذا وقد أورد ابن كثير عددا من الأحاديث التى وردت فى فضل مريم وفى فضل غيرها من النساء ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن على بن أبى طالب أنه قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » . وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وأخرج البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام[1] » .

وقول الملائكة لمريم : إن الله اصطفاك وطهرك . . . إلخ ، الراجح أنهم قالوه لها مشافهة ، لأن هذا ما يدل عليه ظاهر الآية ، وإليه ذهب صاحب الكشاف فقد قال : روى أنهم كلموها شفاها معجزة لزكريا ، أو إرهاصا لنبوة عيسى ـ عليه السلام ـ »[2] .

وقال الجمل قوله : « وإذ قالت الملائكة . . . » أى مشافهة لها بالكلام . وهذا

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٣

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٦١ .

من باب التربية الروحية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها بعد التربية الجسمانية اللائقة بحال صغرها»[1].

وقيل كان خطابهم لها بالإلهام أو بالرؤيا الصادقة فى النوم .

والأول أولى لأنه هو الظاهر من الآية . ولأنه الموافق لأقوال جمهور المفسرين ، ولأنه قد جاء صريحا فى آيات أخرى أن الملك قد تمثل لها بشراً سويا وكلمها ، وذلك فى قوله - تعالى - فى سورة مريم : «واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . . »

قال الآلوسى : واستدل بهذه الآية من ذهب إلى نبوة مريم ؛ لأن تكلم الملائكة يقتضيها ، ومنعها اللقانى وغيره من العلماء ، لأن الملائكة قد كلموا من ليس بنى إجماعا فقد جاء فى الحديث الشريف أنهم كلموا رجلا خرج لزيارة أخ له فى الله ، وأخبروه بأن الله يحبه كما أحب هو أخاه ، ولم يقل أحد بنبوته - فكلام الملائكة لمريم لا يقتضى نبوتها وهو الصحيح - »[2] .

ثم حكى القرآن أن الملائكة أمرت مريم بأن تكثر من عبادة الله -تعالى- ومن المداومة على طاعته شكراً له فقال - تعالى - :

«يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين» .

القنوت : لزوم الطاعة والاستمرار عليها ، مع استشعار الخشوع والخضوع لله رب العالمين .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) تفسير الآلوسى بتصرف يسير - ج ٣ ص ١٥٤ .

أى : قالت الملائكة أيضا لمريم : يامريم أخلصى العبادة لله وحده وداومى عليها ، وأكثرى من السجود لله ومن الركوع مع الراكعين ، فإن ملازمة الطاعات والصلوات من شأنها أن تحفظ النعم وأن تزيد الإنسان قربا وحبا من خالقه - عز وجل - .

فالآية الكريمة دعوة قوية من الله - تعالى - لمريم وللعباد جميعا ، بالمحافظة على العبادات ولا سيما الصلاة فى جماعة .

قال صاحب الكشاف : أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيئة الصلاة وأركانها ، ثم قيل لها « واركعى مع الراكعين » بمعنى ولتكن صلاتك مع المصلين أى فى الجماعة ، أو انظمى نفسك فى جملة المصلين وكونى معهم فى عدادهم ولا تكونى فى عداد غيرهم[1] .

فأنت ترى فى هاتين الآيتين أسمى ألوان المدح والتكريم والتهذيب لمريم البتول ، فلقد أخبر - سبحانه - باصطفائها صغيرة وكبيرة ، وبطهرها من كل سوء ، والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى ، وذلك لما لابس مولد عيسى - عليه السلام - من خوارق ، هذه الخوارق جعلت اليهود يفترون الكذب على مريم ، ويتهمونها زورا وبهتانا بما هى بريئة منه ، ثم بعد ذلك يأمرها - سبحانه - بمداومة الطاعة والعبادة والخضوع لله رب العالمين .

وبذلك يتبين لكل ذى عقل سليم أن الإسلام الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الدين الحق ، لأنه قد قال القول الحق فى شأن مريم وابنها عيسى - عليه السلام - أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد اختلفوا فى شأنهما اختلافا عظيما أدى بهم إلى الضلال والخسران .

ثم بين - سبحانه - أن ما جاء به القرآن فى شأن مريم - بل وفى كل شأن

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦٢ .

من الشئون ـ هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو من أنباء الغيب التى لا يعلمها أحد سواه فقال ـ تعالى ـ :

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » .

واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى ماتقدم الحديث عنه من قصة امرأة عمران وقصة زكريا وغير ذلك من الأخبار البديعة .

والأنباء : جمع نبأ ، وهو الخبر العظيم الشأن .

والغيب : مصدر غاب ، وهو الأمر المغيب المستور الذى لا يعلم إلا من قبل الله ـ تعالى ـ .

ونوحيه : من الإيحاء وهو إلقاء المعنى إلى الغير على وجه خفى ، ويكون بمعنى إرسال الملك إلى الأنبياء وبمعنى الالهام .

أى : ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد فيما يتعلق بماقالته امرأة عمران وماقاله زكريا ، وماقالته الملائكة لمريم ، وفيما يتعلق بغير ذلك من شئون ، ذلك القصص الحكيم هو من أنباء الغيب التى لا يعلمها أحد سوى الله ـ عز وجل ـ ، وقد أخبرناك بها لتكون دليلا على صدقك فيما تبلغه عن ربك ، ولتكون عبرة وذكرى لقوم يعقلون .

وقوله « ذلك » مبتدأ وخبره قوله ـ تعالى ـ « من أنباء الغيب » والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب . وقوله « نوحيه إليك » جملة مستقلة مبينة الأولى . والضمير فى « نوحيه » يعود إلى الغيب أى الأمر والشأن أنا نوحى إليك الغيب ونعلمك به ، ونظهرك على قصص من تقدمك مع عدم مدارستك لأهل العلم والأخبار .

ولذا قال ـ تعالى ـ « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » . والأقلام جمع قلم وهى التى كانوا يكتبون بها التوراة وقيل المراد بها السهام .

أى : وما كنت - يا محمد - لديهم أى عندهم معاينا لفعلهم وماجرى من أمرهم فى شأن مريم ، « إذ يلقون أقلامهم » التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون فيما بينهم بسببها تنافسا فى كفالتها .

وقد سبق أن ذكرنا ماقاله صاحب الكشاف من أن أم مريم بعد أن ولدتها أمها خرجت بها إلى بيت المقدس فوضعتها عند الأحبار وقالت لهم : دونكم هذه النذيرة !! فقالوا : هذه ابنة إمامنا عمران - وكان فى حياته يؤمهم فى الصلاة - ، فقال لهم زكريا : ادفعوها إلى فأنا أحق بها منكم فإن خالتها عندى . فقالوا لا حتى نقترع عليها . فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم ، فتولى كفالتها زكريا - عليه السلام -(١) فالضمير فى قوله « لديهم » يعود على المتنازعين فى كفالة مريم لأن السياق قد دل عليهم .

والمقصود من هذه الجملة الكريمة « وما كنت لديهم إذ يلقون . . الخ » تحقيق كون الإخبار بما ذكر إنما هو عن وحى من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن معاصراً لهؤلاء الذين تحدث القرآن عنهم ، ولم يقرأ أخبارهم فى كتاب من الكتب ، ومع ذلك فقد أخبر النبى - صلى الله عليه وسلم - أهل الكتاب وغيرهم بالحق الذى لايستطيعون تكذيبه إلا على سبيل الحسد والجحود ، فثبت أن القرآن من عند الله - تعالى - ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً .

ثم حكى - سبحانه - ماقالته الملائكة لمريم على سبيل تبشيرها بعيسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : « إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٥٧ بتصرف يسير .

وهذه الجملة الكريمة بدل اشتمال من جملة « وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك . . الخ » قالوا : ولا يضر الفصل إذ الجملة الفاصلة بين البدل والمبدل منه اعتراض جيء به تقريراً لما سبق ، وتنبيها على استقلاله .

والظرف « إذ » معمول لمحذوف تقديره اذكر ، أى اذكر وقت أن قالت الملائكة لمريم إن الله يبشرك بكلمة منه ...

وقوله يبشرك « بكلمة منه » أى يبشرك بمولود يحصل بكلمة منه -سبحانه- وسمى هذا المولود كلمة لأنه وجد بكلمة كن فهو من باب إطلاق السبب على المسبب .

والمراد أنه وجد من غير واسطة أب ، لأن غيره إن وجد بتلك الكلمة لكنه بواسطة أب ، أى أنه - سبحانه - إذا كان قد خلق الناس بطريق التناسل من ذكر وأنثى وأخرج الأولاد من أصلاب الآباء ؛ فإن عيسى - عليه السلام - لم يكن كذلك ، بل خلقه الله - تعالى - خلقا آخر ، خلقه « بكلمة منه » وهى « كن » فكان كما أراده الله و « من » فى قوله « منه » لابتداء الغاية ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة : أى بكلمة كائنة منه .

فالمراد بقوله « كلمة » أى يبشرك بولد حى يسرى عليه حكم الأحياء اسمه المسيح عيسى ابن مريم وعلى هذا التأويل سار كثير من المفسرين .

ورجح ابن جرير أن معنى « بكلمة منه » ببشرى منه سبحانه - فقد قال : وقوله « بكلمة منه » يعنى برسالة من الله وخبر من عنده . وهو من قول القائل : ألق إلى فلان كلمة سرنى بها بمعنى أخبرنى خبرا فرحت به ... فتأويل الكلام : وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم : يامريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده ، هى ولدك اسمه المسيح عيسى ابن مريم ... »(١) .

وعلى كلا التأويلين فى التعبير عن عيسى - عليه السلام بأنه كلمة من الله

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ٢٦٩ .

تكريم له وتشريف ، وقوله « اسمه المسيح » مبتدأ أو خبر ، والجملة نعت . والضمير فى قوله « اسمه » يعود إلى كلمة . وجاء مذكراً رعاية المعنى لأننا سبق أن بينا أن المراد بها عند كثير من المفسرين الولد .

والمسيح : لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق ، وأصله مشيخا بالعبرانية ومعناه المبارك . وقد حكى الله - تعالى أنه قال عن نفسه « إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا » وقيل المسيح فعيل بمعنى فاعل ، للمبالغة فى مسحه الأرض بالسياحة للعبادة . أو مسحه ذا العاهة ليبرأ . أو بمعنى مفعول أى ممسوح لأن الله مسحه بالطهر من الذنوب .

وعيسى . اسم لهذا الإسم الكريم ، وهو اسم ينبىء عن البياض والصفاء والنقاء .

قال الراغب : عيسى اسم علم ، وإذا جعل عربياً أمكن أن يكون من قولهم بعير أعيس وناقة عيساء وجمعها عيس وهى أبل بيض يعترى بياضها بعض ظلمة .. (١) » أى فيها أغبرار قليل يعطى بياضها صفاء ونقاء وجمالا .

وابن مريم : هو كنيته ، وهو للإشارة إلى أن نسبة ثابت لأمه لا لأحد سواها ، وليس ابنا لله - تعالى - كما قال الضالون .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل عيسى ابن مريم والخطاب لمريم ؟ قلت : لأن الأبناء ينسبون إلا الآباء لا إلى الأمهات ، فاعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه . وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين . فإن قلت لم ذكر ضمير الكلمة ؟ قلت لأن المسمى بها مذكر . فإن قلت : لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم وهذه ثلاثة أشياء : الإسم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقب وصفة ؟ قلت : الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣٥٣ .

من غيره ، فكأنه قيل : الذى يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة »[1] .

والمعنى الإجمالى للجملة الكريمة : اذكر يا محمد وقت أن قالت الملائكة لمريم : يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب هذا المولود العجيب اسمه الذى يميزه لقباً المسيح ويميزه علماً عيسى ويميزه كنية ابن مريم .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد عرف هذا المولود العظيم بتعريف واحد جمع ثلاثة أمور كل واحد منها يشير إلى معنى كريم قد تحقق فى هذا النبى العظيم ومجموع هذه الأمور لا يشاركه فيها أحد من البشر ثم بعد ذلك وصفه - سبحانه - بأربعة أوصاف تدل على فضله وعلو منزلته فقال - تعالى - « وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » .

أما الصفة الأولى فهى قوله - تعالى - : « وجيها فى الدنيا والآخرة » أى ذا جاه وشرف ومنزلة عالية . يقال وجه الرجل يوجه - من باب ظرف - وجاهة فهو وجيه إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس . واشتقاقه من الوجه لأنه أشرف الأعضاء ، ولأنه هو الذى يواجه الإنسان به غيره .

وعيسى - عليه السلام - شهد الله - تعالى - له - وكفى بالله شهيدا شهد له بالوجاهة وسمو المنزلة فى الدنيا والآخرة لما له من آثار عظيمة فى هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ودعوتهم إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق ، وإقامة التوراة بعد أن اختلفوا فيها .

والصفة الثانية من صفاته أنه « من المقربين » أى أنه من المقربين عند الله - تعالى - ويالها من صفة عظيمة هى منتهى ما تتطلع إليه النفوس ، وتهفو القلوب .

وأما الصفة الثالثة من صفات عيسى - عليه السلام فهى قوله - تعالى - « ويكلم الناس فى المهد وكهلا » وهذه الجملة معطوفة على قوله « وجيها » ، وعطف الفعل

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦٣ .

على الإسم لتأويله به جائز والتقدير وجيها ومكلما ، والمهد : اسم لمضجع الطفل أى المكان الذى يهيأ له وهو فى الرضاعة والكهل : هو الشخص الذى اجتمعت قوته وكمل شبابه . وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوى وتم .

والمراد أن عيسى - عليه السلام - يكلم الناس فى حال كونه صغيراً قبل أوان الكلام ، كما يكلمهم فى حال كهولته واكتمال شبابه ، فهو - عليه السلام - يكلمهم بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالتى الطفولة والكهولة ، وذلك إحدى معجزاته - عليه السلام - وقد حكى القرآن فى سورة مريم ما تكلم به عيسى - عليه السلام - وهو طفل صغير فقال - تعالى - : « فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » .

أما الصفة الرابعة من صفاته - عليه السلام - فهى قوله - تعالى - « ومن الصالحين » أى من عباد الله الصالحين لحمل رسالته وتبليغها للناس ، أو من الذين يصلحون ولا يفسدون ، ويطيعون الله - تعالى - ولا يعصونه ، قالوا : ولا رتبة أعظم من كون المرء صالحا ؛ لأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان فى جميع الأفعال والتروك مواظبا على المنهج الأصلح ، وذلك يتناول جميع المقامات فى الدين والدنيا فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح ، ولذا قال سليمان - عليه السلام - بعد النبوة « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه . وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » فلما عدد - سبحانه - صفات عيسى أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات »(١) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٧٢ .

تلك هى البشارات التى بشرت بها الملائكة مريم ، وتلك هى بعض صفات مولودها ، فماذا كان موقفها من ذلك ؟

لقد حكى القرآن أن موقفها كان يدل على بالغ عجبها ، وشدة تأثرها فقال - تعالى - : « قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » .

أى : قالت مريم على سبيل التعجب والاستغراب : يارب كيف يكون لى ولد والحال أنى لم يمسسنى بشر ، أى لست بذات زوج ، ولم يحصل منى قط ما يكون بين الرجل والمرأة مما يتسبب عنه وجود الولد .

والجملة الكريمة مستأنفة إستئنافا بيانيا ، كأنه قيل فماذا كان منها بعد أن قال لها الملائكة ذلك ؟ فكان الجواب : قالت رب أنى يكون ولد ... الخ .

وصدرت إجابتها بالنداء لله - تعالى - للإشعار بكمال تسليمها للقدرة الإلهية، وأن استغرابها وتعجبها إنما هو من الكيفية لا إنكاراً لقدرة الله - تعالى - .

وجملة « ولم يمسسنى بشر » حالية محققة لما مر ومقوية له .

والمسيس يحتمل أن يكون كناية عن المباشرة التى تقع بين الرجل والمرأة والتى يترتب عليها وجود النسل إذا شاء الله ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد به حقيقته وهو أنها لم يلمسها رجل ، لأنها كانت معتكفة فى بيت الله ومنصرفة لعبادته ، ولم يلمس جسمها رجل من غير محارمها قط . وبذلك ينتفى بالأولى ماهو أبلغ من مجرد اللمس . فموضع عجبها واستنكارها إنما هو وجود ولد منها مع أنها لم يمسسها بشر .

وهنا يحكى القرآن أن الله - تعالى - قد أزال عجبها واستنكارها بقوله : « قال كذلك الله يخلق ما يشاء » .

أى قال الله - تعالى - لها بلا واسطة أو بواسطة ملائكته : كهذا الخلق الذى تجدينه ، بأن يكون لك ولد من غير أن يمسك بشر وهو لإبداع ، يخلق الله - تعالى - ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه .

وبعضهم يجعل الوقف على « كذلك » فتكون خبرا لمبتدأ محذوف أى قال

ـ سبحانه ـ فى إجابته على مريم : الأمر كذلك أى يأتى الولد منك على الحالة التى أنت عليها، لأن الله ـ تعالى ـ يخلق مايشاء أن يخلقه بدون احتياج إلى وجود الأسباب والمسببات لأنه هو خالقه وخالق كل شىء ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وصرح هنا بقوله « يخلق مايشاء » ولم يقل « يفعل » كما فى قصة زكريا ، لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ كبير ، فكان الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام عن مطلق الفعل .

ثم أكد ـ سبحانه ـ عظيم قدرته ، ونفاذ إرادته بقوله « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

وقضى هنا بمعنى أراد أى : إذا أراد ـ سبحانه ـ شيئاً ، فإنما يقول لهذا الشىء كن فيكون من غير تأخر ومن غير وجود أسباب . فهو كقوله ـ تعالى ـ « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » أى إنما نأمر مرة واحدة لا تثنية فيها فيكون ذلك الشىء سريعا كلمح البصر .

قال الآلوسى : وقوله « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » هذا عند الأكثرين تمثيل لتأثير قدرته فى مرادها بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة . فالممثل الشىء المكون بسرعة من غير عمل وآلة ، والممثل به أمر الآمر المطاوع المأمور مطيع على الفور ، وهذا اللفظ مستعار لذلك منه .

وأنت تعلم أنه يجوز فيه أن يكون حقيقة ، بأن يراد تعلق الكلام النفسى بالشىء الحادث على أن كيفية الخلق على هذا الوجه .

وعلى كلا التقديرين فالمراد من هذا الجواب بيان أن الله ـ تعالى ـ لا يعجزه أن يخلق ولدا من غير أب ، لأنه أمر ممكن فى نفسه فيصح أن يكون متعلق الارادة والقدرة ... »(١)

(١) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ١٦٤

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكت لنا بعض البشارات التى بشرت بها الملائكة مريم وبعض الصفات التى وصف الله - تعالى - بها عيسى، وبينت جانباً من مظاهر قدرة الله - تعالى - ونفاذ إرادته، وفى ذلك مافيه من العظات والعبر لأولى الألباب.

ثم واصل القرآن حديثه عن صفات عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته فقال - تعالى - :

« ويُعَلِّمُهُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ والتوراةَ والإنجيلَ (٤٨) ورسولاً إلَى بنى إسرائيلَ أَنِّى قد جئتُكم بآيةٍ مِن رَبِّكُم ، أَنِّى أَخْلُقُ لكم مِنَ الطينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فأَنْفُخُ فيهِ فيكُونُ طيراً بإذْنِ اللهِ ، وأُبْرِىءُ الأكمهَ والأبرصَ وأُحْيِي الموتَى بإذْنِ اللهِ ، وأُنَبِّئُكُم بما تأكُلُونَ وما تدَّخِرُونَ فى بيُوتِكُمْ إنَّ فى ذلكَ لآيةً لكُمْ إنْ كُنْتُم مؤمنينَ(٤٩) ومُصدِّقاً لما بينَ يَدَىَّ مِنَ التوراةِ ولأُحِلَّ لكُم بعضَ الذى حُرِّمَ عليكُم ، وجئتُكُم بآيةٍ مِنْ ربِّكُم فاتقوا اللهَ وأطيعونِ (٥٠) إنَّ اللهَ ربِّى وربُّكُم فاعبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مستقيمٌ (٥١) » .

فأنت ترى فى هذه الآيات الكريمة بيانا حكيما عن طبيعة رسالة عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته التى أكرمه الله - تعالى - بها .

وقوله - تعالى - : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل » معطوف على « يبشرك » أى : يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه ... وإن الله يعلم ذلك المولود المعبر عنه بالكلمة الكتاب وقرأ بعضهم « ونعلمه الكتاب ... » وعلى هذه القراءة تكون هذه الجملة معمولة لقول محذوف من كلام الملائكة أى ، ويقول الله - تعالى - ونعلمه ... ، وتكون فى المعنى معطوفة على الحال وهى قوله « وجيها » فكأنه قال : وجيها ومعلماً .

وعلى كلتا القراءتين يجوز أن تكون الجملة مستأنفة ، سيقت تطييبا لقلب مريم ، وإراحة لما أهمها من خوف الملامة حين علمت أنها تلد من غير أن يمسها بشر .

ولقد حكى القرآن عنها فى سورة مريم قولها بتحسر وألم عندما جاءها المخاض « ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » .

والمراد بالكتاب الكتابة والخط ، فإن عيسى - عليه السلام - قد بعثه الله - تعالى - فى أمة ارتقت فيها ألوان العلم والمعرفة ، فأكرمه الله بأن جعله يفوق غيره فى هذه النواحي . وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية .

قال الفخر الرازى : والأقرب عندى أن يقال : المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة ، ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق ، لأن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ومجموعها هو المسمى بالحكمة . ثم بعد أن صار عالما بالخط والكتابة ومحيطا بالعلوم العقلية والشرعية يعلمه التوراة . وإنما أخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة ، لأن التوراة كتاب إلهى ، وفيه أسرار عظيمة . والإنسان مالم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض فى البحث عن أسرار الكتب الإلهية . ثم قال فى المرتبة الرابعة والإنجيل وإنما أخر ذكر الانجيل عن التوراة ؛ لأن من تعلم الخط ، ثم تعلم علوم الحق ، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذى نزل على من قبله من الأنبياء ، فقد عظمت درجته فى العلم ، فإذا أنزل الله عليه بعد ذلك كتابا آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو الغاية القصوى والمرتبة العليا فى العلم والفهم والاحاطة بالأسرار العقلية والشرعية ، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية(١) .

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى علم الرسالة التى هيأها لعيسى - عليه السلام - عقب ذلك ببيان القوم الذين أرسل إليهم فقال - تعالى - : « ورسولا إلى بنى إسرائيل » أى أن الله - تعالى - سيجعل عيسى - عليه السلام -

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٥٧ .

رسولا إلى بنى إسرائيل لكى يهديهم إلى الصراط المستقيم ، ولكى يبشرهم برسول يأتى من بعده هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، ألا وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم .

وخص بنى إسرائيل بالذكر مع أن رسالة عيسى كانت إليهم وإلى من علىها من الرومان ، لأن بنى إسرائيل خرج عيسى من بينهم فهو منهم ، ولأنهم هم الذين كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية ، وكانت دعوته بينهم وانبعثت منهم إلى غيرهم . فكان تخصيصهم بالذكر فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وفيه توبيخ لهم ، لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء ، ومع ذلك فقد كفر كثير منهم بعيسى وبغيره من رسل الله ، بل لم يكتفوا بالكفر وإنما آذوا أولئك الرسل الكرام وقتلوا فريقا منهم .

وقوله « رسولا ... » منصوب بمضمر يقود إليه المعنى ، معطوف على « ويعلمه » أى يعلمه ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل .

وقوله « أنى قد جئتكم بآية من ربكم » معمول لقوله « رسولا » لما فيه من معنى النطق . كأنه قيل : ورسولا ناطقا بأنى قد جئتكم يابنى إسرائيل بآية من ربكم .

والباء للملابسة ، وهى مع مدخولها فى محل الحال وقوله « من ربكم » متعلق بمحذوف صفة لآية . والمراد بالآية هنا المعجزات التى أكرمه الله بها .

أى: أن الله ـ تعالى ـ قد علم عيسى ـ عليه السلام ، الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولا إلى بنى إسرائيل مخبرا إياهم بأنى رسول الله إليكم حال كونى ملتبسا بمجيء بالمعجزات الدالة على صدقى ، وهذه المعجزات ليست من عندى وإنما هى من عند ربكم .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ خمسة أنواع من معجزات عيسى ـ عليه السلام :

أما المعجزة الأولى فعبر عنها بقوله : « أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » .

قال الآلوسى : وقوله « أنى أخلق لكم ... الخ » بدل من قوله « أنى قد جئتكم » أو من « آية » أو منصوب على المفعولية لمحذوف أى أعنى أنى أخلق لكم . . . أو مرفوع على أنه خبر لمقدر أى أنى قد جئتكم بآية من ربكم هى أنى أخلق لكم .... وقرأ نافع بكسر الهمزة على الاستئناف والمراد بالخلق التصوير والابراز على مقدار معين لا الايجاد منَ العدم . . »(١)

والمعنى : أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد حكى الله ـ تعالى ـ عنه أنه قال لبنى إسرائيل : لقد أرسلنى الله إليكم لأبلغكم دعوته ، ولآمركم بإخلاص العبادة له ، وقد أعطانى ـ سبحانه ـ من المعجزات ما يقنعكم بصدقى فيما أبلغه عن ربى، ومن بين هذه المعجزات أنى أقدر على أن أصور لكم من الطين شيئاً صورته مثل صورة الطير ، فأنفخ فى ذلك الشىء المماثل لهيئة الطير فيكون طيرا حقيقيا ذا حياة بإذن الله أى بأمره وإرادته .

فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على ثلاثة أعمال : ثنتان منهما لعيسى وهما تصوير الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيه . أما الثالث فهو من صنع الله ـ تعالى ـ وحده ، ألا وهو خلق الحياة فى هذه الصورة التى صورها عيسى ونفخ فيها . وهذا يدل دلالة واضحة على أنه ليس فى عيسى ألوهية ولا أى معنى من معانيها ، ولذا حكى الله تعالى ـ عنه أنه قال : « بإذن الله » .

أى أنى ما فعلت الذى فعلته إلا بإذن الله وأمره وإرادته وتيسيره .

واللام فى قوله « لكم » للتعليل أى أصور لأجل هدايتكم وتصديقكم بى .

والكاف فى قوله « كهيئة الطير » بمعنى مثل وهى نعت لمفعول محذوف أى أخلق شيئا مثل هيئة الطير . والهيئة هى الصورة والكيفية .

والضمير فى قوله « فأنفخ فيه » يعود إلى هذا المفعول المحذوف

وقوله « بإذن الله » متعلق بيكون ، وجىء به لإظهار العبودية ، ونفى توهم أن يكون عيسى أو غيره شريكا لله فى خلق الكائنات .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣ ص ١٦٧

وأما النوع الثاني والثالث والرابع من المعجزات فقد حكاه القرآن في قوله - تعالى - : « وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله » .

وقوله « وأبرىء » ، أي أشفي يقال : برأ المريض يبرأ أو يبرؤ برءا وبروءا، إذا شفي من مرضه .

والأكمه : هو الذي يولد أعمى . يقال كمه يكمه كمها إذا ولد أعمى ، فهو أكمه وامرأة كمهاء » .

والأبرص : هو الذي يكون في جلده بياض مشوب بحمرة، وهو مرض من الأمراض المنفرة التي عجز الأطباء عن شفائها .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لقومه : ومن المعجزات التي تدل على صدقي أني أشفي وأعيد الإبصار إلى من ولد أعمى ، وأعيد الشفاء إلى من أصيب بمرض البرص ، وأعيد الحياة إلى من مات ، ولا أفعل كل ذلك بقدرتي وعلمي وإنما أفعله بإذن الله وبإرادته وأمره .

وخص إبراء الأكمه والأبرص بالذكر ، لأنهما مرضان عضالان لم يصل الطب إلى الآن إلى طريق للشفاء منهما ، فإذا أجرى الله - تعالى - على يد عيسى الشفاء منهما ، كان ذلك دليلا على أن من وراء الأسباب والمسببات خالقا مختارا لا يعجزه شيء ، وعلى أن الأسباب ليست مؤثرة بذاتها في الإيجاد أو الإعدام وإنما المؤثر هو الله - تعالى - .

وقوله « وأحيي الموتى بإذن الله » ، يدل دلالة قاطعة على أن الأسباب تتدرج من الصعب إلى الأصعب ، فإن مما لاشك فيه أن إحياء الموتى خارق للأمور العادية، وأنها ليست هي المؤثرة وإنما الخالق المكون هو المؤثر، وأن الأشياء لم تخلق بالعلية - كما يقول الماديون - وإنما خلقت بالإرادة المختارة والقدرة المبدعة المنشئة المكونة، وهي إرادة خالق الكون وقدرته سبحانه .

وقيد ما يقوم به من إبراء وإحياء بأنه بإذن الله : للتنبيه على أن ما يفعله من خوارق إنما هو بأمر الله وتيسيره وإرادته .

وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمة والأبرص وإحياءه للموتى كان عن طريق الدعاء، وكان دعاؤه ياحى يا قيوم، وذكروا من بين من أحياهم سام ابن نوح[١] ...

قال ابن كثير: بعث الله كل نبى بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام. وأما عيسى فبعث فى زمن الأطباء وأصحاب علوم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لاسبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذى شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص؟ وكذلك محمد - صلى الله عليه وسلم - بعث فى زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ما استطاعوا أبدا، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبه كلام الخلق[٢] ...

وأما المعجزة الخامسة فقد حكاها القرآن فى قوله - تعالى - : «وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم».

وقوله - تعالى - «وأنبئكم» من الإنباء وهو الإخبار بالخبر العظيم الشأن. وقوله «تدخرون» من الإدخار وهو إعداد الشىء لوقت الحاجة إليه. يقال: دخرته وادخرته، إذا أعددته للعقبى. وأصله «تذتخرون» بالذال المعجمة - من اذتخر الشىء - بوزن افتعل - فأبدلت التاء ذالا ثم أبدلت الذال دالا وأدغمت.

والمعنى: أن عيسى - عليه السلام - قد قال لقومه بنى إسرائيل: وإن من

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ١٦٩.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٥ - بتلخيص يسير -.

معجزاتى تدل على صدق فيما أبلغه عن ربى أنى أخبركم بالشىء الذى تأكلونه وبالشىء الذى تخبئونه فى بيوتكم لوقت حاجتكم إليه .

قال القرطبى : وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا: أخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندخر للغد ، فأخبرهم فقال : يا فلان أنت أكلت كذا وكذا ، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا فذلك قوله « وأنبئكم »(١) .

و « ما » فى الموضعين موصولة ، أو نكرة موصوفة ، والعائد محذوف أى بما تأكلونه وتدخرونه .

ولا شك أن إخبار عيسى - عليه السلام - لقومه بالشىء الذى يأكلونه وبالشىء الذى يدخرونه يدل على صدقه ؛ لأن هذا الإخبار الغيبى بمالم يعاينه دليل على أن الله - تعالى - قد أعطاه علم ما أخبر به .

ثم ختم الله - تعالى - هذه الآية بقوله : « إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

أى إن فى ذلك المذكور من المعجزات التى أجراها الله - تعالى - على يد عيسى - عليه السلام - لدلالة واضحة ، وعلامة بينة ، تشهد بصدقه فيما يبلغه عن ربه ، إن كنتم يابنى إسرائيل ممن يصدق بآيات الله ويذعن لها .

فاسم الإشارة « ذلك » يعود إلى ماسبق ذكره من معجزات عيسى - عليه السلام - وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآيات وأذعنتم للحق الذى جئتكم به من عند الله .

وبعد أن حكى القرآن المعجزات الباهرة التى أيد الله بها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك بالإشارة إلى طبيعة رسالته فقال - تعالى - « ومصدقا

---

(١) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٩٥ .

لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون » .

وقوله — تعالى « ومصدقا لما بين يدى من التوراة » عطف على المضمر الذى تعلق به قوله — تعالى — « بآية » أى قد جئتكم محتجا أو ملتبسا بآية من ربكم، ومصدقا لما بين يدى وجوز أن يكون منصوبا بفعل دل عليه «قد جئتكم .. » أى وجئتكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة . ومعنى تصديقه — عليه السلام — للتوراة الإيمان بأن جميع ما فيها حكمة وصواب ، وأن كتابه يدعو إلى الإيمان بها .

والمعنى : أن عيسى ـ عليه السلام ـ قال لبنى إسرائيل : إن الله ـ تعالى ـ قد أرسلنى إليكم لهدايتكم وقد جئتكم بالمعجزات التى تثبت صدقى ، وجئتكم مصدقا « لما بين يدى من التوراة » أى مقررا لها ومؤمنا بها .

ومعنى ما بين يدى ما تقدم قبلى ، لأن المتقدم السابق يمشى بين يدى الجائى فهو هنا تمثيل لحالة السبق ، وإن كان بين عيسى ـ عليه السلام ـ وبين نزول التوراة أزمنة طويلة ، لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئه فكأنها لم تسبقه بزمن طويل . ويستعمل بين يدى كذا فى معنى الحاضر المشاهد كما فى قوله ـ تعالى ـ « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » .

وقوله « ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » معمول لمقدر بعد الواو ، أى : وجئتكم لأحل بعض الأشياء التى كانت محرمة عليكم فى شريعة موسى ـ عليه السلام ـ فهو من عطف الجملة على الجملة .

أى أن شريعة عيسى جاءت متممة لشريعة موسى وناسخة لبعض أحكامها ، فلقد حرم الله ـ تعالى ـ على بنى إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم وبغيهم كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم .. » فجاءت شريعة عيسى ـ عليه السلام ـ لتحل لهم بعض ما حرمه الله عليهم بسبب ظلمهم وفجورهم .

قال ابن كثير : فيه دلالة على أن عيسى - عليه السلام - نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين . ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئا ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطاوا فكشف لهم عن خطئهم كما قال فى الآية الأخرى « ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه »(١) .

قالوا : ومن الأطعمة التى أحلها عيسى لبنى إسرائيل بعد أن كانت محرمة عليهم فى شريعة موسى : لحوم الإبل والشحوم وبعض الأسماك والطيور(٢) .

وقوله « وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون » تحريض لهم على الاستجابة لما يدعوهم إليه .

قال الفخر الرازى : وإنما أعاد قوله - تعالى - « وجئتكم بآية من ربكم » لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر ، فأعاد ذكر المعجزات ليكون كلامه ناجعا فى قلوبهم ، ومؤثرا فى طباعهم . ثم خوفهم فقال : « فاتقوا الله وأطيعون » ، لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله فبين أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعونى فيما آمركم به عن ربى »(٣) .

ثم حكى القرآن أن عيسى - عليه السلام - قد قرر أن هذه المعجزات الباهرة لن تخرجه عن أن يكون عبد الله ومخلوقا له ، وأن من الواجب على الناس أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا فقال : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » أى قال عيسى - عليه السلام - داعيا قومه إلى عبادة الله - تعالى - هو الذى خلقنى وخلقكم ، وهو الذى ربانى ورباكم ، ومادام الأمر كذلك فأخلصوا له العبادة ، فإن عبادته - سبحانه - وطاعته هى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا التباس .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ٣٦٥

(٢) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ١٧١

(٣) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٦٣ .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت لنا بعض المعجزات التي أكرم الله بها عيسى ـ عليه السلام ـ كما حكت لنا بعض التوجيهات القوية، والإرشادات الحكيمة التي نصح بها قومه لكي يسعدوا في دنياهم وآخرتهم .

والآن ينساق الذهن إلى سؤال هو : ماذا كان موقف بني إسرائيل منه بعد أن جاءهم بما جاءهم به من بينات وهدايات ؟

لقد حكى القرآن أن موقف أكثرهم منه كان موقف الكافر به الجاحد لرسالته فقال ـ تعالى ـ :

« فَلَمَّا أَحَسَّ عيسَى منهم الكُفرَ قالَ مَنْ أَنصارِي إلَى اللهِ ؟ قالَ الْحَوارِيُّونَ نحن أَنصارُ اللهِ ، آمَنَّا باللهِ واشهدْ بأَنَّا مُسلِمونَ (٥٢) ربَّنَا آمَنَّا بِما أَنزَلْتَ واتَّبعنَا الرسولَ فاكْتُبْنَا مع الشَّاهِدِينَ (٥٣) ومكَرُوا ومكرَ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرِين (٥٤) إذ قالَ اللهُ يا عيسى إنِّي مُتَوفِّيكَ ورافعُكَ إليَّ ومطهِّرُكَ من الذينَ كَفَرُوا وجاعِلُ الذينَ اتبعوكَ فَوْقَ الذينَ كفَرُوا ، إلى يومِ القيَامةِ ، ثمَّ إليَّ مرجِعكم فأَحكمُ بينَكُم فيما كنتُم فيه تختَلِفُونَ (٥٥) فأمَّا الذينَ كفرُوا فأعذِّبهم عذاباً شديداً في الدُّنيا والآخرةِ وما لهُم مِنْ ناصرِينَ (٥٦) وأَما الذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ فيوفِّيهم أُجُورَهُم واللهُ لا يُحِبُّ الظالمِينَ (٥٧) » .

فقوله ـ تعالى ـ « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله » شروع في بيان مآل أحواله ـ عليه السلام ـ ، وفي بيان موقف قومه منه ، بعد أن بين ـ سبحانه ـ قبل ذلك بعض صفاته ومعجزاته وخصائص رسالته .

وأحس : بمعنى علم ووجد وعرف . والإحساس : الإدراك ببعض الحواس الخمس وهي الذوق والشم واللمس والسمع والبصر . يقال أحس الشيء ، علمه بالحس . وأحس بالشيء شعر به بحاسته والمراد أن عيسى - عليه السلام - علم من بنى إسرائيل الكفر علما لا شبهة فيه .

والأنصار جمع نصير مثل شريف وأنصار .

والمعنى أن عيسى - عليه السلام - قد جاء لقومه بالمعجزات الباهرات التي تشهد بصدقه في دعوته ولكنه لم يجد منهم أذنا واعية ، فلما رأى تصميمهم على باطلهم ، وأحس منهم الكفر أى علمه يقينا وتحققه تحقق ما يدرك بالحواس ، قال على سبيل التبليغ وطلب النصرة : من أنصارى إلى الله أى من أعوانى في الدعوة إلى الله والتبشير بدينه حتى أبلغ ما كلفنى بتبليغه .

قال ابن كثير : وذلك كما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر « هل من رجل يؤوينى وينصرنى حتى أبلغ كلام ربى فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » فقيض الله له الأنصار فآووه ونصروه ومنعوه من الأسود والأحمر »(١) .

والفاء في قوله « فلما » تؤذن بالتعقيب على الآيات الباهرة . أى أنهم بعد أن رأوا ما رأوا من معجزات عيسى لم يمتثلوا له ولم يتدبروا عاقبة أمرهم بل كذبوه على الفور ، وحاولوا قتله تخلصا منه واستمروا على كفرهم .

والتعبير بأحس - كما أشرنا من قبل - يشعر بأنه علم منهم الكفر علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس

والمقول لهم « من أنصارى إلى الله » هم الحواريون كما يشير إليه قوله - تعالى - في سورة الصف : « يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله » وقيل المقول لهم جميع أفراد قومه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٥ .

وقوله «منهم» متعلق بأحس. ومن لابتداء الغاية أى ابتداء الإحساس من جهتهم. أو متعلق بمحذوف على أنه حال من الكفر أى أحس الكفر حال كونه صادرا منهم. وقوله «إلى الله» متعلق بمحذوف على أنه حال من الياء فى أنصارى. أى من أنصارى حال كونى ذاهبا إلى الله أى ملتجئا إليه وشارعا فى نصرة دينه.

وفى قوله «من أنصارى إلى الله» حض لهم على المسارعة إلى نصرة الحق، لأنهم لا ينصرونه من أجل متعة زائلة، وإنما هم ينصرونه لأنه يدافع عن دين الله ويبشر به، ومن نصر دين الله، نصره الله - تعالى -.

والآية الكريمة تشير إلى أن الكافرين كانوا هم الكثرة الكاثرة من بنى إسرائيل، بدليل أنه - سبحانه - نسب الكفر إليهم فى قوله «فلما أحس عيسى منهم الكفر»، وذلك لا يكون إلا إذا كان الكافرون هم الكثرة الظاهرة، والمؤمنون هم القلة غير الظاهرة حتى لكأن عيسى بقوله «من أنصارى إلى الله» يبحث عنهم من بين تلك الجموع الكثيرة من الكافرين. وهنا يحكى القرآن أن المؤمنين الصادقين - مع قلتهم - لم يتقاعسوا عن تلبية نداء عيسى - عليه السلام - فقال - تعالى -: «قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون». والحواريون جمع حوارى وهم أنصار عيسى الذين آمنوا به وصدقوه، وأخلصوا له ولازموه. وكانوا عونا له فى الدعوة إلى الحق.

يقال فلان حوارى فلان أى خاصته من أصحابه، ومنه قول النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الزبير بن العوام: «لكل نبى حوارى وحوارى الزبير».

وأصل مادة «حور»: هى شدة البياض، أو الخالص من البياض، ولذلك قالوا فى خالص لباب الدقيق الحوارى. وقالوا فى النساء البيض: الحواريات والحوريات...

وقد سمى الله - تعالى - أصفياء عيسى وأنصاره بالحواريين، لأنهم أخلصوا

لله - تعالى - نياتهم ، وطهرت سرائرهم من النفاق والغش ، فصاروا فى نقائهم وصفائهم كالشيء الأبيض الخالص البياض .

والمعنى : أن - عيسى عليه السلام - لما أحس الكفر من بنى إسرائيل قال لهم من أنصارى إلى الله ؟ فأجابه الحواريون الذين آمنوا به وصدقوه وباعوا نفوسهم لله - تعالى - : نحن أنصار الله الذين تبحث عنهم ، ونحن الذين سنقف إلى جانبك لنصرة الحق ، فقد آمنا بالله إيمانا عميقا ، ونريدك أن تشهد على إيماننا هذا ، وأن تشهد لنا يا عيسى بأنا مسلمون حين تشهد الرسل لأقوامهم وعليهم .

فأنت ترى أن الحواريين لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم ، قد لبوا دعوة عيسى - عليه السلام - فى طلب النصرة دون أن يخشوا أحدا إلا الله .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - « نحن أنصار الله » إشعار بأنهم ما وقفوا بجانب عيسى إلا نصرة لدين الله ، ودفاعا عن الحق الذى أنزله على رسوله عيسى .

وقولهم « آمنا بالله » جملة فى معنى العلة للنصرة أى نحن أنصار الله يا عيسى لأننا آمنا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وأنه هو الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء .

وقولهم « واشهد بأنا مسلمون » معطوف على آمنا . والشهادة هنا بمعنى العلم المنبعث من المعاينة والمشاهدة . فهم يطلبون من عيسى - عليه السلام - أن يكون شاهدا لهم يوم القيامة بأنهم أسلموا وجوههم لله وأخلصوا له العبادة وأقوالهم هذه التى حكاها القرآن عنهم تدل على أنهم كانوا فى الدرجة العليا من قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، ونقاء السريرة .

ثم حكى القرآن عنهم أنهم قالوا - أيضا - « ربنا آمنا بما أنزلت » على أنبيائك من كتب « واتبعنا الرسول » أى امتثلنا ما أتى به منك إلينا « فاكتبنا مع الشاهدين » أى فاكتبنا بفضلك ورحمتك مع الشاهدين بوحدانيتك العاملين بشريعتك المستحقين لرضاك ورحمتك .

فهم قد صدروا ضراعتهم إلى الله - تعالى - بالاعتراف الكامل بربوبيته، ثم أعلنوا إيمانهم به وبما أنزله على انبيائه، ثم أقروا باتباعهم لرسوله والأخذ بسنته، ثم التمسوا منه - سبحانه - بعد ذلك أن يجعلهم من عباده الذين رضى عنهم وأرضاهم.

وهذا يدل على أنهم فى نهاية الأدب مع الله - تعالى -، وعلى أنهم فى أسمى مراتب الإيمان. قال بعض العلماء: وكان عدد هؤلاء الجواريين اثنى عشر رجلا آمنوا بعيسى وصدقوه ولازموه فى دعوته إلى الحق.

ثم حكى سبحانه - ما كان من بنى إسرائيل فقال: «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين». والمكر: التدبير المحكم، أو صرف غيرك عما يريده بحيلة. وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الخير والجميل.

والمعنى: أن أولئك اليهود الذين أحس عيسى منهم الكفر دبروا له القتل غيلة، واتخذوا كل الوسائل لتنفيذ مآربهم الذميمة. فأحبط الله - تعالى - مكرهم، وأبطل تدبيرهم، بأن نجى نبيه عيسى - عليه السلام - من شرورهم «والله خير الماكرين» أى أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر قدرته، ورعايته لعبده عيسى - عليه السلام - وخذلانه لأعدائه فقال - تعالى -: «إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى .....».

وللعلماء فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال كثيرة أشهرها قولان:
أما القول الأول - وهو قول جمهور العلماء - فيرى أصحابه أن معنى «إنى متوفيك ورافعك إلى» أى قابضك من الأرض ورافعك إلى السماء بجسدك وروحك لتستوفى حظك من الحياة هناك.

وأصحاب هذا الرأى لا يفسرون التوفى بالموت وإنما يقولون: إن التوفى فى اللغة معناه أخذ الشىء تاما وافيا. فمعنى «متوفيك» آخذك وافيا بروحك

وجسدك ومعنى « ورافعك إلى » ورافعك إلى محل كرامتى فى السماء بالعطف للتفسير . يقال : وفيت فلانا حقه أى أعطيته إياه وافيا ، فاستوفاه وتوفاه أى أخذه كاملا .

قال القرطبي : قال الحسن وابن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت ، مثل توفيت مالى من فلان أى قبضته »[١] .

أما القول الثانى - وهو قول قلة من العلماء - فيرى أصحابه أن معنى « إنى متوفيك ورافعك إلى » أي : مميتك ورافع منزلتك وروحك إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى كما ترفع أرواح الأنبياء إليه - سبحانه - .

فأنت ترى أن أصحاب هذا الرأى يفسرون التوفى بالإماتة ، ويقولون إن هذا التفسير هو الظاهر من معنى التوفى ويفسرون « ورافعك إلى » بمعنى رفع الروح إلى السماء .

أى أن الله - تعالى - قد توفى عيسى كما يتوفى الأنفس كلها ، ورفع روحه إليه كما يرفع أرواح النبيين .

والذى تسكن إليه النفس هو القول الأول لأمور :

أولها : أن قوله - تعالى - فى سورة النساء « وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه ... »[٢] يفيد أن الرفع كان بجسم عيسى وروحه ، لأن الإضراب مقابل للقتل والصلب الذى أرادوه وزعموا حصوله ، ولا يصح مقابلا لهما رفعه بالروح ، لأن الرفع بالروح يجوز أن يجتمع معهما . ومادام الرفع بالروح لا يصح مقابلا لهما إذن يكون المتعين أن المقابل لهما هو الرفع بالجسد والروح

ثانيها : أن هناك أحاديث متعددة ، بلغت فى قوتها مبلغ التواتر المعنوى

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٠٠ .
(٢) تفسير الآيتان جـ ١٥٧ ، ١٥٨

- كما يقول ابن كثير - قد وردت فى شأن نزول عيسى إلى الأرض فى آخر الزمان ليملأها عدلا كما ملئت جورا ، وليكون حاكما بشريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يقتل الدجال ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، ويفيض المال وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين »(١) .

وظاهر هذا الحديث وما يشابهه من الأحاديث الصحيحة فى شأن نزول عيسى ، يفيد أن نزوله يكون بروحه وجسده كما رفعه الله إليه بروحه وجسده

ثالثاً : أن هذا القول هو قول جمهور العلماء ، وهو القول الذى يتناسب مع ما أكرم الله - تعالى - به عيسى - عليه السلام - من كرامات ومعجزات .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وجمهور العلماء على أن عيسى رفع حيا من غير موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء . والخصوصية له - عليه السلام - هى فى رفعه بجسده وبقائه فيها إلى الأمد المقدر له . ولا يصح أن يحمل التوفى على الإماتة لأن إماتة عيسى فى وقت حصار أعدائه ليس فيها ما يسوغ الامتنان بها ورفعه إلى السماء جثة هامدة سخف من القول . وقد نزه الله السماء أن تكون قبورا لجثث الموتى . وإن كان الرفع بالروح فقط فأى مزية لعيسى فى ذلك على سائر الأنبياء والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة . فالحق أنه - عليه السلام - رفع إلى السماء حيا بجسده . وكما كان - عليه السلام - فى مبدأ خلقه آية للناس ومعجزة ظاهرة ، كان فى نهاية أمره آية ومعجزة باهرة . والمعجزات بأسرها فوق قدرة البشر ومدارك العقول ، وهى من متعلقات القدرة الإلهية ومن الأدلة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - »(٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٧٨

(٢) صفوة البيان لمعانى القرآن ج ١٠٩،٢١٣ لفضيلة الأستاذ حسنين محمد مخلوف

هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين أقوالا أخرى للعلماء فى معنى هذه الآية الكريمة نرى من الخير عدم ذكرها لضعفها وخوف الإطالة (١) .

ومعنى الآية الكريمة : واذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ وقت أن قال الله - تعالى - لنبيه عيسى : « إنى متوفيك » أى آخذك وافيا بروحك وجسدك من الأرض « ورافعك إلى » أى ورافعك إلى محل كرامتى فى السماء لتستوفى حظك من الحياة هناك إلى أن آذان لك بالنزول إلى الأرض .

« ومطهرك من الذين كفروا » بإبعادك عنهم ، وبإنجائك مما بيتوه لك من مكر سيء ، وبتبرئتك مما أشاعوه عنك وعن أمك من أكاذيب وأباطيل .

« وجاعل الذين اتبعوك » وهم المسلمون الذين آمنوا بك وصدقوك ، وصدقوا بكل نبي بعثه الله - تعالى - بدون تفرقة أنبيائه ورسله .

« فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » أى جاعل هؤلاء المؤمنين فوق الذين كفروا بك وبغيرك من الرسل إلى يوم القيامة .

أى فوقهم بحجتهم ، وبسلامة اعتقادهم ، وبقوتهم المادية والروحية إلى يوم القيامة .

فالمراد بأتباع عيسى هم الذين أخلصوا لله - تعالى - عبادتهم ، وأقروا بوحدانيته - سبحانه - ، ونزهوا عيسى عن أن يكون ابن الله أو ثالث ثلاثة أو غير ذلك من الأقاويل الباطلة .

والمراد بالفوقية ما يتناول الناحيتين الروحية والمادية ، أى هم فوقهم بقوة إيمانهم ، وحسن إدراكهم ، وسلامة عقولهم . وهم فوقهم كذلك بشجاعتهم وحسن اتخاذهم للأسباب التى شرعها الله - تعالى - كوسائل للنصر والفوز ولذا قال صاحب الكشاف قوله « فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة »

(١) تفسير راجع تفسير الآلوسى ج ٤ ص ١٧٩ . وتفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٧١ .

أى يعلونهم بالحجة وفى أكثر الأحوال بها وبالسيوف . ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه فى أصل الإسلام ، إن إختلفت الشرائع ، دون الذين كذبوه والذين كذبوا عليه من اليهود والنصارى »(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .

أى : ثم إلى الله مرجعكم ومصيركم أيها الناس فيتولى - سبحانه - الحكم العادل بينكم فيما كنتم تختلفون فيه فى دنياكم من شئون دينية أو دنيوية .

ثم فصل سبحانه - هذا الحكم الذى سيحكم به على عباده يوم القيامة فقال: «فأما الذين كفروا» بى وبما يجب الإيمان به «فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة » .

أى فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا بإيقاع العداوة والبغضاء والحروب بينهم ، وبما يشبه ذلك من هزائم وأمراض وشقاء نفس لا يعلم مقدار ألمه إلا الله - تعالى - وأما فى الآخره فيساقون إلى عذاب النار وبئس القرار .

وقد أكد - سبحانه - شدة هذا العذاب بعدة تأكيدات منها نسبة العذاب إليه - سبحانه - وهو القوى القهار الغالب على كل شىء ، ومنها التأكيد بالمصدر ومنها الوصف بالشدة ، ومنها الإخبار بأنه لا ناصر لهم ينصرهم من هذا العذاب الشديد فى قوله - تعالى - « وما لهم من ناصرين » أى ليس لهم من ناصر أيا كان هذا الناصر ، وأيا كانت نصرته ولو كانت نصرة ضئيلة لا وزن لها ولا قيمة.

هذا هو جزاء الكافرين ، وأما جزاء المؤمنين فقد بينه - سبحانه - بقوله « وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم » .

أى فسيعطيهم - سبحانه - بفضله وإحسانه بسبب إيمانهم وعملهم الصالح

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦٧

أجورهم كاملة غير منقوصة ، من ثواب جزيل ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله أكبر من كل ذلك .

ففى هذه الجملة الكريمة بشارة عظمى للمؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريقه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « والله لا يحب الظالمين » .

أى أنه - سبحانه - عادل فى أحكامه ، ويكره الظلم والظالمين الذين لا يضعون الأمور فى مواضعها .

ومن أفحش أنواع الظلم ما تقوله أهل الكتاب على عيسى - عليه السلام - فقد زعم بعضهم أنه ابن الله ، وزعم فريق آخر أنه ثالث ثلاثة ، وافترى عليه اليهود وعلى أمه مريم البتول المفتريات التى برأهما الله - تعالى - منها .

أما الذين آمنوا فقد قالوا فى عيسى وأمه قولا كريما ، ولذلك كافأهم الله - تعالى - بما يستحقون من ثواب .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا من فضائل عيسى - عليه السلام - ، وبينت للناس جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين حتى يثوبوا إلى رشدهم ويسلكوا الطريق القويم .

وبعد أن حكى الله - تعالى - فى الآيات السابقة ولادة عيسى - عليه السلام - وما أجراه على يديه من معجزات ، وما أكرمه به من مكرمات ، وكيف كان موقف بنى إسرائيل منه ، وكيف أبطل الله مكرهم وخيب سعيهم ، إذ رفعه إليه وطهره من أقوالهم الباطلة وأفعالهم الآثيمة ، وتوعد أعداءه بالعذاب الشديد ، ووعد أتباعه بالثواب الجزيل ... بعد أن حكى القرآن كل ذلك ختم حديثه عن عيسى - عليه السلام - ببيان حقيقة تكوينه ، وبإزالة وجه الغرابة فى ولادته ، وبتلقين النبى - صلى الله عليه وسلم - الرد الصحيح على كل مجادل فى شأن عيسى - عليه السلام - استمع إلى القرآن وهو يصور كل ذلك بأسلوبه المعجز فيقول :

« ذَلِكَ نتلوه عَلَيْكَ من الآياتِ والذِّكْرِ الحكيم (٥٨) إنّ مثلَ عيسى عند اللهِ كمثلِ آدمَ خلقه مِنْ ترابٍ ثم قال له كُنْ فيكونُ (٥٩) الحقُّ مِنْ رَبِّكَ فلا تكن مِنَ الممترين (٦٠) فمَنْ حاجّكَ فيه مِنْ بعدِ ما جاءكَ مِنَ العلمِ فقلْ تعالَوْا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهلْ فنجعلْ لعنتَ اللهِ على الكاذبين (٦١) إنّ هذا لهُوَ القصصُ الحقُّ وما مِنْ إلهٍ إلاّ اللهَ وإنّ اللهَ لهُوَ العزيزُ الحكيمُ (٦٢) فإنْ تولّوا فإنّ اللهَ عليمٌ بالمفسدين (٦٣) » .

وقوله ـ تعالى ـ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ، اسم الإشارة فيه وهو ، ذلك ، مشار به إلى المذكور من قصة آل عمران ، وقصة مريم وأمها ، وقصة زكريا وندائه لربه ، وقصة عيسى وما أجراه الله ـ تعالى ـ على يديه من معجزات وما خصه به من كرامات . . . .

أى ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد « نتلوه عليك » أى نقصه عليك متتابعا بعضه تلو بعض من غير أن يكون لك إطلاع سابق عليه. فأنت لم تكن معاصراً لهؤلاء الذين ذكرنا لك قصصهم وأحوالهم ، وهذا من أكبر الأدلة على صدقك فيما تبلغه عن ربك .

وقوله « ذلك » مبتدأ ، وقوله « نتلوه عليك . . . » خبره .

وقوله « من الآيات » حال من الضمير المنصوب فى « نتلوه » .

والمراد بالآيات الحجج الدالة على صدق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وقوله « والذكر الحكيم » أى والقرآن المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمشتمل على الحكم التى من شأنها أن تهدى الناس إلى ما يسعدهم متى اتبعوها . وقيل المراد بالذكر الحكيم اللوح المحفوظ الذى نقلت منه جميع الكتب المنزلة على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن خلق عيسى من غير أب ليس مستبعدا على

الله - تعالى - ، فقد خلق آدم كذلك فقال - « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

والمثل هنا : بمعنى الصفة والحال العجيبة الشأن ، ومحل التمثيل كون كليهما قد خلق بدون أب ، والشيء قد يشبه بالشيء متى اجتمعا ولو في وصف واحد .

والمعنى : إن شأن عيسى وحاله الغريبة « عند الله » أي في تقديره وحكمه « كمثل آدم » ، أي كصفته وحاله العجيبة في أن كليهما قد خلقه الله - تعالى - من غير أب ، ويزيد آدم على عيسى أنه خلق بدون أم - أيضا - .
فالآية الكريمة ترد رداً منطقيا حكيما يهدم زعم كل من قال بألوهية المسيح أو اعتبره ابن الله . . .

وكأن الآية الكريمة تقول لمن أدعى ألوهية عيسى لأنه خلق من غير أب : أنه إذا كان وجود عيسى بدون أب يسوغ لكم أن تجعلوه إلها أو ابن إله: فأولى بذلك ثم أولى آدم ، لأنه خلق من غير أب ولا أم . ومادام لم يدع أحد من الناس ألوهية آدم لهذا السبب ، فبطل حينئذ القول بألوهية عيسى لانهيار الأساس الذي قام عليه وهو خلقه من غير أب .

ولأنه إذا كان الله - تعالى - قادرا على أن يخلق إنسانا بدون أب ولا أم . فأولى ثم أولى أن يكون قادرا على خلق إنسان من غير أب فقط . ومن أم هي مريم التي تولاها - سبحانه - برعايته وصيانته لها من كل سوء وجعلها وعاء لهذا النبي الكريم عيسى - عليه السلام - .

قال صاحب الكشاف: وقوله «خلقه من تراب» جملة مفسرة لما قبلها شبه عيسى بآدم أي للأمر الذي لأجله كان ذلك التشبيه - أي خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم . وكذلك حال عيسى «فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب ووجد آدم من غير أب وأم ؟ قلت : هو مثيله في أحد الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأن المماثلة مشاركة

فى بعض الأوصاف ، ولأنه شبه به لأنه وجد وجوداً خارجا عن العادة المستمرة ، وهما فى ذلك نظيران ، ولأنه الوجود من غـــير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب ، فشبه الغريب بالأغرب ؛ ليكون أقطع للخصم ، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيم هو أغرب مما استغربه »(١) .

وقوله (ثم قال له كن فيكون) تصوير لخلق الله - تعالى - آدم من تراب أى أراد - سبحانه - أن يوجد آدم فصوره من طين ثم قال له حين صوره بشرا فصار كاملا روحا وجسدا كما أمر - سبحانه - .

فالجملة الكريمة تصور نفاذ قدرة الله ، تصويرا بديعا ، يدل على أنه - سبحانه - لا يعجزه شىء فى هذا الكون .

وعبر بصيغة المضارع المقترن بالفاء فى « فيكون » دون الماضى بأن يقول « فكان » ، لأن التعبير بالمضارع فيه تصوير وإحضار للصورة الواقعة كما

وقعت ، ومن جهة أخرى فإن صيغة المضارع فى هذا المقام تنبىء عما كان ، وتومىء إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله - تعالى - المستمر فى المستقبل كما كان فى الماضى .

ثم بين - سبحانه - أن ما أخبر به عباده فى شأن عيسى وغيره هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل فقال - تعالى - « الحق من ربك فلا تكن من الممترين » .

والامتراء : هو الشك الذى يدفع الإنسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق .

وهو - كما يقول الرازى - مأخوذ من قول العرب مريت الناقة والشاة إذا أردت حلبها ، فكأن الشاك يجتذب بشكه مراء كاللبن الذى يجتذب عند الحلب . يقال : قد مارى فلان فلانا إذا جادله كأنه يستخرج غضبه »(٢) .

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٨٠ .

والمعنى : هذا الذى أخبرناك عنه يا محمد من شأن عيسى ومن شأن غيره هو الحق الثابت اليقينى الذى لا مجال للشك فيه ، وما دام الأمر كذلك فأثبت على ما أنت عليه من حق ، ولا تكونن من الشاكين فى أى شىء مما أخبرناك به.

وقد أكد - سبحانه - أن ما أوحاه إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - هو الحق بثلاثة تأكيدات : أولها : بالتعريف فى كلمة « الحق » أى ما أخبرناك به هو الحق الثابت الذى لا يخالطه باطل . ثانيها : بكونه من عنده - سبحانه - ، وكل شىء من عنده فهو صدق لا ريب فيه . ثالثها : بالنهى عن الامتراء والشك فى ذلك الحق ، لأن من شأن الأمور الثابتة أن يتقبلها العقلاء بإذعان وتسليم وبدون جدل أو امتراء .

قال الآلوسى : وقوله « فلا تكونن من الممترين » خطاب له - صلى الله عليه وسلم - ولا يضر فيه استحالة وقوع الامتراء منه - عليه الصلاة والسلام - بل ذكروا فى هذا الأسلوب فائدتين :

إحداهما : أنه - صلى الله عليه وسلم - إذا سمع مثل هذا الخطاب تحركت منه الأريحية فيزداد فى الثبات على اليقين نورا على نور .

وثانيتهما : أن السامع يتنبه بهذا الخطاب على أمر عظيم فينزع وينزجر عما يورث الامتراء ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - مع جلالته التى لا تصل إليها الأمانى - إذا خوطب بمثله فما يظن بغيره ؟ ففى ذلك ثبات له صلى الله عليه وسلم - ولطف بغيره »(١) .

ثم لقن الله تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذى يقطع لسان المجادلين بالباطل فى شأن عيسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ... الخ » :

قال الفخر الرازى : اعلم أنه « سبحانه » بين فى أول هذه السورة وجوها

(١) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ١٨٧ .

من الدلائل القاطعه على فساد قول النصارى بالزوجة والولد ، وأتبعها بذكر الجواب على جميع شبههم على سبيل الاستقصاء التام ، وختم الكلام بهذه النكتة القاطعة لفساد كلامهم، وهو أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم أن يكون ابنا لله فكذلك لا يلزم من عدم الأب البشرى لعيسى أن يكون ابنا لله ؛ ولما لم يبعد خلق آدم من التراب لم يبعد أيضا خلق عيسى من الدم الذى كان يجتمع فى رحم أم عيسى . ومن أنصف وطلب الحق علم أن البيان قد بلغ إلى الغاية القصوى . فعند ذلك - قال سبحانه - « فمن حاجك » بعد هذه الدلائل الواضحة والجوابات اللائحة فاقطع الكلام معهم وعاملهم بما يعامل به المعاند ؛ وهو أن تدعوهم إلى الملاعنة ...»(١) .

والفاء فى قوله « فمن حاجك » للتفريع على قوله - تعالى - « الحق من ربك ... » وقوله « من » الراجح فيها أنها شرطية . وقوله « حاجك » من المحاجه وهى تبادل الحجه والمجادلة بين شخص وآخر .

والمعنى : فمن جادلك وخاصمك ، يامحمد ، من أهل الكتاب « فيه » أى فى شأن عيسى - عليه السلام - بأن زعموا أنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة أو غير ذلك من الأقاويل الكاذبة فى شأنه ،

وقوله « من بعد ما جاءك من العلم » أى فمن جادلك فى شأن عيسى من بعد الذى أنزلناه إليك وقصصناه عليك فى أمره ، فلا تبادله المجادلة ، فإنه معاند لا يقنعه الدليل مهما كان واضحا ، ولكن قل له ولأمثاله من الضالين :

« تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

وقوله « تعالوا » اسم فعل أمر لطلب القدوم . وهو فى الأصل أمر من تعالى يتعالى « كترامى يترامى » إذا قصد العلو . فكأنهم أرادوا به فى الأصل

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٨٢ .

أمرا بالصعود إلى مكان عال تشريفا للمدعو ، ثم شاع حتى صار لمطلق الأمر بالقدوم أو الحضور .

وقوله « ثم نبتهل » أى نتباهل ونتلاعن . فالافتعال هنا بمعنى المفاعلة أى بأن نقول : بهلة الله على الكاذب منا ومنكم . والبهلة والبهلة - بفتح الباء وضمها - اللعنة . يقال بهله الله يبهله بهلا ، لعنه وأبعده من رحمته ، ثم شاعت فى كل دعاء مجتهد فيه وإن لم يكن التعانا .

والمعنى : فإن جادلك أهل الكتاب فى شأن عيسى من بعد أن أخبرك ربك بما هو الحق من أمره، فقل لهم « تعالوا » أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر يعرف فيه الحق من الباطل ، وهو أن ندعو نحن وأنتم الأبناء والنساء ثم نجتمع جميعا فى مكان واحد ، ثم نتضرع إلى الله ونبتهل إليه بأن يجعل لعنته على الكاذبين فى دعواهم المنحرفين عن الحق فى اعتقادهم .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد لقنت النبي - صلى الله عليه وسلم - الجواب الحاسم الذى يخرس ألسنة المجادلين فى عيسى ، ويتحداهم - إن كانوا صادقين - أن يقبلوا هذه المباهلة ، ولكنهم نكصوا على أعقابهم فثبت كذبهم وضلالهم .

وهذه الآية الكريمة تسمى بآية المباهلة ، وقد ذكر العلماء أنها نزلت الرد على نصارى نجران الذين جادلوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فى شأن عيسى - عليه السلام - .

قال ابن كثير ما ملخصه . وكان سبب نزول هذه المباهلة وماقبلها من أول السورة إلى هنا فى وفد نصارى نجران حين قدموا المدينة ، فجعلوا يحاجون فى عيسى ويزعمون فيه مايزعمون من البنوة والألوهية ، فأنزل صدر هذه السورة ردا عليهم . . . وكانوا ستين راكبا منهم ثلاثة إليهم يؤول أمرهم وهم : العاقب أميرهم واسمه عبد المسيح ، والسيد صاحب رحلهم واسمه الأيهم ،

وأبو حارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم . وفى القصة أن النبى - صلى الله عليـه وسلم - لما أتاه الخبر من الله - تعالى - ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم . دعاهم إلى المباهلة فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا . . ثم خلوا بالعاقب فقالوا . ياعبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال . والله يامعشر النصارى لقد عرفتم إن محمدا لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط . فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم . . . . فأتوا النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالوا . يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، فلم يلاعنهم - صلى الله عليه وسلم - وأقرهم على خراج يؤدونه إليه .

وروى الحافظ ابن مردويه عن جابر قال : قدم على النبى - صلى الله عليه وسلم - العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة . قال : فغدا رسول الله - صلى الله عليه وسلم فأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج .

قال . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . والذى بعثنى بالحق لو لاعنا لأمطر عليهم الوادى نارا .

ثم قال . وروى البخارى عن حذيفة قال . جاء العاقب والسيد صاحب نجران إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، ثم قالا للنبى - صلى الله عليه وسلم - : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلا أمينا . فقال : لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين . فاستشرف لها أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح : فلما قام قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا أمين هذه الأمة(١) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٨ .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت ، ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه ، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه فما معنى ضم الأبناء والنساء ؟

قلت : ذلك آكد فى الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانه بصدقه ، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك ، ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة . وخص الأبناء والنساء ، لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل . ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن فى الحروب لتمنعهم من الهرب . . . وفى الآية دليل واضح على صحة نبوة النبى - صلى الله عليه وسلم - لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك »[1] .

ثم أكد - سبحانه - صدق ما أخبر به عن عيسى وغيره فقال : « إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم » .

أى ان الذى قصصناه عليك وأخبرناك به يا محمد من شأن عيسى ومن كل شأن من الشئون لهو القصص الثابت الذى لا مجال فيه لإنكار منكر ، ولا لتشكيك متشكك .

وقد أكد - سبحانه - صدق هذا القصص بحرف إن وباللام فى قوله « لهو » وبضمير الفصل « هو » ، وبالقصر الذى تضمنه تعريف الطرفين وذلك ليكون الرد حاسما على كل منكر ما أخبر الله به فى شأن عيسى - عليه السلام - ، وفى كل ماقصه على نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

(١) تفسير الكشاف ﺟ ٣ ص ١٦٩

وقوله « وما من إله إلا الله ... » نفى قاطع لأن يكون هناك إله سوى الله - تعالى - وإثبات بأن الألوهية الحقة إنما هى لله رب العالمين .

وقد أكد - سبحانه - نفى الألوهية عن غيره بكلمة « من » المفيدة لاستغراق النفى إستغراقا مستمرا ثابتا مؤكدا .

وقوله « وما من إله إلا الله » « ما » نافية ، و « إله » فى قوله « من إله » مبتدأ و « من » مزيدة فيه ، و « إلا الله » خبره والتقدير : وما إله إلا الله ، وزيدت من للاستغراق والعموم .

وقوله « وإن الله لهو العزيز الحكيم » تذييل قصد به تأكيد قصر الألوهية على الله - تعالى - وحده أى وإن الله - تعالى - لهو المنفرد بالألوهية وحده ، لأنه هو الغالب الذى يقهر ولا يقهر ؛ الحكيم فى كل ما يخلقه ويدبره .

وفى هذا التذييل أيضا رد على أولئك الضالين الذين يزعمون أن المسيح إله ، ويعتقدون مع ذلك أنه صلب ولم يستطع أن يدافع عن نفسه .

ثم ختم - سبحانه - تلك المحاجة بقوله : « فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين » .

أى فإن أعرضوا عن اتباعك وتصديقك بعد هذه الآيات البينات والحجج الواضحات التى أخبرناك بها وقصصناها عليك ، فأنذرهم بسوء العاقبة ، وأخبرهم أن الله - تعالى - عليم بهم ، وبما يقولونه ويفعلونه من فساد فى الأرض ، وسيعاقبهم على ذلك العقاب الأليم .

فقوله « فإن الله عليم بالمفسدين » قائم مقام جواب الشرط ، أى فإن تولوا فأخبرهم بأنهم مفسدون وأن لهم سوء العقبى لأن الله عليم بإفسادهم ولن يتركهم بدون عقوبة .

وهذه الجملة الكريمة تتضمن فى ذاتها تهديدا شديداً لهؤلاء المجادلين بالباطل

فى شأن عيسى - عليه السلام - ولكن كل من أعرض عن الحق الذى جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - لأن الله - تعالى - ليس غافلا عن إفساد المفسدين، وإنما يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد بينت بأسلوب معجز حكيم جانبا من قصة آل عمران فحدثتنا عما كان من امرأته أم مريم، وما قالته عندما حملت بها، وما قالته بعد ولادتها، وما أكرم الله به مريم من رعايتها بالتربية الحسنة وبالرزق الحسن، ثم ما كان من شأن زكريا وتضرعه إلى الله أن يهبه الذرية الصالحة واستجابة الله له وتبشيره بولادة يحيى، ثم ما كان من شأن مريم وتبشيرها باصطفاء الله لها وأمرها بالمداومة على طاعته. ثم تبشيرها بعيسى وتعجبها لذلك والرد عليها بما يزيل هذا العجب، ثم ما كان من شأن عيسى - عليه السلام - وما وصفه به من صفات كريمة، وما منحه من معجزات باهرة تشهد بصدقه فى رسالته، مما جعل الحواريين يؤمنون به، أما الأكثرون من بنى إسرائيل فقد كفروا به ودبروا له المكايد فأنجاه الله من مكرهم ورفعه إليه وطهره منهم ...

ثم بين القرآن أن عيسى عبد الله ورسوله، وأن هذا هو الحق، وقد تحدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - كل من نازعه فى ذلك بالمباهلة ولكن المجادلين نكصوا على أعقابهم، فثبت صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه.

وبذلك يكون القرآن قد بين الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - بيانا يهدى القلوب، ويقنع العقول، ويحمل النفوس على التدبر والاعتبار، وإخلاص العبادة لله رب العالمين.

ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء عاما إلى أهل الكتاب، دعاهم فيه - فى بضع آيات متواليه - إلى عبادة الله وحده، إلى ترك المحاجة الباطلة فى شأن الأنبياء

ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وإلى الاقلاع عن الكفر بآيات الله وعن تلبيس الحق بالباطل، وعن كتمان الحق مع علمهم بأنه حق . . .

إستمع إلى القرآن وهو يسوق هذه النداءات داعيا أهل الكتاب إلى كلمة الحق فيقول :

« قُلْ يا أَهْلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم، أَلاَّ نَعبُدَ إلا اللهَ ولا نُشرِكَ به شيئاً، ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دُونِ اللهِ، فإنْ تولَّوْا فقولُوا اشهدُوا بأنَّا مُسلِمونَ (٦٤) يا أهلَ الكتابِ لِمَ تحاجُّونَ في إبراهِيمَ وما أُنزِلَتِ التوراةُ والإنجيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِه أَفلاَ تعقلونَ (٦٥) ها أَنتُم هؤلاءِ حاجَجْتُم فيما لكُم به علمٌ فلِمَ تحاجُّونَ فيما ليسَ لكُم به علمٌ واللهُ يعلمُ وأَنتُم لاتعلمونَ (٦٦) ما كانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نَصْرَانياً ولكنْ كانَ حنيفاً مُسلِماً وما كان من المشرِكِينَ (٦٧) إنَّ أَوْلَى الناسِ بإبراهيمَ للَّذِينَ اتَّبعُوهُ وهذا النبيُّ والذينَ آمنُوا، واللهُ وليُّ المؤمنينَ (٦٨) وَدَّتْ طائفَةٌ من أهل الكتابِ لو يُضِلونَكُم وما يُضِلونَ إلاَّ أَنفُسَهم وما يشعُرونَ (٦٩) يا أهل الكتابِ لِمَ تكفُرونَ بآياتِ اللهِ وأَنتُم تَشهدُونَ (٧٠) يا أهلَ الكتابِ لِمَ تلبِسُونَ الحَقَّ بالباطلِ وتكتُمُونَ الحقَّ وأَنتُم تعلمونَ (٧١) » .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وجه إلى أهل الكتاب أربع نداءات في هذه الآيات الكريمة ، أما النداء الأول فقد طلب منهم فيه أن يثوبوا إلى رشدهم . وأن يخلصوا لله العبادة . فقال « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم . . . » .

والسواء : العدل والنصفة . أي قل يا محمد لأهل الكتاب : هلموا وأقبلوا إلى كلمة ذات عدل وإنصاف بيننا وبينكم .

أو السواء : مصدر بمعنى مستوية أى هلموا إلى كلمة لاتختلف فيها الرسل والكتب المنزلة والعقول السليمة لأنها كلمة عادلة مستقيمة ليس فيها ميل عن الحق .

ثم بين ـ سبحانه ـ هذه الكلمة العادلة المستقيمة التى هى محل إتفاق بين الأنبياء فقال : « ألا نعبد إلا الله » أى نترك نحن وأنتم عبادة غير الله ، بأن نفرده وحده بالعبادة والطاعة والإذعان .

« ولا نشرك به شيئا » أى ولا نشرك معه أحداً فى العبادة والخضوع ، بأن نقول : فلان إله ، أو ابن إله ، أو أن الله ثالث ثلاثة .

« ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله » أى ولا يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله .

قال الآلوسى : ويؤيده ما أخرجه الترمذى وحسنه من حديث عدى بن حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قال : ما كنا نعبدهم يارسول الله . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أما كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال : نعم فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هو ذاك. قيل وإلى هذا أشار ـ سبحانه ـ بقوله : « إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو ... »[1].

فالآية الكريمة قد نهت الناس جميعا عن عبادة غير الله ، وعن أن يشرك معه فى الألوهية أحد من بشر أو حجر أو غير ذلك ، وعن أن يتخذ أحد من البشر فى مقام الرب ـ عز وجل ـ بأن يتبع فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حلله الله أو حرمه .

ولقد كانت رسالة الأنبياء جميعا متفقة فى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده وقد حكى القرآن فى كثير من الآيات هذا المعنى . ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ... »[2]

(١) تفسير الالوسى جـ ٣ ص ١٩٣

(٢) سورة النحل الاية ٣٦ .

وقوله – تعالى – : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »[1] .

ثم أرشد الله – تعالى – المؤمنين إلى ما يجب عليهم أن يقولوه إذا مالج الجاحدون فى طغيانهم فقال : « فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » .

أى فإن أعرض هؤلاء الكافرون عن دعوة الحق ، وانصرفوا عن موافقتكم بسبب ما هم عليه من عناد وجحود ، فلا تجادلوهم ولا تحاجوهم ، بل قولوا لهم: أشهدوا بأنا مسلمون مذعنون لكلمة الحق ، بخلاف فكم أنتم فقد رضيتم بما أنتم فيه من باطل .

قال صاحب الكشاف وقوله « فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » أى لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم . وذلك كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال أو صراع أوغيرهما : أعترف بأنى أنا الغالب وسلم لى بالغلبة . ويجوز أن يكون من باب التعريض ومعناه : أشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره »[2] .

هذا ، وتعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التى تهدى الناس إلى طريق الحق بأسلوب منطقى رصين ، ولذا كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يكتبها فى بعض رسائله التى أرسلها إلى الملوك والرؤساء ليدعوهم إلى الإسلام

فقد جاء فى كتاب النبى – صلى الله عليه وسلم – إلى هرقل – ملك الروم – : « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين . « ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا الخ الآية »[3] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٧١ .

(٣) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٠٥ والأريسيون هم : العمال والفلاحون وعامة الشعب

وأما النداء الثانى الذى إشتملت عليه هذه الآيات ، فقد تضمن نهى أهل الكتاب عن الجدال بالباطل فى شأن إبراهيم - عليه السلام - ، قال - تعالى - « أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة الإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون » .

قال ابن جرير : عن ابن عباس قال : إجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله فتنازعوا عنده . قالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فانزل الله - تعالى - فيهم : « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم . . الآية »(١) .

وقوله « تحاجون » من المحاجة ومعناها أن يتبادل المتخاصمان الحجة بأن يقدم كل واحد حجة ويطلب من الآخر أن يرد عليها .

والمعنى : لا يسوغ لكم يا معشر اليهود والنصارى أن تجادلوا فى دين إبراهيم وشريعته فيدعى بعضكم أنه كان على الديانة اليهودية ، ويدعى البعض الآخر أنه كان على الديانة النصرانية ، فإن التوراة والإنجيل ما نزلا إلا من بعده بأزمان طويلة ، فكيف يكون يهوديا يدين بالتوراة مع أنها ما نزلت إلا من بعده ، أو كيف يكون نصرانيا يدين بالإنجيل مع أنه ما نزل إلا من بعده ، بآلاف السنين ؟ إن هذه المحاجة منكم فى شأن إبراهيم ظاهرة البطلان واضحة الفساد .

وقوله « أفلا تعقلون » أى أفلا تعقلون يا أهل الكتاب هذا الأمر البدهى وهو أن المتقدم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعا للشيء المتأخر عنه ؟

فالاستفهام لتوبيخهم وتجهيلهم فى دعواهم أن إبراهيم - عليه السلام - كان يهوديا أو نصرانيا .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣ ص ٣٠٥ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٥٤

ثم بين - سبحانه - مظهراً آخر من مظاهر مخالفة أهل الكتاب لمقتضيات العقول السليمة وهو أنهم يجادلون فى أمر ليس عندهم أسباب العلم به فقال - تعالى - : « ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس به علم . . . » .

والمعنى : أنتم يا معشر أهل الكتاب جادلتم وبادلتم الحجة - سواء أكانت صحيحة أم فاسدة فى أمر لكم به علم فى الجملة ، كجدالكم فيما وجدتموه فى كتبكم من أمر موسى وعيسى - عليهما السلام - ، أو كجدالكم فيما جاء فى التوراة والإنجيل من أحكام ، ولكن كيف أبحتم لأنفسكم أن تجادلوا فى أمر ليس لكم به علم أصلا ، وهو جدالكم فى دين إبراهيم وشريعته ؟ لأنه من البديهى أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا إذ وجوده سابق على وجودهما بأزمان طويلة .

وإذن فجدالكم فى شأن إبراهيم هو لون من ألوان جهلكم ومخالفتكم لكل ما تقتضيه العقول السليمة ، والنفوس المستقيمة .

وقوله - تعالى - « ها أنتم هؤلاء حاججتم » ها حرف تنبيه ، وأنتم مبتدأ ، وهؤلاء منادى بحرف نداء محذوف (وحاججتم) خبر المبتدأ أنتم . والتقدير : أنتم يا هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم . . .

ويرى صاحب الكشاف أن قوله (أنتم) مبتدأ و (هؤلاء) خبره . و (حاججتم) جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى . والمعنى : أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم (فيما لكم به علم) مما نطق به التوراة والإنجيل ، (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) ولا ذكر له ، فى كتابيكم من دين إبراهيم . . ومعنى الإستفهام التعجب من حماقتهم . .)[1] .

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٧١

وتكرير هاء التنبيه فى قوله «ها أنتم هؤلاء» يشعر بغرابة ماهم عليه من جهل، ومجافاته لكل منطق سليم.

قال الرازى: وقوله «ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم» يحتمل أنه لم يصفهم بالعلم حقيقة، وإنما أراد أنكم تستجيزون محاجته فيما تدعون علمه فكيف تحاجونه فيما لا علم لكم به ألبتة» (١).

وقوله - تعالى - «والله يعلم وأنتم لا تعلمون» تذييل قصد به تأكيد علم الله الشامل، ونفى العلم عن أهل الكتاب فى شأن إبراهيم.

أى والله - تعالى - يعلم حال إبراهيم ودينه، ويعلم كل شىء فى هـذا الوجود، وأنتم لا تعلمون ذلك.

ثم صرح - سبحانه - ببراءة إبراهيم من دين يخالف دين الإسلام فقال - تعالى - : «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين».

وقوله «حنيفا» من الحنف وهو ميل عن الضلال إلى الإستقامة، بعكس الجنف فهو ميل عن الإستقامة إلى الضلال. ويقال: تحنف الرجل أى تحرى طريق الاستقامة.

أى: ما كان إبراهيم - عليه السلام - فى يوم من الأيام يهوديا كما قال اليهود، ولا نصرانيا كما قال النصارى، ولكنه كان حنيفا أى مائلا عن العقائد الزائفة، متحريا طريق الاستقامه، وكان «مسلما» أى مستسلما لله - تعالى - منقادا له مخلصا له العبادة «وما كان من المشركين» الذين يشركون مع الله آلهة أخرى، بأن يقولوا إن الله ثالث ثلاثة، أو يقولوا عزير ابن الله أو المسيح ابن الله، أو غير ذلك من الأقوال الباطلة، والأفعال الفاسدة.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٩٥.

ففى هذه الآية الكريمة تنويه بشأن إبراهيم، وتعريض بأولئك الكافرين من أهل الكتاب الذين يدعون أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا بأنهم هم المشركون بخلاف إبراهيم فقد كان مبرءا من ذلك .

ثم أصدر ـ سبحانه ـ حكمه الجاسم العادل فى هذه القضية التى كثر الجدل فيها فقال : « إن أولى الناس بإبراهيم للذين إتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » .

وقوله ـ تعالى ـ « أولى » أفعل تفضيل من الولى وهو القرب .

والمعنى : إن أقرب الناس من إبراهيم ، وأخصهم به ، وأحقهم بالإنتساب إليه أصناف ثلاثة :

أولهم : بينه الله بقوله « للذين إتبعوه » أى الذين أجابوا دعوته فى حياته واتبعوا دينه وشريعته بعد مماته .

وقد أكد الله ـ تعالى ـ حكمه هذا بحرف « إن » وبأفعل التفضيل « أولى » وباللام فى قوله « للذين إتبعوه » ليرد على أقاويل أهل الكتاب ومفترياتهم حيث زعموا أنه كان يهوديا أو نصرانيا .

وثانى هذه الأصناف : بينه ـ سبحانه ـ بقوله « وهذا النبى » والمراد به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الداعى إلى التوحيد الذى دعا إليه إبراهيم .

والجملة الكريمه من عطف الخاص على العام للإهتمام به وللإشعار بأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

وثالث هذه الأصناف : بينه الله ـ تعالى ـ بقوله « والذين آمنوا » أى الذين آمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإتبعوه .

وفى هذا تنويه بشأن الأمة الإسلاميه ، وتقرير بأن إتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحق بالانتساب إلى إبراهيم من أهل الكتاب ، لأن المؤمنين

طلبوا الحق وآمنوا به ، أما أهل الكتاب فقد باعوا دينهم بدنياهم ، وتركوا الحق جريا وراء شهواتهم .

وقوله « والله ولى المؤمنين » تذييل مقصود به تبشير المؤمنين بأن الله - تعالى هو ناصرهم ومتولى أمورهم .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يقول الله - تعالى - إن أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين إتبعوه على دينه ، وهذا النبى يعنى محمداً - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم . فعن ابن مسعود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لكل نبي ولاة من النبيين وإن وليى منهم أبى وخليل ربى إبراهيم . ثم قرأ : إن أولى الناس بإبراهيم للذين إتبعوه .. الآية »[1] .

ثم حكى - سبحانه - أن بعض أهل الكتاب لايكتفون بما هم فيه من ضلال بل يحاولون أن يضلوا غيرهم فقال - تعالى - : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم » . . .

وقوله - تعالى - « ودت » من الود وهو محبة الشىء وتمنى حصوله ووقوعه .

أى تمنت وأحبت جماعة من أهل الكتاب إضلالكم عن الحق - أيها المؤمنون - ، وذلك بأن ترجعوا عن دين الإسلام الذى هداكم الله إليه ، إلى دين الكفر الذى يعتنقه أولئك الكافرون من أهل الكتاب .

ولم يقف بغى بعض أهل الكتاب وحدهم عند هذا التمنى ، بل تجاوزوه إلى إلقاء الشبهات حول دين الإسلام ، وإلى محاولة صرف بعض المسلمين عن دينهم .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٢ .

قال القرطبي : نزلت ـ هذه الآية ـ فى معاذ بن جبل ، وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ، حين دعاهم اليهود من بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع إلى اليهودية (١) .

والمراد بالطائفة رؤساء أهل الكتاب وأحبارهم . ومن للتبعيض ، وهى مع مجرورها فى محل رفع نعت لطائفة .

و « لو » فى قوله « لو يضلونكم » مصدرية أى ودت طائفة من أهل الكتاب إضلالكم .

وقوله « وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » جملة حالية .

أى : والحال أنهم ما يضلون أى ما يهلكون إلا أنفسهم بسبب غوايتهم واستيلاء الأهواء على قلوبهم ، وإيثارهم العمى على الهدى ولكنهم لا يشعرون بذلك ولا يفطنون له ، لأنهم قد زين لهم الشيطان سوء عملهم فرأوه حسنا .

وأما النداء الثالث الذى اشتملت عليه هذه الآيات فهو قوله : « يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون » .

أى : لماذا تكفرون بآيات الله — تعالى — التى يتلوها عليكم نبيه محمد — صلى الله عليه وسلم — والحال أنكم تعلمون صدقها وصحتها علما يقينا كعلم المشاهدة والعيان ، وتعرفون أنه نبى حقا كما تعرفون أبناءكم .

والاستفهام فى قوله « لم تكفرون » لتوبيخهم ، والتعجب من شأنهم ، وإنكار ما هم عليه من كفر بآيات مع علمهم بصدقها .

وفى هذا النداء إشارة إلى أن ما أعطوه من علم كان يقتضى منهم أن يسارعوا إلى الإيمان لا أن يكفروا بآيات الله الدالة على صدق نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتى تتناول القرآن الكريم ، والحجج والمعجزات التى جاءهم بها ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٤ ص ١١٠

ثم وجه إليهم - سبحانه - نداء رابعا نهاهم فيه عن الخلط بين الحق والباطل وعن كتمان الحق بعد أن نهاهم قبل ذلك عن الكفر بالآيات فقال - تعالى - : يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ».

وقوله : « تلبسون » أى تخلطون ، من اللبس - بفتح اللام - أى الخلط وفعله لبس من باب ضرب .

تقول : لبست عليه الأمر ألبسه إذا مزجت بينه بمشكله وحقه بباطله فى ستر وخفاء .

أى : يا أهل الكتاب لماذا تخلطون الحق الواضح الذى نطقت به الكتب السماوية ، وأيدته العقول السليمة ، بالباطل الذى تخترعونه من عند أنفسكم إرضاء لأهوائكم ؟ ولماذا تكتمون الحق الذى تعرفونه كما تعرفون أبناءكم بغية إنصراف الناس عنه ، لأن من جهل شيئا عاداه .

وفى تكرار النداء والاستفهام زيادة فى توبيخهم والانكار عليهم ، والتعجيب من شأنهم ، ذلك لأنهم جمعوا أخس أنواع الرذائل التى على رأسها كفرهم بآيات الله ، وخلطهم الحق بالباطل وكتمان الحق عمن يريده .

ولدعاة الضلالة طريقتان فى إغواء الناس :

إحداهما : طريقة خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر وهى المشار اليها بقوله - تعالى - : « لم تلبسون الحق بالباطل » .

والثانية : طريقة جحد الحق وإخفائه حتى لا يظهر ، وهى المشار إليها بقوله - تعالى - : « وتكتمون الحق » .

وقد استعمل أهل الكتاب الطريقتين لصرف الناس عن الاسلام . فقد كان بعضهم يؤول نصوص كتبهم الدالة على صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - تأويلا فاسدا ، يخلط فيه الحق بالباطل ليوهموا العامة أنه ليس

هو النبي المنتظر . وكان بعضهم يلقى حول الحق شبها ليوقع ضعفاء الإيمان فى حيرة وتردد ، وكان بعضهم يخفى أو يحذف النصوص الدالة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - أو التى لا توافق أهواءهم .

وقوله : « وأنتم تعلمون » جملة حالية . أى وأنتم تعلمون أن ما أخفيتموه وما لبستموه هو الحق . أو وأنتم من ذوى العلم ولا يناسب من كان كذلك أن يكتم الحق أو يخلطه بالباطل ، وإذا كان هذا الفعل يعد من كبائر الذنوب حتى ولو وقع من شخص عادى ، فإن وقعه يكون أقبح وفساده أكبر وعاقبته أشأم ، متى صدر من عالم فاهم يميز بين الحق والباطل .

قال أبو حيان : « وهذه الحال وإن كان ظاهرها أنها قيد فى النهى عن اللبس والكتم ، إلا أنها لا تدل بمفهومها على جواز اللبس والكتم حالة الجهل إذ الجاهل بحال الشيء لا يدرى كونه حقا أو باطلا . وإنما فائدتها بيان أن الإقدام على الأشياء القبيحة مع العلم بها أفحش من الإقدام عليها مع الجهل »(١) .

وبعد هذه النداءات المتكررة لأهل الكتاب ، والحجج الباهرة التى ساقها لهم على صحة هذا الدين ، والتوبيخات المتعددة التى وبخهم بها لانصرافهم عن الحق ومحاولتهم صرف غيرهم عنه بعد كل ذلك ، أخذ القرآن فى سرد بعض المسالك الخبيثة التى سلكها اليهود لكيد الإسلام والمسلمين ، فبدأ ببيان مسلك لئيم من مسالكهم الكثيرة ، وهو أن بعضهم كان يظهر الإيمان لفترة من الوقت ثم يرجع عنه إلى الكفر ، ليوهم ضعاف العقول أنه ما رجع عن الإسلام إلا بعد أن دخله فوجده دينا ليس بشيء - فى زعمه - ...

استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك لكى يطلع أتباعه على مسالك اليهود ومكرهم حتى يحذروهم ، فيقول :

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان . ج ١ ص ١٨٠

«وقالَتْ طائفةٌ من أهلِ الكتابِ آمِنُوا بالذى أُنزِلَ على الذين آمَنُوا وجْهَ النَّهارِ واكفرُوا آخِرَهُ لعلَّهم يرجِعُونَ (٧٢) ولا تؤمِنُوا إلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دينَكُمْ ، قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أحدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُم أو يُحاجُّوكُم عِندَ رَبِّكُم ، قُلْ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يشاءُ وَاللهُ واسعٌ عليمٌ (٧٣) يَختصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يشاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العظيم (٧٤)»

فأنت إذا تأملت فى هذه الآيات الكريمة تراها قد حكت عن طائفة من أهل الكتاب طريقة ماكرة لئيمة ، هى تظاهرهم بالإسلام لفترة من الوقت ليحسن الظن بهم من ليس خبيرا بمكرهم وخداعهم ، حتى إذا ما اطمأن الناس إليهم جاهروا بكفرهم ، ورجعوا إلى ما كانوا عليه ، ليوهموا حديثى العهد بالإسلام أو ضعاف الإيمان ، أنهم قوم يبحثون عن الحقيقة ، وأنهم ليس عندهم أى عداء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل إن الذى حصل منهم هو أنهم بعد دخولهم فى الإسلام ، وجدوه دينا باطلا . وأنهم ما عادوا إلى دينهم القديم إلا بعد الفحص والاختبار وإمعان النظر فى دين الإسلام .

ولا شك أن هذه الطريقة التى سلكها بعض اليهود لصرف بعض المسلمين عن الإسلام من أقوى ما تفتق عنه تدبيرهم الشيطانى ؛ لأن إعلانهم الكفر بعد الإسلام ، وبعد إظهارهم الإيمان به ، من شأنه أن يدخل الشك فى القلوب ويوقع ضعاف الإيمان فى حيرة واضطراب ، خاصة وأن العرب ـ فى مجموعهم ـ قوم أميون : ومنهم من كان يعتقد أن اليهود أعرف منهم بمسائل العقيدة والدين . فيظن أنهم ما ارتدوا عن الإسلام إلا بعد اطلاعهم على نقص فى تعاليمه .

والمتتبع لمراحل التاريخ قديما وحديثا ، يرى أن الدهاة فى السياسة والحروب يتخذ هذه الخدعة ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب فى صفوف أعدائه .

قال الأستاذ الشيخ محمد عبده - رحمه الله - : هذا النوع الذى تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر ، وهى أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه . وقد فقه هذا « هرقل » ملك الروم ، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبي - صلى الله عليه وسلم - أن قال له : « هل يرتد أحد من أتباع محمد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فقال أبو سفيان : لا » . وقد أرادت هذه الطائفة أن تلبس على الناس من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، وأطلعوا على بواطنه وخوافيه ، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب ... »(١) .

هذا ، وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات متعددة كلها تدور حول المعنى الذى قررناه .

ومن هذه الروايات ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال فى قوله - تعالى - « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا ... ألخ » قال بعض أهل الكتاب لبعض : أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار ، واكفروا آخره ، فإنه أجدر أن يصدقوكم ، ويعلموا أنكم قد رأيتم ما تكرهونه فى دينهم ، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم » .

وعن السدى : كان - هؤلاء - أحبار قرى عربية اثنى عشر حبرا ، فقالوا لبعضهم : أدخلوا فى دين محمد أول النهار ، وقولوا : نشهد أن محمدا حق صادق . فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا : إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم . فحدثونا أن محمدا كاذب ، وأنكم لستم على شىء ، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم ، لعلهم يشكون ، يقولون كانوا معنا أول النهار فما بالهم ؟ فأخبر الله - عز وجل - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بذلك »(٢) .

---

(١) تفسير المنار ج ٣ ص ٣٢٣ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ٣١١ .

والمعنى . وقالت طائفة من أهل الكتاب ، أى : فيما بينهم ليلبسوا على الضعفاء أمر دينهم «آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار» أى قال بعضهم لبعض : نافقوا وأظهروا التصديق بالإسـلام وبنبيه - صلى الله عليه وسلم - وبما أنزل عليه وعلى أصحابه من قرآن «وجه النهار» أى فى أول النهار .

وسمى أول النهار وجها ، لأنه أول ما يواجهك منه ، وأول وقت ظهوره ووضوحه .

وقوله «واكفروا آخره لعلهم يرجعون» معطوف على «آمنوا» .

أى : آمنوا فى أول النهار واكفروا فى آخره ، بأن تعودوا إلى اليهودية ، أملا فى أن ينخدع بحيلتكم هذه بعض المسلمين ، فيشكوا فى دينهم ، ويعودوا إلى الكفر بعد دخولهم فى الإسلام .

وقوله «لعلهم يرجعون» كشف عن مقصدهم الخبيث ، وهو إبتغاؤهم رجوع بعض المؤمنين عن دينهم الحق إلى ما كانوا عليه من باطل .

قال الفخر الرازى : والفائدة فى إخبار الله - تعالى - عن تواضعهم على هذه الحيلة من وجوه :

الأول : أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم ، وما أطلعوا عليها أحداً من الأجانب ، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبار عن الغيب فيكون معجزاً .

الثانى : أنه - تعالى - لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لهذه الحيلة أثر فى قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت هذه الحيلة فى قلب بعض من كان فى إيمانه ضعف .

الثالث : أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعا لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس[١] .

ثم حكى — سبحانه — لونا من عصبيتهم وتعاونهم على الإثم والعدوان فقال — تعالى — « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم . قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ... » .

وقوله — سبحانه — حكاية عنهم « ولا تؤمنوا ... » معطوف على قوله — تعالى — فى الآية السابقة « آمنوا بالذى أنزل ... » .

وقد فسر بعضهم قوله « ولا تؤمنوا » بمعنى ولا تقروا ، أو ولا تعترفوا ، فتكون اللام فى قوله « إلا لمن تبع دينكم » أصلية .

وعليه يكون المعنى : أن بعض اليهود قد قالوا لبعض . أظهروا إسلامكم أول النهار واكفروا آخره ، لعل هذا العمل منكم يحمل بعض المسلمين على أن يتركوا دينهم الإسلام ، ويعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ولم يكتفوا بهذا القول بل قالوا أيضاً على سبيل المكر والخديعة ، ولا تقروا ولا تعترفوا بأن أحداً من المسلمين أو من غيرهم يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة والفضائل ، أو بأن أحداً فى قدرته أن يحاجكم أى يجادلكم الحجة عند ربكم يوم القيامة ، ولا تقروا ولا تعترفوا بشىء من ذلك « إلا لمن تبع دينكم » أى إلا لمن كان على ملتكم اليهودية دون غيرها .

فالمستثنى منه على هذا التفسير محذوف ، والتقدير : ولا تؤمنوا أى تقروا وتعترفوا لأحد من الناس بأن أحداً يؤتى مثل ما أوتيتم او بأن أحداً يحاجكم عند ربكم إلا لمن تبع دينكم ، لأن إقراركم بذلك أمام المسلمين اوغيرهم ممن هو على غير ملتكم سيؤدى إلى ضعفكم وإلى قوة المسلمين .

فهم على هذا التفسير يعلمون ويعتقدون بأن المؤمنين قد أوتوا مثلهم من

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١٠١ .

الدين والفضائل عن طريق محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، ولكنهم لشدة حسدهم وبغضهم للنبى - صلى الله عليه وسلم ولأتباعه، قد تواصوا فيما بينهم بأن يكتموا هذا العلم وتلك المعرفة ، ولا يظهروا ذلك إلا فيما بينهم ، وصدق الله إذ يقول فى شأنهم (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) .

وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره للآية بهذا الوجه فقال : قوله « ولا تؤمنوا » متعلق بقوله : « أن يؤتى ... » وما بينهما اعتراض ، أى : ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم . أرادوا : أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام (أو يحاجوكم عند ربكم) عطف على أن يؤتى . والضمير فى يحاجوكم لأحد ، لأنه فى معنى الجمع ، بمعنى : ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة ويغالبونكم عند الله - تعالى - بالحجة ...)(١) .

هذا هو الوجه الأول فى تفسير الآية الكريمة .

وهناك وجه آخر يرى أصحابه أن قوله - تعالى - « ولا تؤمنوا » بمعنى ولا تصدقوا أو ولا تعتقدوا ، فتكون اللام فى قوله « لمن تبع دينكم » زائدة للتقوية .

فيصير المعنى على هذا الوجه : أن بعض اليهود قد قالوا لبعض : أظهروا الإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل عملكم هذا يجعل بعض المسلمين يترك دينه ويعود إلى الكفر الذى كان عليه ، ولا تصدقوا أن أحداً من البشر يؤتى مثل ما أوتيتم يابنى إسرائيل من الكتاب والنبوة ، أو أن أحداً فى قدرته

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٧٣ .

أن يحاجكم عند ربكم فأنتم الأعلون فى الدنيا والآخرة وأنتم الذين لا تخرج النبوة من بينكم إلى العرب ، وما دام الأمر كذلك فلا تتبعوا إلا نبيا منكم يقرر شرائع التوراة ، أما من جاء بتغيير شيء من أحكامها أو كان من غير بنى إسرائيل كمحمد - صلى الله عليه - فلا تصدقوه .

فالمستثنى منه على هذا الوجه هو قوله «أحد» المذكور فى الآية . والمستثنى هو قوله « إلا لمن تبع دينكم » .

والتقدير : ولا تصدقوا أن أحداً يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم أو يمكنه أن يحاجكم عند ربكم ، إلا لمن تبع دينكم ، أى إلا من كان على ملتكم اليهودية . أما أن يكون من غيركم كهذا النبى العربى فلا يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة ، لأنهما - فى زعمهم - حكر على بنى إسرائيل .

فهم على هذا الوجه من التفسير يزعمون أنهم غير مصدقين ولا معتقدين بأن المسلمين قد أوتوا كتابا ودينا وفضائل مثل ما أوتوا هم أى اليهود ، ويرون أنفسهم - لغرورهم وانطماس بصيرتهم - أنهم أهدى سبيلا من كل من سواهم من البشر .

وعلى كل من الوجهين يكون قوله - تعالى - أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم » مفعول به لتؤمنوا .

والتقدير . ولا تصدقوا أو ولا تقروا لأحد بأن أحدا يؤتى مثل ما أوتيتم أو بأن أحدا يحاجكم عند ربكم .

وعلى كل من الوجهين - أيضا - يكون قوله - تعالى - : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » وقوله « أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم » حكاية من الله - تعالى - لما تواصى به بعض اليهود فيما بينهم من أقوال خبيثة وأفكار ماكرة .

ويكون قوله ـ تعالى ـ (قل إن الهدى هدى الله) كلاما معترضا بين أقوالهم ساقه الله ـ تعالى ـ للمسارعة بالرد على أقوالهم الذميمة حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، ويزدادوا هم رجسا إلى رجسهم ، وينكشف ما أضمروه وما بيتوه للمؤمنين من سوء وحقد .

أي قل لهم يا محمد أن هداية الله ـ تعالى ـ ملك له وحده ، وهو الذي يهبها لمن يشاء من عباده ، فهى ليست حكراً على أحد ، ولا أمرا مقصورا على قوم دون قوم ، وإذا كانت النبوة قد ظلت فترة من الزمان فى بنى إسرائيل ، فالله ـ تعالى ـ قادر على أن يسلبها منهم لأنهم لم يشكروه عليها وأن يجعلها فى محمد العربي صلى الله عليه وسلم ـ لأنه أهل لها ، وهو ـ سبحانه ـ أعلم حيث يجعل رسالته .

هذا ، ويرى بعض المفسرين أن أقوال اليهود التى حكاها القرآن عنهم قد انتهت بنهاية قوله ـ تعالى ـ (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) وأما قوله ـ تعالى ـ (قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) فهو من كلام الله ـ تعالى ـ وقد ساقه ـ سبحانه ـ للرد عليهم .

فيكون المعنى عليه : أن بعض اليهود قد قال لبعض : أظهروا إسلامكم أول النهار واكفروا آخره لعل بعض المسلمين يرجع عن دينه بسبب فعلكم هذا ، ولا تعترفوا بفعلكم هذا إلا لأهل دينكم من اليهود حتى يبقى عملكم هذا سرا له أثره فى بلبلة أفكار المسلمين ورجوع بعضهم عن الإسلام .

وهنا يأمر الله ـ تعالى ـ نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرد عليهم وبالكشف عن مكرهم فيقول : قل لهم يا محمد إن الهدى هدى الله ، أى إن هداية الله ملك له وحده ، فهو الذى يهدى من يشاء وهو الذى يضل من يشاء ، وقد هدانا ـ سبحانه ـ إلى الإسلام وارتضيناه دينا لنا ولن نرجع عنه .

وقل لهم كذلك على سبيل التوبيخ والتهكم بقولهم : أمخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة ، أو مخافة أن يحاججكم المسلمون عند ربكم يوم القيامة حيث آمنوا بالحق وأنتم كفرتم به ، أمخافة ذلك دبرتم ما دبرتم من هذه الأقوال السيئة والأفعال الخبيثة ؟ لاشك أنه : لا يحملكم على ذلك المكر السيء إلا الحسد لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ولقومه وزعمكم أنكم أفضل منهم لأنكم - تدعون - أنكم أبناء الله وأحباؤه فدفعكم ذلك كله إلى كراهية دينه والكيد لأتباعه .

قالوا : ويؤيد هذا الوجه من التفسير للآية قراءة ابن كثير (أأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ..) بهمزتين أولاهما للاستفهام الذى قصد به التوبيخ والإنكار ، والثانية هى همزة أن المصدرية .

وقد أشار إلى هذا الوجه الفخر الرازى فقال ما ملخصه : واعلم أن هذه الآية من المشكلات الصعبة ... ويحتمل أن يكون قوله - تعالى - (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) من كلام الله - تعالى - فقد قرأ ابن كثير (آن يؤتى أحد ..) بمد الألف على الاستفهام . ويكون الاستفهام للتوبيخ كقوله - تعالى - (أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الأولين) . والمعنى امن أجل ان يؤتى احد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع تنكرون اتباعه ، ثم حذف الجواب للاختصار ، وهذا الحذف كثير .

يقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه ، وبعد كثرة إحسانه إليه : امن قلة إحسانى إليك ؟

والمعنى امن اجل هذا فعلت ما فعلت .. (١) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١٠٢ .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم مرة ثانية حتى يبطل مزاعمهم ويفضحهم على رءوس الأشهاد فقال : « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » أى قل لهم يا محمد : إن الفضل - الذى يتناول النبوة وغيرها من نعم الله على عباده - هذا الفضل وذلك العطاء بيد الله - تعالى - وحده ، وهو - سبحانه - المتفضل به على من يشاء التفضل عليه من عباده ، وإذا كان - سبحانه - قد جعل النبوة فى بنى إسرائيل لفترة من الزمان ، فذلك بفضل منه ورحمته ، وإذا كان قد سلبها عنهم لأنهم لم يرعوها حق رعايتها وجعلها فى هذا النبى العربى فذلك - أيضا - بفضله ورحمته ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو - سبحانه - صاحب الإختيار المطلق فى أن يؤتى فضله لمن يشاء من عباده . وهو - سبحانه - « واسع » الرحمة والفضل « عليم » بمن يستحقهما وبمن لا يستحقهما .

ثم قال - تعالى - « يختص برحمته من يشاء » أى يختص بالنبوة وما يترتب عليها من الهداية والنعم من يشاء من عباده ،

وقوله « والله ذو الفضل العظيم » أى هو - سبحانه - صاحب الجود العميم والفضل العظيم ، فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله - تعالى - على خلقه ، وإنما هو وحده صاحب النعم التى لا تحصى على عباده ، فعليهم أن يشكروه وأن يفردوه بالعبادة والخضوع .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد كشفت عن مسلك من مسالك اليهود الماكرة التى أرادوا من ورائها كيد الإسلام والمسلمين ، وفى هذا الكشف تنبيه المسلمين إلى ما يبيته لهم هؤلاء الأعداء من شرور وآثام حتى يحذروهم

ثم حكى القرآن لونا آخر من ألوان مزاعم اليهود الباطلة وأقاويلهم الكاذبة وهو دعواهم أنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل ، أى أن كل من كان على غير ملتهم فإنه مهدور الحقوق ، ثم رد عليهم بما يدحض مزاعمهم ويثبت أنهم ليسوا أهلا لإختصاصهم بالنبوة والرحمة فقال تعالى :

« ومن أَهْلِ الكتابِ مَنْ إنْ تأمَنْه بقِنطَارٍ يُؤدِّهِ إليكَ، ومنهم مَنْ إنْ تأمَنْهُ بدينارٍ لا يؤدِّهِ إليك إلا ما دمتَ عليهِ قائمًا، ذلكَ بأنهم قالُوا ليس علينَا فى الأُمِّيِّنَ سبيلٌ ويقولُونَ عَلَى اللهِ الكذبَ وهم يعلمونَ (٧٥) بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ واتَّقَى فإنَّ اللهَ يُحِبُّ المتقينَ (٧٦) ».

قال الإمام الرازى : أعلم أن تعلق هذه الآية - وهى قوله - ومن أهل الكتاب ... بما قبلها من وجهين : الأول . أنه - تعالى - حكى عنهم فى الآية المتقدمة أنهم إدعوا أنهم أوتوا من المناصب الدينية ما لم يؤت أحد غيرهم مثله ثم إنه - تعالى - بين أن الخيانة مستقبحة عند جميع أرباب الأديان وهم مصرون عليها فدل هذا على كذبهم .

والثانى : أنه - تعالى - لما حكى عنهم فى الآية المتقدمة قبائح أحوالهم فيما يتعلق بالأديان وهو أنهم قالوا (لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) حكى فى هذه الآية بعض قبائح أحوالهم فيما يتعلق بمعاملة الناس ، وهو إصرارهم على الخيانة والظلم وأخذ أموال الناس فى القليل والكثير .

قال ابن عباس : أودع رجل عند عبدالله بن سلام ألفا ومائتى أوقية من ذهب فأداها اليه . وأودع رجل آخر عند فنحاص بن عازوراء اليهودي دينارا فخانه فنزيت الآية »[1] .

والمعنى : إن من أهل الكتاب فريقا ان تأمنه علَى الكثير والنفيس من الأموال يؤده اليك عند طلبه كاملا غير منقوص ، وان منهم فريقا آخر إن تأمنه على القليل والحقير من حطام الدنيا يستحله ويجحده ولا يؤديه اليك الا اذا دوام صاحب الحق على المطالبة بحقه واستعمل كل الوسائل فى الحصول عليه .

(١) تفسير للفخر الرازى جـ ٨ ص ١٠٧ .

فالآية الكريمة قد مدحت من يستحق المدح من أهل الكتاب وهو الحق الذى استجاب للحق وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، كعبد الله بن سلام وأمثاله من مؤمنى أهل الكتاب . وذمت من يستحق الذم منهم وهو الفريق الذى لا يؤدى الأمانة ، ولم يستجب للحق ، بل استمر على كفره وجحوده ، وهذا القسم يمثل أكثرية أهل الكتاب .

والمراد من ذكر القنطار والدينار هنا العدد الكثير والعدد القليل . أى أن منهم من هو فى غاية الأمانة حتى أنه لو ائتمن على الأموال الكثيرة لأداها ، ومنهم من هو فى غاية الخيانة حتى نه لو ائتمن على الشىء القليل لجحده.

وقوله « إلا مادمت عليه قائما » استثناء من أعم الأحوال أو الأوقات . أى لا يؤده إليك فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا فى حال أو فى وقت مداومتك على طلبه ، والالحاح فى ذلك ، واستعمال كل الوسائل الوصول إلى حقك .

قال الجمل : و « دمت » هذه هى الناقصة ، ترفع وتنصب . وشرط أعمالها أن يتقدمها ما الظرفية كهذه الآية إذ التقدير إلا مدة دوامك . وأصل هذه المادة الدلالة على الثبوت والسكون : يقال دام الماء ، أى سكن . وفى الحديث : « لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم » أى الذى لا يجرى . . ومنه دام الشىء إذا امتد عليه زمان . ودومت الشمس إذا وقفت فى كبد السماء . وقوله « عليه » متعلق بقوله «قائما» والمراد بالقيام الملازمة ، لأن الأغلب أن المطالب يقوم على رأس المطالب ، ثم جعل عبارة عن الملازمة وإن لم يكن ثمة قيام[1] .

وقال ابن جرير : فإن قال قائل : وما وجه إخبار الله بذلك نبيه - صلى الله عليه وسلم - وقد علمت أن الناس لم يزالوا كذلك ، منهم المؤدى أمانته ومنهم الخائن لها ؟ قيل : إنما أراد - عز وجل - بإخباره المؤمنين خبرهم على ما بينه

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٢٨٨

فى كتابه بهذه الآية ، تحذير المؤمنين من أن يأتمنوهم على أموالهم ، وتخويفهم من الاغترار بهم ، لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين (١) .

ثم حكى — سبحانه — بعض الأسباب التى جعلتهم يبررون خياناتهم وجحودهم لحقوق غيرهم فقال — تعالى — : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » .

وقوله « ذلك إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله — سبحانه — « لا يؤده » .

والمراد بالأميين : العرب ، خصوصا من آمن منهم . وسمى العرب بالأميين نسبة إلى الأم ، وذلك لغلبة الأمية عليهم حتى لكأن الواحد منهم قد بقى على الحالة التى ولدتهم عليها أمهاتهم من عدم القراءة والكتابة .

والسبيل المراد به : الحجة الملزمة والحرج . وأصله الطريق ، ثم أطلق على الحجة باعتبارها طريقا ووسيلة للالزام وتحمل التبعات .

أى : ذلك الامتناع عن الوفاء بالعهود ، وجحود الأمانات والحقوق من الفريق الخائن ، سببه زعمهم الباطل أنهم ليس عليهم حرج أو إثم أو تبعة فى إستحلال أموال العرب الأميين وإستلابها منهم بأية طريقة ، لأن الأميين ليسوا على ملتهم .

واليهود يزعمون أن كتابهم يحل لهم قتل من خالفهم، كما يحل لهم أخذ ماله بأى وسيلة . وهذا الخلق الذميم معرق فى اليهود ، لأن أنانيتهم جعلتهم يحرفون كتبهم على حسب ما تهوى نفوسهم ، فقد كانت التوراة تحرم الربا تحريما مطلقا فتقول : (لا تأخذ ربا من أخيك إذا أقرضته) فحرف اليهود هذا النص ، إذ زادوا فيه كلمة الاسرائيلى فأصبح النص هكذا (لا تأخذ ربا من أخيك الإسرائيلى إذا أقرضته) . وبذلك أصبحوا يحرمون الربا عند

(١) تفسير ابن جرير ج ٢ ص ٣١٧ .

تعاملهم مع أنفسهم ويحلونه عند تعاملهم مع غيرهم، لأنهم لا يشعرون بالأخوة الإنسانية العامة .

قال الآلوسي : أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : بايع اليهود رجال من المسلمين فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم عن بيوعهم فقال اليهود : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا ، لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وأدعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم .

وقال الكلبى . قالت اليهود : « الأموال كلها كانت لنا . فما فى أيدى العرب منها فهو لنا ، وأنهم ظلمونا وغصبونا فلا إثم علينا فى أخذ أموالنا منهم »(١) .

وقوله - تعالى - « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » رد عليهم فيما قالوه من أنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل . وتكذيب لهم فيما زعموه ، لأن قولهم هذا ما أنزل الله به من سلطان . ولا يؤيده عقل سليم ، إذ المبادىء الخلقية الفاضلة يجب أن تطبق على جميع الناس بدون تفرقة بينهم .

والمعنى . أن هؤلاء اليهود الذين يجحدون الأمانات متذرعين بقولهم « ليس علينا فى الأميين سبيل » يفترون على الله الكذب فى قولهم هذا ، وهم يعلمون أنهم كاذبون . لأنهم ليس عندهم فى كتبهم نص يبيح لهم استحلال أموال العرب وخيانتهم ، وإنما الذى تأمرهم به كتبهم هو أداء الأمانة لمستحقيها بالمعروف .

وقوله « وهم يعلمون » جملة حالية من الضمير فى « يقولون » ومفعول العلم محذوف إقتصارا ، أى وهم من ذوى العلم . أو إختصارا ، أى يعلمون كذبهم وإفتراءهم !

ولقد بين النبى - صلى الله عليه وسلم - فى أحاديث متعددة أن الأمانة يجب أن تؤدى إلى البار والفاجر ، ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن سعيد ابن جبير أنه قال : لما نزلت : ومن أهل الكتاب من إن تأمنه . . . الآية »

(١) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ٢٠٠

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كذب أعداء الله !! ما من شيء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمي ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البار والفاجر »(١) .

ولقد سار أتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - على مبدأ أداء الأمانة ، وعدم أخذ شيء من أموال الغير إلا بوجه مشروع .

قال ابن كثير : قال عبد الرازق : أنبأنا معمر عن أبي إسحاق الهمداني عن أبي صعصعة بن يزيد ، أن رجلا سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة : الدجاجة والشاة . قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال نقول : ليس علينا بذلك بأس . قال ابن عباس هذا كما قال أهل الكتاب « ليس علينا فى الأميين سبيل إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم »(٢) .

ثم أكد الله - تعالى - كذب هؤلاء اليهود الذين قالوا : « ليس علينا فى الأميين سبيل بجملة أخرى فيها الرد الذي يخرس ألسنتهم ، ويدحض مزاعمهم فقال - تعالى - : « بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » .

و « بلى » حرف يذكر فى الجواب لإثبات المنفى فى كلام سابق ، ولقد حكى القرآن قبل ذلك أن اليهود قد نفوا أن يكون عليهم فى الأميين سبيل ، فجاء - سبحانه - بهذا الرد الذي يثبت ما نفوه . ويبطل ما زعموه .

والمعنى : ليس الأمر كما زعمتم أيها اليهود من أنه ليس عليكم فى الأميين سبيل بل الحق أن عليكم فيهم سبيلا . وأنكم معذبون بسبب كفركم واستحلالكم لأموالهم بدون حق ، ومثابون إن آمنتم بالله ورسوله ووفيتم بعهودكم ، وصنتم أنفسكم عن كل ما يغضب الله - تعالى - .

---

(١) تفسير أبي جرير ج ٣ ص ٣٧١ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٤ .

وقد علل - سبحانه - هذا الحكم العادل بجملة مستأنفة عامة فقال : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » .

أى كل من أوفى بعهد الله فآمن بنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - واستقامة على دينه ، واتقى مانهى الله عنه من ترك الخيانة والغدر وما إلى ذلك من المحرمات ، فإن الله يحبه ويرضى عنه . ومن لم يفعل ذلك فإن الله يبغضه ولا يحبه ويعذبه العذاب الأليم .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد بينت أن محبة الله لعبده تتوفر بأمرين :

أولهما : الوفاء بالعهد . فكل ما يلتزمه الإنسان من عهود فالوفاء بها واجب . وفى مقدمة هذه العهود ، العهد الذى أخذه الله على عباده بتوحيده والإيمان برسله وعلى رأسهم محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وثانيهما : تقوى الله بمعنى أن يجتنب مانهى الله عنه وحرمه عليه ، ولا يفعل إلا ما أحله الله له وأذن له فيه .

وقد خلا اليهود من هذين الأمرين ، لأنهم لم يفوا بعهودهم ، ولم يتقوا الله فسلبت عنهم محبته ، واستحقوا غضبه - سبحانه - ونقمته .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - « بلى » إثبات لما نفوه من السبيل عليهم فى الأميين ، أى بلى عليهم سبيل فيهم . وقوله « من أوفى بعهده واتقى » جملة مستأنفة مقررة للجملة التى سدت « بلى » مسدها . والضمير فى « بعهده » راجع إلى « من أوفى » ، على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى بأن ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه .

فإن قلت : فهذا عام أنه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله ؟ قلت : أجل ، لأنهم إذا وفوا بالعهود ، وفوا أول شىء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم فى كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم ولو اتقوا الله فى ترك الخيانة لاتقوه فى ترك الكذب على الله وتحريف كلمه . ويجوز أن يرجع الضمير فى « بعهده » إلى الله ، على أن كل من وفى بعهد

الله واتقاه فإن الله يحبه ويدخل فى ذلك الإيمان وغيره من الصالحات، وما وجب إتقاؤه من الكفر وأعمال السوء.

فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت: عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير»(١).

وبهذا يكون القرآن قد كشف عن مكر اليهود وخداعهم. ورد عليهم فيما إفتروه من أقوال باطلة، وأثبت أنهم يكذبون فيما يدعون عن تعمد وإصرار وبين أن أداء الأمانة واجب على كل إنسان، وأن كل من وفى بعهود الله واتقاه فهو أهل لمحبته ورضاه.

ثم توعد الله - تعالى - الذين يخونون العهود، ويحلفون كذبا بالعذاب الأليم، ونعى على فريق من اليهود تحريفهم للكلم عن مواضعه، وأنذرهم بسوء المصير فقال - تعالى -.

«إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)».

روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - «إن الذين يشترون.. الآية» روايات منها: ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: من حلف على مال أمرىء مسلم بغير حقه

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٧٥.

لقى الله وهو عليه غضبان » . قال عبد الله . ثم قرأ علينا رسول الله مصداقه من كتاب الله ، « إن الذين يشترون بعهد الله ... الخ » .

وفى رواية قال: «من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان ، فأنزل الله ـ تعالى ـ تصديق ذلك . « إن الذين يشترون بعهد الله ... » . قال عبد الله : فدخل الأشعث بن قيس فقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن قلنا : كذا وكذا فقال : صدق . فىَّ نزلت ، كان بينى وبين رجل خصومة فى بئر ، فاختصمنا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : شاهداك أو يمينه ؟ قلت : إنه إذاً يحلف ولا يبالى فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان . ونزلت : « إن الذين يشترون ... » [١] .

وروى البخارى عن عبد الله بن أوفى أن رجلا أقام سلعة فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلا من المسلمين ، فنزلت إن الذين يشترون ... » [٢] .

وقال الفخر الرازى : قال عكرمة إنها نزلت فى أحبار اليهود ، كتموا ما عهد الله إليهم فى التوراة من أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكتبوا بأيديهم غيره ، وحلفوا بأنه من عند الله لئلا يفوتهم الرشا » [٣] .

هذه ثلاث روايات فى سبب نزول تلك الآية الكريمة ، وأرجحها رواية الشيخين، ولذا وجب الأخذ بها . إلا أن نزول الآية فى حادثة معينة لا يمنع شمول

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير باب « إن الذين يشترون » ج ٦ ص ٤٢ وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير باب إن الذين يشترون ج ٦ ص ٤٣ .

(٣) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١١١

حكمها لكل مايشبه هذه القصة أو الحادثة ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - كما يرى جمهور العلماء .

فكل من حلف بالله كاذبا ، واشترى بعهده - سبحانه - ثمنا قليلا ، حقت عليه العقوبة التي بينتها الآية الكريمة . ويدخل تحت هذه العقوبة دخولا أوليا أولئك اليهود الذين خانوا عهد الله بإنكارهم لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - مع أنهم يعرفون صدقه معرفة جلية .

والمراد بقوله « يشترون » أي يستبدلون ، وذلك لأن المشتري يأخذ شيئا ويعطي شيئا ، فكل واحد من المعطى والمأخوذ ثمن للآخر .

والمراد « بعهد الله » كل ما يجب الوفاء به فيدخل فيـــه ما أوجبه الله - تعالى - على عباده من فرائض وتكاليف ، ومن إيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما يدخل فيه - أيضا - ما أوجبه الله على أهل الكتاب من الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - الذي يجدون نعته في كتبهم ، ويعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم .

والباء في قوله - تعالى - : « بعهد الله » داخلة على المتروك الذي تركوه وأخذوا في مقابله الثمن القليل .

وقوله : « وأيمانهم » معطوف على عهد الله .

والمراد بأيمانهم تلك : الأيمان الكاذبة التي يحلفونها ليؤكدوا ما يريدون تأكيده من أقوال أو أفعال .

والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو المال والمنافع الزائلة ، التي أخذوها نظير تركهم لعهد الله ، وحلفهم الكاذب .

وليس وصف الثمن بالقلة هنا من الأوصاف المخصصة للنكرات ، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل نظير خيانة عهود تحقيراً له إذ أنه لا يكون إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله والوفاء بعهوده .

وقوله «أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة» أى: الذين يخونون عهد الله ويحلفون الأيمان الكاذبة فى مقابل عرض من أعراض الدنيا، لا نصيب لهم ولا حظ من نعيم الآخرة بسبب ما ارتكبوه من غدر وافتراء.

وقوله «ولا يكلمهم الله» أى لا يكلمهم بما يسرهم بل يكلمهم بما يسوءهم ويخزيهم يوم القيامة بسبب أعمالهم السيئة.

أو أن عدم كلام الله - تعالى - لهم: كناية عن عدم محبته لهم، لأن من عادة المحب أن يقبل على حبيبه ويتحدث إليه. أما المبغض لشيء، فإنه ينصرف عنه.

وإلى هذا المعنى ذهب الإمام الرازى فقد قال ما ملخصه: وقوله - تعالى - «ولا يكلمهم الله» فيه سؤال وهو: أنه - تعالى - قال: «فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون» فكيف الجمع بين الآية التى معنا وبين قوله «لنسألنهم أجمعين»؟ والجواب: أن المقصود من كل هذه الكلمات: بيان شدة سخط الله عليهم، لأن من منع غيره كلامه؛ فإنما ذلك بسخط عليه، وإذا سخط إنسان على آخر قال له: لا أكلمك وقد يأمر بحجبته عنه ويقول: لا أرى وجه فلان، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل، فثبت أن الآية كناية عن شدة الغضب نعوذ بالله منه. وهذا هو الجواب الصحيح ...»[1].

وقوله «ولا ينظر إليهم» أى لا يعطف عليهم ولا يرحمهم ولا يحسن إليهم، وذلك كما يقول القائل لغيره: انظر إلى. يريد: ارحمنى واعطف على.

ويقال: فلان لا ينظر إلى فلان، والمراد من ذلك نفى الإحسان إليه وترك الاعتداد به، فقد جرت العادة بأن من إعتد بإنسان وعطف عليه التفت إليه.

قالوا: فلهذا السبب صار المراد بعدم نظر الله - تعالى - إلى هؤلاء الخائنين [...]رة عن ترك العطف عليهم والإحسان إليهم والرحمة بهم.

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١١٢.

ولا يجوز أن يكون المراد من عدم النظر إليهم ، عدم رؤيتهم ، لأنه - سبحانه - يراهم كما يرى غيرهم من خلقه .

وقوله - تعالى - « ولا يزكيهم » أى أنه - سبحانه - لا يطهرهم من دنس ذنوبهم وأوزارهم بالمغفرة ، بل يعاقبهم عليها . أو أنه - سبحانه - لا يثنى عليهم كما يثنى على الصالحين من عباده ، بل يسخط عليهم وينتقم منهم جزاء غدرهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان النتيجة المترتبة على هذا الغضب منه عليهم فقال : « ولهم عذاب أليم » .

أى ولهم عذاب مؤلم موجع بسبب ما إرتكبوه من آثام وسيئات .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد توعدت هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمنا قليلا بأنهم لاحظ لهم من نعيم الآخرة وأنهم ليسوا أهلا لرضا الله ورحمته وإحسانه ، وأنهم سينالون العذاب المؤلم الموجع بسبب ما قدمت أيديهم .

ثم بين - سبحانه - بعض الرذائل التى صدرت عن فريق من أهل الكتاب فقال - تعالى - : « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » والضمير فى قوله - تعالى - « منهم » يعود إلى أهل الكتاب الذين ذكر القرآن طرفاً من رذائلهم ومسالكهم الخبيثة فيما سبق .

قال الفخر الرازى : أعلم أن هذه الآية « وإن منهم لفريقاً . . . » تدل على أن الآية المتقدمة وهى قوله - تعالى - « إن الذين يشترون . . . » نازلة فى اليهود بلا شك ؛ لأن هذه الآية نازلة فى حق اليهود وهى معطوفة على ماقبلها ، فهذا يقتضى كون تلك الآية المتقدمة نازلة فى اليهود أيضا » (١) .

وقال ابن كثير : يخبر — سبحانه — عن اليهود عليهم لعائن الله —

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١١٣

أن منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ، ويزيلونه عن المراد ليوهموا الجهلة أنه فى كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله . وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا فى ذلك كله ... » (١) .

وقوله « يلوون » مأخوذ من اللي . وأصل اللي الميل يقال : لوى بيده ولوى برأسه وإذا أماله . والتوى الشيء إذا انحرف ومال عن الإستقامة إلى الاعوجاج والمعنى : وإن من هؤلاء اليهود الذين كتموا الحق واشتروا بعهد الله وبأيمانهم ثمنا قليلا . . . إن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب » أى يعمدون إلى كتاب الله فينطقون ببعض ألفاظه نطقا مائلا محرفا يتغير به المعنى عن الصحيح الذي يفيده ظاهر اللفظ إلى معنى آخر سقيم لا يدل عليه اللفظ ولكنه يوافق أهواءهم . ونواياهم السيئة ، ومقاصدهم الذميمة :

وذلك كأن ينطقوا بكلمة « راعنا » نطقا ملتويا يوافق فى لغتهم كلمة قبيحة يقصدون بها الإساءة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - . وقد نهى الله - تعالى - المؤمنين عن مخاطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمثال هذه الألفاظ حتى لا يتخذها اليهود ذريعة للاساءة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - « يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا أنظرنا . . » وكأن ينطقوا بكلمة « السلام عليكم » بقولهم : « السام عليكم » بحذف اللام يعنون الموت عليكم لأن السام معناه الموت .

وكأن يغيروا لفظا من كتابهم فيه ما يشهد بصدق النبي - صلى الله عليه وسلم بلفظ آخر ، أو يؤولوا المعاني تأويلا فاسدا ، وقد وبخهم الله - تعالى - على هذا التحريف فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » (٢) . وقوله - تعالى - : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا . . . » (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٦ (٢) سورة البقرة الآية ٧٥
(٣) سورة النساء الآية ٤٦

وقوله - تعالى - « وإن منهم لفريقا » ، إنصاف منه - سبحانه - للفريق الذى لم يرتكب هذا الفعل الشنيع وهو تحريف كلامه - عز وجل - . وتلك عادة القرآن فى أحكامه لا يظلم أحداً ولكنه يمدح من يستحق المدح ويذم من يستحق الذم .

وقوله « يلوون » صفة لقوله « فريقا » .

والباء فى قوله « بالكتاب » بمعنى « فى » مع حذف المضاف . أى وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم فى حال قراءتهم للكتاب ، إما بحذف حروف يتغير المعنى بحذفها ، أو بزيادة تفسد المعنى ، أو بغير ذلك من وجوه التغيير والتبديل .

وقوله - تعالى - « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » بيان الدوافع السيئة التى دفعتهم إلى ارتكاب هذا التحريف الذميم .

والضمير المنصوب فى قوله « لتحسبوه » ، وكذلك ضمير الغائب « هو » : يعودان إلى الكلام المحرف الذى لووا به ألسنتهم والمدلول عليه بقوله « يلوون »

أى إن من هؤلاء اليهود فريقاً يلوون ألسنتهم فى نطقهم بالكتاب ويحرفونه عن وجهه الصحيح لتظنوا أيها المسلمون أن هذا المحرف الذى لووا به ألسنتهم من كتاب الله الذى أنزله على أنبيائه ، والحق أن هذا المحرف ليس من كتاب الله فى شىء ، وإنما هو من عند أنفسهم نطقوا به زورا وبهتاناً إرضاء لأهوائهم وقوله « من الكتاب » هو المفعول الثانى لقوله « لتحسبوه » .

والمخاطب بقوله (لتحسبوه) هم المسلمون وقال (وما هو من الكتاب بتكرار لفظ الكتاب ، ولم يقل وما هو منه ، للتنبيه على أن كتاب الله المنزل على موسى وعيسى - عليهما السلام - برىء كل البراءة من تحريفهم وتبديلهم ، ومما يزعمونه ويفترونه عليه . ثم بين - سبحانه - أنهم قد بلغت بهم الجرأة فى الكذب والافتراء أنهم نسبوا هذا الذى حرفوه وغيروه من كتبهم إلى الله - تعالى - فقال : (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) .

أي أن هؤلاء الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب ، ليوهموا غيرهم بأن هذا المحرف من الكتاب ، لا يكتفون بهذا التحريف ، بل يقولون « هو من عند الله ، أي هذا المحرف هو نزل من عند الله هكذا ، لم ننقص منه حرفا ولم نزد عليه حرفا والحق أن هذا المحرف ليس من عند الله ولكنهم قوم ضالون يقولون على الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون .

ففي هذه الجملة الكريمة بيان لإصرارهم على الباطل ، ولتعمدهم الكذب على الله ، وتوبيخ لهم على هذا الافتراء العجيب . وقد أكد الله جرأتهم في النطق بالزور والبهتان بمؤكدات منها :

أن كذبهم لم يكن تعريضا وإنما كان في غاية الصراحة ، فهم يقولون عن المحرف « هو من عند الله وما هو من عند الله » .

وأن كذبهم لم يكن على البشر فحسب وإنما على الله الذي خلقهم والذي يعلم ما يسرون وما يعلنون « ويقولون على الله الكذب » .

وأن كذبهم لم يكن عن جهل أو عن نسيان وإنما عن علم وإصرار على هذا الكذب ، وهذا ما يشهد به قوله - تعالى - « وهم يعلمون » .

وهكذا القلوب إذا فسدت ، واستولى عليها الحسد والجحود . ارتكبت كل رذيلة ومنكر بدون تفكر في العواقب ، أو تدبر لما جاءت به الشرائع وأمرت به العقول السليمة .

وفي هذه الآية ترى أن لفظ الجلالة « الله » قد تكرر ثلاث مرات كذلك لفظ « الكتاب » تكرر ثلاث مرات ، ولم يكتف بالضمير الذي يدل عليهما ، وذلك لقصد الاهتمام باسم الله - تعالى - وباسم كتابه ، وبالخبر المتعلق بهما ، ولأن من عادة العرب أنهم إذا عظموا شيئا أعادوا ذكره ، وقد جاء ذلك كثيرا في أشعارهم ، ومنه قول الشاعر :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فتعمد الشاعر من تكرار لفظ الموت تفخيم شأنه وتهويل أمره .

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد توعد الذين يشترون بعهد الله وبأيمانهم ثمنا قليلا بأشد ألوان الوعيد ، وكشف عن لون آخر من ألوان مكر بعض اليهود ، وعن جرأتهم فى النطق بالكذب عن تعمد وإصرار ، حتى يحذرهم المسلمون .

ثم نزه الله - تعالى - أنبياءه - عليهم الصلاة والسلام - وعلى رأسهم محمد - صلى الله عليه وسلم - عن أن يطلبوا من الناس أن يعبدوهم ، عقب تنزيهه - سبحانه - لذاته عما تقوله عليه المفترون فقال - تعالى - :

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠) »

قال ابن كثير : عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودعاهم إلى الإسلام : أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم : فقال رجل نصرانى من أهل نجران يقال له الرئيس : أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا ؟ - أو كما قال - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله ، ما بذلك أمرنى ولا بذلك بعثنى . أو كما قال - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله فى ذلك قوله - تعالى - : « ما كان لبشر . . . » إلى قوله : « بعد إذ أنتم مسلمون »[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٧ .

فقوله ـ تعالى ـ « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله » رد على أولئك الجاهلين الذين زعموا أن بعض النبيين يصح له أن يطلب من الناس أن يعبدوا من دون الله والمعنى : لا يصح ولا ينبغى ولا يستقيم عقلا لبشر آتاه الله ـ تعالى ـ وأعطاه « الكتاب » الناطق بالحق ، الآمر بالتوحيد ، الناهى عن الإشراك ، وآتاه « الحكم » أى العلم النافع والعمل به ، وآتاه « النبوة » أى الرسالة التى يبلغها عنه ـ سبحانه ـ إلى الناس ، ليدعوهم إلى عبادته وحده ، وإلى مكارم الأخلاق ، لا يصح له ولا ينبغى بعد كل هذه النعم أن يكفرها « ثم يقول للناس » بعد هـــذا العطاء العظيم الذى وهبه الله له « كونوا عباداً لى من دون الله » أى : لا ينبغى ولا يعقل من بشر آتاه الله كل هذه النعم أن يقول للناس هذا القول الشنيع وهو « كونوا عباداً لى من دون الله » لأن الأنبياء الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة يحجزهم خوفهم من الله ، وإخلاصهم له ، عن أن يقولوا هذا القول المنكر ، كما يحجزهم عنه ـ أيضا ـ ما امتازوا به من نفوس طاهرة ، وقلوب نقية ، وعقول سليمة . . . لأنهم لو فرض أنهم قالوا ذلك لأخذهم الله ـ تعالى ـ أخذ عزيز مقتدر فهو ـ سبحانه ـ القائل : ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ « ما كان لبشر » تعبير قرآنى بليغ ، إذ يفيد نفى الشأن ، وعدم اتفاق هذا المعنى مع الحقيقة المفروضة فى الرسل الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وشبيه بهذا التعبير قوله ـ تعالى ـ : ما كان لله أن يتخذ من ولد » و « ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ » .

وجاء العطف بثم فى قوله « ثم يقول للناس .. » للإشعار بالتفاوت العظيم بين ما أعطاه الله ـ تعالى ـ لأنبيائه من نعم . وبين هذا القول المنكر الذى تعالى ـ سبحانه ـ عنه ، وهو أن يقولوا للناس : اجعلوا عبادتكم لنا ولا تجعلوها لله ـ تعالى ـ

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يصح للأنبياء أن يقولوه للناس فقال ـ تعالى ـ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

وقوله « ربانيين » جمع ربانى نسبة إلى الرب ـ عز وجل ـ بزيادة الألف والنون سماعا للمبالغة كما يقال فى غليظ الرقبة رقبانى ، وللعظيم اللحية : لحيانى .

والمراد بالربانى : الإنسان الذى أخلص لله ـ تعالى ـ فى عبادته ، وراقبه فى كل أقواله وأفعاله ، واتقاه حق التقوى ، وجمع بين العلم النافع والعمل به ، وقضى حياته فى تعليم الناس وإرشادهم إلى ما ينفعهم .

والمعنى : لا يصح لبشر آتاه الله ما آتاه من النعم أن يقول للناس اعبدونى من دون الله ، ولكن الذى يعقل أن يصدر منه هو أن يقول لهم : كونوا « ربانيين » أى مقبلين على طاعة الله ـ تعالى ـ وعبادته وحده بجد ونشاط وإخلاص ، بسبب كونكم تعلمون غيركم الكتاب الذى أنزله الله لهداية الناس ، وبسبب كونكم تعلمون غيركم الكتاب الذى أنزله الله لهداية الناس ، وبسبب كونكم دارسين له ، أى قارئين له بتمهل وتدبر .

وقوله ـ تعالى ـ « ولكن كونوا ربانيين » إستدراك قصد به إثبات ما ينبغى للرسل أن يقولوه ، بعد أن نفى عنهم ما لا ينبغى لهم أن ينطقوا به أى : لا ينبغى لبشر آتاه الله نعما لا تحصى أن يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن الذى ينبغى له أن يقوله لهم هو قوله : كونوا ربانيين أى مخلصين له ـ سبحانه ـ العبادة إخلاصا تاما .

ففى الجملة الكريمة إضمار ، والتقدير : ولكن يقول لهم كونوا ربانيين » فأضمر القول على حسب مذهب العرب فى جواز الإضمار إذا كان فى الكلام ما يدل عليه ، ونظيره قوله ـ تعالى ـ « وأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم » أى فيقال لهم : أكفرتم ، والباء فى قوله « بما كنتم » للسببية ، وما مصدرية أى بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع «تعلمون» ـ بإسكان العين وفتح اللام ـ من العلم أى بسبب كونكم عالمين بالكتاب ودارسين له .

قال الرازى : دلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيا ، فمن اشتغل بذلك لا لهذا المقصد ضاع سعيه وخاب عمله ، وكان مثله كمثل من غرس شجرة حسناء مونقة بمنظرها ولا منفعة بثمرها ، ولهذا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ «نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع» .

وقوله ـ تعالى ـ «ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا» تأكيد لنفى أن يقول أحد من البشر الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة للناس اعبدونى من دون الله ، وتنزيه لساحتهم عن أن يأمروهم بعبادة غير الله .

وقوله «ولا يأمركم» وردت فيه قراءتان مشهورتان .

أما القراءة الأولى فبفتح الراء عطفا على «يقول» فى قوله «ثم يقول» وتكون «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفى فى قوله «ما كان بشر . . .» ويكون فى الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب .

والمعنى على هذه القراءة : ما كان لبشر أن يؤتيه الله ما ذكر ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ، أو يأمرهم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا . وذلك كقولك ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهيننى ويستخف بى . وبهذه القراءة قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم .

وعلى هذه القراءة يكون توسيط الاستدراك بين المعطوف والمعطوف عليه للمسارعة إلى تحقيق الحق ، ولبيان ما يليق بشأنه ويحق صدوره عنه .

وأما القراءة الثانية فقد قرأها الباقون برفع الراء فى «يأمركم» فتكون الجملة مستأنفة ، والمعنى : ولا يأمركم هذا البشر الذى أعطاه الله ما أعطاه من نعمة أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا .

وخصص الملائكة والنبيين بالذكر لأن عبادتهما قد شاعت عند كثير من الناس ، فقد وقع فى عبادة الملائكة «الصابئة» الذين كانوا يقيمون فى بلاد

الكلدان ، وتبعهم بعض المشركين من العرب . ووقع فى عبادة بعض النبيين كثير من النصارى فقد اتخذوا المسيح إلها يعبد وزعموه ابن الله وكثير من اليهود عبدوا عزيراً وزعموه ابن الله .

والاستفهام فى قوله « أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » الإنكار الذى بمعنى النفى .

أى : أن الرسل الكرام لا يمكن أن يأمروا الناس بالكفر بالله بعد أن هداهم الله - تعالى - عن طريق هؤلاء الرسل إلى أن يكونوا مسلمين .

فالجملة الكريمة تأكيد أبلغ وجه لنفى أن يأمر الرسل الناس بعبادة غير الله ، وتنزيه لساحتهم عن أن يقولوا قولا أو يأمروا بأمر يخالف ماتلقوه عن الله - تعالى - من إفراده بالعبادة والطاعة والخضوع .

قال بعضهم : وإذا كان ماذكر فى الآيتين لا يصلح لنبى ولا لمرسل، فلأنه لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا قال الحسن البصرى : لا ينبغى هذا المؤمن أن يأمر الناس بعبادته . ثم قال . وذلك أن القوم — يعنى أهل الكتاب - كان يعبد بعضهم بعضا كما قال — تعالى — « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ..

فالجهلة من الأحبار والرهبان يدخلون فى هذا الذم، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما أمر الله به وينهون عما نهى الله - تعالى - عنه ، ولذلك سعدوا وفازوا»(١) .

وبعد أن نزه - سبحانه - الأنبياء عن أن يقولوا قولا أو يأمروا بأمر لم يأذن به الله ، أتبع ذلك ببيان الميثاق الذى أخذه الله - تعالى - عليهم ، فقال - سبحانه - :

---

(١) تفسير ابن كثير بتلخيص ج ١ ص ٣٣٧

« وإذْ أَخذَ اللهُ ميثاقَ النَّبيِّينَ لمَا آتيتُكم من كتابٍ وحكمةٍ، ثم جاءكُم رسولٌ مُصدِّقٌ لِمَا معكُم لتُؤمِنُنَّ به ولتَنصُرُنَّه ، قالَ أأقررْتُم وأَخذْتُم عَلَى ذَلِكُم إصْرِي ؟ قالُوا أقررْنَا، قالَ فاشهدُوا وأنا معكُم مِنَ الشاهدِينَ (٨١) فمَنْ تولَّى بعْدَ ذلكَ فأولئكَ هم الفاسِقونَ (٨٢) أفغيرَ دِينِ اللهِ يبْغُونَ ، وَلهُ أسلَمَ مَنْ فى السَّمواتِ والأرْضِ طوْعاً وكرْهاً وإليْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) » .

قوله - تعالى - « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » الظرف « إذ » منصوب بفعل مقدر تقديره اذكر ، والخطاب فيه للنبى - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يصلح للخطاب .

والميثاق : هو العقد المؤكد بيمين .

أى : اذكر يا محمد أو أيها المخاطب وقت أن أخذ الله الميثاق من النبيين .

والمفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال أشهرها قولان :

أولهما : - وهو رأى جمهور العلماء - أن المراد أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين .

وثانيهما : - وهو رأى بعض العلماء - أن المراد أن الأنبياء هم الذين أخذوا الميثاق من غيرهم .

والمعنى على رأى فريق من أصحاب القول الأول - منهم الحسن والسدى وسعيد بن جبير - :

أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين أن يصدق بعضهم بعضا ، وأخذ العهد على كل نبى أن يؤمن بمن يأتى بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه ، فإن لم يدركه يأمر قومه بنصرته إن أدركوه . فأخذ - سبحانه - الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى . ومن عيسى أن يؤمن بمحمد - صلوات الله وسلامه عليهم جميعا - وإذا كان هذا حكم الأنبياء، كانت الأمم بذلك أولى وأحرى.

والمعنى على رأى فريق آخر من أصحاب هذا القول منهم على وابن عباس وقتادة: أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين أن يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - إذا أدركوه، وأن يأمروا أقوامهم بالإيمان به.

قالوا: ويؤيد هذا ما أخرجه ابن جرير عن على بن أبى طالب قال: لم يبعث الله نبياً: آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد - صلى الله عليه وسلم - لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه. ويأمره فيأخذ العهد على قومه. ثم تلا الآية(١).

فكأن أصحاب هذا القول الأول متفقون فيما بينهم على أن الميثاق إنما أخذه الله من النبيين. إلا أن بعضهم يرى أن هذا الميثاق أخذه الله منهم لكى يصدق بعضهم بعضا.. والبعض الآخر يرى أن هذا الميثاق أخذه الله منهم فى شأن محمد - صلى الله عليه وسلم - خاصة.

قال ابن كثير ما ملخصه: وما قاله الحسن ومن معه لا يضاد ما قاله على وابن عباس ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه... وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال: يارسول الله: إنى مررت بأخ لى من بنى قريظة، فكتب لى جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه النبى - صلى الله عليه وسلم - قال عبد الله ابن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ فقال عمر: رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا. قال: فسرى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال: «والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى - عليه السلام - ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم، إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين».

وعن جابر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى» وفى بعض الأحاديث: لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى.

(١) تفسير الآلوسى ج ٣ ص ٢٠٩

قال رسول محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الإمام الأعظم الذى لو وجد فى أى عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم ... »(١) .

هذا هو معنى الجملة الكريمة عند أصحاب الرأى الأول الذين يرون أن الله - تعالى - إخذ الميثاق من النبيين . وأصحاب هذا الرأى كما سبق أن بينام جمهور العلماء .

أما أصحاب الرأى الثانى الذين يرون أن المراد من الآية أن الأنبياء هم الذين أخذوا الميثاق من غيرهم ، فالمعنى عليه :

واذكر يا محمد أو أيها المخاطب وقت أن أخذ الأنبياء العهد على أقوامهم بأنه إذا بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - وأدركوه ، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوه وينصروه فكأن معنى الآية : واذكر وقت أن أخذ الله الميثاق الذى وثق الأنبياء على أقوامهم ..

هذا . وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذين الرأيين وغيرهما فقال :

« ميثاق النبيين » فيه غير وجه . أحدها : أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك . والثانى : أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه . كما تقول : ميثاق الله وعهد الله كأنه قيل : وإذ أخذ الله الميثاق الذى وثقه النبيون على أممهم . والثالث : أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف . والرابع : أن يراد أهل الكتاب وأن يرد زعمهم تهكما بهم ، لأنهم كانوا يقولون : نحن أولى بالنبوة من محمد لأن أهل الكتاب ، ومنا كان النبيون »(٢) .

والذى تسكن إليه النفس فى معنى الآية . هو الرأى الأول الذى قال به جمهور العلماء ، وذلك لأن الآيات الكريمة مسوقة - كما يقول الفخر الرازى لتعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب ، مما يدل على نبوة محمد

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٨

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٧٩

صلى الله عليه وسلم - قطعا لعذرهم ، وإظهارا لعنادهم ، ومن جملة هذه الأشياء ما ذكره - سبحانه - في هذه الآية . وهو أنه - تعالى - أخذ الميثاق من الأنبياء بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه ، وأخبر أنهم قبلوا ذلك ، وحكم - سبحانه - بأنه من رجع عن ذلك كان من الفاسقين . . فحاصل الكلام أنه - تعالى - أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقا لما معهم ، ولا شك أن محمدا - صلى الله عليه وسلم قد جاء مصدقا لما معهم فوجب على الجميع أن يؤمنوا به ،[1] .

ولأن هذا المعنى هو الظاهر من الآية الكريمة ، ولا تحتاج إلى تقدير مضاف أو غيره ، والأخذ بالمعنى الظاهر الذي لا يحتاج إلى تقدير أولى من الأخذ بغيره .

ولأن أخذ العهد على الأنبياء بأن يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - أعلى وأشرف لقدره - صلى الله عليه وسلم - من أخذه على أممهم وأقوامهم .

ولأن أخذ العهد على الأنبياء أخذ له على الأمم ، إذ كل أمة يجب أن تصدق بما جاءها به نبيها .

واللام في قوله - تعالى - لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، قرأها الجمهور بالفتح وقرأها حمزة بالكسر .

وأما قراءة الفتح فلها وجهان : أولها : أن تجعل «ما» إسم موصول مبتدأ وما بعده صلة له ، وخبره قوله « لتؤمنن به » .

والتقدير : واذكر وقت أن أخذ الله ميثاق النبيين قائلا لهم : للذى آتيتكم إياه من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما أوتيتموه لتؤمنن بهذا الرسول ولتنصرنه . وعلى هذا الوجه تكون اللام في قوله « لما » للابتداء وحسن دخولها هنا لأن قوله « ما آتيتكم » في مقام المقسم عليه ، وقوله « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » في مقام القسم ، إذ هو بمنزلة الاستحلاف تقول : أخذت ميثاقك لتفعلن كذا فكأنك قلت : استحلفتك لتفعلن كذا . .

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٨ ص ١٢٢ .

وثانيهما : أن تجعل « ما » ههنا ، إسم شرط جازم فى موضع نصب بآتيتكم والتقدير : ما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنه .

وعلى هذا الوجه يكون فعل الشرط مكونا من جملتين : الأولى « آتيتكم » والثانية « ثم جاءكم » وهما معا فى محل جزم بما الشرطية . وقوله « لتؤمنن به » جواب القسم الذى تضمنه قوله : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين » وجواب الشرط محذوف ، لأن القاعدة النحوية أنه إذا إجتمع شرط وقسم فالجواب المذكور للسابق منهما وجواب اللاحق محذوف وهنا السابق هو القسم . قال ابن مالك :

واحذف لدى إجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

وأما قراءة الكسر التى قرأها حمزة فتكون اللام للتعليل كأنه قيل : أذكر وقت أخذ الله ميثاق النبيين ، لأن إيتاءهم الكتاب والحكمة ، ثم مجىء من يصدقهم يوجب عليهم الإيمان بهذا الرسول المصدق لما معهم ويوجب عليهم نصرته :

والمراد بالكتاب : ما أنزله الله - تعالى - على هؤلاء النبيين من كتب تنطق بالحق .

والمراد بالحكمة : الوحى الوارد بالتكاليف المفصلة التى لم يشتمل عليها الكتاب .

أو المراد بها العلم النافع الذى أعطاه - سبحانه - لهم ، ووفقهم للعمل به و « من » فى قوله « من كتاب » للبيان .

قال القرطبى : والمراد بالرسول هنا محمد - صلى الله عليه وسلم - واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين ، كقوله - تعالى - « ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة . . . إلى قوله - تعالى - « ولقد جاءهم رسول منهم

فكذبوه ، فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد — صلى الله عليه وسلم — وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذ بذلك الميثاق على أممهم »(١)

ثم حكى — سبحانه — ما قاله لهم بعد أن أمرهم بالإيمان بهذا الرسول وبنصرته فقال : « قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى » ؟

والإصر : العهد . وأصله من الإصار - أي الحبال التي يعقد بها الشيء ويشد وسمى العهد إصرا لأنه تقوى به الأقوال والعقود .

أي : قال الله - تعالى - للنبيين : أأقررتم بهذا الذي أمرتكم به وقبلتم عهدي ؟ والاستفهام للتقرير والتوكيد عليهم لاستحالة معناه الحقيقي في حقه - سبحانه

ثم حكى - سبحانه - ما أجاب به الرسل وما رد به عليهم فقال : « قالوا أقررنا قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

أي : قال الرسل مجيبين لخالقهم - عز وجل - أقررنا ياربنا وقبلنا عهدك وأمضيناه .

فرد عليهم - سبحانه - بقوله : « فاشهدوا » أي فليشهد بعضكم على بعض بهذا الإقرار ، وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم على بعض من الشاهدين .

وهذا توكيد عليهم ، وتحذير من الرجوع .

ثم بين - سبحانه - عاقبة الناكثين لعهودهم فقال : « فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

أي فمن أعرض عن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وعن نصرته ، بعد أخذ الميثاق المؤكد عليه ، فأولئك المعرضون « هم الفاسقون » أي الخارجون عن الإيمان إلى أفحش دركات الكفر والخيانة .

والفاء في قوله « فمن تولى » للتفريع ، و « من » يجوز أن تكون شرطية ويكون قوله « فأولئك هم الفاسقون » جوابها .

---

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٢٥ .

ويجوز أن تكون موصولة ، ويكون قوله « فأولئك الفاسقون » هو الخبر والضمير فى قوله « تولى » يعود على « من » بالإفراد باعتبار لفظها ، ويعود عليها بصيغة الجمع فى قوله فأولئك » باعتبار معناها .

وبعد أن بين - سبحانه - أن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - حق لا ريب فيه ، وأنه واجب على جميع من مضى من الأنبياء والأمم ، عقب ذلك ببيان أن كل من كره الإيمان بما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنه يكون بعيدا عن الدين الحق ، مستحقا للعقاب الأليم فقال - تعالى - (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون)

والاستفهام للانكار والتوبيخ ، وهمزة الاستفهام داخلة على فعل محذوف والفاء الداخلة على (غير) عاطفة لجملة (يبغون) على ذلك المحذوف الذى دل عليه الاستفهام وعينه المقام .

والمعنى : أيتولون عن الإيمان بعد هذا البيان فيبغون دينا غير دين الله الذى هو الإسلام .

ومعنى (يبغون) يطلبون . يقال بغى الأمر يبغيه بغاء - بضم الباء - أى طلبه . وقوله - تعالى - (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها) جملة حالية . أى أيبغون دينا غير دين الله والحال أن لله - تعالى - إستسلم وإنقاد وخضع له من فى السموات والأرض طوعا وكرها . أى طائعين وكارهين فهما مصدران فى موضع الحال .

والمراد أن كل من فى السموات والأرض قد إنقادوا وخضعوا لله - تعالى - إما عن طواعية وإختيار وهم المؤمنون لأنهم راضون فى كل الأحوال بقضائه وقدره ، ومستجيبون له فى المنشط والمكره والعسر واليسر وإما عن تسخير وقهر وهم الكافرون لأنهم واقعون تحت سلطانه العظيم وقدرته النافذة ، فهم مع كفرهم لا يستطيعون دفع قضائه - سبحانه - ، وإذن فهم خاضعون لسلطانه - عز وجل - لأنهم لا سبيل لهم ولا لغيرهم إلى الامتناع عن دفع ما يريده بهم

هذا، وقد ساق الفخر الرازي جملة آراء في معنى الآية الكريمة ثم إختار أحدها فقال ما ملخصه: في خضوع من في السموات والأرض لله وجوه: أصحها عندي أن كل ما سوى الله - سبحانه - ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد إلا بإيجاده، ولا يعدم إلا بإعدامه، فإذن كل ما سوى الله فهو منقاد خاضع لجلال الله في طرفي وجوده وعدمه. وهذا هو نهاية الخضوع والإنقياد. ثم إن في هذا الوجه لطيفة أخرى: وهي أن قوله «وله أسلم» يفيد الحصر، أي وله كل ما في السموات والأرض لا لغيره.

فهذه الآية تفيد أن واجب الوجود واحد، وأن كل ما سواه فإنه لا يوجد إلا بتكوينه. ولا يفنى إلا بإفنائه. [1] والآيات في هذه المعنى كثيرة.

وقوله «وإليه يرجعون» أي إليه وحده يرجع الخلق فيجازي كل مخلوق بما يستحقه من خير أو شر.

ففي الجملة الكريمة تحذير من الإعراض عن دينه، لأنه مادام مرجع الخلق جميعا إليه - سبحانه - فعلى العاقل أن يسلم نفسه إلى خالقه إختيارا قبل أن يسلمها إضطرارا، وأن يستجيب لأوامره ونواهيه، حتى ينال رضاه.

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد أقامت للناس الأدلة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمرتهم بالدخول في دينه، وحذرتهم من الإعراض عنه بأجلى بيان وأقوى برهان.

وبعد هذا البيان الواضح والبرهان الساطع على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر الله - تعالى - نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن على الدنيا كلمة الحق التي يؤمن بها، وأن يخبر كل من يتأتى له الخطاب بأن الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام وأن كل دين سواه فهو باطل. لأن رسالته - صلى الله عليه وسلم - هي خاتمة الرسالات، ودين الإسلام الذي أتى به ناسخ لكل دين سواه. استمع [2] إلى القرآن وهو يبين ذلك فيقول:

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ١٣٠. (٢) سورة الأعراف الآية ١٦٠.

« قُلْ آمنَّا باللهِ وما أُنزلَ علينا ، وما أُنزِلَ على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسْبَاطِ ، وما أُوتِيَ موسَى وعيسى وما أُوتِيَ النَّبيونَ من ربِّهم ، لانُفرِّقُ بينَ أَحدٍ منهم ونحن لهُ مسلمونَ (٨٤) ومَنْ يبْتَغِ غيرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يقْبَلَ منهُ ، وهُو في الآخرةِ من الخاسرينَ (٨٥) »

قوله « والأسباط » جمع سبط وهو الحفيد ، والمراد بهم أولاد يعقوب ـ عليه السلام ـ وكانوا إثنى عشر ولدا قال ـ تعالى ـ : « وقطعناهم إثنتى عشرة أسباطا أمما »

وسموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق ـ عليهم السلام ـ .

والمعنى : « قل » يا محمد لأهل الكتاب الذين جادلوك بالباطل وجحدوا الحق مع علمهم به ، قل لهم ولغيرهم « آمنا بالله » أى آمنت أنا وأتباعى بوجود الله ووحدانيته ، واستجبنا له كل ما أمرنا به ، أو نهانا عنه .

آمنا كذلك بما « أنزل علينا » من قرآن يهدى إلى الرشد ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم .

وآمنا أيضا بما أنزله الله ـ تعالى ـ من وحى وصحف على « إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » .

وآمنا ـ أيضا ـ بما آتاه الله لموسى وعيسى من التوراة والإنجيل وغيرهما من المعجزات ، وبما آتاه لسائر أنبيائه من وحى وآيات تدل على صدقهم .

« لا نفرق بين أحد منهم » أى لا نفرق بين جماعة الرسل فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل أهل الكتاب ، إذ فرقوا بين أنبياء الله وميزوا بينهم وقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم « نؤمن ببعض ونكفر ببعض » وهم فى الحقيقة

كافرون بهم جميعا ، لأن الكفر بواحد من الأنبياء يؤدى إلى الكفر بهم جميعا ، ولذا فنحن معاشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بلا تفرقة أو إستثناء

«ونحن له مسلمون» أى خاضعون له وحده بالطاعة والعبودية مستجيبون له فى كل ما أمرنا به وما نهانا عنه .

فالآية الكريمة تأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر عن نفسه وعن معه بأنهم آمنوا بالله وبكتبه وبرسله جميعا بدون تفرقة بينهم ، لأنها شرائع الله - تعالى - التى أنزلها على أنبيائه ، كلها مرتبط بعضها ببعض ، وكلها تتفق على كلمة واحدة هى إفراد الله - تعالى - بالعبودية والطاعة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم عدى أنزل فى هذه الآية بحرف الاستعلاء ، وفيما تقدم من مثلها - فى سورة البقرة - بحرف الانتهاء ؟ قلت : لوجود المعنيين جميعا ، لأن الوحى ينزل من فوق وينتهى إلى الرسل ، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر

ومن قال إنما قيل هنا «علينا» لقوله «قل» وقيل هناك «إلينا» لقوله «قولوا» تفرقة بين الرسل والمؤمنين ، لأن الرسول يأتيه الوحى على طريق الإستعلاء ، ويأتيهم على وجه الانتهاء ، من قال ذلك تعسف ألا ترى إلى قوله «بما أنزل اليك» وإلى قوله «آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا ..(١)» .

وخص هؤلاء الأنبياء الذين ذكرتهم الآية بالذكر ، لأن أهل الكتاب يزعمون أنهم يؤمنون بهم ويتبعونهم . فأراد القرآن أن يبين لهم أن زعمهم باطل، لأنهم لن يكونوا مؤمنين بهم إلا إذا آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم -

وقوله - تعالى - «لا نفرق بين أحد منهم» بيان لثمرة الإيمان الحق الذى رسخ فى قلوب المؤمنين وعلى رأسهم هاديهم ومرشدهم محمد - صلى الله عليه وسلم ، لأن هذا الإيمان الحق جعلهم يصدقون بأن رسل الله جميعا قد أرسلهم

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٩١ .

سبحانه - بالدعوة إلى توحيده وإخلاص العبادة له ، وإذا وجد تفاضل
اختلاف فهذا التفاضل والاختلاف يكون فى أمور أخرى سوى الإيمان
ه وإفراده بالعبودية ، سوى ما اتفقت عليه الشرائع جميعها من الدعوة إلى
ق وإلى مكارم الأخلاق . وقد جاءت رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم -
ة للرسالات ، وجامعة لكل مافيها من محاسن فوجب الإيمان بها ،
لا كان الكفر بها كفراً بجميع الرسالات السابقة عليها .

وقوله « ونحن له مسلمون » يفيد الحصر ، أى نحن له وحده أسلمنا
بوهنا . وأخلصنا عبادتنا ، لا لغيره كائنا من كان هذا الغير .

وهذا يدل على أنهم بلغوا أعلى مراتب الإخلاص والطاعة لله رب العالمين .

ثم بين - سبحانه - أن كل من يطلب دينا سوى دين الإسلام فهو خاسر
ل - تعالى - : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه . . . » .

أى : ومن يطلب دينا سوى دين الإسلام الذى أتى به محمد - عليه الصلاة
سلام - فلن يقبل منه هذا الدين المخالف لدين الإسلام ، لأن دين الإسلام
ى جاء به محمد ، هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده قال - تعالى - « اليوم
كملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا[1] ولأنه
الدين الذى ختم الله به الديانات ، وجمع فيه محاسنها .

أما عاقبة هذا الطالب لدين سوى دين الإسلام فقد بينها - سبحانه -
له : « وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

أى وهو فى الآخرة من الذين خسروا أنفسهم بحرمانهم من ثواب الله ،
ستحقاقهم لعقابه جزاء ماقدمت أيديهم من كفر وضلال .

وفى الحديث الشريف « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أى مردود
به ، وغير مقبول منه .

---

(١) سورة المائدة آية ٣ .

وفى الاخبار بالخسران عن الذى يبغى أى يطلب دينا سوى الإسلام، إشعار بأن من يتبع دينا سوى دين الإسلام يكون أشد خسرانا، وأسوأ حالا، لأن الطلب أقل شرا من الاتباع الفعلى.

وبعد أن عظم - سبحانه - شأن الإسلام، وبين أنه هو الدين المقبول عنده، أتبع ذلك ببيان أن سنته جرت فى خلقه بأن يزيد الذين اهتدوا هدى، أما الجاحدون للحق عن علم، والمتبعون لأهوائهم وشهواتهم فهم بعيدون عن هداية الله، ولن يقبلهم - سبحانه - إلا إذا تابوا عن ضلالهم، وأصلحوا ما فسد منهم، استمع إلى القرآن وهو يصور هـذا المعنى بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول:

« كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) ».

روى المفسرون روايات فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة منها ما أخرجه النسائى عن ابن عباس قال: إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هل لى من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: هل له من توبة؟ فنزلت هذه الآيات، فأرسل إليه قومه فأسلم.

وعن مجاهد قال: جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبى - صلى الله عليه وسلم - ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله هذه الآيات. قال: فحملها إليه رجـل من قومه فقرأها عليه. فقال الحارث: إنك والله - ما علمت

صدوق ، وإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصدق منك ، وإن الله عز وجل لأصدق الثلاثة ، قال : فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه وعن الحسن البصري أنه قال : أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، رأوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم - في كتابهم وأقروا به ، وشهدوا أنه حق ، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسدا للعرب حين بعث من غيرهم (١) .

هذه بعض الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآيات ، ويبدو لنا أن أقربها إلى سياق الآيات هي الرواية التي جاءت عن الحسن البصري بأن المقصود بالآيات أهل الكتاب ، وذلك لأن الحديث معهم من أول السورة . ولأن القرآن قد ذكر في غير موضع أن أهل الكتاب كانوا يعرفون صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - كما يعرفون أبناءهم ، وأنهم كانوا يستفتحون به (على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) .

ومع هذا فليس هناك ما يمنع من أن يكون حكم هذه الآيات شاملا لكل من ذكرتهم الروايات لكل من يشابههم ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال ابن جرير - بعد أن ساق هذه الروايات - ما ملخصه : وأشبه هذه الأقوال بظاهر التنزيل ما قاله الحسن : من أن هذه الآيات معنى بها أهل الكتاب على ما قال ، وجائز أن يكون الله - تعالى - أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا إرتدوا عن الإسلام فجمع قصتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم في إرتداده عن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - في هذه الآيات ، ثم عرف عباده سنته فيهم ، فيكون داخلا في ذلك كل من كان مؤمنا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يبعث ثم كفر به بعد أن بعث ، وكل من كان كافرا ثم أسلم على عهده - صلى الله عليه وسلم - ثم

(١) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ٣٤٠ . وتفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٩ .

إرتد وهو حي عن إسلامه ، فيكون معنيا بالآيات جميع هذين الصنفين وغيرهما ممن كان يمثل معناهما . بل ذاك كذلك إن شاء الله (١) .

والاستفهام فى قوله - تعالى - « كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم ... » للنفى ولاستبعاد هدايتهم إلى الصراط المستقيم وهم على هذا الحال من الارتكاس فى الكفر والضلال ، مع علمهم بالحق وإيمانهم به لفترة من الوقت .

والمعنى : أن الله - تعالى - جرت سنته فى خلقه ألا يهدى إلى الصراط المستقيم ، قوما « كفروا بعد إيمانهم » أى إرتدوا إلى الكفر بعد أن آمنوا ، وبعد أن « شهدوا أن الرسول » وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - « حق » وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه ، وبعد أن « جاءهم البينات » أى البراهين والحجج الناطقة بحقية ما يدعيه ، من قرآن كريم عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله ومن معجزات باهرة دالة على صدقه - صلى الله عليه وسلم - .

فأنت ترى أن حالهم التى أوجبت هذا النفى والاستبعاد تتمثل فى أنهم كانوا مؤمنين ، وكانوا يشهدون بأن الرسول حق ، وجاءتهم البينات اليقينية الملزمة التى تؤيد إيمانهم وشهادتهم ، ومع كل ذلك إستحبوا العمى على الهدى ، وإختاروا الكفر على الإيمان ، واستولى عليهم التعصب بالباطل فأرداهم وحرمهم من هداية الله حتى يغيروا ما بأنفسهم ويتوبوا عن غيهم ، ويصلحوا ما أفسدوه ، ويخلصوا وينيبوا إلى خالقهم وبارئهم .

قال صاحب الكشاف : قوله « كيف يهدى الله قوما ... » أى كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف ، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم ، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم ؛ وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق وبعد ما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التى تثبت بمثلها النبوة

(١) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ٤١ .

ـ وهم اليهود ـ كفروا بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن كانوا مؤمنين ، وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات .

فإن قلت : علام عطف قوله « وشهدوا » ؟ قلت : فيه وجهان : أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل ، لأن معناه بعد أن آمنوا . . . ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار « قد » بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق »(١) .

وقوله ـ تعالى ـ « والله لا يهدى القوم الظالمين » جملة حالية أو معترضة .

والمعنى : أنه ـ سبحانه ـ قد مضت سنته في خلقه أنه لا يهدى إلى الحق أولئك الذين آثروا الكفر على الإيمان ، عن تعمد وإصرار ، ووضعوا الشيء في غير موضعه مع علمهم بسوء صنيعهم .

وفي تذييل الآية الكريمة بهذه الجملة مع إطلاق لفظ الظلم ، إشعار بأنهم قد ظلموا أنفسهم بإيقاعها في مهاوى الردى والعذاب وظلموا الرسول الذى شهدوا له بأن ما جاء به هو الحق ثم كفروا به ، وظلموا الحقائق والبراهين التي نطقت بأحقية الإيمان وببطلان الكفر ثم تركوا هذه الحقائق والبراهين وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم ومطامعهم .

وإن الظلم متى سيطر على النفوس أفقدها رشدها وإدراكها للأمور إدراكا سليما ، وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث يقول : « اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة » .

ثم بين ـ سبحانه ـ عاقبة هؤلاء الظالمين فقال : « أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

قال الراغب : اللعن : الطرد والإبعاد على سبيل السخط ، وذلك من الله

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٨١

ـ تعالى ـ فى الآخرة عقوبة ، وفى الدنيا إنقطاع من قبول رحمته وتوفيقه ، ومن الإنسان دعاء على غيره .... » (١) .

والمعنى: أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة « جزاؤهم أن عليهم لعنة الله » أى جزاؤهم أن عليهم غضب الله وسخطه بسبب إستحبابهم الكفر على الإيمان « والملائكة والناس أجمعين » أى وعليهم كذلك سخط الملائكة والناس أجمعين وغضبهم ، ودعاؤهم عليهم باللعنة والطرد من رحمة الله .

وقوله « أولئك » مبتدأ . وقوله « جزاؤهم » مبتدأ ثان ، وقوله أن عليهم لعنة الله ... ألخ » خبر المبتدأ الثانى ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول . ١

والآية الكريمة قد بينت أن اللعنة على هؤلاء القوم ، صادرة من الله وهى أشد ألوان اللعن ، وصادرة من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، وصادرة من الناس أجمعين أى أن الفطر الإنسانية تلعنهم لنبذهم الحق بعد أن عرفوه وشهدوا به ، وقامت بين أيديهم الأدلة على أنه حق .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : فإن قيل لم عم جميع الناس مع أن من وافقهم فى كفرهم لا يلعنهم؟ قلنا فيه وجوه : منها أنهم فى الآخرة يلعن بعضهم بعضا كما قال ـ تعالى ـ « كلما دخلت أمة لعنت أختها » . فعلى هذا التقدير يكون اللعن قد حصل للكفار من الكفار . ومنها كأن الناس هم المؤمنون ، والكفار ليسوا من الناس ، ثم لما ذكر لعن الثلاث قال « أجمعين » . ومنها وهو الأصح عندى : أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر ، ولكنه يعتقد فى نفسه أنه ليس بمبطل ولا كافر ، فاذا لعن الكافر وكان هو فى علم الله كافرا فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك » (٢) .

ثم أكد ـ سبحانه ـ تلك العقوبة بعقوبة أخرى لازمة لها ما داموا على

(١) مفردات القرآن ص ٤٥١ للراغب الاصفهانى

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٣٧ .

ك الحالة المشئومة فقال - تعالى - « خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب » بسبب صرارهم على الكفر فى الدنيا ، وانغماسهم فيما يغضب الله « ولا هم ينظرون » ى ولا هم يمهلون ولا يؤخر عنهم العذاب بل عذابهم عاجل لا يقبل الإمهال و التأخير بسبب ما ارتكبوه فى الدنيا من شرور وآثام .

ولكن القرآن - مع هذا - يفتح باب التوبة لمن أراد أن يتوب ، وينهى ناس عن أن يقنطوا من رحمة الله متى تابوا وأنابوا وأصلحوا فيقول - بعد تلك الجملة المرعبة التى شنها على الكفر والكافرين - « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » .

أى : أن اللعنة مستمرة على هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ، وهم خالدون فى العذاب يوم القيامة بدون إمهال أو تأخير ، إلا الذين تابوا منهم عن الكفر الذى ارتكبوه ، وعن الظلم الذى اقترفوه ، وأصلحوا ما أفسدوه بأن قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريق الحق ، وحافظوا على أداء الأعمال الصالحة « فإن الله - تعالى - غفور رحيم » أى فإنه سبحانه يغفر لهم ما سلف منهم من كفر وظلم .

فى هذه الآية الكريمة إغراء للكافرين بأن يقلعوا عن كفرهم ، والمذنبين بأن يتوبوا إلى رشدهم وبأن يتوبوا إلى ربهم ، فإنه - سبحانه - يغفر الذنوب جميعاً لمن يتوب ويحسن التوبة ، فهو القائل « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ... »[1] .

أما الذين لا يتوبون ولا يستغفرون ولا يتوبون إلى رشدهم ، بل يصرون على الكفر فيزدادون كفراً ، والذين يرتكسون فى كفرهم وضلالهم حتى تفلت منهم الفرصة ، وينتهى أمد الاختبار ، ويأتى دور الجزاء ، فهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة ، فقد قال - تعالى - بعد هذه الآيات :

(١) سورة الزمر الآية ٥٣ .

« إِنَّ الذينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِم ثم ازدَادُوا كُفْراً، لَنْ تقْبَلَ تَوبتهُم وَأُولئكَ هم الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الذينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهم كُفَّار فلَنْ يقْبَلَ من أَحدِهِم ملء الأَرْضِ ذَهَباً ولو افتَدى به، أُولئكَ لهم عذابٌ أَليمٌ وما لهُم من نَاصِرِين (٩١) لَنْ تنالُوا البِرَّ حتى تُنفِقوا مما تُحِبُّونَ، وما تُنْفِقوا مِنْ شيء فإِنَّ اللهَ به عليمٌ (٩٢) » .

قوله - تعالى - « إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا » .

قال قتادة وعطاء : نزلت فى اليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة . ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن .

وقال أبو العالية والحسن : نزلت فى أهل الكتاب جميعا ، آمنوا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل مبعثه ثم كفروا به بعد مبعثه ، ثم ازدادوا كفرا بإصرارهم على ذلك ، وطعنهم فى نبوته فى كل وقت ، وعداوتهم له ، ونقضهم لعهودهم وصدهم الناس عن طريق الحق ، وسخريتهم بآيات الله .

ويمكن أن يقال : إن الآية الكريمة على عمومها فهى تتناول كل من آمن ثم ارتد عن الإيمان إلى الكفر ، وازداد كفرا بمقاومته للحق ، وإيذائه لأتباعه ، وإصراره على كفره وعناده وجحوده .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : « لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون » .

أى إن هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا وعنادا وجحودا للحق « لن تقبل توبتهم » أى لن تتوقع منهم توبة حتى تقبل ، لأنهم بإصرارهم على كفرهم ، ورسوخهم فيه ، وتلاعبهم بالإيمان، قد صاروا غير أهل للتوفيق

لها، ولأنهم حتى لو تابوا فتوبتهم إنما هي بألسنتهم فحسب، أما قلوبهم فمليئة بالكفر والنفاق ولذا تعتبر توبتهم كلا توبة.

وبعضهم حمل عدم قبول توبتهم على أنهم تابوا عند حضور الموت، والتوبة فى هذا الوقت لا قيمة لها.

قال القرطبى: وهذا قول حسن كما قال - تعالى -: «وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن».

وبعضهم حمل عدم قبول توبتهم على أنهم ماتوا على الكفر، وإلى هذا المعنى إتجه صاحب الكشاف فقد قال: فإن قلت: قد علم أن المرتد كيفما إزداد كفرا فإنه مقبول التوبة إذا تاب فما معنى «لن تقبل توبتهم»؟ قلت: جعلت عبارة عن الموت على الكفر، لأن الذى لا تقبل توبته من الكفار هو الذى يموت على الكفر. كأنه قيل إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر، داخلون فى جملة من لا تقبل توبتهم.

فإن قلت: فأى فائدة فى هذه الكناية أعنى أن كنى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة؟

قلت: الفائدة فيها جليلة وهى التغليظ فى شأن أولئك الفريق من الكفار وإبراز حالهم فى صورة حالة الآيسين من الرحمة التى هى أغلظ الأحوال وأشدها ألا ترى أن الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة»[1]

والذى يبدو لنا أن الآية الكريمة أشد ما تكون إنطباقا على أولئك الذين تتكرر منهم الردة من الإيمان إلى الكفر فهم لفساد قلوبهم وانطماس بصيرتهم وإستيلاء الأهواء والمطامع على نفوسهم أصبح الإيمان لا استقرار له فى قلوبهم بل يتلاعبون به، ويبيعونه نظير عرض قليل من أعراض الدنيا، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة النساء «إن الذين آمنوا ثم كفروا، ثم آمنوا

---

(١) تفسير الكشاف حـ ١ ص ٣٨٣.

م كفروا . ثم إزدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا » .

وقوله « وأولئك هم الضالون » أى الكاملون فى الضلال ، البعيدون عن طريق الحق ، المستحقون لسخط الله وعذابه .

ثم صرح - سبحانه - ببيان عاقبة الذين يموتون على الكفر فقال - تعالى - إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار » .

أى إستمروا على كفرهم وضلالهم حتى ماتوا على هذا الكفر والضلال فكأن الآيات الكريمة قد ذكرت لنا ثلاثة أصناف من الكافرين : قسم كان كافرا ثم تاب عن كفره توبة صادقة بأن آمن وعمل صالحا فقبل الله توبته ، وهذا القسم هو الذى إستثناه الله بقوله « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » .

وقسم كان كافرا ثم تاب عن كفره توبة ليست صادقة ، فلم يقبلها الله - تعالى - منه .

وهو الذى قال الله فى شأنه فى الآية السابقة « إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم إزدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون » .

وقسم كان كافرا واستمر على كفره حتى مات عليه دون أن تحدث منه أية توبة ، وهو الذى أخبر عنه - سبحانه - فى هذه الآية بقوله : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار » .

أى ماتوا على كفرهم دون ان يتوبوا منه . وقد بين الله - تعالى - سوء مصيرهم بقوله : (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو إفتدى به) .

أى أن هؤلاء الذين ماتوا على الكفر دون أن يتوبوا منه . لن يقبل الله - تعالى - من أحدهم ما كان قد انفقه فى الدنيا ولو كان هذا المنفق ملء الأرض ذهبا ، لأن كفره قد أحبط أعماله وافسدها كما قال - تعالى - (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) (١) .

(١) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

وكذلك لن يقبل الله - تعالى - من أحدهم فدية من عقابه الشديد له بسبب موته على الكفر، ولو كان ما يفتدى به نفسه ملء الأرض ذهبا، لأن الله - تعالى - غنى عنه وعن فديته - مهما عظمت - وسيعاقبه على كفره بما يستحق من عقاب.

قال ابن كثير: قوله - تعالى - (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به).

أى من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربة كما سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن عبد الله ابن جدعان - وكان يقرى الضيف، ويفك العانى، ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك؟ فقال لا: (إنه لم يقل يوما من الدهر رب اغفرلى خطيئتى يوم الدين) وكذلك لو افتدى - نفسه فى الآخرة - بملء الأرض أيضا ذهباً ما قبل منه - كما قال - تعالى - (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) وقال - تعالى - (إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم [1].

ثم قال: وروى الشيخان والامام أحمد عن أنس بن مالك أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال: يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول نعم. فيقول الله له: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك).

وفى رواية الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أى رب، خير منزل. فيقول الله - تعالى - له: سل وتمن، فيقول: ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات - لما

(١) سورة المائدة الآية ٣٦

ري من فضل الشهادة - ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : كيف وجدت
منزلك ؟ فيقول : أى رب شر منزل . فيقول له : أتفتدى منه بملء الأرض
ذهبا ؟ فيقول: أى رب ! نعم فيقول : كذبت ! قد سألك أقل من ذلك وأيسر
لم تفعل فيرد إلى النار)(١).

وقال صاحب الكشاف : فان قلت : فلم قيل فى الآية السابقة (لن تقبل
توبتهم) بغير فاء . وقيل هنا (فلن يقبل من أحدهم) بوجود الفاء ؟ قلت :
قد أوذن بالفاء أن الكلام بنى على الشرط والجزاء ، وأن سبب إمتناع قبول
فديه هو الموت على الكفر ، وبترك الفاء أنه كلام مبتدأ أو خبر ولا دليل
فيه على التسبيب ، كما تقول : الذى جاءنى له درهم ، لم تجعل المجىء سببا فى
استحقاق الدرهم ، بخلاف قولك : فله درهم)(٢).

وقوله (ذهبا) منصوب على أنه تمييز .

وعبر بالذهب لأنه أنفس الأشياء وأعزها على النفس .

وقوله (ولو افتدى به) جملة حالية ، والواو للحال . أى لا يقبل من الذى
مات على كفره هـذا الفداء ولو فى حال إفتراض تحقق هذا الفداء فى يده ،
تقديمه إياه لكى يدفعه لخالقه وينجو من العقوبة التى توعده بها .

أى أن العذاب الأليم نازل قطعا على هذا الذى مات على كفره ، حتى
لو فرضنا أنه تصدق فى الدنيا بملء الأرض ذهبا ، وحتى لو فرضنا أنه ملك
هذا المقدار النفيس الكثير من الأموال فى الآخرة وقدمه فدية لنفسه من
العذاب ، فإن كل ذلك غير مقبول منه ، ولا بد من نزول العذاب به .

وقد أشار ابن المنير إلى هـذا المعنى بقوله : (قبول الفدية التى هى ملء
الأرض ذهبا يكون على أحوال : منها : أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٨٠ - بتصريف وتلخيص .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٨٢

نفسه كما تؤخذ الدية قهرا من مال القاتل على قول . ومنها أن يقول المفتدى فى التقدير : أفدى نفسى بكذا وقد لا يفعل . ومنها أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذى يفدى به نفسه ويجعله حاضرا عتيدا ، وقد يسلمه مثلا لمن يأمن منه قبول فديته . وإذا تعددت الأحوال فالمراد من الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول . وهو أن يفتدى بملء الأرض ذهبا افتداء محققا بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختيارا مع ذلك لا يقبل منه ، فمجرد قوله أبذل المال وأقدر عليه أوما يجرى هذا المجرى بطريق الأولى. فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها تنبيها على أن ثم أحوالا أخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة .... وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخاص لهم من العذاب ، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن القلس فى ذلك اليوم. ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى فى يدى هذه »(1) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » .

أى أولئك الذين ماتوا على كفرهم لهم عذاب أليم ، وما لهم من ناصرين ينصرونهم بدفع العذاب عنهم ، أو تخفيف وقعه عليهم .

ومن مزيدة لاستغراق النفى وتأكيده . أى لا يوجد أحد كائنا من كان ينقذهم من عذاب الله ، أو يجيرهم من أليم عقابه .

وبذلك ترى أن الآيتين الكريمتين قد توعدتا الكافرين بأشد ألوان العذاب ، وأقسى أنواع العقاب ، حتى يقلعوا عن كفرهم ، ويثوبوا إلى رشدهم .

وبعد هذا الحديث المشتمل على أشد صنوف الترهيب من الكفر ، وعلى بيان سوء عاقبة الكافرين ، أتبعه بالحديث عن الطريق الذى يوصل المؤمنين

(1) حاشية ابن المنير على الكشاف ج 1 ص ٢٨٣ .

إلى رضا الله وحسن مثوبته فقال - تعالى - : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » .

تنالوا : من النيل وهو إصابة الشيء والحصول عليه . يقال نال ينال نيلا، إذا أصاب الشيء ووجده وحصل عليه .

والبر : الإحسان وكمال الخير . وأصله التوسع فى فعل الخير . يقال : بر العبد ربه أى توسع فى طاعته .

والإنفاق البذل ، ومنه إنفاق المال . وعن الحسن : كل شيء أنفقه المسلم من ماله يبتغى به وجه الله ويطلب ثوابه حتى التمرة يدخل فى هذه الآية .

والمعنى : لن تنالوا حقيقة البر ، ولن تبلغوا ثوابه الجزيل الذى يوصلكم إلى رضا الله ، وإلى جنته التى أعدها لعباده الصالحين ، إلا إذا بذلتم مما تحبونه وتؤثرونه من الأموال وغيرها فى سبيل الله ، وما تنفقوا من شيء - ولو قليلا - فإن الله به عليم ، وسيجازيكم عليه بأكثر مما أنفقتم وبذلتم .

ولقد حكى لنا التاريخ كثيرا من صور البذل والإنفاق التى قام بها السلف الصالح من أجل رضا الله وإعلاء كلمته ، ومن ذلك ما رواه الشيخان عن أنس ابن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بير حاء - موضع بالمدينة - وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها . قال أنس : فلما أنزلت هذه الآية : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .. ، قام أبو طلحة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارسول الله ، إن الله - تعالى - يقول فى كتابه « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وإن أحب أموالى إلى بير حاء ، وإنها صدقة لله - تعالى - أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يارسول الله حيث أراك الله .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : بخ بخ - كلمة استحسان

ومدح - أي: ذلك مال رابح - أي ذو ربح -، ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين . قال أبو طلحة : أفعل يارسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه »(١) .

قال القرطبى : وكذلك فعل زيد بن حارثة، عمـد مما يحب إلى فرس له يقال له « سَبَل »، وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لى مال أحب إلى من فرسى هذه، فجاء بها إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : هذا فى سبيل الله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأسامة بن زيد : اقبضه، فكأن زيداً وجد من ذلك فى نفسه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن الله قد قبلها منك » .

وأعتق عبد الله بن عمر نافعا مولاه، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار، قالت صفية بنت أبى عبيد : أظنه تأول قوله الله - تعالى - « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » .

وقال الحسن البصرى : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون(٢) .

وهكذا نرى أن السلف الصالح قد قدموا ما يحبون من أموالهم تقربا إلى الله - تعالى وشكرا له على نعمائه وعطائه، فرضى الله عنهم وأرضاهم . ثم عاد القرآن الكريم إلى الرد على اليهود الذين جادلوا النبى - صلى الله عليه وسلم - فى كثير من القضايا، بعد أن ذكر فى الآيات السابقة طرفاً من مسالكهم الخبيثة التى منها تواصيهم فيما بينهم بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره، وقد حكى هنا جدلهم فيما أحله الله وحرمه من الأطعمة فقال - تعالى - :

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة . باب الزكاة على الأقارب ج ٢ ص ١٤٨ وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة ج ٢ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٣٣ .

« كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إسرائيلَ إلاَّ ما حَرَّمَ إسرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التوراةُ ، قُلْ فأْتوا بالتوراةِ فاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُم صادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افترَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلكَ فأُولئكَ هُمُ الظَّالمونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللهُ فاتَّبِعوا مِلةَ إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ مِنَ المشركِينَ (٩٥) » .

ذكر بعض المفسرين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لليهود فى معرض مناقشته لهم : أنا على ملة إبراهيم . فقال بعض اليهود : كيف تدعى ذلك وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها ؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - ، كان ذلك حلالا لإبراهيم فنحن نحله . فقالوا : كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه فإنه كان محرما على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا، فأنزل الله هذه الآيات تكذيبا لهم(١).

والطعام مصدر بمعنى المطعوم ، والمراد به هنا كل ما يطعم ويؤكل .

وحلا : مصدر أيضاً بمعنى حلالا، والمراد الإخبار عن أكل الطعام بكونه حلالا ، لا نفس الطعام ؛ لأن الحل كالحرمة مما لا يتعلق بالذوات .

وإسرائيل : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام - .

والمعنى : كل أنواع الأطعمة كانت حلالا لبنى إسرائيل قبل نزول التوراة إلا شيئا واحدا كان محرما عليهم قبل نزولها وهو ما حرمه أبوهم اسرائيل على نفسه ؛ فإنهم حرموه على أنفسهم اقتداء به . فلما أنزل الله التوراة حرم عليهم فيها بعض الطيبات بسبب بغيهم وظلمهم .

هذا هو الحق الذى لاشك فيه ، فإن جادلوك يا محمد فى هذه المسألة فقل لهم على سبيل التحدى : أحضروا التوراة فاقرءوها ليتبين الصادق منا من الكاذب ، إن كنتم صادقين فى زعمكم أن ما حرمه الله عليكم فيها كان محرما على نوح وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ٣ - بتصرف يسير .

فالآية الكريمة قد تضمنت أموراً من أهمها :

أولا : إبطال حجتهم فيما يتعلق بقضية النسخ ، إذ زعموا أن النسخ محال واتخذوا من كون النسخ مشروعا فى الإسلام ذريعة للطعن فى نبوة النبى - صلى الله عليه وسلم - فدحض القرآن مدعاهم وألزمهم الحجة عن طريق كتابهم .

ولذا قال الإمام ابن كثير : الآية شروع فى الرد على اليهود ، وبيان بأن النسخ الذى أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ، فإن الله - تعالى - قد نص فى كتابهم التوراة أن نوحا - عليه السلام - لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه فيما حرم على نفسه ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك وبتحريم أشياء زيادة على ذلك - عقوبة لهم بسبب بغيهم وظلمهم . . . وهذا هو النسخ بعينه »(١) .

وقد صرح ابن كثير وغيره من المفسرين أن ما حرمه إسرائيل على نفسه هو لحوم الإبل وألبانها ، وبذلك جاءت بعض الروايات عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وكان تحريمه لها تعبدا وزهادة وقهراً للنفس طلبا لمرضاة الله - تعالى - .

وقيل إن ما حرمه على نفسه هو العروق . روى ذلك عن ابن عباس والضحاك والسدى موقوفا عليهم .

قالوا : كان يعتريه عرق النسا وهو عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ويسبب آلاما شديدة - فنذر إن عوفى منه لا يأكل عرقا . فلما شفاه الله ترك أكل العروق وفاء بنذره .

ثانياً : تضمنت أيضا تكذيبهم فى دعواهم أن ما حرم عليهم لم يكن بسبب تحريمهم ظلمهم أو بغيهم ؛ وإنما كان محرما على غيرهم ممن سبقهم من الأمم .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٨٢ - بتصريف وتلخيص - .

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : وهو - أى ما إشتملت عليه الآية - رد على اليهود وتكذيب لهم ، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم فى قوله - تعالى - « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ... » وحيث أرادوا جحود ما غاظهم بسبب ما نطق به القرآن من أن تحريم الطيبات عليهم كان لأجل بغيهم وظلمهم فقالوا : لسنا بأول من حرمت عليه هذه الأشياء ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل وهلم جرا ، إلى أن إنتهى التحريم إلينا ، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا . وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا . . . وما عدد من مساويهم التى كلما إرتكبوا منها كبيرة حرم الله عليهم نوعا من الطيبات عقوبة لهم »(١) .

ثالثاً : تضمنت الآية كذلك أمراً من الله — تعالى — لنبيه — صلى الله عليه وسلم - بأن يتحداهم بالتوراة ويبكتهم بما نطقت به ، وذلك بقوله — تعالى — فى الآية الكريمة « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » .

فكأنه — سبحانه — يقول لهم : ما دمتم — يامعشر اليهود — قد زعمتم أن ما حرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم ليس تحريما حادثا ، وإنما هو تحريم قديم على الأمم قبلكم ، فها هى ذى التوراة قريبة منكم فأحضروها واتلوها بإمعان وتدبر إن كنتم صادقين فى مدعاكم ،

والتعبير بأن يشير إلى عدم صدقهم ، لأنها تدل على الشك فى الشرط .

أى : هم ليسوا صادقين فيما يزعمون ، ولذلك لايتلون ولا يقرؤون ، ولو جاءوا بها لكانت مؤيدة لما أخبر به القرآن الكريم ، ولذلك لم يحضروا على

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٨٥

إخراج التوراة ، وبهتوا وانقلبوا صاغرين . وفى ذلك الحجة البينة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله « إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » مستثنى من إسم كان ، والتقدير : كل الطعام كان حلالا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه فإنه قد حرم عليهم فى التوراة ، وليس منها ما زادوه من محرمات وادعوا صحة ذلك .

ثم توعدهم - سبحانه - على كذبهم وجحودهم فقال - تعالى - : « فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون » .

إفترى : من الإفتراء وهو إختلاق الكذب ، وأصله من فرى الأديم إذا قطعه ، لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له فى الوجود .

أى : فمن تعمد الكذب على الله - تعالى - بأن زعم بأن ما حرمته التوراة على بنى إسرائيل من المطاعم بسبب ظلمهم وبغيهم ، كان محرما عليهم وعلى غيرهم قبل نزولها ، فأولئك الذين قالوا هذا القول الكاذب هم المتناهون فى الظلم ، المتجاوزون للحدود التى شرعها الله - تعالى - ، وسيعاقبهم - سبحانه - على هذا الظلم والإفتراء عذابا أليما لا مهرب لهم منه ولا نصير .

والفاء فى قوله « فمن إفترى » للتفريع ، ومن يحتمل أن تكون شرطية وأن تكون موصولة ، وقد روعى فى الآية الكريمة لفظها ومعناها .

وقوله « من بعد ذلك » متعلق بافترى ، وإسم الإشارة ذلك يعود إلى أمرهم بإحضار التوراة وما يترتب عليه من قيام الحجة وظهور البينة .

واسم الإشارة « أولئك » يعود إلى « من » وهو عبارة عن هؤلاء اليهود الذين جادلوا النبي - صلى الله عليه وسلم - بالباطل وافتروا على الله الكذب .

ويحتمل أن يكون المشار إليه وهو « من » عاما لكل كاذب ويدخل فيه اليهود دخولا أوليا .

وقد أكد الله – تعالى – وصفهم بالظلم بضمير الفصل الدال على أنهم كاملون فيه ، وموغلون فى إقترافه والتمسك به .

ثم أمر الله – تعالى – نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يدعوهم إلى إتباع ملة إبراهيم إن كانوا حقا يريدون إتباعها فقال – تعالى – : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً » أى : قل – يا محمد – لهؤلاء اليهود الذين جادلوك بالباطل ولكل من كان على شاكلتهم فى الكذب والظلم ، قل لهم جميعا : صدق الله فيما أخبرنا به فى قوله – تعالى – « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه . . . . » وفى كل ما أخبرنا به كتابه وعلى لسان رسوله . وأنتم الكاذبون فى دعواكم .

وإذا كنتم تريدون الوصول إلى الطريق القويم حقا « فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً » أى فاتبعوا ملة الإسلام التى عليها محمد – صلى الله عليه وسلم – وعليها من آمن به ، فهم المتبعون حقا لإبراهيم – عليه السلام – وهم أولى الناس به لأن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما .

أى كان متجها إلى الحق لا ينحرف عنه إلى غيره من الأديان أو الأقوال أو الأفعال الباطلة .

وكان مسلما ، أى كان مسلما وجهه لله ، مفردا إياه بالعبادة والطاعة والخضوع . ثم نفى الله – تعالى – عن إبراهيم كل لون من ألوان الشرك بأبلغ وجه فقال : « وما كان المشركين » .

أى : وما كان إبراهيم فى أى أمر من أموره من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى ، وإنما كان مخلصا عبادته لله وحده .

وفى ذلك تعريض بشرك اليهود وغيرهم من أهل الكفر والضلال ، وتنبيه إلى أن النبى – صلى الله عليه وسلم – وأتباعه هم المتبعون حقا لإبراهيم ،

فقد أمر الله ـ تعالى ـ محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسير على طريقة أبيه إبراهيم فقال : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »(١) .

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد حكت قضية من القضايا الكثيرة التي جادل فيها اليهود النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد لقنت الآيات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجواب الذي يخرس ألسنتهم ، ويكشف عن كذبهم وافترائهم وظلمهم ، ويرشدهم ويرشد كل من يتأتى له الخطاب إلى الملة القويمة إن كانوا حقاً يريدون الاهتداء إلى الصراط المستقيم .

ثم أخبر القرآن عن مسألة أخرى جادل اليهود فيها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي مسألة أفضلية المسجد الحرام على غيره من المساجد ، وقد رد القرآن عليهم وعلى أمثالهم في الكفر والعناد بما يثبت أن المسجد الحرام الذي نازعوا في أفضليته هو أفضل المساجد على الإطلاق فقال ـ تعالى ـ :

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) » .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : في اتصال هاتين الآيتين بما قبلهما وجوه

الأول : أن المراد منهما الجواب عن شبهة أخرى من شبهات اليهود في إنكار نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك لأنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في نبوته وقالوا : إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال وذلك لأنه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر ، وقبلة جملة الأنبياء ، وإذا

(٣) سورة النحل الآية ١٢٣

كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلا ، فأجاب الله عنه بقوله: « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة . . . فبين — سبحانه — أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف فكان جعلها قبلة أولى . . »(١) .

والمراد بالأولية أنه أول بيت وضعه الله لعبادته فى الأرض ، وقيل المراد بها كونه أولا فى الوضع وفى البناء ، ورووا فى ذلك آثارا ليس فيها ما يعتمد عليه .

وبكة : لغة فى مكة عند الأكثرين ، والباء والميم تعقب إحداهما الأخرى كثيراً ، ومنه النميط والنبيط فهما اسم لموضع . وقيل هما متغايران : فبكة موضع المسجد ومكة اسم للبلد بأسرها . وأصل كلمة بكة من البك وهو الازدحام . يقال : تباك القوم إذا تزاحموا ، وكأنها سميت بذلك لازدحام الحجيج فيها . والبك أيضا دق العنق ، وكأنها سميت بكة لأن الجبابرة تندق أعناقهم إذا أرادوها بسوء . وقيل أنها مأخوذة من بكأت الناقة أو الشاة إذا قل لبنها ، وكأنها إنما سميت بذلك لقلة مائها وخصبها .

والمعنى : إن أول بيت وضعه الله — تعالى — للناس فى الأرض ليكون متعبداً لهم ، هو البيت الحرام الذى بمكة ، حيث يزدحم الناس أثناء طوافهم حوله ، وقد أتوا إليه رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم .

روى الشيخان عن أبى ذر قال . قلت يا رسول الله : أى مسجد وضع فى الأرض أول ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة ، ثم قال : حيثما أدركتك الصلاة فصل . والأرض لك مسجد »(٢) .

---

(١) تفسير الفخر ج ٨ ص ١٥١

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء ج ٤ ص ١٩٧ ، وأخرجه مسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة ج ٢ ص ٦٣

قالوا : وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد منه فقال : معلوم أن سليمان بن داود هو الذى بنى المسجد الأقصى ، والذى بنى المسجد الحرام هو إبراهيم وابنه إسماعيل ، وبينهما وبين سليمان أكثر من ألف سنة فكيف قال - صلى الله عليه وسلم - إن بين بناء المسجدين أربعين سنة ؟

والجواب أن الوضع غير البناء ، فالذى أسس المسجد الأقصى ووضعه فى الأرض بأمر الله هو سيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وبين إبراهيم ويعقوب هذه المدة التى جاءت فى الحديث ، أما سليمان فلم يكن مؤسسا للمسجد الأقصى أو واضعاً له وإنما كان مجددا فلا إشكال ولا منافاة .

وإذن فالبيت الحرام أسبق بناء من المسجد الأقصى ، وأجمع منه للديانات السماوية ، وهو - أى البيت الحرام أول بيت جعل الله الحج إليه عبادة مفروضة على كل قادر على الحج ، وجعل الطواف حوله عبادة ، وتقبيل الحجر الأسود الذى هو ضمن بنائه عبادة .... ولا يوجد بيت سواه فى الأرض له من المزايا والخصائص ما لهذا البيت الحرام .

وبذلك ثبت كذب اليهود فى دعواهم أن المسجد الأقصى أفضل من المسجد الحرام ، وأن فى تحول الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الكعبة فى صلاته مخالفة للأنبياء قبله .

ثم مدح الله - تعالى - بيته بكونه « مباركا » أى كثير الخير دائمه ، من البركة وهى النماء والزيادة والدوام .

أى أن هذا البيت كثير الخير والنفع لمن حجه أو اعتمره أو اعتكف فيه ، أو طاف حوله ، بسبب مضاعفة الأجر ، وإجابة الدعاء ، وتكفير الخطايا لمن قصده بإيمان وإخلاص وطاعة لله رب العالمين .

وإن هذا البيت فى الوقت ذاته وفير البركات المادية والمعنوية .

فمن بركاته المادية : قدوم الناس إليه من مشارق الأرض ومغاربها ومعهم خيرات الأرض ، يقدمونها على سبيل تبادل المنفعة تارة وعلى سبيل

الصدقة تارة أخرى لمن يسكنون حول هذا البيت الحرام، إجابة لدعوة سيدنا إبراهيم حيث قال: «ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون»(١).

ومن بركاته المعنوية: أنه مكان لأكبر عبادة جامعة للمسلمين وهى فريضة الحج، وإليه يتجه المسلمون فى صلاتهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأماكنهم.

وقوله «مباركا» حال من الضمير فى «وضع».

ثم مدحه بأنه «هدى للعالمين» أى هو بذاته مصدر هداية للعالمين، لأنه قبلتهم ومتعبدهم، وفى استقباله توجيه للقلوب والعقول إلى الخير وإلى ما يوصلهم إلى رضا الله وجنته.

ثم مدحه - ثالثا - بقوله «فيه آيات بينات» أى فيه علامات ظاهرات، ودلائل واضحات تدل على شرف منزلته، وعلو مكانته. وهذه الجملة الكريمة مستأنفة لبيان وتفسير بركته وهداه.

ثم بين - سبحانه - بعض هذه الآيات البينات الدالة على عظمه وشرفه فقال: «مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا».

فالآية الأولى الدالة على عظم وشرف البيت الحرام «مقام إبراهيم» أى المقام المعروف بهذا الاسم. وهو الموضع الذى كان يقوم فيه إبراهيم تجاه الكعبة لعبادة الله - تعالى - ولإتمام بناء الكعبة ومعنى أن فى البيت مقام إبراهيم أى أنه فى فنائه ومتصل به.

قال ابن كثير: عن جابر - رضى الله عنه - أن الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعا حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى..» فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين.... والمراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧

إبراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة ، لما إرتفع الجدار أتاه إسماعيل بهذا الحجر ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار .

ثم قال : وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك .... وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى ناحية المشرق حيث هو الآن ، ليتمكن الطائفون من الطواف ، وليصلى المصلون عنده دون تشويش عليهم من الطائفين [1] .

وقوله « مقام إبراهيم » مبتدأ محذوف الخبر أى مقام إبراهيم منها أى من هذه الآيات البينات . أو خبر لمبتدأ محذوف أى فيه آيات بينات أحدهـا مقام إبراهيم .

وقد رجح ابن جرير أن قوله ـ تعالى ـ « مقام إبراهيم » هو بعض الآيات البينات التى فى البيت الحرام فقال : وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب قول من قال : الآيات البينات منهن مقام إبراهيم . وهو قول قتادة ومجاهد الذى رواه معمر عنهمـا فيكون الكلام مرادا منهن ، فترك ذكره اكتفاء بدلالة الكلام عليها : فان قال قائل : فهذا المقام من الآيات البينات فما سائر الآيات التى من أجلها قيل « آيات بينات » ؟ قيل : منهن المقام ، ومنهن الحجر ، ومنهن الحطيم ... » [2] .

وقال ابن عطية : والراجح عندى أن المقام وأمن الداخلين جعلا مثالا لما فى حرم الله من الآيات ، وخصا بالذكر لعظمهما وأنهما تقوم بهما الحجة على الكفار ، إذهم مدركون لهاتين الآيتين بحواسهم » [3] .

وأما الآية الثانية التى تدل على فضل هذا البيت وشرفه فقد بينها القرآن بقوله : « ومن دخله كان آمنا » .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٧٠ . بتصريف وتلخيص .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ١١

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٩٧ .

أى من التجأ إليه أمن من التعرض له بالأذى أو القتل قال — تعالى — « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » وفى ذلك إجابة لسيدنا إبراهيم حيث قال - كما حكى القرآن عنه - : « رب أجعل هذا البلد آمنا وأجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » ولا شك أن فى أمن من دخل هذا البيت أكبر آية على تعظيمه وعلى علو مكانته عند الله ، لأنه موضع أمان الناس فى بيئة تغرى بالإعتداء لخلوها من الزرع والنبات .

وفى الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث لمكة - يعنى لقتال عبد الله بن الزبير - : أئذن لى أيها الأمير أن أحدثك قولا قام به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الغد من يوم الفتح - سمعته أذناى ووعاه قلبى ، وأبصرته عيناى - حين تكلم به (١) : أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها - أخذ فيه بالرخصة فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب .

فقيل لأبى شريح ما قال لك عمرو ؟ فقال أبو شريح : قال لى : يا أبا شريح انا أعلم بذلك منك إن الحرم لا يعيذ عاصيا - أى لا يجيره ولا يعصم دمه - ولا فارا بدم - أى أن الحـــرم لا يجير إنسانا هاربا إليه لسبب من الأسباب الموجبة للقتل - ولا فارا بخربة - أى بسبب سرقة أو خيانة(٢) .

واقد كان أهل الجاهلية يعظمون المسجد الحرام - وخصوصا أهل مكة -

---

(١) أراد بقوله : سمعته أذناى ... الخ المبالغة فى تحقيق حفظه إياه ، وتيقنه من زمانه ومكانه ولفظه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب العلم ، باب فليبلغ الشـاهد الغائب ج ١ ص ٣٧ وأخرجه مسلم فى كتاب الحج ج ٤ ص ١٠٩

فلما جاء الإسلام أقر له هذه الميزة وزكاها . ووضع لها الضوابط والأحكام التى تضمن إستعمالها فى الوجوه التى شرعها الله .

فقد إتفق الفقهاء على أن من جنى فى الحرم جناية فهو مأخوذ بجنايته سواء أكانت فى النفس أم فيما دونها .

وإختلفوا فيمن جنى فى غير الحرم ثم لاذ إليه . فقال أبو حنيفة وابن حنبل : إذا قتل فى غير الحرم ثم دخل الحرم لا يقتص منه ما دام فيه ، ولكن لا يجالس ولا يعامل ولا يؤاكل إلى أن يخرج منه فيقتص منه . وإن كانت جنايته فيما دون النفس فى غير الحرم ثم دخل الحرم اقتص منه .

وقال مالك والشافعى يقتص منه فى الحرم لذلك كله كما يقتص منه فى الحل .

ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفقه .

ثم أخبر – سبحانه – عن وجوب الحج على كل قادر عليه فقال : « ولله على الناس حج البيت من إستطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

أى أن الله – تعالى – فرض على الناس أن يحجوا بيته فى أوقات معينة وبكيفية مخصوصة متى كان فى إستطاعتهم أداء هذه الفريضة .

« ومن كفر » أى من جحد فرضية الحج وأنكرها ، ولم يؤدها مع إستطاعته وقدرته على أدائها فإن الله غنى عنه وعن حجه وعن الناس جميعاً .

قال صاحب الكشاف : وفى هذا الكلام أنواع من التأكيد والتشديد منها قوله : « ولله على الناس حج البيت » يعنى أنه حق واجب لله فى رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته . ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل منه من إستطاع اليه سبيلا وفيه ضربان من التأكيد : أحدهما أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له . والثانى أن الإيضاح بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال

إيراد له فى صورتين مختلفتين . ومنها قوله : « ومن كفر » مكان ومن لم يحج تغليظا على تارك الحج . ولذلك قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً . ومنها ذكر الاستغناء عنه ، وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان . ومنها قوله : « عن العالمين » ولم يقل عنه ، لأن فيه الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ولأنه يدل على الاستغناء الكامل ، فكان أدل على عظم السخط . . . » (١) .

وقوله : « ولله » خبر مقدم متعلق بمحذوف أى واجب . وقوله : « على الناس » متعلق بهذا المحذوف . وقوله : « حج البيت » مبتدأ مؤخر .

وللناس عام مخصوص بالمستطيع ، وقد خصص ببدل البعض فى قوله : « من استطاع إليه سبيلا » ، إذ هذه الجملة بدل من الناس بدل البعض من الكل والضمير فى البدل مقدر أى من استطاع منهم إليه سبيلا .

و « من » فى قوله : « ومن كفر » يحتمل أن تكون شرطية وهو الظاهر ، وأن تكون موصولة . وعلى الاحتمالين استغنى فيما بعد الفاء عن الرابط بإقامة الظاهر مقام المضمر إذ الأصل ومن كفر فإن الله غنى عنه فاستغنى بالظاهر عن المضمر .

قال ابن كثير : والجمهور يرى أن هذه الآية هى آية وجوب الحج . وقيل بل هى آية . وأتموا الحج والعمرة لله ، والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقوائمه ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضرورياً وإنما يجب على المكلف فى العمر مرة واحدة بالنص والإجماع فعن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال يا أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله؟

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٩٠ .

فسكت حتى قالها ثلاثا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال : ذرونى ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم وإختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » .

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : « قام رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ما السبيل يارسول الله ، فقال : الزاد والراحلة »(١) .

وبذلك تكون هاتان الآيتان والآيات التى قبلهما قد ردت على اليهود فى دعواهم أن ماحرمه الله عليهم من طيبات لم يكن عقوبة لهم بسبب ظلمهم وبغيهم وكذبتهم فى دعواهم أن بيت المقدس أفضل من المسجد الحرام .

وقد اشتمل هذا الرد على مايثبت إفتراءهم من واقع التاريخ ، فقد أمر الله ـ تعالى ـ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يطالبهم بإحضار التوراة إن كانوا صادقين فى دعواهم . فبهتوا وانقلبوا صاغرين ، وأثبت القرآن أن البيت الحرام أول بيت وضع فى الأرض لعبادة الله ، فهو يسبق بيت المقدس فى أولوية الشرف والزمان وإذن فجدال اليهود للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الأمور ماهو إلا نوع من عنادهم وجحودهم للحق ، والمعاند والجاحد لاينفع معهما دليل أو برهان .

وبعد هذا الرد المفحم من القرآن على اليهود فى هاتين القضيتين ـ قضية ماحرم عليهم من الأطعمة وقضية نزاعهم فى أفضلية البيت الحرام ـ بعد كل ذلك ساق القرآن طرفا من مسالكهم الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين عن طريق محاولتهم الدس والوقيعة وإثارة الفتنة بين المؤمنين . وقد حذر الله المؤمنين من شرورهم بعد أن وبخ اليهود على مكرهم ، وتوعدهم بسوء المصير .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٨٥ .

استمع إلى القرآن وهو يسوق هذه المعانى بأسلوبه الحكيم فيقول :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) » .

أخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال : مر شاس بن قيس - وكان شيخاً قد عسا[1] فى الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم - مر على نفر من الصحابة من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم

(١) عسا الشيخ : كبر وأسن من عسا القضيب إذا يبس .

على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية . فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة (١) بهذه البلاد ، والله ما لنا معهم إذا إجتمع ملؤهم بها من قرار . فأمر شابا من اليهود كان معه فقال له اعمد إليهم فاجلس معهم وذكرهم يوم بعاث ، وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار . وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج . ففعل . فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب : أوس بن قيظى من الأوس ، وجبار بن صخر من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله رددناها الآن جذعة (٢) ، وغضب الفريقان وقالوا : قد فعلنا ، السلاح موعدكم الظاهرة . والظاهرة : الحرة . فخرجوا إليها وتحاور الناس . فانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض ، على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية . فبلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم . فقال يامعشر المسلمين : الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس . وما صنع .

فأنزل الله فى شاس بن قيس وما صنع « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون » الآية ، وأنزل فى أوس بن قيظى وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا « يأيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا

(١) قيلة : هى قلة بنت كاهل بن عذره وهى أم الأوس والخزرج .

(٢) جذعة : شابة فتية . يريد عودة الحرب قوية كما كانت .

الكتاب .. إلى قوله « وأولئك لهم عذاب عظيم » (١) - فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم - .

وقوله - تعالى - قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله . . . أمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يوبخ هؤلاء اليهود ومن لف لفهم على مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية ، ولإيذاء أتباعها ومحاولتهم صرف الناس عنها .

أى : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين كفروا بالحق بعد أن جاءتهم البينات: لم تعاندون الحق وتكفرون بآيات الله السمعية والعقلية الدالة على صدق فيما أبلغه عن ربي ، والحال أن الله مطلع عليكم وعالم علم المعاين المشاهد لأعمالكم الظاهرة والخفية ، وسيجازيكم عليها بما تستحقونه من عقاب أليم .

فالآية الكريمة قد تضمنت تأنيبهم على الكفر . وتهديدهم بالعقاب إذا استمروا فى مسالكهم الأثيمة .

ولكى يكون التأنيب أوجع ، أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يناديهم بقوله : « يا أهل الكتاب » ، لأن علمهم بالكتاب يستلزم منهم الإيمان ، والإذعان للحق ، ولكنهم اتخذوا علمهم وسيلة للشرور والتضليل فكان مسلكهم هذا دليلا على فساد فطرتهم ، وخبث طويتهم وسوء طباعهم .

وبعد أن أنبهم القرآن الكريم فى هذه الآية على كفرهم وضلالهم ، أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - فى آية ثانية أن يوبخهم على محاولتهم إضلال غيرهم فقال - تعالى - : « قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء » . وقوله « تصدون » من الصد وهو صرف الغير عن الشىء ومنعه منه . يقال : صد يصد صدودا ، وصدا .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ٢٣ .

وقوله «سبيل الله» أى طريقة الموصلة وهى ملة الإسلام.

وقوله «تبغونها عوجا» أى تطلبون لها العوج. يقال: بغيت له كذا أى طلبته. والعوج - بكسر العين - الميل والزيغ فى الدين والقول والعمل وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج. والعوج - بفتح العين - يكون فى المحسوسات كالميل فى الحائط والرمح وكل شىء منتصب قائم أى أن مكسور العين يكون فى المعانى ومفتوحها يكون فى الأعيان.

والمعنى: قل يامحمد لأهل الكتاب مرة أخرى مبالغة فى تقريعهم، وإزاحة لأعذارهم، لأى شىء تصرفون المؤمنين عن الإيمان الحق، وتمنعون من آمن بالنبى - صلى الله عليه وسلم - عن الاستمرار على إتباعه، وتثيرون الفتنة والوقيعة بين أصحابه.

وقوله: «تبغونها عوجا» أى تطلبون العوج والميل لسبيل الله الواضحة والميل بها عن القصد والإستقامة، وتريدون أن تكون ملتوية غير واضحة فى أعين المهتدين، كما التوت نفوسكم، وإنحرفت عقولكم.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت كيف قال تبغونها عوجا وهو محال؟ قلت: فيه معنيان: أحدهما أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها أعوجاجا بقولكم إن شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن وجهها وغير ذلك.

والثانى أنكم تتعبون أنفسكم فى إخفاء الحق إبتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم»(١).

وقوله «من آمن» مفعول به لتصدون. والضمير المنصوب فى قوله «تبغونها» يعود إلى سبيل الله أى تبغون لها فحذفت اللام كما فى قوله - تعالى - «وإذا كالوهم» أى كالوا لهم. وقوله «عوجا» مفعول به لتبغون.

وبعضهم جعل الضمير المنصوب فى «تبغونها» وهو الهاء هو المفعول.

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٩٣.

وجعل عوجا حال من سبيل الله . أى تبغونها أن تكون معوجة وتريدونها فى حال عوج واضطراب .

وقوله « وأنتم شهداء » حال من فاعل « تصدون » أو « تبغون » .

أى والحال أنكم تعلمون بأن سبيل الإسلام هى السبيل الحق علم من يعاين ويشاهد الشىء على حقيقته ، فجحودكم عن علم ، وكفركم ليس عن جهل ، ولقد كان المتوقع منكم يا من ترون الحق الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - فى كتابكم ، أن تكونوا أول المسارعين إلى الإيمان به ، ولكن الحسد والعناد حالا بينكم وبين الانتفاع بالنور الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله «وما الله بغافل عما تعملون» تهديد لهم ووعيد على ضلالهم ومحاولتهم إضلال غيرهم ، لأنه - سبحانه - ليس غافلا عن أعمالهم ، بل هو سيجازيهم على هذه المسالك الخبيثة بالفشل والذلة فى الدنيا، وبالعذاب والهوان فى الآخرة. ولما كان صدهم المؤمنين بطريق الخفية ختمت الآية الكريمة بما يحسم مادة حيلتهم ، ببيان أن الله - تعالى - محيط بكل ما يصدر عنهم من أقوال أو أعمال وليس غافلا عنها . بخلاف الآية الأولى فقد كان كفرهم بطريق العلانية لذا ختمت ببيان أن الله مشاهد لما يعملونه ولما يجاهرون به .

وبعد أن بين - سبحانه - فى هاتين الآيتين أن اليهود قد جمعوا الخستين ضلال أنفسهم ، ثم محاولتهم تضليل غيرهم ؛ تركهم مؤقتا فى طغيانهم يعمهون ووجه نداء إلى المؤمنين يحذرهم فيه من دسائس اليهود وكيدهم ، وينهاهم عن الركون إليهم ، والاستماع إلى مكرهم فقال - تعالى - « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .

والمعنى : إنكم أيها المؤمنون إن استمعتم إلى ما يلقيه بعض أهل الكتاب بينكم من دسائس ولنتم لهم ، لا يكتفون بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم كما فى الجاهلية، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولتهم إعادتكم إلى وثنيتكم القديمة وكفركم بالله بعد إيمانكم .

وقد خاطب الله المؤمنين بذاته فى هذه الآية بعد أن أمر رسوله
ىلى الله عليه وسلم - بأن يخاطب أهل الكتاب فى الآيتين السابقتين، إظهارا
لة قدرهم ، وإشعارا بأنهم الأحقاء بالمخاطبة من الله - تعالى - .

وناداهم بصفة الإيمان ؛ لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم ، وتوجيه
وهم إلى ما يستدعيه الإيمان من فطنة ويقظة . فالمؤمن ليس خبا ولكن
ب لا يخدعه .

وفى التعبير « بإن » فى قوله : « إن تطيعوا فريقا » إشارة إلى أن طاعتهم
ود ليست متوقعة ، لأن إيمانهم يمنعهم من ذلك .

ووصف - سبحانه - الذين يحاولون الوقيعة بين المؤمنين بأنهم فريق من
ذين أوتوا الكتاب ، إنصافا لمن لم يفعل ذلك منهم .

ونعتهم بأنهم « أوتوا الكتاب » للإشعار بأن تضليلهم متعمد . وبأن
مرهم على المؤمنين مقصود ، فهم أهل كتاب وعلم ، ولكنهم استعملوا علمهم
الشرور والآثام .

وقوله : « يردوكم » أصل الرد الصرف والإرجاع ، إلا أنه هنا مستعار
تغير الحال بعد المخالطة فيفيد معنى التصيير كقول الشاعر :

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سوداً

أى : يصيروكم بعد إيمانكم كافرين . والكاف مفعوله الأول ، وكافرين
فعوله الثانى

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى آية أخرى : « ود كثير من أهل
لكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد
ما تبين لهم الحق ... »(١) .

ثم بين القرآن بعد ذلك أنه ما يسوغ للمؤمنين أن يطيعوا هذا الفريق من

الذين أوتوا الكتاب ، أو أن يكفروا بعد إيمانهم ، أو أن يتفرقوا بعد وحدتهم فقال ـ تعالى ـ : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله » والاستفهام فى قوله : « وكيف تكفرون » للانكار ، ولاستبعاد كفرهم فى حال اجتمع لهم فيها كل الأسباب الداعية إلى الإيمان .

أى : كيف يتصور منكم الكفر ، أو يسوغ لكم أن تسيروا فى أسبابه وآيات الله تقرأ على مسامعكم غضة طرية صباح مساء ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين ظهرانيكم ، يردكم إلى الصواب إن أخطأتم ، ويزيح شبهكم إن التبس عليكم أمر .

وفى هذا ما يومىء إلى إلقاء اليأس فى قلوب هذا الفريق من اليهود من أن يصلوا إلى ما يبغونه بين المؤمنين فى وقت يذكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المؤمنين بما ينفعهم ؛ ويحذرهم مما يؤذيهم ويضرهم .

وفى توجيه الإنكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر مبالغة ، لأن كل موجود لابد أن يكون وجوده على حال من الأحوال ، فإذا أنكر ونفى فى جميع الأحوال انتفى وجوده بالكلية بالطريق البرهانى

وقوله « وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله » جملتان حاليتان من فاعل « تكفرون » وهو ضمير الجماعه . وهاتان الجملتان هما محط الانكار والاستبعاد .

أى أن كلا من تلاوة آيات الله وإقامة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم ، وازع لهم عن الكفر ، ودافع لهم إلى التمسك بعرى الإيمان .

ففى الآية الكريمة دلالة على عظم قدر الصحابة ، وان لهم وازعين عن موافقة الضلال : سماع القرآن ، ومشاهدة أنوار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن وجوده عصمة من ضلالهم ،

قال قتادة : أما الرسول فقد مضى إلى رحمة الله ، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر .

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى الوسيلة التي متى تمسكوا بها عصموا أنفسهم من مكر اليهود فقال - تعالى - : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

أي ومن يلتجىء إلى الله في كل أحواله ويتوكل عليه حق التوكل ، ويتمسك بدينه ، فقد هدى إلى الطريق الذي لا عوج فيه ولا إنحراف :

وفي هذا إشارة إلى أن التمسك بدين الله وبكتابه كفيل بأن يبعد المسلمين الذين لم يشاهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما يبيته لهم أعداؤهم من مكر وخداع .

قال ابن جرير ما ملخصه : وأصل العصم : المنع . فكل مانع شيئا فهو عاصمه ، والممتنع به معتصم به ، ولذلك قيل للحبل : عصام ، وللسبب الذي يتسبب به الرجل إلى حاجته عصام وأفصح اللغتين : إدخال الباء كما قال - عز وجل - « واعتصموا بحبل الله جميعا » وقد جاء اعتصمته »[1] .

ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين بمجامع الطاعات ، ومعاقد الخيرات ، فقال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

وقوله «حق تقاته» التقاة مصدر وهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها إذ الأصل : اتقوا الله التقاة الحق . أي الثابتة ، كقولك ضربت زيدا أشد الضرب تريد الضرب الشديد . وقيل التقاة إسم مصدر من اتقى كالتؤدة من اتأد

والمعنى : بالغوا أيها المؤمنون في التمسك بتقوى الله ومراقبته وخشيته حتى لا تتركوا منها شيئا ، ولا تكونن على ملة سوى الإسلام إذا أدرككم

(١) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ٢٦ .

الموت ، وإنما عليكم أن تستمروا على دينكم القويم حتى يأتيكم الأجل الذى لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون .

وقد ساق ابن كثير بعض الآثار التى وردت عن بعض السلف فى تفسير هذه الآية الكريمة فمن ذلك ماروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال فى معنى الآية تقوى الله حق تقواه : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر » .

وروى عن أنس أنه قال : لا يتقى الله العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه .

وقوله « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » هو نهى فى الصورة عن موتهم إلا على هذه الحالة . والمراد دوامهم على الإسلام ، وذلك أن الموت لابد منه فكأنه قيل : دوموا على الإسلام إلى أن يدرككم الموت فتموتوا على هذه الملة السمحاء وهى ملة الإسلام . لكى تفوزوا برضا الله وحسن ثوابه .

والجملة الكريمة فى محل نصب على الحال من ضمير الجماعة فى « اتقوا » . والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال : أى لا تموتن على حالة من الأحوال إلا على هذه الحالة الحسنة التى هى حالة المداومة على التمسك بالإسلام وتعاليمه وآدابه . . .

قال صاحب الكشاف : قوله « ولا تموتن » معناه ولا تكونن على حال سوى حال الاسلام إذا أدرككم الموت ، وذلك كأن تقول لمن تستعين به على لقاء العدو : لا تأتنى إلا وأنت على حصان ، فأنت لاتنهاه عن الاتيان ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التى شرطت عليه فى وقت الإتيان » (١) .

وبعد أن أمرهم ــ سبحانه ــ بمداومة خشيته ، والاستمرار على دينه ، أتبع ذلك بأمرهم بالاعتصام بدينه وبكتابه فقال ــ تعالى ــ « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . . . . » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٩٤ .

فهذه الآية الكريمة تأكيد لما إشتملت عليه سابقتها من مداومة التقوى والطاعة لله رب العالمين .

والاعتصام : إفتعال من عصم وهو طلب ما يعصم أى يمنع من السقوط والوقوع .

وأصل الحبل : ما يشد به للارتقاء أو التدلى أو للنجاة من غرق أو نحوه ، أو للوصول إلى شيء معين .

والمراد بحبل الله هنا : دينه ، أو عهده ، أو كتابه ، لأن التمسك بهذه الأشياء يوصل إلى النجاة والفلاح .

والمعنى : كونوا جميعا مستمسكين بكتاب الله ودينه وبعهوده ، ولا تتفرقوا كما كان شأنكم فى الجاهلية يضرب بعضكم رقاب بعض ، بل عليكم أن تجتمعوا على طاعة الله ، وأن تكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وبذلك تفوزون وتسعدون وتنتصرون على أعدائكم .

ففى الجملة الكريمة إستعارة تمثيلية حيث شبه - سبحانه - الحالة الحاصلة من تمسك المؤمنين بدينه وبكتابه وبعهوده وبوحدة كلمتهم ، بالحالة الحاصلة من تمسك جماعة بحبل وثيق مأمون الانقطاع ألقى إليهم من منقذ لهم من غرق أو سقوط أو نحوهما .

وإضافة الحبل إلى الله - تعالى - قرينة على هذا التمثيل .

وقوله « جميعا » حال من ضمير الجماعة فى قوله « وإعتصموا » .

فالجملة الكريمة تأمر المسلمين جميعا أن يعتصموا بعهود الله وبدينه وبكتابه ، وأن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وأن ينبذوا التفرق والاختلاف الذى يؤدى إلى ضعفهم وفشلهم .

قال الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « اعلم أن كل من

يمشى على طريق دقيق يخاف أن تنزلق رجله ، فإنه إذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق أمن من الخوف . ولاشك أن طريق الحق طريق دقيق ، وقد أنزلقت أرجل كثير من الخلق عنه . فمن اعتصم بدلائل الله و بيناته فإنه يأمن ذلك الخوف ، فكان المراد من الحبل هنا : كل شىء يمكن التوصل به إلى الحق فى طريق الدين . وهو أنواع كثيرة فمنهم من قال المراد به عهد الله ... ومنهم من قال المراد به القرآن ، فقد جاء فى الحديث « هو حبل الله المتين » ومنهم من قال المراد به طاعة الله ... وهذه الأقوال كلها متقاربة والتحقيق ماذكرناه من أنه لما كان النازل فى البئر يعتصم بحبل تحرزا من السقوط فيها ، وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته وموافقته لجماعة المؤمنين حرزاً لصاحبه من السقوط فى جهنم ، جعل ذلك حبلا لله وأمروا بالإعتصام به[1] ثم أمرهم — سبحانه — بتذكر نعم الله عليهم فقال : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ... » .

قوله «شفا حفرة» الشفا طرف الشىء وحرفه مثل شفا البئر ، وشفا الحفرة ومنه يقال : فلان أشفا على الشىء إذا أشرف عليه «كأنه بلغ شفاه أى حده وحرفه .

والمعنى : واذكروا أيها المؤمنون وتنبهوا بعقولكم وقلوبكم إلى نعمة الله عليكم بتأليف نفوسكم ، ورأب صدوعكم ، فقد كنتم فى الجاهلية أعداء متقاتلين متنازعين ، فألف بين قلوبكم بأخوة الإسلام فأصبحتم متحابين متناصحين متوادين ، وكنتم على وشك الوقوع فى النار بسبب إختلافكم وضلالكم فمن الله عليكم وأنقذكم من التردى فيها بهدايتكم إلى الحق عن طريق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذى أرسله ربه رحمة للعالمين . إذاً فمن الواجب عليكم وفاء لهذه النعم أن تشكروا الله عليها وأن تطيعوا

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٧ . طبعة عبد الرحمن محمد .

رسولكم - صلى الله عليه وسلم - ، وأن تتمسكوا بعرى المحبة والمودة والأخوة فيما بينكم .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ... إلخ ، هذا السياق فى شأن الأوس والخزرج ، فإنه كان بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية . وعداوة شديدة ، وضغائن وإحن طال بسببها قتالهم ، والوقائع بينهم ، فلما جاء الله بالإسلام ، فدخل فيه من دخل منهم ، صاروا إخوانا متحابين بجلال الله ، متواصلين فى ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها إذ هداهم للإيمان وقد امتن عليهم بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم ، بما فضل عليهم فى القسمة بما أراه ، فخطبهم فقال يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ؟ فكانوا كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن »(١) .

وفى هذه الآية الكريمة تصوير بديع مؤثر لحالة المسلمين قبل الإسلام وحالتهم بعد الإسلام .

فقد صور - سبحانه - حالهم وترديهم فى الكفر والاختلاف والتقاتل قبل أن يدخلوا فى الإسلام بحال من يكون على حافة حفرة من النار يوشك أن يقع فيها .

وصور هدايته لهم إلى سبيل الحق والمحبة والإخاء بدخولهم فى الإسلام ، عن طريق محمد - صلى الله عليه وسلم - بحالة من يبعد غيره عن التردى فى النار وينقذه من الوقوع فيها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٨٩ .

قال صاحب الكشاف : « والضمير المجرور في قوله « فأنقذكم منها » يعود للحفرة أو للنار أو للشفا ، وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة - فاكتسب التأنيث من المضاف إليه - كما قال : كما شرقت صدر القناة من الدم ... وشفا الحفرة وشفتها : حرفها : بالتذكير والتأنيث .

فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار ؟ قلت : لو ماتوا على ما كانوا عليه لوقعوا في النار . فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها ، مشفين - أي مشرفين - على الوقوع فيها »(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

أي كهذا البيان الواضح الذي سمعتموه في هذه الآيات ، يبين الله لكم دائما من آياته ودلائله وحججه ما يسعدكم في الدنيا والآخرة ، وما يأخذ بيدكم إلى وسائل الهداية وأسبابها ، رجاء أن تكونوا ممن رضى الله عنهم وأرضاهم بسبب اهتدائهم إلى الصراط المستقيم .

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بتكميل أنفسهم عن طريق خشيته وتقواه والاعتصام بدينه وبكتابه ، عقب ذلك بأمرهم بالعمل على تكميل غيرهم وإصلاح شأنه عن طريق دعوته إلى الخير وإبعاده عن الشر فقال - تعالى - :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

الأمة : الجماعة التي تُؤَم وتقصد لأمر ما . وتطلق على أتباع الأنبياء كما تقول : نحن من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - . وعلى الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به كقوله - تعالى - : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا »(٢)

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٩٦ .

(٢) سورة النحل ، الآية ١٢٠ .

وعلى الدين والملة كقوله ـ تعالى : « إنا وجدنا آباءنا على أمة »[١] . وعلى الحين والزمان كقوله ـ تعالى ـ « وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة »[٢] .

والمراد بالأمة هنا الطائفة من الناس التى تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والمراد بالخير ما فيه صلاح للناس دينى أو دنيوى .

والمراد بالمعروف ما حسنه الشرع وتعارف العقلاء على حسنه ، والمنكر ضد ذلك .

والمعنى : ولتكن منكم أيها المؤمنون طائفة قوية الإيمان ، عظيمة الإخلاص ، تبذل أقصى طاقتها وجهدها فى الدعوة إلى الخير الذى يصلح من شأن الناس ، وفى أمرهم بالتمسك بالتعاليم وبالأخلاق التى توافق الكتاب والسنة والعقول السليمة وفى نهيهم عن المنكر الذى يأباه شرع الله ، وتنفر منه الطباع الحسنة .

وقوله : « ولتكن » صيغة وجوب من الله ـ تعالى ـ على كل من يصلح لمهمة الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وتكن إما من كان التامة أى : ولتوجد منكم أمة فيكون قوله : « أمة » فاعلا لتكن وجملة « يدعون ... » صفة لأمة ، و « منكم » متعلق بتكن .

وإما من كان الناقصة فيكون قوله : « أمة » اسمها ، وجملة « يدعون » خبرها ، وقوله « منكم » متعلق بكان الناقصة ، أو بمحذوف وقع حالا من أمة .

و « من » فى قوله ـ تعالى ـ : « ولتكن منكم أمة » يرى أكثر العلماء أنها للتبعيض .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٢ .

(٢) سورة يوسف الآية ٤٥

أي : ليكن بعض منكم أمة أي طائفة تبذل جهدها فى تبليغ رسالات الله ، وفى دعوة الناس إلى الخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

وفى هذا التبعيض وتنكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك ، وأنه لا يخاطب به إلا الخواص . ومن هذا الأسلوب قوله - تعالى - : « اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد »(١) فقد وجه الخطاب إلى نفس منكرة ، تنبيها على قلة الناظر فى معاده .

وعلى هذا فكأن الآية الكريمة قد اشتملت على طلبين : أحدهما موجه إلى الأمة كلها يطالبها بأن تعد طائفة من بينها لهذه المهمة السامية وهى دعوة الناس إلى الخير ، وأن تزود هذه الطائفة الصالحة لهذه المهمة بكل ما يمكنها من أداء مهمتها .

وثانيهما : موجه إلى تلك الطائفة الصالحة لهذه المهمة ، بأن تخلص فيها ، وتؤديها على الوجه الأكمل الذى يرضى الله - تعالى - .

ويرى بعض العلماء أن « من » فى قوله - تعالى - « ولتكن منكم أمة » بيانية .

فيكون المعنى أن الأمة كلها عليها واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا على سبيل الفرض الكفائى ، بل على سبيل الفرض العينى .

أى : لتكونوا أيها المؤمنون جميعا أمة تدعوا إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . فمن هنا ليس المراد بها التبعيض على هذا الرأى بل المراد بها البيان ، وذلك كقولك . لفلان من أولاده جند ، وللأمير من غلمانه عسكر ، تريد بذلك جميع أولاده وغلمانه .

ويبدو لنا أن الرأى الأول وهو أن « من » للتبعيض أقرب إلى الصواب ، لأن الأمة كلها برجالها ونسائها وشبابها وشيوخها لا تصلح لهذه المهمة السامية ،

(١) سورة الحشر الآية ١٨ .

وإنما يصلح لها من يجيدها ويحسنها بأن تكون عنده القدرة العقلية ، والعلمية، والنفسية ، والخلقية ، لأدائها .

ولذا قال صاحب الكشاف مرجحا أن « من » للتبعيض : وقوله « ولتكن منكم أمة » من للتبعيض ، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته وكيف يباشره ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وربما عرف الحكم فى مذهبه وجهله فى مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر. وقد يغلظ فى موضع اللين ، ويلين فى موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا ، أو على من الإنكار عليه عبث . . .

وقيل « من » للتبيين ، بمعنى : وكونوا أمة تأمرون . . . كقوله - تعالى - «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » [1] .

وقوله - تعالى - : « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » معطوف على قوله : « يدعون إلى الخير » من باب عطف الخاص على العام .

وفائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاما ثم مفصلا على هذين الوجهين وهما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأنهما أشرف ألوان الدعوة إلى الخير .

وقوله : « يدعون إلى الخير » المفعول فيه محذوف وكذلك فى قوله : « يأمرون وينهون » والتقدير: يدعون الناس إلى الخير ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر .

وحذف المفعول للإيذان بظهوره . أو للقصد إلى إيجاد نفس الفعل . أى يفعلون الدعاء إلى الخير ، أو لقصد التعميم أى يدعون كل من تتأتى له الدعوة

وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بتبشير هؤلاء الداعين إلى الخير

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٩٧

بالفلاح فقال «وأولئك هم المفلحون» والفلاح هو الظفر وإدراك البغية .

أى : وأولئك القائمون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هم الكاملون فى الفلاح والنجاح ، ولا يمكن أن يفلح سواهم ممن لم يقم بهذا الواجب الذى هو مناط عزة الجماعات والأفراد وأساس رفعتهم وقوتهم وسعادتهم .

قال بعض العلماء : فى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها . وبه يرتفع سنامها ويكمل نظامها .

وقال الإمام الغزالى : فى هذه الآية بيان الإيجاب . فإن قوله : «ولتكن» أمر وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها بيان ان الفلاح منوط به . إذ حصر وقال : «وأولئك هم المفلحون» . وفيها بيان أنه فرض كفاية لافرض عين ، وأنه إذا قام به البعض سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال : ولتكن منكم أمة ... وإن تقاعد عنه الخلق جميعا عم الإثم كافة القادرين عليه لا محالة (١) .

هذا ، وقد وردت أحاديث متعددة فى فضل الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى بيان العاقبة السيئة التى تترتب على ترك هذا الواجب ، ومن ذلك :

ما رواه مسلم والترمذى وابن ماجه والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان .

(١) تفسير القاسمى ج ٤ ص ٩٢١

وروى الترمذى عن جابر بن عبد الله عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله .

وروى الشيخان عن جرير بن عبد الله قال : بايعت النبي – صلى الله عليه وسلم – على السمع والطاعة فلقننى فيما استطعت والنصح لكل مسلم .

وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى عن أبي بكر الصديق – رضى الله عنه – قال : يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم – يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » (١) .

وبعد أن أمر الله – تعالى – بالمواظبة على الدعوة إلى الخير ، عقب ذلك بنهيهم عن التفرق والاختلاف فقال: « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » .

أى : ولا تكونوا أيها المؤمنون كأولئك اليهود والنصارى وغيرهم من الذين تفرقوا شيعا وأحزابا ، وصار كل حزب منهم بما لديهم فرحون ، واختلفوا فيم بينهم اختلافا شنيعا ، وقد ترتب على ذلك أن كفر بعضهم بعضا وقاتل بعضهم بعضا ، وزعم كل فريق منهم أنه على الحق وغيره على الباطل ، وأنه هو وحده الذى يستطيع أن يدرك ما فى الكتب السماوية من حقائق ، وهو وحده الذى يستطيع تفسيرها تفسيرا سليما .

ولقد كان تفرقهم هذا واختلافهم « من بعد ما جاءهم البينات » أى الآيات والحجج والبراهين الدالة على الحق ، والداعية الى الإتحاد والوئام لا إلى التفرق والاختلاف .

---

(١) هذه الأحاديث من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٢٢٣ وقد ذكر احاديث أخرى فى هذا الموضوع فارجع إليه إن شئت .

وقوله « ولا تكونوا كالذين تفرقوا » معطوف على قوله « ولتكن منكم أمة يدعون ... » وهو يرجع إلى قوله من قبل « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ... » لما فيه من تمثيل حال التفرق فى أبشع صوره المعروفة لديهم من مطالعة أحوال اليهود وفيه إشارة إلى أن ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يفضى إلى التفرق والاختلاف ؛ إذ يترتب على هذا الترك أن تكثر المنازعات والأهواء والمظالم ؛ وتنشق الأمة بسبب ذلك إنشقاقا شديدا .

والمقصود بهذا النهى إنما هو التفرق والاختلاف فى أصول الدين وأسسه أما الفروع التى لا يصادم الخلاف فيها نصا صحيحا من نصوص الدين فلا تندرج تحت هذا النهى ، فنحن نرى أن أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - والتابعين من بعدهم قد إختلفوا فيما بينهم فى بعض المسائل التى لا تخالف نصا صحيحا من نصوص الشريعة ، وتأولها كل واحد أو كل فريق منهم على حسب فهمه الذى اداه إليه إجتهاده .

ومن الأحاديث التى ذمت الاختلاف فى الدين ما رواه أبو داود والإمام أحمد عن أبى عامر عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبى سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر فقال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن أهل الكتابين إفترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعنى الأهواء - كلها فى النار إلا واحدة - وهى الجماعة - ، وإنه سيخرج فى أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه . لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاءكم به نبيكم - صلى الله عليه وسلم - لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به »(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان سوء عقبة المتفرقين ، والمختلفين

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٠ .

فى الحق فقال « وأولئك لهم عذاب عظيم » أو وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة لهم عذاب عظيم بسبب تفرقهم واختلافهم الباطل .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد نهى المؤمنين عن التفرق والاختلاف بأبلغ تعبير ، وألطف إشارة ، وذلك بأن بين لهم حسن عاقبة المعتصمين بحبل الله دون أن يتفرقوا ، وما بشر به ـ سبحانه ـ المواظبين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أنهم هم المفلحون الفائزون .

ثم بين لهم بعد ذلك سوء عاقبة التفرقة والاختلاف الذى وقع فيه من سبقهم من اليهود والنصارى ، وكيف أنه ترتب على تفرقهم واختلافهم أن كفر بعضهم بعضا ، وقاتل بعضهم بعضا ، ورمى بعضهم بعضا بالزيغ والضلال ... هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلهؤلاء المتفرقين والمختلفين العذاب العظيم من الله ـ تعالى ـ .

فالقرآن قد أتى بالأوامر ومعها الأسباب التى تدعو إلى الاستجابة لها ، وأتى بالنواهى ومعها كذلك الأسباب التى تحمل على البعد عنها .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت مسلكا من مسالك اليهود الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين ، ووبختهم على ذلك توبيخا موجعا ، وفضحتهم على مر العصور والدهور ، وحذرت المؤمنين من شرورهم ، وأرشدتهم إلى ما يعصمهم من كيدهم . وذكرتهم بنعم الله الجليلة عليهم ، وأمرتهم بالمواظبة على الدعوة إلى الخير . ونهتهم عن التفرق والاختلاف ، لكى يسعدوا فى دينهم ودنياهم .

ثم حذر الله ـ تعالى ـ الناس من أهوال يوم القيامة ، وأمرهم بأن يتسلحوا بالإيمان وبالعمل الصالح حتى ينجوا من عذابه فقال :

« يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا

خالدُونَ (١٠٧) تِلكَ آياتُ اللهِ نَتلوهاَ عليكَ بالْحَقِّ ، وما اللهُ يريدُ ظُلماً للعاَلَمِينَ (١٠٨) ولله ما في السموات وما في الأرْض وإلى الله تُرْجَعُ الأمُور (١٠٩) » .

قوله - تعالى - « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » : بياض الوجوه وسوادها محمولان على الحقيقة عند جمهور العلماء . وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما ولا دليل يوجب ترك هذه الحقيقة فوجب الحمل على ذلك .

قال الآلوسى : قال بعضهم : يوسم أهل الحق ببياض الوجه وإشراق البشرة تشريفاً لهم، وإظهاراً لآثار أعمالهم في ذلك الجمع ويوسم أهل الباطل بضد ذلك. والظاهر أن الابيضاض والاسوداد يكونان لجميع الجسد ، إلا أنهما أسندا للوجوه . لأن الوجه أول ما يلقاك من الشخص وتراه . وهو أشرف أعضائه واختلف في وقت ذلك فقيل: وقت البعث من القبور، وقيل وقت قراءة الصحف »[١]

ويرى بعض العلماء أن بياض الوجوه هنا المراد منه لازمه وهو الفرح والسرور ، كما أن سوادها المراد منه لازمه أيضا وهو الحزن والغم . وعليه يكون التعبير القرآنى محمولا على المجاز لا على الحقيقة .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : وهـــذا مجاز مشهور قال - تعالى - « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم » . ويقال : لفلان عندي يد بيضاء . وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل . . . ويقال لمن وصل إليه مكروه : أربد وجهه واغبر لونه وتبدلت صورته . . . وعلى هذا فمعنى الآية : أن المؤمن يرد يوم القيامة على ماقدمت يداه ، فإن رأى مايسره ابيض وجهه بمعنى أنه استبشر بنعم الله وفضله ؛ وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة عليه اسود وجهه بمعنى أنه يشتد حزنه وغمه . . . »[٢] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ٢٥

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١٨١

والظرف «يوم» فى قوله «يوم تبيض .. إلخ» منصوب على أنه مفعول به بفعل محذوف والتقدير: أذكر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. والمراد الاعتبار والاتعاظ. ويجوز أن يكون العامل فيه قوله «عظيم» فى قوله قبل ذلك «وأولئك لهم عذاب عظيم». أى أولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات لهم عذاب عظيم فى هذا اليوم الهائل الشديد الذى تبيض فيه وجوه المؤمنين، وتسود فيه وجوه الكافرين والفاسقين.

وفى وصف هذا اليوم بأنه تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه تهويل لأمره. وتعظيم لشأنه، وتشويق لما يرد بعد ذلك من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضة، وأصحاب الوجوه المسودة. وترغيب للمؤمنين فى الاكثار من التزود بالعمل الصالح، وترهيب للكافرين من التمادى فى كفرهم وضلالهم.

والتنكير فى قوله «وجوه» للتكثير. أى تبيض وجوه عدد كثير من المؤمنين، وتسود وجوه كثيرة للكافرين.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ..»[1] وقوله ـ تعالى ـ: «وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة»[2].

قال صاحب الكشاف: «البياض من النور والسواد من الظلمة. فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وأبيضت صحيفته، وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه. ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده، واسودت صحيفته وأظلمت، وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمة الباطل وأهله»[3].

(١) سورة الزمر الآية ٦٠
(٢) سورة القيامة الايات من ٢٢ — ٢٥
(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٩٩

ثم بين - سبحانه - حال الذين اسودت وجوههم وسوء عاقبتهم فقال : « فأما الذين إسودت وجوههم » بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة ، فيقال لهم « أكفرتم بعد إيمانكم » ، وحذف هذا القول المقدر والذى هو جواب أما لدلالة الكلام عليه، ومثله كثير فى القرآن الكريم ،ومن ذلك قوله - تعالى - « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا . . » (١) أى قائلين ربنا أبصرنا وسمعنا . وقوله - « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم . . » (٢) أى قائلين لهم : سلام عليكم .

والإستفهام فى قوله : « أكفرتم . . » للتوبيخ والتعجيب من حالهم .

قال الآلوسى : والظاهر من السياق والسياق هؤلاء هم أهل الكتاب ، وكفرهم بعد إيمانهم ، هوكفرهم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد الإيمان قبل مبعثه . وقيل هم جميع الكفار لإعراضهم عما وجب عليهم من الإقرار بالتوحيد حين أشهدهم على أنفسهم « بربكم ؟ قالوا بلى » ويحتمل أن يراد بالايمان الايمان بالقوة والفطره ، وكفر جميع الكفار كان بعد هذا الايمان لتمكنهم بالنظر الصحيح ، والدلائل الواضحة ، والآيات البينه من الايمان بالله - تعالى - ، وبرسوله - صلى الله عليه وسلم - » (٣) .

وقوله « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » أى فادخلوا جهنم وذوقوا مرارة العذاب وآلامه بسبب إستمراركم عن الكفر وموتكم عليه .

والأمر فى قوله « فذوقوا » للاهانة والاذلال ، وهو من باب الاستعارة فى « فذوقوا » إستعارة تبعية تخييلية . وفى العذاب إستعارة مكنية : حيث شبه العذاب بشىء يدرك بحاسة الأكل والذوق تصويرا له بصورة مايذاق ، وأثبت له الذوق تخييلا - وهو قرينة المكنية .

---

(١) سورة السجدة الآية ١٢ .

(٢) سورة الرعد الآية ٤٢ .

(٣) تفسير الألوسى ج ٤ ص ٢٦ .

وأن فى العذاب للمهدأى فذوقوا العذاب المعهود الموصوف بالعظم والذى سبق أن حذركم الله ـ تعالى ـ منه ، ولـكنكم لم تعيروا التحذير إنتباهـا ، بل تماديتم فى كفركم وضـلالـكم حتى أدركـكم الموت وأنتم على هذا الحـال الشنيعة .

ثم بين ـ سبحـانه ـ حال الذين أبيضت وجوههم وحسن عاقبتهم فقـال : « وأما الذين ابيضت وجوههم » ببركة إيمانهم وعملهم الصالح « ففى رحمة الله » أى ففى جنته . والتعبير عن الجنه بالرحمـة من باب التعبير بالحال عن المحـل فتـكون الظرفية حقيقية . وإذا أريد برحمة الله ثوابه وجزاؤه تـكون الظرفية مجازية .

وفى التعبير عن الجنة بالرحمة إشعار بأن دخولها إنما هو بمحض فضل الله ـ تعالى ـ فهو ـ سبحانه ـ المالك لـكل شيء ، والخالق لـكل شيء .

وقوله «هم فيها خالدون» بيان لما خصهم الله ـ تعالى ـ من خلود فى هذا النعيم الذى لا يحد بحد ، ولا يرسم برسم ، ولا تبلغ العقول مداه . أى هم فى الرحمة باقون دائمون فقد أعطاهم الله ـ تعالى ـ عطاء غير مجذوذ .

وقـد بدأ ـ سبحانه ـ كلامه عن الفريقين بالذين ابيضت وجوههم ، ثم قدم الحديث عن حال الذين اسودت وجوههم على الذين ابيضت وجوههم ، ليكون إبتداء الكلام واختتامه عن هؤلاء السعداء بما يسر القلب ، ويشرح الصدر ، ويغرى الناس بالتمسك بعرى الإيمان ، وبالإكثار من العمل الصالح الذى يوصلهم إلى رحمة الله ورضاه .

ووصف ـ سبحانه ـ الذين ابيضت وجوههم بأنهم خالدون فى رحمتـه ، ولم يصف الذين اسودت وجوههم بالخلود فى العذاب ، للتصريح فى غير هذا الموضع بخلودهم فى هذا العذاب كما قاله ـ تعالى ـ « إن الذين كفروا من أهـل الـكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية »(١) .

(١) سورة البينة الآية ٦

وللإشعار بأن باب رحمته ـ سبحانه ـ مفتوح أمام هؤلاء الضالين فعليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يقلعوا عن الكفر إلى الإيمان والعمل الصالح حتى ينجوا من عذاب الله وسخطه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

وبعد أن أفاض ـ سبحانه ـ في الحديث عن أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ، وعن رذائل الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم ممن أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وبعد أن ساق ـ سبحانه ـ من التوجيهات الحكيمة والإرشادات النافعة مايشفي الصدور ويهدي النفوس ، بعد كل ذلك ، خاطب ـ سبحانه ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله :

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وما الله يريد ظلماً للعالمين » .

والمراد بالآيات ماسبق ذكره في هذه السورة وغيرها من آيات قرآنية تهدى إلى الرشد ، وتشهد بوحدانية الله ـ تعالى ـ وبصدق رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يبلغه عنه .

وكانت الاشارة بتلك الدالة على البعد ، للإشعار بعلو شأن هذه الآيات ، وسمو منزلتها ، وعظم قدرها .

ومعنى «نتلوها» نقرؤها عليك يامحمد شيئا فشيئا قراءة واضحة جلية لتبلغها للناس على مكث وتدبر وروية .

وأسند ـ سبحانه ـ التلاوة إليه مع أن التالى في الحقيقة جبريل ـ عليه السلام ـ للتنبيه على شرف هذه الآيات المتلوة ، ولأن تلاوة جبريل إنما هي بأمر منه ـ سبحانه ـ .

وقال ـ سبحانه ـ «تلك آيات الله نتلوها» فأظهر لفظ الجلالة ، ولم يقل تلك آياتنا نتلوها ، ليكون التصريح باسمه ـ سبحانه ـ مربيا في النفوس المهابة والإجلال له ، إذ هو المستحق وحده لوصف الألوهية ، فلا إله سواه ، ولا معبود بحق غيره ، وهو ذو الجلال والإكرام ، وهو المنشىء الموجد لهذا الكون وما فيه ومن فيه .

التصريح باسمه ـ تعالى ـ يزيد البيان جلالا ، ويبعث فى النفوس الخشية والمراقبة والبعد عما يوجب العقاب ، والإقبال على ما يوصل إلى الثواب .

وقوله « بالحق » فى موضع الحال المؤكدة من الفاعل أو المفعول .

أى نتلوها عليك ملتبسة بالحق أو متلبسين بالصدق أو بالعدل فى كل ما دلت عليه هذه الآيات ، ونطقت به . مما لا تختلف فيه العقول السليمة ، والمدارك القويمة .

وقوله ـ تعالى ـ « وما الله يريد ظلما للعالمين » نفى للظلم بأبلغ وجه . فإنه ـ سبحانه ـ لم ينف فقط الظلم عن ذاته ، بل نفى عن ذاته إرادة الظلم ، إذ هو أمر لا يليق به ـ سبحانه ـ ولا يتصور وقوعه منه .

وكيف يريد الظلم من منح هذا العالم كله الوجود ، وخلق هذا الكون برحمته وقدرته وعدله ؟

والظلم ـ كما يقول الراغب ـ وضع الشىء فى غير موضعه المختص به إما بزيادة أو بنقصان ، وإما بعدول عن وقته أو مكانه ، ومن هذا يقال : ظلمت السقاء إذا تناولته فى غير وقته ، وظلمت الأرض إذا حفرتها ولم تكن موضعا للحفر . . .

قال بعض الحكماء : الظلم ثلاثة أنواع :

الأول : ظلم بين الإنسان وبين الله ـ تعالى ـ وأعظمه الكفر والشرك والنفاق وإياه قصد ـ سبحانه ـ بقوله : « إن الشرك لظلم عظيم » .

والثانى : ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله : « وإنما السبيل على الذين يظلمون الناس » .

والثالث : ظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد بقوله : « فمنهم ظالم لنفسه »[1]

والظلم الذى نفى إرادته ـ سبحانه ـ عن ذاته عام لا يخص نوعا دون نوع ؛

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣١٦

إذ من المعروف عند علماء اللغة أن النكرة فى سياق النفى تعم ، وهنا جاء لفظ الظلم منكراً فى سياق النفى وهو ما .

قال الجمل : واللام فى قوله « للعالمين » زائدة لا تعلق لها بشىء زيدت فى مفعول المصدر وهو « ظلم » والفاعل محذوف . وهو فى التقدير ضمير البارىء - سبحانه - والمعنى وما الله يريد أن يظلم العالمين ، فزيدت اللام تقوية للعامل كقوله « فعال لما يريد » (١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنه هو المالك لكل شىء ، وأنه هو وحده الذى إليه تصير الأمور فقال : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » أى له - سبحانه - وحده ما فيهما من المخلوقات ملكا وخلقا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا .

« وإلى الله ترجع الأمور » أى إلى حكمه وقضائه تعود أمور الناس وشئونهم ، فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، لأنه - سبحانه - منه المبدأ وإليه المآب فيجازى كل إنسان على حسب إعتقاده وعمله بدون ظلم أو محاباة .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة، قد حذرت الناس من أهوال يوم القيامه الذى تبيض فيه وجوه ، وتسود فيه وجوه ، وبينت الأسباب التى أدت إلى فوز من فاز وإلى شقاء من شقى ، ونوهت بشأن الآيات التى أنزلها الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - لتكون هداية للناس، وصرحت بأن الله - تعالى - هو الخالق لكل شىء ، وإليه مرجع الأمور ومصيرها ، فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وبعد أن أمر الله - تعالى - المؤمنين بالدعوة إلى الخير ، ونهاهم عن التفرق والاختلاف المفضى إلى العذاب العظيم يوم القيامة، وبين لهم أن مصير الأمور

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٣٠٣ .

إليه . بعد كل ذلك ساق لهم ما يقوى إيمانهم ، ويثبت يقينهم . بأن بشرهم بحسن العقبى متى استقاموا على أمره ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وأنذر الكافرين من أهل الكتاب بالخزى في الدنيا ، وبغضب الله - تعالى - في الآخرة فقال - تعالى - :

« كُنتُم خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للناسِ تأمُرُونَ بالمعرُوفِ وَتنهونَ عنِ المنكرِ وَتؤمِنُونَ باللهِ ، ولو آمنَ أَهْلُ الكتابِ لكانَ خيراً لهُم ، منهم المؤمِنُونَ وأَكْثَرُهمُ الفاسِقُونَ (١١٠) لنْ يضرُّوكُم إلاَّ أذًى وإنْ يُقاتِلُوكُم يوَلُّوكُم الأدبارَ ثمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عليهِمْ الذِّلّةُ أَيْنَما ثُقِفُوا ، إلاَّ بحبلٍ مِن اللهِ وحبلٍ مِن الناسِ ، وباءُوا بغضبٍ مِن اللهِ وَضُرِبَتْ عليهم المَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بأَنَّهُم كانُوا يكفُرُونَ بآياتِ اللهِ ويقتُلونَ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ، ذلك بما عَصَوْا وكانُوا يعتَدُونَ (١١٢) »

وقوله - تعالى - « كنتم » يصح أن تكون من كان التامة التى بمعنى وجد وهى لا تحتاج إلى خبر فيكون المعنى وجدتم خير أمة أخرجت للناس ويكون قوله « خير أمة » بمعنى الحال . وبهذا الرأى قال جمع من المفسرين .

ويصح أن يكون من كان الناقصة التى هى - كما يقول الزمخشرى - عبارة عن وجود الشىء فى زمان ماض على سبيل الإبهام ، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارىء فيكون المعنى : قدرتم فى علم الله - تعالى - خير أمة أخرجت للناس .

ويجوز أن تكون بمعنى صار . أى تحولتم يامعشر المؤمنين الذين عاصرتم النبى - صلى الله عليه وسلم - من جاهليتكم إلا أن صرتم خير أمة .

وقيل : إن كان هنا زائدة والتقدير : أنتم خير أمة . ورد هذا القول بأن كان لا تزاد فى أول الكلام .

والظاهر أن الرأى الأول الذى يقول إن « كنتم » هنا من كان التامة هو أقرب الأقوال إلى الصواب ، ويليه الرأى الثانى الذى يرى أصحابه أن كنتم هنا من كان الناقصة إلا أنها هنا تدل على تحقق شىء بصفة فى الزمان الماضى من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق .

والخطاب فى هذه الآية الكريمة بقوله — تعالى — « كنتم » للمؤمنين الذين عاصروا النبى — صلى الله عليه وسلم — ولمن أتى بعدهم واتبع تعاليم الإسلام إلى يوم الدين .

ولذا قال ابن كثير : والصحيح أن هذه الآية عامة فى جميع الأمة . كل قرن بحسبه ، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال — سبحانه — فى الآية الأخرى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وقد وردت أحاديث متعددة فى فضل هذه الأمة الإسلامية . منها : ماجاء فى مسند الإمام أحمد وفى سنن الترمذى وابن ماجه من رواية حكيم بن معاوية ابن حيدة عن أبيه قال : قال رسول — صلى الله عليه وسلم : أنتم توفون سبعين أمة . أنتم خيرها وأكرمها على الله - تعالى - »[1] .

والمعنى : وجدتم يامعشر المسلمين عاملين بتعاليم الإسلام وآدابه وسنته وشريعته خير أمة أخرجت وأظهرت للناس ، من أجل إعلاء كلمة الحق وإزهاق كلمة الباطل ، ونشر الإصلاح والنفع فى الأرض .

وقوله « خير أمة » خبر كنتم على أنها من كان الناقصة .

وجملة « أخرجت » صفة لأمة ، وقوله « للناس » متعلق بأخرجت .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩١

وحذف الفاعل من « أخرجت » للعلم به أي : أخرجها الله — تعالى — لنفع الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

فالجملة الكريمة تنوه بشأن الأمة الإسلامية ، وتعلى من قدرها ، فهل تعى الأمة الإسلامية هذا التنويه من شأنها وذلك الإعلاء من قدرها ، فتقوم بدورها الذى اختاره الله لها ، وهو نشر كلمة التوحيد فى الأرض ، وإحقاق الحق وإبطال الباطل شكراً لله — تعالى — على جعله إياها خير أمة أخرجت للناس ؟ ؟ .

إن واقع المسلمين الملىء بالضعف والهوان ، والفسوق والعصيان يدمى قلوب المؤمنين الصادقين ، ويحملهم على أن يبلغوا رسالات الله دون أحداً سواه ، حتى تكون كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

ثم بين — سبحانه — الأسباب التى جعلت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس فقال : « تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

والمعروف : هو كل قول أو عمل حسنه الشرع ، وأيدته العقول السليمة ، والمنكر بعكسه .

والمعنى : وجدتم خير أمة أخرجت للناس ، لأنكم « تأمرون بالمعروف » أى بالقول أو الفعل الجميل المتحسن فى الشرائع والعقول . « وتنهون عن المنكر » أى : كل قول أو فعل قبيح تستنكره الشرائع ، ويأباه أهل الإيمان القويم والعقل السليم .

و « تؤمنون بالله » أى تصدقون وتذعنون بأنه لا معبود بحق سواه ، وتخلصون له العبادة والخضوع ، وتطيعونه فى كل ما أمركم به أو نهاكم عنه على لسان رسوله محمد — صلى الله عليه وسلم — .

فأنت ترى أن الخيريه للأمم الإسلامية منوطة بتحقيق أصلين أساسيين :

أولهما : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأنهما سياج الدين، ولا يمكن أن يتحقق بنيان أمة على الخير والفضيلة إلا بالقيام بهما ، فهما من الأسباب التى استحق بنو إسرائيل اللعنة من أجل تركهما ، فقد أخرج أبو داود فى سننه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد على حالة فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال - صلى الله عليه وسلم - : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

ثم قال : كلا والله : لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر . ولتأخذون على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا - أى ولتحملنه على اتباع الحق حملا - ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض . ثم ليلعنكم كما لعنهم » .

وثانيهما : الإيمان بالله - تعالى - ، وبجميع ما أمر الله - تعالى - بالايمان به .

هذان هما الأمران اللذان يجب أن يتحققا لتكون هذه الأمة الاسلامية خير أمة أخرجت للناس ، لأن الأمة التى تهمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا تؤمن بالله ، لا يمكن أن تكون خير أمة ، بل لا توصف بالخيرية قط ، لأنه لا خير إلا فى الفضائل والحق والعدل ، ولا تقوم هذه الأمور إلا مع وجود الإيمان بالله ، وكثرة الدعاة إلى الخير والناهين عن الشر ويكون لدعوتهم آثارها القوية التى تحيا معها الفضائل وتزول بها الرذائل .

وكأنه - سبحانه - قد أخر « الإيمان بالله » عن « الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر ، ليكون كالباعث عليهما ، لأنه لا يصبر على تكاليفهما ومتاعبهما إلا مؤمن يبتغى وجه الله ، ويرى ن فى كفاحه رليه . فهذا الإيمان بالله هو الباعث للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، على أن يبلغوا رسالات الله دون أن يخشوا أحداً سواه .

وقيل : إنما آخر الإيمان عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة كما هو الظاهر . لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فهما أظهر فى الدلالة على الخيرية للأمة الإسلامية .

وجملة « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » يجوز أن تكون حالية من ضمير الخطاب فى « كنتم » ويجوز أن تكون مستأنفة للتعليل ، وهذا ما ذهب اليه الفخر الرازى ، فقد قال :

اعلم أن هذا كلام مستأنف والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية ، كما تقول ، زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم ، وتحقيق الكلام أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف ، فهنا حكم - تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة .

ثم ذكر عقيب هذا الحكم هذه الطاعات أعنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والايمان ، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات [١] .

وقال الامام ابو كثير - بعد أن ساق بضعة عشر حديثا فى فضل هذه الأمة : فهذه الأحاديث فى معنى قوله - تعالى - « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، فمن إتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا المدح ، كما قال قتادة ، بلغنا أن عمر

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١٩١ .

ابن الخطاب رأى من الناس دعه فى حجة حجها فقرأ هذه الآية « كنتم خير أمة أخرجت للناس، ثم قال: « من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها » رواه ابن جرير. ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله . « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » الآية (١) .

وبعد أن مدح — سبحانه — هذه الأمة على هذه الصفات شرع فى ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال — تعالى — : « ولو آمن أهل الكتاب » أى بما أنزل على محمد — صلى الله عليه وسلم — « لكان خيرا لهم » أى لكان إيمانهم خيرا لهم فى دنياهم وآخرتهم ولنالوا الخيرية التى ظفرت بها الأمة الإسلامية ، ولكنهم لم يؤمنوا فامتنع الخير فيهم، لامتناع الإيمان الصحيح منهم ولإيثارهم الضلالة على الهداية. فهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله — تعالى — « كنتم خير أمة . . . » ومرتبطة بها .

ولم يذكر متعلق « آمن » هنا ، لأن المراد لو اتصفوا بالإيمان الذى هو لقب وإشعار للإيمان بدين الإسلام الذى أتى به محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو الذى منه أطلقت صفة الذين آمنوا على المسلمين فصار كالعلم بالغلبة .

وقال — سبحانه — « لكان خيرا لهم » أى : لو آمنوا لكان إيمانهم خيرا لهم بدون تفصيل لهذه الخيرية ، لتذهب نفوسهم كل مذهب فى الرجاء والإشفاق .

ثم أخبر سبحانه — بأن قلة من أهل الكتاب اختاروا الإيمان على الكفر فقال — تعالى — : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

أى : من أهل الكتاب أمة آمنت بالله وصدقت رسوله محمدا — صلى الله عليه وسلم — واتبعت ما جاء به من الحق وأكثرهم معرضون عن الإيمان بالله وبرسوله — صلى الله عليه وسلم — وخارجون عن الطريق المستقيم الذى أمرت باتباعه الشرائع والعقول السليمة .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٦

فالجملة الكريمة إنصاف للقلة المؤمنة التي آمنت من أهل الكتاب كعبدالله ابن سلام وغيره ممن دخل في الاسلام . وذم لأكثر أهل الكتاب الذين جحدوا الحق . وخرجوا عن الطريق القويم .

وقوله « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » جملة مستأنفة استئنافا بيانيا، فهى جواب للجملة الشرطية التي قبلها ، فكأنه قيل : هل منهم من آمن أو كلهم على الكفر ؟ فكان الجواب : منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون .

وعبر عن كفرهم بالفسق ، للإشعار بأنهم قد فسقوا في دينهم أيضا فهم ليسوا عدولا فيه ، وبذلك يكونون قد خرجوا عن الاسلام وعما أوجبته عليهم كتبهم من الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - .

ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين ، بأن هـذه الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب التي عتت على أمر ربها . وناصبت المؤمنين العداء ، لن تضرهم ضررا بليغا له أثر ، مادام أهل الايمان مستمسكين بدينهم ، ومنفذين لتعاليمه وآدابه، فقال - سبحانه - « لن يضروكم إلا أذى » أي ، لن يضركم أهل الكتاب يامعشر المؤمنين إلا ضررا يسيرا ، كأن يؤذوكم بألسنتهم ، ويلقوا الشبه بينكم ليصدوا من ضعف إيمانه عن الحق ، وفي هذا تثبيت للمؤمنين ، وطمأنينة لقلوبهم ، إذ الضرر الذي يصيب الأمة الاسلامية من أعدائها على قسمين :

اولهما : ضرر يؤدى إلى هدم كيان الأمة ، وإضعاف قوتها ، وإهدار كرامتها ، وجعل أمورها في أيدي أعدائها تصرفها كيف تشاء .

وثانيهما : ضرر لا يؤثر في كيان الأمة ، ولا يؤدى إلى اضمحلال قوتها، كالأذى بالقول ، أو محاولة التأثير في ضعاف الإيمان .

وقد نفى - سبحانه - أن يلحق المؤمنين ضرر يأتى على كيانهم من جهة أهل الكتاب فقال : « لن يضروكم إلا أذى » فأوقع الفعل المضارع في حيز لن المفيدة للنفي - ؛ للاشارة إلى أن ذلك لا يكون في المستقبل .

ولكن هذا النفي لهذا النوع من الضرر مشروط بمحافظة الأمة الاسلامية

على الأصلين السابقين وهما « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله » .

فإذا أرادت أمة الاسلام ألا تصاب من جهة أهل الكتاب بما يأتى على كيانها ، فعليها أن تخلص العبادة لربها، وأن تعمل بسنة نبيها ، وأن تتقيد بأحكام كتابها ، وأن تباشر الأسباب التى شرعها خالقها للنصر على أعدائها .

أما إذا تركت أمة الإسلام ما أمرها الله - تعالى - به ، وتجاوزت مانهاها عنه ، فإنها فى هذه الحالة قد تصاب من أعدائها بما يؤثر فى كيانها ، وتكون هى الجانية على نفسها بمخالفتها لأوامر الله ونواهيه .

هـذا ، وأكثر العلماء على أن الاستثناء فى قوله « لن يضروكم إلا أذى » متصل ، وأنه استثناء مفرغ من المصدر العام ، كأنه قيل : لن يضروكم ضررا ألبته إلا ضرر أذى لا يبالى به من كلمة سوء ونحوها .

وقيل هو إستثناء منقطع لأن الأذى ليس من الضرر ، أى لن يضروكم بقتال وغلبة لكن بكلمة أذى ونحوها .

ورجح الأول ، لأن الكلام إذا أمكن حمله على الاستثناء الحقيقى لم يجز صرفه عن ذلك إلى الاستثناء المنقطع وهنا الأذى مهما قل هو نوع من الضرر وإن لم يترك أثراً .

ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين ببشارة أخرى فقال : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » .

تولية الأدبار : كناية عن الهزيمة ، لأن المنهزم يحول ظهره ودبره إلى الجهة الذى هزمه هربا إلى ملجأ يلجأ إليه ليدفع عن نفسه القتل او الأسر .

والمعنى ، إن أهل الكتاب لن يضروكم يا معشر المؤمنين إلا ضررا يسيرا لا يبقى أثره فيكم - مادمتم مستمسكين بدينكم - فإن قاتلوكم وأنتم على هذه الحال ، أمدكم الله بنصره ، وألقى فى قلوبهم الرعب فيولونكم الأدبار انهزاما منكم ، ثم لا ينصرون عليكم بل تنصرون أنتم عليهم .

والتعبير عن الهزيمة بتولية الأدبار، فيه إشارة إلى جبنهم، وأنهم يفرون فرارا شديدا بذعر وهلع.

وهكذا كان الشأن فى قتال المسلمين الأولين لأعداء الله وأعدائهم، فلقد قاتل المؤمنون اليهود من بنى قينقاع والنضير وقريظة وأهل خيبر فانتصر المسلمون عليهم انتصاراً باهرا.

وقاتلوا جموع الروم فى بلاد الشام وفى مصر، فكان النصر المؤزر حليفا المسلمين مع قلتهم وكثرة أعدائهم.

وقوله «ثم لا ينصرون» احتراس. أى يولوكم الأدبار تولية المنهزم؛ لا تولية المتحرف لقتال أو المتحيز إلى فئة أو المتأمل فى الأمر.

والتعبير «بثم» لإفادة التراخى فى المرتبة، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليهم الأدبار.

وهذه الجملة خبرية وهى معطوفة على جملتى الشرط وجزائه معا، للاشعار بأن هذا ديدنهم، وأنهم لن ينتصروا على المسلمين لا فى قتال ولا فى غيره، مادام المسلمون مستقيمين على الطريقة التى رسمها الله - تعالى - لهم.

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال: فإن قلت: هلا جزم المعطوف فى قوله «ثم لا ينصرون»؟ قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الاخبار ابتداء. كأنه قيل أخبركم أنهم لا ينصرون.

فإن قلت: فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى؟ قلت: لو جزم لكان النصر مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار وحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر. وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر فإن قلت: فما الذى عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم

أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون . فإن قلت فما معنى التراخي في ثم ؟ قلت : التراخي في المرتبة ، لأن الاخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الاخبار بتوليتهم الأدبار . فإن قلت : ما موقع الجملتين ، أعنى « منهم المؤمنون » و « لن يضروكم » قلت هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب ، كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت ولذلك جاءا من غير عطف »[1] .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بشرت المؤمنين الصادقين ببشارات ثلاث :

أولها : أنهم في مأمن من الضرر البليغ الذي يؤثر في كيانهم وعزتهم وكراماتهم من جهة أهل الكتاب .

ثانيها : أن أهل الكتاب لو قاتلوهم، فإن المؤمنين سيكون لهم النصر عليهم.

ثالثها : أنهم بعد نصرهم عليهم لن تكون لأهل الكتاب — وعلى رأسهم اليهود — شوكة أو قوة للأخذ بثأرهم بعد ذلك .

وقد تحققت هـذه البشارات ، وكانت كما أخبر الله — تعالى — ، فإن المسلمين الأولين الذين كانوا متمسكين بتعاليم دينهم نصرهم الله — تعالى — على أهل الكتاب وعلى غـيرهم من أعدائهم نصراً مؤزرا — كما سبق أن أشرنا ...

فإن قال قائل : ولكن الذي نراه الآن أن اليهود الذين لا يماري أحد في جبنهم وفي حرصهم على الحياة ، قد انتصروا على المسلمين وأقاموا لهم دولة في بقعة من أعز بقاع البلاد الإسلامية وهي فلسطين فهل تخلف وعد الله ؟

والجواب على ذلك : أن وعد الله — تعالى — ما تخلف ولن يتخلف ؛ وقد حققه — سبحانه — لأسلافنا الصالحين الذين آمنوا به حق الإيمان ... ولكن المسلمين في هذا العصر هم الذين تغيرت أحوالهم ، فقد فرطوا في دينهم

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٠١ .

وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات،وتفرقوا شيعاوأحزاباً، وتنكبوا الطريق القويم ، ولم يباشروا الأسباب التى شرعها الله - تعالى - لبلوغ النصر ، ولم يحسنوا الشعور بالمسئولية ....

فلما فعلوا ذلك تبدل حالهم من الخير إلى الشر ، ومن القوة إلى الضعف . وسلط الله عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم ؛ لأنه - سبحانه - « لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وإذا ما عاد المسلمون إلى دينهم فطبقوا أوامره ونواهيه على أنفسهم تطبيقا كاملا ؛ فإن الله - تعالى - سيعيد لهم كرامتهم وعزتهم وقوتهم « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز »[1] .

ومن هنا نعلم أن الشرط فى نفى الضرر الذى يؤثر فى الأمة الاسلامية ، هو أن تكون مؤمنة بربها حق الايمان ، متبعة لهدى رسولها محمد - صلى الله عليه وسلم - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض العقوبات التى عاقب بها اليهود بسبب كفرهم وظلمهم فقال : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » .

وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة . يقال : ضرب فلان بيده الأرض إذا ألصقها بها، وتفرعت عن هذا المعنى معانى مجازية أخرى ترجع إلى شدة اللصوق .

والذلة على وزن فعلة من قول القائل : ذل فلان يذل ذلة وذلا . والمراد الصغار والهوان والحقارة .

فضرب الذلة عليهم كناية عن لزومها لهؤلاء اليهود ، وإحاطتها بهم ، كما يحيط السرادق بمن يكون فى داخله .

---

(١) سورة الحج - الآية ٤٠

قال صاحب الكشاف : جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم ، فهم كمن يكون فى القبة من ضربت عليه . أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه . فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة »(١) .

و « ثقفوا » أى وجدوا ، أو ظفر بهم . يقال : ثقفه يثقفه أى صادفه أو ظفر به أو أدركه . وهذه المادة تدل على التمكن من أخذ الشىء ، ومن التصرف فيه بشدة ، ومنها سمى الأسير ثقافا . والثقاف آلة تكسر بها أغماد الرماح .

والحبل : هو ما يربط بين شيئين ، ويطلق على العهد ، لأن الناس يرتبطون بالعهود : كما يقع الارتباط الحسى بالحبال ، وهذا الإطلاق هو المراد هنا .

ولذا قال ابن جرير : وأما الحبل الذى ذكره الله - تعالى - فى هذا الموضوع ، فإنه السبب الذى يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين وعلى أموالهم وذراريهم من عهد وأمان تقدم لهم عقده قبل أن يثقفوا فى بلاد الإسلام »(٢) .

والمعنى : إن هؤلاء اليهود أحاطت بهم الذلة فى جميع أحوالهم أينما وجدوا وحيثما حلوا ، إلا فى حال إعتصامهم بعهد من الله أو بعهد من الناس .

وقد فسر العلماء عهد الله بعقد الجزية الذى يربط بينهم وبين المسلمين .

وإنما كان عقد الجزية عهداً من الله لهم ، لأنه - سبحانه - هو الذى شرعه ، وما شرعه الله فالوفاء به واجب .

وكان عهدا من المسلمين لهم ، لأنهم أحد طرفيه ، فهم الذين باشروه مع اليهود ، وبمقتضاه يحفظون حقوقهم ودماءهم وأموالهم ، ويكون لهم ما للمسلمين

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٨١٧

(٢) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ٤٨ .

وعليهم ماعليهم ، وعلى المسلمين حمايتهم ، وصون أموالهم لقاء مقدار من المال يدفع لهم كل عام وهو المسمى بالجزية .

وأما عهد الناس ، فهو العهود التى يعيشون بمقتضاها فى أى أمة من أمم الأرض مسلمة كانت هذه الأمة أو كافرة .

فإن كانت تلك العهود صادرة من المسلمين ، جاز أن يطلق عليها عهد الله — أيضا — ، باعتبار أن الله هو الذى شرعها .

وإن كانت من غير المسلمين فهى عهود من الناس سواء أوافقت شريعة الله — تعالى — أم لا .

والمعنى الإجمالى للآية : أن اليهود قد ضرب الله - تعالى - عليهم الذلة والمسكنة فى كل زمان ومكان بسبب كفرهم وطغيانهم ، وسلب عنهم السلطان والملك ، فهم يعيشون فى بقاع الأرض فى حماية غيرهم من الأمم الأخرى ، وبمقتضى عهود يعقدونها معهم ، وقد تكون هذه العهود موافقة لشرع الله-تعالى- وقد لا تكون موافقة .

فإن قال قائل : إنهم الآن أصحاب جاه وسلطان ، بعد أن أنشأوا دولتهم بفلسطين :

والجواب : أنهم مع قيام هذه الدولة يعيشون تحت حماية غيرهم من دول الكفر الكبرى . فهى التى تحميهم وتمدهم بأسباب الحياة والقوة ، فينطبق على هذه الحالة - أيضا - أنها بحبل من الناس . فاليهود لا سلطان لهم ، ولا عزة تكمن فى نفوسهم ، ولكنهم مأمورون مسخرون أن يعيشوا فى تلك البقعة من الأرض لتكون مركزا لتلك الأمم التى تعهدت بحمايتهم ليقفزوا منها إلى محاربة المسلمين ، إذا أتيحت لهم فرصة .

ولو أن المسلمين غيروا ما بأنفسهم ، وتمسكوا بشريعتهم ، وأجتمعت

قلوبهم، وتوحدت أهدافهم، وأحسنوا الشعور بالمسئولية نحو دينهم وأنفسهم وأوطانهم، وأعدوا ما إستطاعوا من قوة لقتال أعداء الله وأعدائهم . . .

لو أنهم فعلوا ذلك لما كان حالهم كما نرى الآن من ضعف وتخاذل وتفرق والأمل كبير فى أن يتنبه المسلمون إلى ما يحيط بهم من أخطار فيعملوا على دفعها، ويعتصموا بحبل الله لتعود لهم قوتهم وهيبتهم .

هذا، وقوله «أينما» شرط . وهو ظرف مكان و «ما» مزيدة فيها للتأكيد .

وقوله «ثقفوا» فى محل جزم بها .

وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله أى : أينما ثقفوا غلبوا أوذلوا

ويجوز أن يكون جواب الشرط قوله «ضربت عليهم الذلة» عند من يجوز تقديم جواب الشرط على الشرط .

والاستثناء فى قوله «إلا بحبل من الله وحبل من الناس» مفرغ من أعم الأحوال أى ضربت عليهم الذلة فى عامة الأحوال إلا فى حال إعتصامهم بحبل من الله وحبل من الناس .

ثم ذكر - سبحانه - عقوبتين أخريين أنزلها بهم جزاء كفرهم وتعديهم لحدوده فقال - تعالى - «وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة» .

قال ابن جرير : قوله - تعالى - «وباءوا بغضب من الله» أى إنصرفوا ورجعوا . ولا يقال باءوا، إلا موصولا إما بخير وإما بشر . يقال منه : باء فلان بذنبه يبوء به بوأ وبواء . ومنه قوله - تعالى - «إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك» تنصرف متحملهما، وترجع بهما قد صارا عليك دونى . فمعنى الكلام إذا : ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط»(١) .

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٥١ .

والمسكنة: مفعلة من السكون، ومنها أخذ لفظ المسكين، لأن الهم قد أثقله فجعله قليل الحركة والنهوض، لما به من الفاقة والفقر.

والمراد بها فى الآية الكريمة الضعف النفسى، والفقر القلبى الذى يستولى على الشخص فيجعله يحس بالهوان مهما تكن لديه من أسباب القوة.

والفرق بينها وبين الذلة: أن الذلة هوان تجىء أسبابه من الخارج، كأن يغلب المرء على أمره نتيجة إنتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو.

أما المسكنة فهى هو أن ينشأ داخل النفس نتيجة بعدهـا عن الحق، وإستيلاء المطامع والشهوات وحب الدنيا عليها.

والمعنى: أن هؤلاء اليهود بجانب ضرب الذلة عليهم حيثما حلوا، قد صاروا فى غضب من الله، وأصبحوا أحقاء به. وضربت عليهم كذلك المسكنة التى تجعلهم يحسون بالصغار مهما ملكوا من قوة ومال.

ثم ذكر - سبحانه - الأسباب التى جعلتهم أحقاء بهذه العقوبات فقال - تعالى - «ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون».

فاسم الإشارة ذلك يعود إلى تلك العقوبات العادلة التى عاقبهم الله بها بسبب كفرهم وفسقهم.

والآيات: تطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على وحدانية الله - تعالى - وربوبيته. وتطلق ويراد بها النصوص التى تشتمل عليها الكتب السماوية، وتطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله - تعالى -، وهى التى يسميها علماء التوحيد بالمعجزات

وقد كفر اليهود بكل هذه الضروب من الآيات، ومردوا على ذلك كما يفيده التعبير بالفعل المضارع «يكفرون»

أى : ذلك الذى أصابهم من عقوبات رادعة ، سببه أنهم كانوا يكفرون بآيات الله وأدلته الدالة على وحدانيته وعلى صدق رسله - عليهم الصلاة والسلام - وتلك هى جريمة بنى إسرائيل الأولى :

أما جريمتهم الثانية فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله « ويقتلون الأنبياء بغير حق » أى أنهم لم يكتفوا بالكفر ، بل إمتدت أيديهم الأثيمة إلى دعاة الحق وهم أنبياء الله - تعالى - الذين أرسلهم لهدايتهم، فقتلوهم بدون أدنى شبهة تحمل الإساءة اليهم فضلا عن قتلهم .

وقال - سبحانه - « بغير حق » مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبداً ، لإفادة أن قتلهم لهم كان بغير وجه معتبر فى شريعتهم لأنها تحرمه .

قال - تعالى « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا .. (١) » .

فهذا القيد المقصود به الاحتجاج عليهم بأصول دينهم ، وتخليد مذمتهم ، وتقبيح إجرامهم ، حيث إنهم قتلوا أنبياءهم بدون خطأ فى الفهم ، أو تأول فى الحكم ، أو شبهة فى الأمر ، وإنما فعلوا ما فعلوا وهم عالمون بقبح ما إرتكبوا ، ومخالفون لشرع الله عن تعمد وإصرار .

ولذا قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق ، فما فائدة ذكره ؟ قلت : معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم ، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا ؛ وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ماينفعهم فقتلوهم .

---

(١) سورة المائدة آية ٢٢

فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل عندهم [١] » .

وقال الفخر الرازى ما ملخصه: فإن : قيل قال هنا : «ويقتلون الأنبياء بغير حق » وقال : فى سورة البقرة « ويقتلون النبيين بغير الحق » فما الفرق ؟

قلت : إن الحق المعلوم بين المسلمين الذى يوجب القتل يتجلى فى حديث: لا يحل دم أمرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » . فالحق المذكور فى سورة البقرة إشارة إلى هذا . وأما الحق المنكر هنا فالمراد به تأكيد العموم . أى لم يكن هناك أى حق يستندون إليه ، لا هذا الذى يعرفه المسلمون ولا غيره ألبتة » [٢] .

ونسب ـ سبحانه ـ القتل إلى أولئك اليهود المعاصرين للعهد النبوى مع أن القتل قد صدر عن أسلافهم ، لأن أولئك المعاصرين كانوا راضين بفعل آبائهم وأجدادهم ، فصحت نسبة القتل إليهم ، ولأن بعض أولئك المعاصرين قد هم بقتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكف الله ـ تعالى ـ أيديهم الآثيمة عنه .

ثم سجل الله ـ تعالى ـ جريمتهم الثالثة بقوله : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

العصيان : الخروج عن طاعة الله . والاعتداء : تجاوز الحد الذى حده الله ـ تعالى ـ لعباده إلى غيره . وكل متجاوز حد شىء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز اليه .

وللمفسرين فى مرجع إسم الإشارة « ذلك » فى قوله «ذلك بما عصوا ..» رأيان :

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٧ .

(٢) الفخر الرازى ج ١ ص ٩٣ .

أولهما : أنه يعود إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم لأنبيائه، وعليه يكون المعنى: إن هؤلاء اليهود قد ألفوا العصيان لخالقهم والتعدى لحدوده بجرأة وعدم مبالاة ، فنشأ عن هذا التمرد والطغيان أن كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه ، وباشروا تلك الكبائر بقلوب كالحجارة أو أشد قسوة .

والجملة الكريمة على هذا الرأى ، تفيد أن التردى فى المعاصى وارتكاب ما نهى الله عنه ، وتجاوز الحدود المشروعة ، يؤدى إلى الانتقال من صغير الذنوب إلى كبيرها ، ومن حقيرها إلى عظيمها ، لأن هؤلاء اليهود حين استمرؤا المعاصى ، هانت على نفوسهم الفضائل ، وانكسرت أمام شهواتهم كل المثل العليا ، فكذبوا بآيات الله تكذيبا ، وقتلوا من جاءهم بالهدى ودين الحق :

وثانيهما : أن اسم الإشارة « ذلك » فى قوله « ذلك بما عصوا » يعود إلى نفس المشار إليه باسم الإشارة الأول وهو قوله « ذلك بأنهم كانوا يكفرون » .

وتكون الحكمة فى تكرار الإشارة هى تمييز المشار إليه ، حرصا على معرفته ، ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة عليهم . واستحقاقهم لغضب الله كما أشرنا من قبل .

والإشارة حينئذ من قبيل التكرير المغنى عن العطف كما فى قوله ـ تعالى ـ « أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

والمعنى : أن هؤلاء اليهود قد لزمتهم الذلة والمسكنة . وصاروا أحقاء بسخط الله بسبب كفرهم بآياتنا ، وقتلهم أنبياءنا . وخروجهم عن طاعتنا ، وتعديهم حدودنا .

وعلى هـــذا الرأى يكون ذكر أسباب العقوبة التى حلت بهم فى الدرجة العليا من حسن الترتيب فقد بدأ ـ سبحانه ـ بما فعلوه فى حقه وهو كفرهم بآياته ، ثم ثنى بما يتلوه فى العظم وهو قتلهم لأنبيائه ، ثم وصمهم بعد ذلك بالعصيان والخروج عن طاعته ، ثم ختم أسباب العقوبة بنعتهم بالاعتداء ، وتخطى الحدود ، وعدم المبالاة بالعهود .

وهذا الترتيب من لطائف أسلوب القرآن الكريم فى سوق الأحكام مشفوعة بعللها وأسبابها .

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد بدأت حديثها بمدح الأمة الاسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس ، ثم ثنت بدعوة أهل الكتاب إلى الاسلام ، وبإخبار المؤمنين بأن أعداءهم لن يضروهم ضررا يؤثر فى كيانهم ما داموا معتصمين بتعاليم دينهم ، ثم ختمت حديثها ببيان العقوبات التى حلت باليهود بسبب كفرهم وبغيهم .

وبعد هذا الحديث الحكيم عن أهل الكتاب ، وعن العقوبات التى أنزلها - سبحانه - باليهود بسبب فسقهم وظلمهم ، بعد كل ذلك ساق - سبحانه - آيات كريمة تمدح من يستحق المدح من أهل الكتاب إنصافا لهم ، وتكريما لذواتهم فقال - تعالى - :

« لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) » .

فالضمير فى قوله - تعالى - « ليسوا سواء » يعود لأهل الكتاب ، الذين تقدم الحديث عنهم ، وهو اسم ليس ، وخبرها قوله « سواء » . والجملة مستأنفة للثناء على من يستحق الثناء منهم ، بعد أن وبخ القرآن من يستحق التوبيخ منهم .

قال ابن كثير : والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وأسد بن عبيد وثعلبة ابن شعبة وغيرهم . أى لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب ،

وهؤلاء الذين أسلموا . ولهذا قال - تعالى - ليسوا سواء » أي ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ، ومنهم المجرم[١] » .

وقوله - تعالى - « من أهل الكتاب أمة قائمة » استئناف مبين لكيفية عدم التساوي ومزيل لما فيه من إبهام .

أي : ليس أهل الكتاب متساوين في الكفر وسوء الأخلاق ، بل منهم طائفة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه مستقيمة على طريقته ثابتة على الحق ملازمة له ، لم تتركه كما تركه الأكثرون من أهل الكتاب وضيعوه .

فمعنى قائمة مستقيمة عادلة من قولك أقمت العود فقام بمعنى استقام .

أو معناها : ثابتة على التمسك بالدين الحق ، ملازمة له غير مضطربة في التمسك به ، كما في قوله - تعالى - « إلا ما دمت عليه قائما » أي ملازما لمطالبته بحقك . ومنه قوله - تعالى - « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » أي ملازما له .

والمراد بهذه الطائفة من أهل الكتاب التي وصفها الله - تعالى - بأنها « أمة قائمة » أولئك الذين أسلموا منهم ، واستقاموا على أمر الله ، وأطاعوه في السر والعلن ، كعبد الله بن سلام ، وأصحابه ، والنجاشي ومن آمن معه من النصارى فهؤلاء قد آمنوا بكل ما يجب الإيمان به ، ولم يفرقوا بين أنبياء الله ورسله ، فمدحهم الله على ذلك وأثنى عليهم .

ثم تابع القرآن حديثه عن أوصافهم الكريمة فقال . « يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » .

وقوله « يتلون » من التلاوة وهي القراءة ، وأصل الكلمة من الاتّبَاع ، فكأن التلاوة هي اتباع اللفظ .

والمراد بآيات الله هنا : ما أنزله على رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - من قرآن .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٧

وقوله «آناء الليل» أى أوقاته وساعاته. والآناء جمع إنْى - كمعا وأمعاء - أو جمع أنَى - كعصا - ، أو جمع أنْى وإنْى وإنو . فالهمزة فى آناء منقلبة عن ياء كرداء : أو عن واو ككساء .

والمراد بالسجود فى قوله «وهم يسجدون» الصلاة لأن السجود لا قراءة فيه وإنما فيه التسبيح ، فقد روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «ألا إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجداً . فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم» .

والمعنى . ليس أهل الكتاب متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح ، بل منهم قوم سلموا منها . وهم الذين استقاموا على الحق ولزموه ، وأكثروا من تلاوة آيات الله فى صلاتهم التى يتقربون بها إلى الله - تعالى - آناء الليل وأطراف النهار .

قال الآلوسى ما ملخصه . والمراد بصلاتهم هذه التهجد - على ماذهب إليه البعض - . وعلل هذا بأنه أدخل فى المدح وفيه تتيسر لهم التلاوة ، لأنها فى المكتوبة وظيفة الإمام ...

والذى عليه بعض السلف أنها صلاة العتمة . واستدل عليه بما أخرجه الإمام أحمد والنسائى وابن جرير والطبرانى عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : أما أنه لا يصلى هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب ... وعبر عن الصلاة بالسجود ، لأنه أدل على كمال الخضوع والصلاة تسمى سجودا وسجدة ، وركوعا وركعة (١) .

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى كريمة فقال : «يؤمنون بالله» والمراد بهذا الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به على الوجه المقبول الذى نطق به الشرع ، وجاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - .

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ٣٤ .

« واليوم الآخر » أي ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار وقوله : « ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » إشعار بأنهم لم يكتفوا بتكميل أنفسهم بالفضائل التي من أشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر، والإكثار من إقامة الصلاة ومن تلاوة القرآن ، بل أضافوا إلى ذلك إرشاد غيرهم إلى الخير الذي أمر الله به، ونهيه عن الباطل الذي يبغضه الله، وتستنكره العقول السليمة .

وقوله - تعالى - « ويسارعون في الخيرات » أي يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات التي ترفع درجاتهم عند الله - تعالى - . بدون تردد أو تقصير .

وقال - سبحانه - « ويسارعون في الخيرات » ولم يقل إلى الخيرات ، للإشعار بأنهم مستقرون في كل أعمالهم في طريق الخير ، فهم ينتقلون من خير إلى خير في دائرة واحدة هي دائرة الخير ، فهم ينتقلون بين زواياها وأقطارها ولا يخرجون منها . فهم لا ينتقلون مسارعين من شر إلى خير وإنما ينتقلون مسارعين من خير إلى خير وهذا هو سر التعبير بفي المفيدة للظرفية .

والمسارعة في الخير هي فرط الرغبة فيه ؛ لأن من رغب في الأمر يسارع في توليه وفي القيام به . وإختيار صيغة المفاعلة « يسارعون » للمبالغة في سرعة نهوضهم لهذا العمل الجامع لفنون الخير ، وألوان البر .

قال صاحب الكشاف : وقوله « يتلون » و « يؤمنون » في محل الرفع صفتان لأمة . أي : أمة قائمة تالون مؤمنون . وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين ، ومن الإيمان بالله ؛ لأن إيمانهم به كلا إيمان ، لإشراكهم به عزيرا ، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض . ومن الإيمان باليوم الآخر ، لأنهم يصفونه بخلاف صفته . ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنهم كانوا مداهنين . ومن المسارعة في الخيرات ، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها »(١) .

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٠٤ .

واسم الإشارة فى قوله « وأولئك من الصالحين » يعود إلى الموصوفين بتلك الصفات السابقة من تلاوة الكتاب ومن إيمان بالله واليوم الآخر ...

أى وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة الشأن من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم ، واستحقوا ثناءه عليهم .

وفى التعبير بقوله « من الصالحين » إشارة إلى أنهم بهذه المزايا ، وتلك الصفات ، قد انسلخوا من عداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله - تعالى - ووصفهم بأن أكثرهم من الفاسقين .

فهم بسبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين .

قال الفخر الرازى : واعلم أن وصفهم بالصلاح فى غاية المدح . ويدل عليه القرآن والمعقول . أما القرآن ، فهو أن الله - تعالى - مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء ، فقال بعد ذكر إدريس وإسماعيل وذى الكفل وغيرهم « وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين » .

وذكر حكاية عن سليمان أنه قال : « وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

وأما المعقول ، فهو أن الصلاح ضد الفساد ، وكل مالا ينبغى أن يكون فهو فساد ، سواء كان ذلك فى العقائد أو فى الأعمال ، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغى أن يكون فقد حصل الصلاح ؛ فكان الصلاح دالا على أكمل الدرجات »(١) .

ثم بين - سبحانه - أنه لن يضيع شيئا مما قدموه من أعمال صالحة ، بل سيكافئهم على ذلك بما هو أفضل وأبقى فقال : « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه » أى أن هؤلاء الذين وصفهم الله بتلك الصفات الطيبة لن يضيع الله شيئا مما قدموه من عمل صالح ، وإنما سيجازيهم بما هم أهله من ثواب جزيل ، وأجر كبير بدون أى نقص أو حرمان .

و « ما » فى قوله « وما يفعلوا من خير » شرطية . وفعل الشرط قوله « يفعلوا » وجوابه قوله « فلن يكفروه » .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٢٠٣ .

و « من » فى قوله « من خير » لتأكيد للعموم أى ما يفعلوا من أى خير سواء أكان قليلا أم كثيرا فلن يحرموا ثوابه .

وأصل الكفر : الستر والتغطية . وقد صح تعدية الفعل كفر إلى مفعولين لأنه هنا بمعنى حرم .

ولذا قال صاحب الكشاف : فإن قلت لم عدى إلى مفعولين ، وشكر وكفر لا يتعديان إلا واحد تقول : شكر النعمة و كفرها ؟ قلت : ضمن معنى الحرمان فكأنه قيل : فلن يحرموه ، بمعنى : فلن يحرموا جزاءه »(١) .

وقوله « والله عليم بالمتقين » تذييل مقرر لمضمون ما قبله . أى هو - سبحانه - عليم بأحوال عباده وسيجازى المتقين بما يستحقون من ثواب ، وسيجازى الكافرين بما يستحقون من عقاب .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد أنصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب ، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة .

وصفتهم بأنهم طائفة ثابتة على الحق . وأنهم يتلون آيات الله أناء الليل وأطراف النهار وأنهم مكثرون من التضرع إلى الله فى صلواتهم وسجودهم ، وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وأنهم يأمرون بالمعروف ، وأنهم ينهون عن المنكر . وأنهم يسارعون فى الخيرات ، وأنهم من الصالحين .

ثم بشرهم - سبحانه - بعد وصفهم بهذه الصفات الكريمة بأن ما يقدموه من خير فلن يحرموا ثوابه ، لأنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده ولن يضيع أجر من أحسن عملا .

وبعد هذا الحديث المؤثر عن أحوال المؤمنين من أهل الكتاب وبيان ما أعده الله لهم من ثواب جزيل ، أتبعه بالحديث عن الكافرين وعن سوء عاقبتهم وعن أهم الأسباب التى أدت إلى جحودهم وفسوقهم فقال - تعالى - :

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٢ .

« إنَّ الذينَ كَفَرُوا لَنْ تُغنِيَ عنْهُم أَموالُهُم ولا أَولادُهُم مِنَ اللهِ شيئاً ، وأُولئكَ أَصحابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ ما يُنفِقُونَ في هذهِ الحَياةِ الدُّنيا كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَومٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم فأَهلَكَتْهُ وما ظَلَمَهُم اللهُ ولكنْ أَنفُسَهُم يَظلِمُونَ (١١٧) » .

والمراد بالذين كفروا فى قوله « إن الذين كفروا .. » جميع الكفار ، لأن اللفظ عام ، ولا دليل يقتضى تخصيصه بفريق من الكافرين دون فريق. والمراد من الإغناء فى قوله « لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » الدفع وسد الحاجة يقال : أغنى فلان فلانا عن هذا الأمر ، إذا كفاه مؤنه ، ورفع عنه ما أثقله منه.

أى : إن الذين كفروا بما يجب الإيمان به . واغتروا بأموالهم وأولادهم فى الدنيا ، لن تدفع عنهم اموالهم ولا أولادهم شيئا — ولو يسيرا — من عذاب الله الذى سيحيق بهم يوم القيامة بسبب كفرهم وجحودهم .

وقد أكد — سبحانه — عدم إغناء أموالهم ولا أولادهم عنهم شيئا — فى وقت هم فى أشد الحاجة إلى من يحميهم ويدفع عنهم — بحرف « لن » المفيد لتأكيد النفى وخص الأموال والأولاد بالذكر ، لأن الكفار كانوا أكثر ما يكونون اغترارا بالأموال والأولاد ، وقد حكى القرآن غرورهم هذا بأموالهم وأولادهم فى كثير من الآيات ، ومن ذلك قوله — تعالى — : « وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين »[1] .

ولأن من المتعارف عليه بين الناس أن الإنسان يلجأ إلى ماله وولده عند الشدائد ، إذ المال يدفع به الإنسان عن نفسه فى الفداء وما يشبهه من المغارم، والأولاد يدافعون عن أبيهم لنصرته ممن يعتدى عليه .

(١) سورة سبأ الآية ٣٥

وكرر حرف النفى مع المعطوف فى قوله « ولا أولادهم » لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم ، ولدفع توهم ما هو متعارف من أن الأولاد لا يقعدون عن الذب عن آبائهم .

فالمقصود من الجملة الكريمة نفى الانتفاع بالأموال والأولاد فى حالة اجتماعهما ، وفى حالة انفراد أحدهما عن الآخر ، ولأن المال قد يكون أكثر نفعا فى مواضع خاصة ، والأولاد قد يكونون أكثر نفعا من المال فى مواطن أخرى ، فبتكرار النفى تأكد عدم انتفاع الكفار بهذين النوعين فى أية حال من الأحوال .

فإن قيل : لقد نص القرآن على أن الكفار لا تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم يوم القيامة ، مع أن المؤمنين كذلك لا تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم فلماذا خص الكافرين بالذكر ؟

فالجواب أن الكافرين هم الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ، وهم الذين اعتقدوا أنهم سينجون من العقاب بسبب ذلك ، أما المؤمنون فإنهم لم يعتقدوا هذا الاعتقاد ، ولم يغتروا بما منحهم الله من نعم ، وإنما اعتقدوا أن الأموال والأولاد فتنة ، ولم يعتمدوا فى نجاتهم من عقاب الله يوم القيامة إلا على فضله ورحمته ، وعلى إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح .

و « من » فى قوله « من الله » ابتدائية ، والجار والمجرور متعلق بتغنى .

وقوله « شيئا » منصوب على أنه مفعول مطلق أى : لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا من الاغناء والدفع . وتنكير « شيئا » للتقليل .

وقوله « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » تذييل قصد به بيان سوء عاقبتهم ، وما أعد لهم من عذاب شديد .

أى وأولئك الكافرون المغترون بأموالهم وأولادهم هم أصحاب النار الذين سيلازمونها ويصلون سعيرها ، ولن ينصرهم من عذاب الله أى ناصر من أموال أو أولاد أو غيرهما .

وقد أكد - سبحانه - هذا الحكم العادل بعدة مؤكدات منها : التعبير باسم الإشارة المتضمن السلب من كل قوة كانوا يعتزون بها ، ومنها . ذكر مصاحبتهم للنار وخلودهم فيها أى ملازمتهم لها ملازمة أبدية ، ومنها ما إشتملت عليه الجملة الكريمة من معنى القصر أولئك أصحاب النار الذين يلازمونها ولا يخرجون منها إلى غيرها بل هم خالدون فيها .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لبطلان ما ينفقه هؤلاء الكافرون من أموال من أموال فى الدنيا فقال « مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا » أى من أموال فى وجوه الخير المختلفة . كمواساة البائسين ، ودفع حاجة المحتاجين .

و « ما » موصولة والعائد محذوف ، والتقدير . مثل ما ينفقونه .

« كمثل ريح فيها صر » أى كمثل ريح فيها برد شديد قاتل للنبات . وقيل . الصر . الحر الشديد ، وقيل الصر . صوت لهيب النار التى تحرق الثمار .

وذكر - سبحانه - الصر على أنه فى الريح ، وأنها مشتملة عليه ، وهى له ظرف وهو مظروف ، للاشعار بأنها ريح لا تحمل عوامل النماء للزرع . وإنما هى تحمل ما معها ما يهلكه .

وقوله « أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته » أى أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصى فدمرته وأهلكت ما فيه من ثمار وهم أحوج ما يكونون إلى الزرع وتلك الثمار .

والحرث هنا مصدر بمعنى المحروث ، وأصل كلمة حرث : فلح الأرض وإلقاء البذر فيها ، ثم اطلقت على ما هو نتيجة لذلك وهو الزرع .

وفى التعبير بقوله « ظلموا أنفسهم » تذكير للسامعين ، وبعث لهم على ترك

الظلم ، حتى لا يصابوا بمثل ما أصيب به أولئك الذين ظلموا أنفسهم من عقوبات رادعة ، وأضرار فادحة .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله . « وما ظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون » أى أن الله - تعالى - ما ظلمهم حين لم يقبل نفقاتهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان ، ومن كان كذلك فلن يقبل الله منه شيئا ، لأن الله - تعالى - وإنما يتقبل من المتقين .

والضمائر فى هذه الجملة الكريمة تعود أولئك الكافرين الذين ينفقون أموالهم مقرونة بالوجوه المانعة من قبولها .

وفى هذه الآية الكريمة تشبيه بليغ : فقد شبه - سبحانه - حال ما ينفقه الكفار فى الدنيا - على سبيل القربة أو المفاخرة - شبه ذلك فى ضياعه وذهابه وقت الحاجة إليه فى الآخرة من غير أن يعود عليهم بفائدة : بحال زرع لقوم ظالمين ، أصابته ريح مهلكة فاستأصلته ، ولم ينتفع أصحابه منه بشىء ، وهم أحوج ما يكونون إليه .

قال صاحب الإنتصاف . أصل الكلام - والله أعلم - . مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا ، كمثل حرث قوم ظلموا انفسهم ، فأصابته ريح فيها صر فأهلكته .

ولكن خولف هذا النظم فى المثل المذكور لفائدة جليلة . وهى تقديم ماهو أهم لأن الريح التى هى مثل العذاب . ذكرها فى سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث . فقدمت عناية بذكرها ، واعتمادا على إن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه . ومثل هذا فى تحويل النظم لمثل هذه الفائدة قوله - تعالى - « فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما » . ومثله - أيضا - . أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه .

والأصل . أن تذكر إحداهما الأخرى وإن ضلت . وأن أدعم بها الحائط إذا مال ، وأمثال ذلك كثيرة(١) .

وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة الكافرين أكمل بيان وأحكمه ، حذر المؤمنين من أهل الكتاب ومن على شاكلتهم ممن لا يريدون الإسلام إلا الشرور والمضار فقال - تعالى - :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُم خَبَالاً ، وَدُّوا مَا عَنِتُّم ، قد بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَر ، قد بَيَّنَّا لَكُم الآياتِ إِنْ كُنْتُم تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُم أُولاءِ تُحِبُّونَهُم ولا يُحِبُّونَكُم ، وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتَابِ كُلِّه ، وإِذَا لَقُوكُم قَالُوا آمَنَّا ، وإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عليكُم الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُم إِنَّ اللَّهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إن تَمْسَسْكُم حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وإِنْ تُصِبْكُمْ سيئةٌ يَفْرَحُوا بها ، وإِنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُم كَيْدُهُمْ شيئاً ، إِنَّ اللَّهَ بما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) » .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : اختلفوا في الذين نهى الله المؤمنين عن مخالطتهم من هم ؟ فقيل هم اليهود ؛ لأن بعض المسلمين كانوا يشاورونهم في أمورهم ويؤانسونهم لما كان فيهم من الرضاع والحلف . . . وقيل هم المنافقون، وذلك لأن بعض المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوالهم فيفشون إليهم الأسرار والصحيح أن المراد بهم جميع أصناف الكفار . والدليل عليه قوله - تعالى - « بطانة من دونكم » فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطانة من غير المؤمنين ، فيكون ذلك نهيا عن جميع الكفار . . .(٢) .

---

(١) الانتصاف على الكشاف للشيخ أحمد بن المنير ج ١ ص ٤٠٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ٢١٠ .

والبطانة فى الأصل : داخل الثوب ، وجمعها بطائن . قال - تعالى - « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق »[1] . وظاهر الثوب يسمى الظهارة . والبطانة - أيضا - الثوب الذى يجعل تحت ثوب آخر ويسمى الشعار ، وما فوقه الدثار . وفى الحديث « الأنصار شعار والناس دثار » .

ثم أطلقت البطانة على صديق الرجل وصفيه الذى يطلع على شئونه الخفية تشبيها ببطانة الثياب فى شدة القرب من صاحبها . قال الشاعر :

أولئك خلصانى نعم وبطانتى وهم عيبتى من دون كل قريب

وقوله « من دونكم » أى من غير أهل ملتكم .

والمعنى : لايجوز لكم - أيها المؤمنون - أن تتخذوا من غير أهل ملتكم أصفياء وأولياء تلقون إليهم بأسراركم التى لا يصح لكم أن تطلعوهم عليها ، لأنكم لو فعلتم ذلك لأصابكم الضرر فى دينكم ودنياكم .

قال القرطبى : « نهى الله المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلا وولجاء ، يفاوضونهم فى الآراء ويسندون إليهم أمورهم ... وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » ... وقيل لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إن ههنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم ، أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا آخذ بطانة من دون المؤمنين ... » .

ثم قال القرطبى - رحمه الله - : « قلت وقد إنقلبت الأحوال فى هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبه وأمناء ، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء » . روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له

(١) سورة الرحمن الآية ٥٤ .

بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه. وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه. والمعصوم من عصمه الله»[1].

وصدر - سبحانه - النداء بوصف الإيمان، للاشعار بأن مقتضى الإيمان يوجب عليهم ألا يأمنوا من يخالفهم فى عقيدتهم على أسرارهم، وألا يتخذوا أعداء الله وأعداءهم أولياء يلقون إليهم بالمودة، وألا يطلعوهم على ما يجب إخفاؤه من شئون وأمور خاصة بالمؤمنين وقوله «من دونكم» يجوز أن يكون صفة لبطانة فيكون متعلقا بمحذوف، أى لا تتخذوا بطانة كائنة من غيركم. ويجوز أن يكون متعلقا بقوله: «لا تتخذوا» أى لا تتخذوا من غير أهل ملتكم بطانة تصافونهم وتطلعونهم على أسراركم

ثم ذكر - سبحانه - جملة من الأسباب التى تجعل المؤمنين يمتنعون عن مصافاة هؤلاء الذين يخالفونهم فى عقيدتهم فقال فى بيان أول هذه الأسباب: «لا يألونكم خبالا» وأصل «الألو»: التقصير يقال: ألا فى الأمر - كغزا - يألو ألوا وألوا، إذا قصر فيه، ومنه قول أمرىء القيس:

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

أراد ولا مقصر. وهو - أى الفعل «يألو» من الأفعال اللازمة التى تتعدى إلى المفعول بالحرف، وقد يستعمل متعديا إلى مفعولين كما فى قولهم: لا آلوك نصحا، على تضمين الفعل معنى المنع. أى لا أمنعك ذلك

والخبال: الشر والفساد. وأصله ما يلحق الحيوان من مرض وفتور فيورثه فساداً واضطراباً. يقال خبله وخبلة فهو خابل. والجمع الخبل ورجل مخبل إذا أصيب بمرض أورثه إضطراباً وفساداً فى قواه العقلية والفكرية.

والمعنى: أنهاكم - أيها المؤمنون - عن تتخذوا أولياء وأصفياء لكم من غير إخوانكم المؤمنين، لأن هؤلاء الأولياء من غير إخوانكم المؤمنين

---

(١) تفسير القرطبى ج ٤ ص ١٧٨.

لا يقصرون فى جهــد يبذلونه فى إفساد أمركم ، وفيم يورثكم شرا وضرا .
أو لا يمنعونكم خبالا ؛ أى أنهم يفعلون معكم ما يقدرون عليه من الفساد ولا يبقون شيئا منه عندهم ، بل يبذلون قصارى جهدهم فى إلحاق الضرر بكم فى دينكم ودنياكم .

وقوله « لا يألونكم خبالا » جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى إجتنابهم أو صفة لقوله « بطانة » .

وقوله « خبالا » منصوب على أنه المفعول الثانى ليألونكم لتضمينه معنى يمنعونكم

ويصح أن يكون منصوبا بنزع الخافض أى لا يقصرون لكم عن جهد فيما يورثكم شرا وفسادا .

أما السبب الثانى الذى يحمل المؤمنين على إجتناب هؤلاء الضالين فقد بينه — سبحانه — بقوله : « ودوا ما عنتم » .

وقوله « ودوا » من الود وهو المحبة . يقال : وددت كذا أى أحببته .

وقوله « عنتم » من العنت وهو شدة الضرر والمشقة . ومنه قوله - تعالى - « ولو شاء الله لأعنتكم » أى لأوقعكم فيما يشق عليكم .

و « ما فى قوله « ما عنتم » هى ما المصدرية . أى : أن هؤلاء الذين تصافونهم وتفشون إليهم أسراركم مع أنهم ليسوا على ملتكم ، بجانب أنهم لا يألون جهداً فى إفساد أمركم ، فإنهم يحبون عنتكم ومشقتكم وشدة ضرركم ، وتفريق جمعكم ، وذهاب قوتكم .

فالجملة الأولى وهى قوله « لا يألونكم خبالا » بمنزلة المظهر والنتيجة ، وهذه ، أى قوله - تعالى - « ودوا ما عنتم » بمنزلة الباعث والدافع .

فهم لا يودون للمسلمين الخير والإطمئنان والأمان ، وإنما يودون لهم الشقاء والشرور والخسران . وليس بعاقل ذلك الذى يطلع من يريد له الشرور على أسراره ودخائله .

وأما السبب الثالث الذى يدعو المؤمنين إلى إجتنابهم فقد بينه الله - تعالى - فقوله : « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » .

والبغضاء مصدر كالسراء والضراء ، وهى البغض الشديد المتمكن فى النفوس ، والثابت فى القلوب .

أى : قد ظهرت أمارات العداوة لكم من فلتات ألسنتهم ، وطفح البغض الباطن فى قلوبهم لكم حتى خرج من أفواههم ، ولاح على صفحات وجوههم وقد قيل كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفلتات اللسان . ومع هذا فإن ما تخفيه نفوسهم المريضة لكم من أحقاد وإحن ، أكبر مما نطقت به ألسنتهم من بغضاء ، إذ أن ما نطقوا به إنما بمثابة الرشح الذى ظهر من مسام أجسامهم وقلوبهم ، أما ما يبيتونه لكم من شرور وآثام فهو أكبر من ذلك بكثير .

وخص الأفواه بالذكر دون الألسنة ، للاشارة إلى تشدقهم وثرثرتهم فى أقوالهم الباطلة ، فهم أشد جرما من المتستر الذى تبدو البغضاء فى عينيه .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان مظهر من مظاهر فضله على المؤمنين ، حيث كشف لهم عن أحوال أعدائهم وعن سوء نواياهم وعن الأسباب التى تدعو إلى الحذر منهم فقال - تعالى - « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » .

أى قد بينا لكم العلامات الواضحات ، والآيات البينات التى تعرفون بها أعداءكم ، وتميزون عن طريقها بين الصديق وبين العدو ، إن كنتم من أهل العقل والفهم .

والمقصود من الجملة الكريمة حضهم على إستعمال عقولهم بتأمل وتدبر فى هذه الآيات التى بينها الله لهم فضلا منه وكرما ، حتى لا يتخذوا بطانة من غير إخوانهم فى العقيدة والدين .

وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه ، والتقدير: إن كنتم تعقلون ذلك فلا تباطنوهم ولا تفشوا لهم أسراركم .

ثم ذكر - سبحانه - أموراً أخرى من شأنها أن تجعل المؤمنين يقلعون عن مباطنة ومصافاة أعدائهم فى الدين فقال : « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم» أى ها أنتم أولاء أيها المؤمنون تحبون هؤلاء الذين يخالفونكم فى عقيدتكم ، وتتمنون لهم الهداية والخير ، بينما هم لا يحبونكم ولا يريدون لكم إلا الشرور والهزائم والضعف .

وفى هذه الجملة الكريمة عتاب ولوم للمؤمنين الذين يلقون إلى أعدائهم بالمودة ، ويكشفون لهم عن أسرارهم ودخائلهم .

و « ها » حرف تنبيه ، وقوله « أنتم » مبتدأ وقوله « أولاء » خبره ، وقوله « تحبونهم ولا يحبونكم .. » كلام مستأنف لبيان خطئهم فى موالاتهم ومحبتهم لمن يبغضونهم ويخالفونهم فى الدين .

وبعضهم جعل « أنتم » مبتدأ ، وقوله « أولاء » منادى حذف منه حرف النداء : وقوله « تحبونهم » هو الخبر عن المبتدأ .

وبعضهم جعل جملة « تحبونهم » فى موضع نصب على الحال من إسم الإشارة الذى هو الخبر .

والمراد بالكتاب فى قوله « وتؤمنون بالكتاب كله » جنس الكتب السماوية التى أنزلها الله على أنبيائه .

أى أنتم أيها المؤمنون تحبونهم وهم يحبونكم ، وأنتم تؤمنون بجميع الكتب السماوية التى أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بشىء من كتابكم الذى أنزله الله على نبيكم محمد - صلى الله عليه وسلم - وما دام الأمر كذلك فكيف تتخذونهم بطانة من دون إخوانكم المؤمنين ؟ لا شك أن من يفعل ذلك يكون بعيداً عن الطريق القويم ، والعقل السليم .

ثم بين - سبحانه - سببا ثالثا يدل على قبح مخالطتهم ومصافاتهم فقال - تعالى - : « وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

والعض هو الإمساك بالأسنان أى تحامل الأسنان بعضها على بعض . يقال : عض يعض عضا وعضيضا إذا تحامل بأسنانه على الشيء .

والأنامل جمع أنملة ، وهى أطراف الأصابع . وقيل هى الأصابع .

والغيظ : أشد الغضب . وعضهم الأنامل كناية عن شدة غضبهم وتحسرهم وحنقهم على المؤمنين .

أى ان هؤلاء الذين يواليهم بعضكم أيها المؤمنون بلغ من نفاقهم وسوء ضمائرهم أنهم إذا لقوكم قالوا آمنا بدينكم وبنبيكم محمد - صلى الله عليه وسلم - وإذا خلوا ، أى خلا بعضهم ببعض أكل الحقد قلوبهم عليكم ، وسلقوكم بألسنة حداد ، وتمنوا لكم المصائب ، وأظهروا فيما بينهم أشد ألوان الغيظ نحوكم ؛ بسبب ما يرونه من إئتلافكم ، وإجتماع كلمتكم . وعجزهم عن أن يجد سبيلا إلى التشفى منكم ، وإلحاق الأضرار بين صفوفكم .

ومن كان كذلك فى كفره ونفاقه ، كان من الواجب على كل مؤمن أن يحتقره وأن يبتعد عنه ، لأنه لا يريد للمؤمنين إلا شرا .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يكبت هؤلاء المنافقين ويبقى حسرتهم فقال : « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » .

والخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولكل مؤمن من أتباعه لتحريضه على مقاطعة هؤلاء الذين لا يريدون لهم إلا الشر .

أى : قل لهم دوموا على غيظكم وإستمروا عليه إلى أن تموتوا ، فإن قوة الإسلام وعزة أهله التى جعلتكم تبغضون المؤمنين ستبقى وستستمر ، وإن أحقادكم على المسلمين لن تنقص من قوتهم وعلو كلمتهم شيئا .

فالمراد الدعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به ، وهذا يستلزم أن يستمر ما يغيظهم ويكبتهم ، وهو نجاح الإسلام وقوته :

والباء فى قوله « بغيظكم » للملابسة . أى موتوا متلبسين بغيظكم وحقدكم .

وقوله « إن الله عليم بذات الصدور » أى محيط بما خفى فيها . ومطلع على مايبيته هؤلاء المنافقون للمسلمين ، وسيحاسبهم عليه حسابا عسيرا . ويعذبهم بسبب ذلك عذابا أليما .

قال الجمل : وهذه الجملة يحتمل أن تكون مستأنفة ، أخبر الله - تعالى - بذلك ، لأنهم كانوا يخفون غيظهم ما أمكنهم ، فذكر ذلك لهم على سبيل الوعيد ويحتمل أن تكون من جملة المقول . أى قل لهم كذا وكذا فتكون فى محل نصب بالقول . ومعنى قوله : « بذات الصدور » أى : بالمضمرات ذوات الصدور . فذات هنا تأنيث ذى بمعنى صاحبة الصدور . وجعلت صاحبة للصدور لملازمتها لها وعدم انفكاكها عنها ، نحو أصحاب الجنة وأصحاب النار »(١) .

وفى هذه الجملة الكريمة تطييب لقلب النبى - صلى الله عليه وسلم - ولقلوب أصحابه . حيث بين - سبحانه - لهم أنه ناصرهم ، وأنه كاشف لهم أمر أعدائهم متى أطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، ولم يجعلوا من أولئك الأعداء الذين يضمرون لهم كل شر وضغينة بطانة لهم .

ثم ذكر - سبحانه - لونا آخر من ألوان بغض هؤلاء الكافرين للمؤمنين ، فقال - سبحانه - : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » والمس : أصله الجس باليد ، ثم أطلق على كل ما يصل إلى شىء على سبيل التشبيه ، فيقال : فلان مسه النصب أو التعب ، أى أصابه .

والمراد بالحسنة هنا منافع الدنيا على اختلاف ألوانها كصحة البدن ، وحصول النصر ، ووجود الألفة والمحبة بين المؤمنين ...

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٣٠٨ .

أى إن تمسسكم - أيها المؤمنون - حسنة كنصركم على أعدائكم ، وإصلاح ذات بينكم ، « تسؤهم » أى تحزنهم وتملأ قلوبهم غيظا عليكم ، « وإن تصبكم سيئة » كنزول مصيبة بكم « يفرحوا بها » أى يبتهجوا بها ، وتستطار ألبابهم سرورا وحبورا بسبب ما نزل بكم من مكاره .

فالجملة الكريمة بيان لفرط عداوة هؤلاء المنافقين للمؤمنين، حيث يحسدونهم على ما ينالهم من خير ، ويشمتون بهم عند ما ينزل بهم شر .

وعبر فى جانب الحسنة بالمس ، وفى جانب السيئة بالإصابة ، للإشارة إلى تمكن الأحقاد من قلوبهم ، بحيث إن أى حسنة حتى ولو كان مسها المؤمنين خفيفاً وليس غامرا عاما فإن هؤلاء المنافقين يحزنون لذلك ، لأنهم يستكثرون كل خير للمؤمنين حتى ولو كان هذا الخير ضئيلا .

أما بالنسبة لما يصيب المؤمنين من مكاره، فإن هؤلاء المنافقين لا يفرحون بالمصيبة التى تمس المؤمنين مساً خفيفاً ، فإنها لا تشفى غيظهم وحقدهم ، وإنما يفرحون بالمصائب الشديدة التى تؤذى المؤمنين فى دينهم ودنياهم أذى شديداً ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بإرشاد المؤمنين إلى الدواء الذى يتقون به كيد أعدائهم وأعدائه فقال - تعالى - : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط » .

وقوله « تصبروا » من الصبر وهو حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل .

وقوله « وتتقوا » من التقوى وهى صيانة الإنسان نفسه عن محارم الله .
وقوله « كيدهم » من الكيد وهو أن يحتال الشخص ليوقع غيره فى مكروه

والمعنى : «وإن تصبروا» أيها المؤمنون على طاعة الله ، فتضبطوا أنفسكم ولا تنساقوا فى محبة من لا يستحق المحبة ، وتتحملوا بعزيمة صادقة مشاق التكاليف التى كلفكم الله بها ، وتقاوموا العداوة بمثلها «وتتقوا» الله - تعالى - فى كل ما نهاكم عنه ، وتمتثلوا أمره فى كل ما أمركم به ، إن فعلتم ذلك «لا يضركم

كيدهم ، وتدبيرهم السىء « شيئا » من الضرر ببركة هاتين الفضيلتين : الصبر والتقوى ، فإنهما جامعتان لمحاسن الطاعات ، ومكارم الأخلاق .

وإن لم تفعلوا ذلك أصابكم الضرر ، وإستمكنوا منكم بكيدهم ومكرهم قال الجمل ما ملخصه : وقوله «لا يضركم» وردت فيه قراءتان سبعيتان إحداهما - بضم الضاد وضم الراء مع التشديد - من ضر يضر . والثانية « لا يضركم - بكسر الضاد وسكون الراء - من ضار يضير . والفعل كليهما مجزوم جوابا للشرط ، وجزمه على القراءة الثانية « يضركم ظاهر . وعلى القراءة الأولى « يضركم . يكون مجزوما بسكون مقدر على آخره منع من ظهوره إشتغال المحل بحركة الإتباع للتخلص من التقاء الساكنين ، وأصل الفعل يضرركم - بوزن ينصركم - نقلت حركة الراء الأولى إلى الضاد ثم أدغمت فى فى الثانية ، وحركت الثانية بالضم إتباعا لحركة الضاد »[1] .

وقوله « شيئا » نصب على المصدرية . أى لا يضركم كيدهم شيئا من الضرر لا قليلا ولا كثيرا بسبب إعتصامكم بالصبر والتقوى .

وقوله « إن الله بما يعملون محيط » تذييل قصد به إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين ، والرعب فى قلوب أعدائهم . أى إنه - سبحانه - محيط بأعمالهم وبكل أحوالهم ، ولا تخفى عليه خافية منها ، وسيجازيهم عليها بما يستحقونه من عذاب أليم بسبب نياتهم الخبيثة ، وأقوالهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة .

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين بأسلوب بليغ حكيم عن مصافاة من يخالفونهم فى الدين ، وذكرت لهم من صفات وأحوال هؤلاء المخالفين ما يحملهم على منابذتهم والحذر منهم والبعد عنهم ، وأرشدتهم إلى ما يعينهم على النصر عليهم وعلى التخلص من آثار مكرهم وكيدهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٣٠٨ .

وإنها لوصايا حكيمة وتوجيهات سديدة ، وإرشادات عالية ، ما أحوج المسلمين فى كل زمان ومكان إلى العمل بها لكى يفلحوا فى دنياهم وآخرتهم .

تدبر معى - أخى القارىء - هذه الآيات مرة أخرى فماذا ترى ؟

إنك تراها توجه إلى المؤمنين نداء محببا إلى نفوسهم ، محركا لحرارة العقيدة فى قلوبهم .. حيث نادتهم بصفة الإيمان ، ونهتهم فى هذا النداء عن اتخاذ أولياء وأصفياء لهم من غير إخوانهم المؤمنين . ولكن هل اكتفت بهذا النهى مع أنه كفيل بحجز المؤمنين عما نهتهم عنه ؟

كلا ، إنها لم تكتف بذلك ، بل ساقت لهم صورة كاملة السمات لأحوال أعدائهم ، صورة ناطقة بدخائل نفوسهم ، وبمشاعرهم الظاهرة والخفيـة ، وبانفعالاتهم القلبية والجسديه ، وبحركاتهم الذاهبة والآيبة . صورة ناطقة بحالهم عندما يلتقون بالمؤمنين ، وبحالهم عندما يفارقونهم ويخلون بأنفسهم ، أو عندما يلتقون بأمثالهم من الضالين . صورة ناطقة بسرورهم عندما تصيب المسلمين مصيبة ، وبحزنهم عندما يرون المؤمنين فى نعمة يسيرة .

صورة ناطقة بموقف المؤمنين منهم وبموقفهم هم من المؤمنين ثم بعد رسم هذه الصورة العجيبة المتكاملة لهم . يسوق القرآن للمؤمنين أسمى وأحكم ألوان التوجيه والإرشاد الذى يجعلهم فى مأمن من كيدهم ومكرهم « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا .... » .

أرأيت - يا أخى القارىء - كيف ربى القرآن أتباعه أكمل تربية وأحكمها وأسماها ؟ إنه نهاهم أولا عن مباطنة أعدائهم ، ثم ساق لهم بعد ذلك من أوصافهم وأحوالهم ما يقنعهم ويحملهم على البعد عنهم ، ثم أرشدهم إلى الدواء الذى ينجيهم من مكرهم .

فما أحكمه من توجيـه ، وما أسماه من إرشاد ، وإن ذلك ليدل على أن

هذا القرآن من عند الله « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا »[١] .

وإلى هنا تكون سورة آل عمران قد حدثتنا — من بين ما حدثتنا — فى مائة وعشرين آية منها ، عن بعض الأدلة على وحدانية الله — تعالى — ، وعن مظاهر قدرته ورحمته ، وعن كتبه التى أنزلها على أنبيائه لسعادة الناس وهدايتهم وعن حب الناس للشهوات وعما هو أسمى وأفضل من هذه الشهوات الزائلة ، وعن المجادلات التى حدثت بين النبى — صلى الله عليه وسلم — وبين أهل الكتاب فيما يتعلق بوحدانية الله — تعالى — وبصحة دين الإسلام ، وعن جوانب من قصة آل عمران وما اشتملت عليه من عظات وعبر ، وعن الشبهات التى أثارها اليهود حول الدعوة الإسلامية والمسالك الخبيثة التى سلكوها فى حربهم لها ، وكيف رد القرآن عليهم بما يفضحهم ويكشف عن كذبهم ويجعل المؤمنين يزدادون إيمانا على إيمانهم .

والخلاصة أن السورة الكريمة من مطلعها إلى هنا قد ساقت — من بين ما ساقت — ألوانا من الحرب النفسية التى شنها أهل الكتاب على الدعوة الإسلامية ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويبصرهم بالحق — إن كانوا طلاب حق — وساقت للمؤمنين من التوجيهات والعظات ، ما يهدى قلوبهم ، ويصلح بالهم ويكفل لهم النصر على أعدائهم .

وبعد هذا السبح الطويل فى الحديث عما دار بين المسلمين وبين أعدائهم من حروب كلامية وفكرية ونفسية ..... انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن حرب السيف والسنان ، وما صاحبها من أفكار وأقوال وأفعال ....

فقد حدثتنا السورة الكريمة فى حوالى ستين آية عن جوانب متعددة من

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢

غزوة « أحد » تلك الغزوة التي كانت لها آثارها الهامة في حياة المسلمين وأحوالهم .

ولعل من الخير - قبل أن نبدأ في تفسير الآيات الكريمة التي وردت في سورة آل عمران بشأن هذه الغزوة - أن نسوق خلاصة تاريخية لهذه الغزوة تعين على فهم الآيات المتعلقة بها ، فنقول :

كانت غزوة بدر من الغزوات المشهورة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، فقد انتصر أتباعها انتصارا مؤزرا على كفار قريش...

وصمم المشركون على أن يأخذوا بثأرهم من المسلمين فجمعوا جموعهم وخرجوا في جيش كبير ، ومعهم بعض نسائهم حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال في القتال .

ووصل مشركو قريش ومعهم حلفاؤهم إلى أطراف المدينة في أوائل شوال من السنة الثالثة ، وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف رجل .

واستشار النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه في شأن هؤلاء المشركين الزاحفين إلى المدينة .

فكان رأى بعضهم - ومعظمهم من الشباب - الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة .

وكان من رأى فريق آخر من الصحابة ، إستدراج المشركين إلى أزقة المدينة ومقاتلتهم بداخلها ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يميل إلى رأى هذا الفريق ، إلا أنه آثر الأخذ برأى الفريق الأول الذي يرى أصحابه الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة ، نظرا لكثرة عدد القائلين بذلك .

ثم دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - بيته ، ثم خرج منه وقد لبس آلة حربه ، وشعر بعض المسلمين أنهم قد استكرهوا النبي - صلى الله عليه

وسلم - على القتال، فأظهروا له الرغبة فى النزول على رأيه، إلا أنه لم يستجب لهم، وقال كلمته التى تعلم الناس الحزم وعدم التردد: «ما ينبغى لنبى لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس. وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه ....».

ثم خرج النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ألف مقاتل من المسلمين حتى نزل قريبا من جبل «أحد» إلا أن «عبد الله بن أبى بن سلول» انسحب فى الطريق بثلث الناس محتجا بأن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يأخذ برأيه، بل أخذ برأى غيره.

وعسكر المسلمون بالشعب من أحد، جاعلين ظهورهم إلى الجبل، ورسم النبى - صلى الله عليه وسلم - الخطة لكسب المعركة، فجاءت خطة محكمة رائعة. فقد وزع الرماة على أماكنهم وكانوا خمسين راميا -، وقال لهم: انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا. إن كانت لنا أو علينا فالزموا أماكنكم لا نؤتين من قبلكم».

وفى رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لهم: «احموا ظهورنا. وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا. وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا!».

وأخيرا التقى الجمعان، وأذن النبى - صلى الله عليه وسلم - لأتباعه أن يجالدوا أعداءهم، وأظهر المسلمون أسمى صور البطولة والإقدام، وكان شعارهم فى هذا الالتحام «أمت أمت».

وما هى إلا جولات فى أوائل المعركة، حتى ولى المشركون الأدبار، ولم يغن عن المشركين شيئا ما كانت تقوم به نسوتهم من تحريض واستنهاض للعزائم.

قال ابن إسحاق: ثم أنزل الله - تعالى - نصره، وصدق وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لاشك فيها.

ورأى الرماة الهزيمة وهى تحل بقريش ، فتطلعت نفوسهم إلى الغنائم ، وحاول أميرهم « عبد الله بن جبير » أن يمنعهم من ترك أماكنهم عملا بوصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أن معظمهم تركوا أماكنهم ونزلوا إلى ساحة المعركة ليشاركوا فى جميع الغنائم والأسلاب .

وأدرك خالد بن الوليد ـ وكان مازال مشركا ـ أن ظهور المسلمين قد انكشف بترك الرماة لأماكنهم ، فاهتبل الفرصة على عجل ، واستدار بمن معه من خيل المشركين خلف المسلمين فأحدق بهم ، وأخذ فى مهاجمتهم من مكان ما كانوا ليظنوا أنهم سيهاجمون منه ، فقد كانوا يعتمدون على الرماة فى حماية ظهورهم .

وعاد المشركون المنهزمون إلى مقاتلة المسلمين ، بعد أن رأوا مافعله « خالد » ومن معه .

واضطربت صفوف المسلمين للتحول المفاجىء الذى حدث لهم ، إلا أن فريقا منهم أخذ يقاتل ببسالة وصبر . . واستشهد عدد كبير منهم وهم يحاولون شق طريقهم .

وأصيب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلال ذلك بجروح بالغة وأشيع أنه قد قتـــل ، إلا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعل يصيح بالمسلمين : إلىَّ عباد الله ، إلى عباد الله . . فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلا ، ودافعوا عنه دفاع الأبطال المخلصين .

ومرت على المسلمين ساعة من أحرج الساعات فى تاريخ الدعوة الإسلامية فقد كان المشركون يهاجمون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه بعناد وحقد ، وكان المسلمون مستميتين فى الدفاع عن رسولهم وعن أنفسهم .

وكان لهذه الاستماتة آثارها فى تراجع المشركين . وقد ظنوا أنهم قد أخذوا بثأرهم من المسلمين .

وخشى النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يكون تراجع المشركين من أجل مهاجمة المدينة ، فقال لعلي بن أبي طالب : أخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة . وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة ، فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ، ثم لأناجزنهم فيها .

قال على : فخرجت فى آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، واتجهوا إلى مكة .

وعندما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل له : نعم بينك وبينك موعد.

وانتهت غزوة أحد باستشهاد حوالى سبعين صحابيا من بينهم حمزة ابن عبد المطلب ومصعب بن عمير ، وسعد بن الربيع . . . وغيرهم من الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

وهذه خلاصة لأحداث غزوة أحد كما روتها كتب السيرة .

والآن فلنول وجوهنا شطر القرآن الكريم ، لنتدبر حديثه الحكيم عن هذه الغزوة ، ولنستمع إليه بقلوب متفتحة ، وآذان واعية ، وهو يبدأ حديثه عنها فيقول :

« وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم

بِخَمْسَةِ آلاف مِنَ الملائِكَةِ مُسَــــوِّمِينَ (١٢٥) وما جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُمْ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم به، وما النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العزيزِ الحكيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهم فَيَنْقَلِبوا خائبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لكَ مِنَ الأمْرِ شىءٌ أَوْ يَتوبَ عليْهم أَوْ يُعَذِّبَهم فإنَّهم ظالمونَ (١٢٨) ولِلّهِ ما فى السموات وما فى الأرضِ يغفِرُ لِمَنْ يشاءُ ويعذِّبُ مَنْ يشاءُ وَاللهُ غفورٌ رَحِيمٌ (١٢٩) » .

ففى هذه الآيات الكريمة التى بدأت السورة بها حديثها عن غزوة أحد، تذكير للمؤمنين بما وقع فيها حتى يعتبروا ويعتصموا بحبـــل الله جميعاً ولا يتفرقوا .

وقوله ـ تعالى ـ « غدوت » من الغدو وهو الخروج فى أول النهار، يقال: غدا يغدو من باب سما يسمو .

و « من » فى قوله « من أهلك » للابتداء . والمراد بأهله، زوجه عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقد كان خروجه لغزوة أحد من بيتها . والكلام على حذف مضاف يدل عليه فعل « غدوت » ، والتقدير : من بيت أهلك .

وقوله «تبوىء» أصله من التبوء وهو إتخاذ المنزل. يقال : بوأته، وبوأت له منزلا، أى : أنزلته فيه . والمراد به هنا تنظيم المؤمنين وتسويتهم وتهيئتهم للقتال، حتى يكونوا صفا واحداً كأنهم بنيان مرصوص .

والعامل فى « إذ » فعل مضمر تقديره « واذكر » .

والمعنى : واذكر لهم يا محمد ليعتبروا ويتعظوا وقت خروجك مبكراً من حجرة زوجتك عائشة إلى غزوة أحد .

وقوله « تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أى تنزلهم وتسوى لهم بالتنظيم والترتيب مواطن وأماكن للقتال، بحيث يكونون فى أحسن حال، وأكمل إستعداد لملاقاة أعدائهم .

قال الجمل : ويستعمل الفعل « غدوت » بمعنى صار عند بعضهم ، فيكون ناقصاً يرفع الاسم وينصب الخبر . . . وهذا المعنى ممكن هنا ، فالمعنى عليه ، وإذ غدوت أى صرت تبوىء المؤمنين أى تنزلهم فى منازل للقتال ، وهذا أظهر من المعنى الآخر ، لأن المذكور فى القصة أنه سار من عند أهله بعد صلاة الجمعة وبات فى شعب أحد ، وأصبح ينزل أصحابه فى منازل القتال ويدبر لهم أمر الحروب »(١) .

فالجملة الكريمة تشير إلى مافعله النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه قبل أن تبدأ المعركة ، فقد اهتم بتنظيم صفوفهم ، وبرسم الخطة الحكيمة التى تكفل لهم النصر . وأمر الجيش كله ألا يتحرك للقتال إلا عندما يأذن له بذلك ، ولقد حدث أن بعض المسلمين من الأنصار استشرف للقتال وتمناه عندما رأى قريشا قد سرحت خيولها وإبلها فى زروع المسلمين ، وقال للنبي - صلى الله عليه وسلم - « اترعى زروع بنى قيلة - يعنى الأنصار - ولما تضارب » ؟ إلا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهاهم عن القتال إلا بعد إذنه .

وجملة « تبوىء » حال من فاعل « غدوت » .

والفعل « تبوىء » يحتاج لمفعولين أولهما قوله « المؤمنين » وثانيهما قوله « مقاعد » وقوله « للقتال » متعلق بقوله « تبوىء » .

والمراد بقوله « مقاعد للقتال » أى مراكز وأماكن ومواقف للقتال بحيث يعرف كل مؤمن مكانه وموقفه فينقض منه على خصمه إلا أن القرآن الكريم عبر عن هذه الأماكن والمراكز والمواقف بالمقاعد . للإشارة إلى وجوب الثبات فيها كما يثبت القاعد فى مكانه ، وأن عليهم ألا يبرحوا أماكنهم إلا بإذن قائدهم - صلى الله عليه وسلم - .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٣١٠ .

وقد ختم - سبحانه - الآية بقوله : « والله سميع عليم » لبيان أنه مطلع على كل شيء ، وعلى ما كان يجرى بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين أصحابه من مشاورات ومناقشات ...

فهو - سبحانه - « سميع » لما نطقت به ألسنتهم « عليم » بما تخفيه صدورهم وسيجازى المؤمنين الصادقين بما يستحقون من ثواب وسيجازى غيرهم من ضعاف الإيمان والمنافقين بما يستحقون من عقاب .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة غرس الرهبة فى قلوب المؤمنين ، حتى لا يعودوا إلى مثل ما حدث من بعضهم فى غزوة أحد ، حيث خالفوا وصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

ثم ذكر - سبحانه - ما راود قلوب بعض المؤمنين من ضعف وفشل ، عندما رأوا زعيم المنافقين عبدالله بن أبى ينخذل بثلث الجيش فقال - تعالى - : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

الهم : هو حديث النفس واتجاهها إلى شيء معين دون أن تأخذ فى تنفيذه فإذا أخذت فى تنفيذه صار إرادة وعزما وتصميما .

وتفشلا من الفشل وهو الجبن والخور والضعف . يقال : فشل - كتعب - يفشل فشلا فهو فشل أى جبان ضعيف القلب .

أى : واذكر لهم وقت أن همت طائفتان منكم يا معشر المؤمنين أن تفشلا وتضعفا وتجبنا عن القتال فى وقت الشدة والكريهة .

وقوله « والله وليهما » أى ناصرهما ويتولى أمرهما .

وهاتان الطائفتان هما بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، وكانتا جناحى الجيش فى يوم أحد .

روى الشيخان عن جابر - رضى الله عنه - قال : فينا نزلت « إذ همت

طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما » قال . نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب أنها لم تنزل لقوله - تعالى - « والله وليهما » [١] .

أى : لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله - تعالى - عليهم ، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولايه . وأن ما حدثوا به أنفسهم لم يخرجهم عن ولايته سبحانه لأنهم لم ينساقوا وراء هذا الهم الباطل ، بل سرعان ما عادوا إلى يقينهم وإيمانهم الصادق ، وطاعتهم لرسوله - صلى الله عليه وسلم - .

ولذا قال صاحب الكشاف : والطائفتان حيان من الأنصار : بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس .. هموا بإتباع عبد الله بن أبى عندما انخذل بثلث الناس وقال : يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وعن ابن عباس قال : أضمروا أن يرجعوا ، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا . والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس . كما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ، ويوطنها على إحتمال المكروه .. ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الآية . . . » [٢] .

وقد ختم - سبحانه - الآية بدعوة المؤمنين إلى التوكل عليه وحده فقال « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

والتوكل : تفعُّل من وكل فلان أمره إلى فلان، إذا إعتمد فى كفايته عليه ولم يتوله بنفسه . والتوكل الحقيقى إنما يكون بعد الأخذ بالأسباب التى شرعها الله - تعالى - ثم بعد ذلك يترك الإنسان النتائج للخالق - عز وجل -

---

(١) صحيح البخارى باب « إذ همت طائفتان » . من كتاب التفسير ج٦ وأخرجه مسلم فى كتاب « فضائل الصحابة » ج ٧ ص ١

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٠٩ .

يسيرها كيف يشاء . والجملة الكريمة أفادت قصر التوكل على الله وحده ، كما يؤذن به تقديم الجار والمجرور .

أى وعلى الله وحده لا على غيره فليتوكل المؤمنون فى أمورهم ، بعد إتخاذ الأسباب التى أمرهم — سبحانه — باتخاذها ، فإنهم متى فعلوا ذلك تولاهم — سبحانه — بتأييده ورعايته .

ثم ذكرهم — سبحانه — بفضله عليهم وتأييده لهم يوم غزوة بدر فقال — تعالى — : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » .

وبدر : إسم لماء بين مكة والمدينة ، التقى عنده المسلمون والمشركون من قريش فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وكان عدد المشركين قريبا من ألف رجل ، ومع ذلك كان النصر حليفا للمسلمين . والأذلة — كما يقول الزمخشرى : « جمع قلة ، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلين . وذلتهم : ما كان بهم من ضعف الحال ، وقلة السلاح والمال والمركوب ، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد ، وما كان معهم إلا فرس واحد . وقلتهم : أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ، وكان عدوهم فى حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس ، ومعهم الشكة والشوكة — أى السلاح والقوة — » (١) .

وإذن فليس المراد بكونهم أذلة أنهم كانوا ضعاف النفوس ، أو كانوا راضين بالهوان ... وإنما المراد أنهم كانوا قليلى العدد والعدد ، فقراء فى الأموال وفى وسائل القتال .

وفى هذا التذكير لهم بما حدث فى غزوة بدر ، تنبيه لهم إلى وجوب تفويض أمورهم إلى خالقهم ، وإلى أن القلة المؤمنة التقية الصابرة كثيرا ما تنتصر

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤١١ .

على الكثرة الفاسقة الظالمة ، ولذا فقد ختم - سبحانه - بقوله : « فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

أى فاتقوا الله بأن تستشعروا هيبته ، وتجتنبوا ما نهاكم عنه ، وتفعلوا ما أمركم به لعلكم بذلك تكونون قد قمتم بواجب شكر ما أنعم به عليكم من نعم لا تحصى .

ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان يوجهه إليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - من توجيهات سامية ، وإرشادات نافعة فقال - تعالى - « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . . . » .

قال ابن كثير : إختلف المفسرون فى هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين ؟ أحدهما : أن قوله - تعالى - إذ تقول للمؤمنين متعلق بقوله « ولقد نصركم الله ببدر » وهذا عن الحسن والشعبي والربيع بن أنس وغيرهم . . فعن الحسن فى قوله « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم . . . إلخ » قال هذا يوم بدر . وعن الشعبي : أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يريد أن يمد المشركين - برجال وسلاح - فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله - تعالى - « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة . . . إلى قوله « مسومين » قال : فبلغت كرزا الهزيمة فلم يمد المشركين . . .

وقال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف .

فإن قيل فكيف الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله فى قصة بدر « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم . . . إلى قوله « إن الله عزيز حكيم » (١)

فالجواب : أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله - تعالى - « مردفين » بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم .

(١) سورة الأنفال .

وهذا السياق شبيه بهذا السياق فى سورة آل عمران . فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان بدر :

والقول الثانى يرى أصحابه أن هذا الوعد متعلق بقوله « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ... » وذلك يوم أحد وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم . لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف ، لأن المسلمين يومئذ فروا . وزاد عكرمة : ولا بالثلاثة الآلاف لقوله - تعالى - : « بلى إن تصبروا وتتقوا » فلم يصبروا ، بل فروا فلم يمدوا بملك واحد »(١) .

ويبدو من كلام ابن كثير أنه يميل إلى أن هذا الوعد كان يوم بدر ، فقد قال : فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر ...

وهذا ما تسكن إليه النفس ، لأن الوعد بنصرة الملائكة للمؤمنين كان يوم بدر لا يوم أحد ، فقد كانوا فى بدر قليلى العدد والعدد ، وكانت غزوة بدر أول معركة حربية كبرى يلتقى فيها المؤمنون بالكافرين ، ولأن سياق الآيات يشعر بأن الله - تعالى - قد ساقها ليستحضر فى أذهان المؤمنين مشهد غزوة بدر وما تم فيها من نصر بسبب صدق إيمانهم ، وطاعتهم لنبيهم - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يعودوا إلى ما حدث من بعضهم فى غزوة أحد من مخالفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وعلى هذا الرأى يكون قوله - تعالى - « إذ تقول للمؤمنين » متعلقا بقوله « ولقد نصركم » أى : أذكروا أيها المؤمنون أن الله - تعالى - قد نصركم ببدر وأنتم قلة فى العدد والعدد ، وكان رسولكم - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك الوقت يقـــول لكم على سبيل التثبيت والتقوية : « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين » أى منزلين من السماء لنصرتكم وتقويتكم ودحر أعدائكم .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٠١

أما على الرأى القائل بأن هذا الوعد كان فى غزوة أحد ، فيكون قوله - تعالى - « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم .... الخ » بدل من قوله - تعالى - قبل ذلك . « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ... » .

قال الآلوسى : « والهمزة فى قوله « ألن يكفيكم » لإنكار ألا يكفيهم ذلك . وأتى بلن لتأكيد النفى ؛ وفيه إشعار بأنهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لقلة عددهم وعددهم . وفى التعبير بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين ما لا يخفى من اللطف وتقوية الإنكار . وقوله « أن يمدكم » فى تأويل لمصدر فاعل « يكفيكم » ، و « من الملائكة » بيان أو صفة لآلاف أو لما أضيف إليه . و « منزلين » صفة لثلاثة آلاف ، وقيل حال من الملائكة »[1] . وقوله - تعالى - « بلى إن تصبروا وتتقوا ... » إما من تتمة مقوله - صلى الله عليه وسلم - للمؤمنين ، وإما ابتداء خطاب من الله - تعالى - تأييد القول فإنه - صلى الله عليه وسلم - وزيادة على ما وعدهم تكرما وفضلا .

وقوله : بلى « إيجاب لما بعد « لن » أى : بل يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف ولكنه سبحانه - يمدكم بأنكم « إن تصبروا » على قتال أعدائكم وعلى كل ما أمركم الله بالصبر عليه « وتتقوا » أى وتتقوا الله وتخشوه وتجتنبوا معاصيه « ويأتوكم من فورهم هذا » أى ويأتوكم المشركون مسرعين لحاربوكم ، وقد أعددتم أنفسكم لقتالهم ، إذا فعلتم ذلك .

يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » أى يمددكم ربكم بفضله ورعايته لكم بخمسة آلاف من الملائكة معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات مخصوصة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ٤٤

وقرىء «مسومين» — بالفتح — أى معلمين من جهته — تعالى — بعلامات القتال. ومن التسويم، وهو إظهار علامة الشيء.

قال صاحب الكشاف: وقوله «من فورهم هذا» من قولك: قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى، وجاء فلان ورجع من فوره. ومنه قول أبى حنيفة — رحمه الله —: الأمر على الفور لا على التراخى، وهو مصدر من فارت القدر إذا غلت، فاستعير للسرعة، ثم سميت به الحالة التى لا ريث فيها.. فقيل: خرج من فوره كما تقول: خرج من ساعته، والمعنى: أنهم يأتوكم من ساعتهم هذه (١)».

هذا، وقد تكلم العلماء هنا عن أمرين يتعلقان بهذه الآيات.

اما الأمر الأول فهو: هل أمد الله — تعالى — المؤمنين فى غزوة بدر بهذا المدد الذى ذكر فى هذه الآية؟

والجواب على ذلك أن بعض المفسرين يرى أن الله — تعالى — قد أمد المؤمنين فى بدر بخمسة آلاف من الملائكة، لأنهم صبروا واتقوا وأتاهم المشركون من مكة فوراً حين إستنفرهم أبو سفيان لإنقاذ العير. فكان المدد خمسة آلاف على سبيل التدريج، أى أمدوا أولا بألف، ثم صاروا ألفين، ثم صاروا ثلاثة آلاف. ثم صاروا خمسة آلاف لا غير، وإلى هذا الرأى ذهب الحسن وقتادة.

وقال الشعبى: إن المدد لم يزد على الألف، لأن المسلمين كان قد بلغهم أن كرز بن جابر المحاربى يريد أن يمد المشركين بسلاح وجند: فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله — تعالى — «ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم... إلى قوله مسومين». فبلغ كرزا الهزيمة فرجع ولم يمدهم، فلم يمد الله المسلمين بالخمسة الآلاف أيضا. أما ابن جرير فقد إختار أن المسلمين وعدوا بالمدد بعد الألف، ولا دلالة فى الآية على أنهم امدوا بما زاد عن ذلك، ولا على أنهم لم يمدوا به، ولا يثبت شيء من ذلك إلا بنص. فقد قال — رحمه الله —:

(١) تفسير الكشاف ج ٨ ص ٤١١

« وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه — صلى الله عليه وسلم — أنه قال للمؤمنين : « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة » . فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مدداً لهم ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف خمسة آلاف ، إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ، ولا بالخمسة الآلاف ، ولا على أنهم لم يمدوا بهم .

وقد يجوز أن يكون الله - تعالى - أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم ، وقد يجوز أن يكون لم يمدهم، على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك وغير جائز أن يقال فى ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به . ولا خبر به كذلك فنسلم لأحد الفريقين قوم . غير أن فى القرآن دلالة على أنهم أمدوا يوم بدر بألف . وذلك قوله — تعالى — : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . أما فى أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها فى أنهم أمدوا ، ذلك لأنهم لو أمدوا لم يهزموا وينل منهم ما نيل منهم ... »(١) :

والذى نراه أن رأى ابن جرير هو أقرب الآراء إلى الصواب .

وأما الأمر الثانى فهو : إذا كان الله — تعالى — قد أمد المؤمنين بالملائكة فى بدر ، فهل كانت وظيفتهم القتال مع المؤمنين أو كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فقط ؟ والجواب على ذلك أن كثيراً من العلماء يرى أن الملائكة قد قاتلت مع المؤمنين .

قال القرطبي : تظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت

ومن ذلك قول أبى أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدراً : لو كنت

(١) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ٧٩ .

معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب - أى الطريق فى الجبل - الذى خرجت منه الملائكة ، لا أشك ولا أمترى » .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يوم بدر يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : « أقدم حيزوم »[1] فنظر المسلم إلى المشرك أمامه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه . فجاء المسلم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فحدثه بذلك فقال : صدقت : ذلك من مدد السماء الثالثة »[2] .

ويرى فريق آخر من العلماء أن الملائكة ما قاتلت مع المسلمين يوم بدر ، وإنما أمد الله المؤمنين بالملائكة لتثبيت نفوسهم ، وتقوية قلوبهم . ولتخذيل المشركين ، وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، فقد قال - تعالى - « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

ويبدو أن الإمام ابن جرير الطبرى كان يميل إلى هذا الرأى فقد قال عند تفسيره لقوله - تعالى - « فثبتوا الذين آمنوا » : أى قووا عزائمهم . وصححوا نياتهم فى قتال عدوهم من المشركين . وقيل : كان ذلك بمعونتهم إياهم بقتال أعدائهم .. » .

وقد حكى الآلوسى عن أبى بكر الأصم أنه أنكر قتال الملائكة مع المؤمنين فى بدر وأنه قال : « إن الملك الواحد يكفى فى إهلاك سائر الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط ... وأيضا أى فائدة فى إرسال هذا الجمع من الملائكة معه وهو القوى الأمين ، وأيضا فإن أكابر الكفار الذين قتلوا فى بدر عرف من قتلهم من المسلمين ... » .

(١) حيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة .

(٢) تفسير القرطبي - بتصرف وتلخيص - ج ٤ ص ١٩٢

ولم يرتض الآلوسى ما قاله الأصم بل قال فى الرد عليه . « ولا يخفى أن هذه الشبه لا يليق إيرادها بقوانين الشريعة ، ولا بمن يعترف بأنه ـ سبحانه ـ قادر على ما يشاء فعال لما يريد ، فما كان يليق بالأصم إلا أن يكون أخرس عن ذلك ...

ثم قال الآلوسى: فالواجب التسليم بكل ممكن جاء به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتفويض ذلك وكيفيته إلى الله ـ تعالى ـ »(١) .

ونرى من كلام الآلوسى أنه يرجح الرأى القائل بأن الملائكة قد قاتلت مع المؤمنين فى غزوة بدر .

ونحن لا نرى مانعا من اشتراك الملائكة مع المؤمنين فى بدر لأن النصوص الواردة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صريحة فى ذلك ، ولسنا مع الذين يضعفون من شأن الأحاديث الصحيحة أو يؤولونها تأويلا لا يتفق مع العقل السليم .

ولقد سئل الإمام السبكى: ما الحكمة فى قتال الملائكة مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه ؟

فأجاب : بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب التى أجراها ـ سبحانه ـ فى عباده »(٢) .

ثم تابع القرآن حديثه عن مظاهر فضل الله عليهم ورعايته لهم فقال ـ تعالى ـ « وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به » .

أى وما جعل الله ـ تعالى ـ الإمداد الذى أمدكم به إلا بشارة لقلوبكم ، وتطمينا لنفوسكم فالضمير فى « جعله » يعود إلى الإمداد المفهوم من الفعل :

(١) تفسير الآلوسى ـ بتصرف وتلخيص ـ ج ٤ ص ٤٨

(٢) تفسير القاسمى ج ص ٩٩٧ .

المقدار المدلول عليه بقوله « يمدكم » فكأنه قيل : فأمدكم الله - تعالى - بما ذكر ، وما جعل الله - تعالى - ذلك الإمداد إلا بشرى لكم ، ولتسكن قلوبكم به فلا تخافوا كثرة العدو ، بل تقدمون عليه بعزائم ثابتة ، ونفوس قوية .

وقوله « بشرى » مفعول لأجله ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل . أى ما جعل الله إمدادكم بإنزال الملائكة لشيء من الأشياء إلا للبشارة لكم بأنكم ستنصرون على أعدائكم .

وقوله « ولتطمئن قلوبكم به » معطوف على « بشرى » باعتبار موضعه أى ما جعل إمدادكم إلا للبشرى وللطمأنينة .

وإنما جر قوله « ولتطمئن » باللام لإختلال شرط من شروط نصبه على أنه مفعول لأجله ، وهذا الشرط هو عدم إتحاد الفاعل ، فإن فاعل الجعل هو الله - تعالى - ، وفاعل الاطمئنان القلوب ، فلذلك نصب المعطوف عليه وهو « بشرى » لاستكمال شروطه ، وجر المعطوف وهو « ولتطمئن » لاختلال شرط من شروطه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » .

أى ليس النصر إلا من الله وحده فهو العزيز الذي لا يغالب فى أمره . الحكيم الذى يفعل كل ما يريد فعله حسبما تقتضيه إرادته .

فالجملة الكريمة المقصود منها غرس الاعتماد على الله فى قلوب المؤمنين ، وتفويض أمورهم إليه ، وبيان أن النصر إنما هو من الله وحده ، وليس من الملائكة أو من غيرهم ، لأن الملائكة أو غيرهم أسباب عادية بمعزل عن التأثير إلا إذا أراد الله ذلك . فهو الخالق للأسباب والمسببات .

ولقد حرص القرآن فى كثير من آياته على تثبيت هذا المعنى فى قلوب

المؤمنين حتى لا يعتمدوا على الأسباب، والوسائل التي بين أيديهم ، ويغتروا بها ، دون أن يلتفتوا إلى قدرة خالق الأسباب والوسائل، فإنهم إذا إغتروا بالأسباب والوسائل ، ونسوا خالقهما أتاهم الفشل من حيث لم يحتسبوا وكان أمرهم فرطا .

والعاقل من الناس هو الذي يباشر الأسباب التي شرعها الله - تعالى - بتدبر وإعتبار ، بحيث يوقن أن من ورائها خالقا لها يجب أن يستجيب له في كل ما أمر أو نهى ، وأن يعتمد عليه في كل شئونه وأحواله .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذا النصر والثمرات التي ترتبت عليه فقال - تعالى - : « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ليس لك من الأمر شيء ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » .

وقوله « ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم . . . » متعلق بقوله « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة . . . » وما بينهما تحقيق لحقيته ، وبيان لكيفية وقوعه .

والقطع - كما يقول الراغب - فصل الشيء مدركا بالبصر كالأجسام ، أو مدركا بالبصيرة كالأشياء المعقولة .... والمراد به هنا الإهلاك والقتل .

والطرف - بفتح الراء - جانب الشيء أو الجزء المتطرف منه كاليدين والرجلين والرأس . والمراد به هنا طائفة من المشركين .

والكبت في اللغة : صرع الشيء على وجهه . يقال : كبته فانكبت ، والمراد به هنا الإذلال وشدة الغيظ بسبب ما أصابهم من هزيمة .

خائبين من الخيبة وهي إنقطاع الأمل في الحصول على الشيء . يقال : خاب يخيب إذا لم ينل ما طلب .

والمعنى : ولقد نصركم الله - تعالى - ببدر وأنتم في قلة من العدد والعدد

« ليقطع طرفا من الذين كفروا » أى ليهلك طائفة من الذين كفروا ويستأصلهم بالقتل وينقص من أرضهم بالفتح ، ومن سلطانهم بالقهر ، ومن أموالهم بالغنيمة « أو يكبتهم » أى يذلهم ويخزيهم ويغيظهم غيظا شديدا بسبب ما نزل بهم من هزيمة ، حتى يخبو صوت الكفر ، ويعلو صوت الإيمان .

وقوله « فينقلبوا خائبين » أى فينهزموا ويرتدوا على أدبارهم منقطعى الآمال ، غير ظافرين بمبتغاهم .

قال الآلوسى : « ولم يعبر عن تلك الطائفة بالوسط بل بالطرف فقال » ليقطع طرفا » لأن أطراف الشيء يتوصل بها إلى توهينه وإزالته . وقيل : لأن الطرف أقرب إلى المؤمنين فهو كقوله - تعالى - « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » . وقيل للإشارة إلى أنهم كانوا أشرافا ، ومنه قولهم : هو من أطراف العرب أى من أشرافهم ، ولعل إطلاق الأطراف على الأشراف لتقدمهم فى السير .. فالمعنى ليهلك صناديد الذين كفروا ورؤساءهم المتقدمين فيهم بالقتل والأسر . وقد وقع ذلك فى بدر فقد قتل المؤمنون من المشركين سبعين وأسروا سبعين ... » (١) .

و « أو » فى قوله « أو يكبتهم » للتنويع . لأن القطع والكبت قد وقعا للمشركين ، فهى مانعة خلو .

وعبر عن عودتهم خائبين بقوله « فينقلبوا خائبين » للإشارة إلى أن مقاصدهم وأهدافهم قد إنقلبت ، فقد كانوا يقصدون إطفاء نور الإسلام ، فخاب قصدهم ، وطاش سهمهم ، وعادوا وقد فقدوا الكثيرين من وجوههم وصناديدهم ، وتركوا خلفهم فى الأسر العشرات من رجالهم .

أما الإسلام فقد إزداد نوره تألقا ، وإزداد اتباعه إيمانا على إيمانهم ، ورزقهم الله - تعالى - نصره المبين :

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ٤٩ .

وقوله « ليس لك من الأمر شيء » أي : ليس لك من أمر الناس شيء ، وإنما أمرهم إلى الله وحده . أما أنت فوظيفتك التبليغ والإرشاد ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

وقوله « أو يتوب عليهم » أي مما هم فيه من الكفر فيهديهم إلى الإسلام بعد كفرهم وضلالهم .

وقوله « أو يعذبهم فإنهم ظالمون » أو يعذبهم فى الدنيا والآخرة على كفرهم وإجتراحهم للسيئات . فإنهم بذلك يكونون مستحقين للعقاب ، وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فهم الذين صموا آذانهم عن الحق، واستحبوا العمى على الهدى .

وعلى هذا يكون قوله ـ تعالى ـ « ليس لك الأمر شيء » جملة معترضة بين المتعاطفات ويكون تقدير الآيتين هكذا :

ولقد نصركم الله ببدر ليهلك طائفة من الذين كفروا بالقتل والأسر ، أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة ، أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم فى الدنيا والآخرة بسبب ظلمهم . وليس لك من أمرهم شيء ، إنما أنت رسول من عند الله ـ تعالى ـ مأمور بإيذانهم وجهادهم .

وقد رجح هذا الوجه صاحب الكشاف فقال : وقوله « ليس لك من الأمر شيء » إعتراض . والمعنى أن الله مالك أمرهم فإما أى يهلكهم أويهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن اصروا على الكفر ، وليس لك من امرهم شيء . إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم .

وقيل إن « أو » بمعنى « إلا ان » كقولك : لألزمنك او تقتضينى حقى ، على معنى ليس لك من امرهم شيء إلا ان يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم ، او يعذبهم فتتشفى منهم [1] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٤١٣ بتلخيص .

فأنت ترى أن الآيتين الكريمتين قد بينا أحوال الكافرين فى غزوة بدر أكمل بيان ، لأن فريقا منهم قد قتلوا فقطع بهم طرف من الكافرين ، وفريقا كبتوا وذلوا ، وفريقا من الله عليهم بالإسلام فأسلموا ، وفريقا عذبوا بالموت على الكفر أو عذبوا فى الدنيا بالذل والصغار .

و « أو » التى جىء بها بين هذه الجمل للتقسيم .

هذا ، وقد روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - « ليس لك من الأمر شىء » ، روايات منها ما أخرجه مسلم عن أنس أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كسرت رباعيته يوم أحد وشج فى وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم - عز وجل - ، فأنزل الله - تعالى « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » .

ومنها ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع فربما قال إذا قال سمع الله لمن حمده : « اللهم ربنا ولك الحمد . اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة . اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » يجهر بذلك . وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر : اللهم العن فلانا وفلانا ، لأحياء من العرب ، حتى أنزل الله - تعالى - : ليس لك من الأمر شىء[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذا التذكير بما جرى فى غزوة بدر ببيان قدرته الشاملة ، وإرادته النافذة فقال - سبحانه - : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم » .

أى لله جميع ما فى السموات وما فى الأرض ملكا وتصرفا وتدبيرا لا ينازعه

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٠٣

فى ذلك منازع ولا يعارضه معارض ، وهو - سبحانه - يغفر لمن يشاء أن يغفر له من المؤمنين فلا يعاقبه على ذنبه فضلا منه وكرما ، ويعذب من يشاء أن يعذبه عدلا منه «والله غفور» أى كثير المغفرة يحبها ويريدها ، «رحيم» أى واسع الرحمة بعباده ، لا يؤاخذهم بكل ما اكتسبوه من ذنوب بل يعفو عن كثير منها .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد افتتحت الحديث عن غزوة أحد باستحضار بعض أحداثها ، وبتذكير المؤمنين بما هم به بعضهم قبل أن تبدأ المعركة ، ثم بتذكيرهم بمعركة بدر وما تم لهم فيها من نصر مؤزر منحه الله لهم مع قلتهم وضعفهم ، حتى تعرفوا أن النصر ليس بكثرة العدد والعدد وإنما النصر يتأتى مع صفاء النفوس، ونقاء القلوب ، ومضاء العزائم والطاعة التامة لله ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وحتى لا يعودوا إلى ماحدث من بعضهم فى غزوة أحد من مخالفة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن طمع فى زينة الحياة الدنيا .

وبعد هذا التذكير الحكيم والتوجيه السديد ، وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن تعاطى الربا ، وأمرهم بتقوى الله وبطاعته وطاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وبالمسارعة إلى الأعمال الصالحة التى توصلهم إلى مغفرته ورضوانه فقال - تعالى - :

« يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضعافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللهَ لعلكُم تُفلِحُونَ (١٣٠) واتَّقُوا النَّارَ التى أُعِدَّت للكافِرِين (١٣١) وَأَطيعُوا اللهَ والرسولَ لعلكُم تُرْحَمُونَ (١٣٢) وسَارِعُوا إلى مغفرةٍ مِنْ رَبِّكُم وجنَّةٍ عرضُها السموات والأرضُ أُعِدَّتْ للمتَّقينَ (١٣٣) الذينَ يُنْفِقُونَ فى السَّرَّاء والضَّرَّاء والكاظِمِينَ الغَيْظَ والعافِينَ عن الناسِ

والله يحب المحسنين (١٣٤) والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون (١٣٥) أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين (١٣٦) » .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أن من الناس من قال : إن الله - تعالى - لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم فى أمر الدين وفى أمر الجهاد ، اتبع ذلك بما يدخل فى الأمر والنهى والترغيب والترهيب فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » .

وقال القفال : يحتمل أن تكون هذه الآية متصلة بما قبلها من جهة أن المشركين فى غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالا كثيرة جمعوها من الربا ، ولعل ذلك يصير داعيا المسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر ، ويتمكنوا من الإنتقام منهم ، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك

وكان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم - مثلا - إلى أجل ، فإذا حل الأجل ولم يكن المدين واجدا لذلك المال قال : زدنى فى المال حتى أزيد فى الأجل ، فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثانى فعل مثل ذلك ، ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله « أضعافا مضاعفة »(١) .

وقد ابتدأ - سبحانه - الآية بالنداء بقوله « يأيها الذين آمنوا . . » لبيان أن أكل الربا ليس من شأن المؤمنين ، وإنما هو من سمات الكافرين والفاسقين .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٣ طبعة عبد الرحمن محمد .

وإذا كان الكافرون يستكثرون من تعاطى الربا فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذا الفعل القبيح ، وأن يتحروا الحلال فى كل أمورهم .

وخصه بالنهى لأنه كان شائعاً فى ذلك الوقت ، ولأنه - كما يقول القرطبى - هو الذى أذن فيه الحرب فى قوله - تعالى « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » والحرب يؤذن بالقتل ، فكأنه يقول لهم : إن لم تتقوا الربا هزمتم وقتلتم(١) .

والمراد من الأكل الأخذ ، وعبر عنه بالأكل لما أنه معظم مايُقصد به ، ولشيوعه فى المأكولات مع مافيه من زيادة التشنيع .

والربا معناه الزيادة ، والمراد به هنا تلك الزيادة التى كانت تضاف على الدين.

قال الإمام ابن جرير : عن عطاء قال : كانت ثقيف تداين بنى المغيره فى الجاهلية ، فإذا حل الأجل قالوا : نزيدكم وتؤخرون .

وقال ابن زيد : كان أبى - زيد بن ثابت - يقول : إنما كان ربا الجاهلية فى التضعيف . يكون للرجل على الرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له : « تقضينى أو تزيدنى(٢) .

وقوله « أضعافا » حال من الربا ، وقوله « مضاعفة » صفة له .

والأضعاف جمع ضعف . وضعف الشىء مثله ، وضعفاه مثلاه ، وأضعافه أمثاله .

وهذا القيد وهو قوله « أضعافا مضاعفة » ليس لتقييد النهى به ، أى ليس للنهى عن أكل الربا فى هذه الحالة وإباحته فى غيرها ، بل هذا القيد لمراعاة الواقع ، ولبيان ماكانوا عليه فى الجاهلية من التعامل الفاسد المؤدى إلى استئصال المال ، ولتوبيخ من كان يتعاطى الربا بتلك الصورة البشعة .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ٩٠ .

وقد حرم الله - تعالى - أصل الربا ومضاعفته ، ونفر منه تنفيرا شديداً، فقال - تعالى - الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ، . . . .

وهذا النوع من الربا الذى نهى الله - تعالى - عنه هنا بقوله : « يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة . . » هو الذى يسمى عند الصحابة والفقهاء بربا النسيئة ، أو ربا الجاهلية وقد حرمه الإسلام تحريماً قاطعا . فقد قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى خطبة الوداع : « ألا إن ربا الجاهلية موضوع - أى مهدر - وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : إن ربا النسيئة يكفر من يجحد تحريمه .

ويقابل هذا النوع من الربا ، ربا البيوع وهو الذى ورد فى حديث النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى يقول فيه : البر بالبر مثلا بمثل يدا بيد ، والذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد والفضة بالفضة مثلا بمثل يدا بيد ، والشعير بالشعير مثلا بمثل يدا بيد . والتمر بالتمر مثلا بمثل يدا بيد ، والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى » .

وقد اتفق العلماء على أن بيع هذه الأصناف لابد أن يكون بغير زيادة إذا كانت بمثلها كقمح بقمح ، ولا بد من قبضها . وإذا اختلف الجنس كقمح بشعير جازت الزيادة ، ولابد من القبض فى المجلس . والتأخير يسمى ربا النساء ، والزيادة المحرمة تسمى ربا الفضل .

وللفقهاء فى هذا الموضوع مباحث طويلة فليرجع إليها من شاء فى مظانها .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بأمر المؤمنين بخشيته وتقواه فقال : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

أى : واتقوا الله بأن تجعلوا بينكم وبين محارمه ساترا ووقاية ، لعلكم بذلك تنالون الفلاح فى الدنيا والآخرة .

ثم حذرهم - سبحانه - من الأعمال التى تفضى بهم إلى النار فقال : «واتقوا النار التى أعدت للكافرين» .

أى : صونوا أنفسكم ، واحترزوا من الوقوع فى الأعمال السيئة كتعاطى الربا وما يشابه ذلك ، لأن الوقوع فى هذه الأعمال السيئة يؤدى بكم إلى دخول النار التى هيئت للكافرين .

وفى التعقيب على النهى عن تعاطى الربا بتقوى الله وباتقاء النار ، إشعار بأن الذى يأكل الربا يكون بعيداً عن خشية الله وعن مراقبته ، ويكون مستحقا لدخول النار التى أعدها الله - تعالى - للكافرين والفاسقين عن أمره .

قال صاحب الكشاف : كان أبو حنيفة - إذا قرأ هذه الآية «واتقوا النار التى أعدت للكافرين» - يقول : هى أخوف آية فى القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه»(١) .

ثم بعد هذا التحذير الشديد للمؤمنين من ارتكاب مانهى الله عنه ، أمرهم - سبحانه - بطاعته وطاعة رسوله فقال : «وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون» .

أى أطيعوا الله فى كل ماأمركم به ونهاكم عنه ، وأطيعوا الرسول الذى أرسله إليكم ربكم لهدايتكم وسعادتكم ، لعلكم بهذه الطاعة تكونون فى رحمة من الله ، فهو القائل وقوله الحق «إن رحمة الله قريب من المحسنين» .

وفى ذكر طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مقترنة بطاعة الله - تعالى - تنبيه إلى أن طاعة الرسول طاعة لله . فقد قال - تعالى - «من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً»(٢) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤١٤

(٢) سورة النساء الآية ٨٠

ثم أمرهم - سبحانه - بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة التى توصلهم إلى مغفرة الله ورضوانه فقال: « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

قال الآلوسى : وسبب نزول هذه الآية على ما أخرجه عبد بن حميد وغيره عن عطاء بن أبى رباح : أن المسلمين قالوا : يارسول الله ، بنو إسرائيل كانوا أكرم على الله منا ، كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة فى عتبة داره اجدع أنفك، اجدع أذنك ، افعل كذا وكذا فسكت - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآيات إلى قوله « والذين إذا فعلوا فاحشة . . . » الآية . فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - ألا أخبركم بخير من ذلكم ثم تلاها عليهم »(١) .

وقوله: « سارعوا إلى مغفرة من ربكم » من السرعة بمعنى المبادرة إلى الشىء بدون تأخير أو تردد ، والكلام على حذف مضاف : أى سارعوا وبادروا إلى ما يوصلكم إلى ما به تظفرون بمغفرة ربكم ورحمته ورضوانه وجنته ، بأن تقوموا بأداء ما كلفكم به من واجبات ، وتنتهوا عما نهاكم عنه من محظورات .

ولقد قرأ نافع وابن عامر بغير واو ، وهى قراءة أهل المدينة والشام . والباقون بالواو . وهى قراءة أهل مكة والعراق ....

فمن قرأ بالواو ، جعل قوله - تعالى - « وسارعوا » معطوفا على قوله « وأطيعوا » أى : أطيعوا الله والرسول وسارعوا إلى مغفرة من ربكم .

ومن قرأ بغير واو جعل قوله « سارعوا » مستأنفا ، إذ هو بمنزلة البيان أو بدل الاشتمال .

و « من » فى قوله « من ربكم » إبتدائية ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للمغفرة أى مغفرة كائنة من ربكم .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ٢١٧ .

ولقد عظم - سبحانه - بذلك شأن هذه المغفرة التى ينبغى طلبها بإسراع ومبادرة. بأن جاء بها منكرة، وبأن وصفها بأنها كائنة منه - سبحانه - وهو الذى خلق الخلق بقدرته، ورباهم برعايته.

ووصف - سبحانه - الجنة بأن عرضها السموات والأرض على طريقة التشبيه البليغ، بدليل التصريح بحرف التشبيه فى قوله - تعالى -. سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض» (١).

قال الفخر الرازى ما ملخصه: وفى معنى أن عرض الجنة مثل عرض السموات والأرض وجوه منها: أن المراد لو جعلت السموات والأرضون طبقا طبقا بحيث تكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحا مؤلفا من أجزاء لا تتجزأ، ثم وصل البعض بالبعض طبقا واحدا لكان ذلك مثل عرض الجنة، وهذا غاية فى السعة لا يعلمها إلا الله.

ومنها. أن المقصود المبالغة فى وصف السعة للجنة، وذلك لأنه لا شىء عندنا أعرض منهما، ونظيره قوله «خالدين فيها مادامت السموات والأرض». فإن أطول الأشياء بقاء عندنا هو السموات والأرض، فخوطبنا على وفق ماعرفناه، فكذا هنا» (٢).

وخص - سبحانه - العرض بالذكر، ليكون أبلغ فى الدلالة على عظمها واتساع طولها، لأنه إذا كان عرضها كهذا، فإن العقل يذهب كل مذهب فى تصور طولها، لأن العرض فى العادة أقل من الطول. وذلك كقوله - تعالى - فى صفة فرش الجنة «متكئين على فرش بطائنها من إستبرق» لأنه إذا كانت بطانة الفرش من الحرير فكيف يكون ما فوق البطانة مما تراه الأعين؟

وقال القفال: ليس المراد بالعرض ههنا ماهو خلاف الطول، بل هو عبارة عن السعة كما تقول العرب: بلاد عريضة، ويقال. هذه دعوى عريضة

---

(١) سورة الحديد الآية ٢١

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٤.

أى واسعة عظيمة والأصل فيه أن ما إتسع عرضه لم يضق ، وما ضاق عرضه دق ، فجعل العرض كناية عن السعة .

قال ابن كثير: وقد روينا فى مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : إنك دعوتنى إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار » .

وعن أبى هريرة أن رجلا جاء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال: أرأيت قوله - تعالى - : « جنة عرضها السموات والأرض » فأين النار قال : أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شىء فأين النهار ؟ قال : حيث شاء الله ، فقال - صلى الله عليه وسلم - « وكذلك النار تكون حيث شاء الله » (١) .

وقوله - تعالى - « أعدت للمتقين» أى هيئت للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن محارم الله ، وجعلوا بينهم وبينها وقاية وساترا ، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى .

ثم بين - سبحانه - صفات المتقين الذين يصلحون فى الأرض ولا يفسدون ، والذين أعد لهم - سبحانه - جنته فقال - تعالى - : الذين ينفقون فى السراء والضراء ، أى الذين ينفقون أموالهم إبتغاء مرضاة الله فى جميع أحوالهم ، فهم يبذلونها إبتغاء وجه ربهم فى حال يسرهم وفى حال عسرهم ، وفى حال سرورهم وفى حال حزنهم ، وفى حال صحتهم وفى حال مرضهم ، لا يصرفهم صارف عن إنفاق أموالهم فى وجوه الخير ما داموا قادرين على ذلك .

وقوله « الذين ينفقون ... » فى محل جر صفة للمتقين . ويجوز أن يكون فى محل نصب أو رفع على القطع المشعر بالمدح .

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٠٤ .

وقال « ينفقون » بالفعل المضارع، الإشارة بأنهم يتجدد إنفاقهم فى سبيل الله آنا بعد آن بدون إنقطاع .

وقدم الإنفاق على غيره من صفاتهم لأنه وصف إيجابى يدل على صفاء نفوسهم ، وقوة إخلاصهم ، فإن المال شقيق الروح ، فإذا أنفقوه فى حالتى السراء والضراء كان ذلك دليلا على التزامهم العميق لتعاليم دينهم وطاعة ربهم

وقد مدح الله - تعالى - الذين ينفقون أموالهم فى سبيله فى عشرات الآيات من كتابه ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » [1] أما الصفتان الثانية والثالثة من صفات هؤلاء المتقين فهما قوله - تعالى - : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

أى سارعوا أيها المؤمنون إلى العمل الصالح الذى يوصلكم إلى جنة عظيمة أعدها الله - تعالى - لمن يبذلون أموالهم فى السراء والضراء ، ولمن يمسكون غيظهم ، ويمتنعون عن إمضائه مع القدرة عليه ، ولمن يعفون عمن أساء إليهم . . فالمراد بكظم الغيظ حبسه وإمساكه . يقال : كظم فلان غيظه إذا حبسه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بمن أغضبه . ويقال : كظم البعير جرته ، إذا ردها وكف عن الإجترار . وكظم القربة : إذا ملأها وشد على فمها ما يمنع من خروج ما فيها .

وقد ساق ابن كثير جملة من الأحاديث التى وردت فى فضل كظم الغيظ والعفو عن الناس ومن ذلك مارواه الشيخان عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب .

وروى الإمام أحمد - بسنده - عن حارثة بن قدامة السعدى أنه سأل

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١ .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارسول الله : قل لى قولا ينفعنى وأقلل على لعلى أعقله : فقال له : « لاتغضب » فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا كل ذلك يقول : « لاتغضب » .

وعن أبى بن كعب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عن ظلمه ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه (١) » .

وكظم الغيظ والعفو عن الناس هاتان الصفتان إنما تكونان محمودتين عند ما تكون الإساءة متعلقة بذات الإنسان، أما إذا كانت الإساءة متعلقة بالدين بأن إنتهك إنسان حرمة من حرمات الله ففى هذه الحالة يجب الغضب من أجل حرمات الله ، ولا يصح العفو عمن إنتهك هذه الحرمة :

فلقد وصفت السيدة عائشة النبى - صلى الله عليه وسلم - بأنه كان لا يغضب لنفسه فإذا إنتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شىء .

وقوله « والله يحب المحسنين » تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

والإحسان معناه الإتقان والإجادة . وأل فى المحسنين إما للجنس أى والله - تعالى - يحب كل محسن فى قوله وعمله ، ويكون هؤلاء الذين ذكر الله صفاتهم داخلين دخولا أوليا .

وإما أن تكون للعهد فيكون المعنى : والله - تعالى - يحب هؤلاء المحسنين الذين من صفاتهم أنهم ينفقون أموالهم فى كل حال من أحوالهم ؛ ويكظمون غيظهم ، ويعفون عمن ظلمهم .

أما الصفة الرابعة من صفات هؤلاء المتقين فقد ذكرها - سبحانه - فى قوله : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون » .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٠٥ .

والفاحشة من الفحش وهو مجاوزة الحد فى السوء . والمراد بها الفعلة البالغة فى القبح كالزنا والسرقة وما يشبههما من الكبائر .

والمعنى: سارعوا أيها المؤمنون إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدها خالقكم - عز وجل - للذين من صفاتهم أنهم ينفقون أموالهم فى السراء والضراء، ويكظمون غيظهم، ويعفون عن الناس، وأنهم إذا فعلوا فعلة فاحشة متناهية فى القبح . أو ظلموا أنفسهم ، بارتكاب أى نوع من أنواع الذنوب « ذكروا الله » أى تذكروا حقه العظيم ، وعذابه الشديد ، وحسابه العسير للظالمين يوم القيامه « فاستغفروا لذنوبهم » أى طلبوا منه - سبحانه - المغفرة لذنوبهم التى إرتكبوها ، وتابوا إليه توبة صادقة نصوحا .

وعلى هذا يكون قوله - تعالى - « والذين إذا فعلوا . . . » معطوفا على الصفة الأولى من صفات المتقين ، ويكون قوله - تعالى - « والله يحب المحسنين » جملة معترضه بين الصفات المتعاطفة .

قال الفخر الرازى : واعلم أن وجه النظم من وجهين : الأول أنه - تعالى - لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين بين أن المتقين قسمان : « أحدهما الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات، وهم الذين وصفهم بالإنفاق فى السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس . وثانيهما: الذين أذنبوا ثم تابوا وهذا هو المراد بقوله - تعالى - « والذين إذا فعلوا فاحشة » وبين - سبحانه - أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى فى كونها متقية . . .

والوجه الثانى : أنه فى الآية الأولى ندب إلى الإحسان إلى الغير ، وندب فى هذه الآية إلى الإحسان إلى النفس . فإن المذنب إذا تاب كانت توبته إحسانا منه إلى نفسه (١) » .

وقوله « أو ظلموا أنفسهم » معطوف على قوله « فعلوا فاحشة » من باب

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٩

عطف العام على الخاص ، وهذا على تفسير الفاحشة بأنها كبائر الذنوب ، أما ظلم النفس فيتناول كل ذنب سواء أكان صغيرا أم كبيرا .

وبعضهم يرى أن الفاحشة وظلم النفس وجهان للمعصية لا ينفصلان عنها، بمعنى أن كل معصية لاتخلو منهما فهى فاحشة وظلم للنفس . وعلى هذا تكون أو بمعنى الواو .

ويكون المعنى : ومن يرتكب فاحشة ويظلم نفسه ، ويتذكر الله عند إرتكابها فيعود إليه تائبا منيبا يكون من المتقين .

وفى التعبير بقوله : إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، بصيغة الشرط والجواب ، إشعار بوجوب إقتران الجواب بالشرط أى أن الشخص الذى يدخل فى جملة المتقين هو الذى يعود إلى ربه تائبا فور وقوع المعصية ، بحيث لايسوف ولا يؤخر التوبة حتى إذا حضره الموت قال إنى تبت الآن .

وقوله : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » جملة معترضة بين قوله «فاستغفروا» وبين قوله « ولم يصروا » .

والاستفهام فى قوله « ومن يغفر الذنوب إلا الله » للإنكار والنفى ؛ أى : لا أحد يقبل توبة التائبين ، ويغفر ذنوب المذنبين ، ويمسح خطايا المخطئين ، إلا الله العلى الكبير « الذى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، ويتوب الله على من تاب » ـ كما جاء فى الحديث الشريف ـ ولذا قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الجملة ما ملخصه . فى هذه الجملة وصف لذاته ـ تعالى ـ بسعة الرحمة ، وقرب المغفرة ، وأن التائب من ذنبه كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه ... وفيها تطييب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ، وبعث عليها، وردع عن اليأس والقنوط ، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل، وكرمه

أعظم . والمعنى أنه وحده عنده مصححات المغفرة ، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه »(١) .

وقوله « ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون » بيان لشرط الاستغفار المقبول عند الله ـ تعالى ـ .

أى أن من صفات المتقين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، سارعوا بالتوبة إلى الله ـ تعالى ـ ، ولم يصروا على الفعل القبيح الذى فعلوه ، وهم عالمون بقبحه ، بل يندمون على ما فعلوا ، ويستغفرون الله ـ تعالى ـ عما فعلوا ، ويتوبون إليه توبة صادقة .

وقوله « ولم يصروا » معطوف على قوله « فاستغفروا لذنوبهم » .

وقوله « وهم يعلمون » جملة حالية من فاعل « يصروا » أى : ولم يصروا على مافعلوا وهم عالمون بقبحه .

ومفعول يعلمون محذوف للعلم به أى يعلمون سوء فعلهم ، أو يعلمون أن الله يتوب على من تاب ، أو يعلمون عظم غضب الله على المذنبين الذين يداومون على فعل القبائح دون أن يتوبوا إليه .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد فتحت باب التوبة أمام المذنبين . وحرضتهم على ولوجه بعزيمة صادقة ، وقلب سليم ، ولم تكتف بذلك بل بشرتهم بأنهم متى أقلعوا عن ذنوبهم ، وندموا على مافعلوا ، وعاهدوا الله على عدم العودة على ما ارتكبوه من خطايا ، وردوا المظالم إلى أهلها ، فإن الله ـ تعالى ـ يغفر لهم مافرط منهم ، ويحشرهم فى زمرة عباده المتقين .

إنه ـ سبحانه ـ لا يغلق فى وجه عبده الضعيف المخطىء باب التوبة ، ولا يبقيه حائرا منبوذا فى ظلام المتاهات ، ولا يدعه مطرودا خائفا من

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤١٦ .

المصير ، وإنما يطمعه فى مغفرته - سبحانه - ويرشده إلى أسبابها ، ويغريه بمباشرة هذه الأسباب حتى ينجو من العقاب .

ولقد ساق - سبحانه - فى عشرات الآيات ما يبشر التائبين الصادقين فى توبتهم بمغفرته ورحمته ورضوانه ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا »[1] .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذى عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - قال قال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة »[2] .

وقال القرطبى : وأخرج الشيخان عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم » .

ثم قال القرطبى : والذنوب التى يتاب منها إما كفر أوغيره فتوبة الكافر إيمانه مع ندمه على ماسلف من كفره ، وغير الكفر إما حق لله - تعالى - وإما حق لغيره ، فحق الله - تعالى - يكفى فى التوبة منه الترك ، غير أن منها مالم يكتف الشرع فيها بمجرد الترك ، بل أضاف إلى ذلك فى بعضها قضاء كالصلاة

---

(١) سورة الفرقان الايات من ٦٧ - ٧١

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٠٧

والصوم . ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحنث فى الأيمان والظهار وغير ذلك وأما حقوق الآدميين فلابد من إيصالها إلى مستحقيها ، فإن لم يوجدوا تصدق عنهم ، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فعفو الله مأمول ، وفضله مبذول ، فكم ضمن من التبعات ، وبدل من السيئات بالحسنات ...(١) .

ثم بين - سبحانه - عاقبة من هذه صفاتهم فقال . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

أى « أولئك » الموصوفون بتلك الصفات السابقة من الإنفاق فى السراء والضراء ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس - الخ أولئك « جزاؤهم مغفرة من ربهم » تستر ذنوبهم وتمسح خطاياهم .

وفى الإشارة إليهم بأولئك الدالة على البعد إشعار بعلو منزلتهم فى الفضل، وسمو مكانتهم عند الله - تعالى - .

وقوله « وجنات تجرى من تحتها الأنهار » معطوف على «مغفرة» أى لهم بجانب هذه المغفرة جنات تجرى من تحت أشجارها وثمرها الأنهار .

وقوله « خالدين فيها » حال مقدرة من الضمير المجرور فى « جزاؤهم » لأنه مفعول به فى المعنى ، إذ هو فى معنى أولئك يجزيهم الله - تعالى - جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وعد أصحاب هذه الصفات بأمور ثلاثة :

وعدهم بغفران ذنوبهم وهذا منتهى الأمانى والآمال .

ووعدهم بإدخالهم فى جناته التى يتوفر لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ووعدهم بالخلود فى تلك الجنات حتى يتم لهم السرور والحبور .

وقوله - تعالى - « ونعم أجر العاملين » تذييل قصد به مدح ما أعد لهم من جزاء ، حتى يرغب فى تحصيله العقلاء .

والمخصوص بالمدح محذوف أى ونعم أجر العاملين هذا الجزاء الذى وعدهم الله به من مغفرة وجنات خالدين فيها :

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢١٣ .

وبذلك ترى السورة الكريمة قبل أن تفصل الحديث عن غزوة أحد، قد ذكرت المؤمنين بطرف مما حدث من بعضهم فيها، وبالنتائج الطيبة التى حصلوا عليها من غزوة بدر، ثم أمرتهم بتقوى الله وبالمسارعة إلى الأعمال الصالحة التى توصلهم إلى رضاه.

ثم أخذت السورة الكريمة بعد ذلك تتحدث عن غزوة أحد وعن آثارها فى نفوس المؤمنين، فبدأت بالاشارة إلى سنن الله فى المكذبين بآياته، لتخفف عن المؤمنين مصابهم، ثم أمرتهم بالصبر والثبات ونهتهم عن الوهن والجزع لأنهم هم الأعلون. وإن تكن قد أصابتهم جراح فقد أصيب المشركون بأمثالها، ولله - تعالى - فيما حدث فى غزوة أحد حكم، منها: تمييز الخبيث من الطيب، وتمحيص القلوب، واتخاذ الشهداء، ومحق الكافرين.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق تلك المعانى بأسلوبه الذى يبعث الأمل فى قلوب المؤمنين. ويرشدهم إلى مايقويهم ويثبتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم، ويخفف عنهم آلامهم فيقول:

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فى الأرْضِ فانظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقبَةُ المُكَذِّبِينَ (١٣٧) هذا بَيَانٌ للناسِ وهُدًى ومَوْعِظَةٌ للمتَّقِينَ (١٣٨) ولا تَهِنُوا ولا تحزَنُوا وأنتُم الأعْلَوْنَ إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إنْ يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فقد مسَّ القَومَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلهَا بينَ النّاسِ، وَلِيعلَمَ اللهُ الذينَ آمَنُوا ويَتَّخِذَ مِنْكُم شُهَدَاءَ واللهُ لايحِبُّ الظَّالمينَ (١٤٠) وليمَحِّصَ اللهُ الذِينَ آمنُوا ويَمْحِقَ الكافِرِينَ (١٤١) أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذِينَ

جاهَدُوا مِنكُم ويعلمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ولقد كُنْتُم تَمَنَّوْنَ الموْتَ مِن قبلِ أَنْ تَلقَوْهُ فقد رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتم تَنظُرونَ (١٤٣) » .

قال الفخر الرازى ماملخصه : اعلم أن الله ـ تعالى ـ لما وعد على الطاعة والتوبة من المعصية ، الغفران والجنات، اتبعه بذكر مايحملهم على فعل الطاعة وعلى التوبة من المعصية ، وهو تأمل أحوال القرون الخالية من المطيعين والعاصين فقال : « قد خلت من قبلكم سنن ... » .

وأصل الخلو فى اللغة : الانفراد . والمكان الخالى هو المنفرد عمن يسكن فيه ، ويستعمل أيضا فى الزمان بمعنى المضى ، لأن مامضى انفرد عن الوجود وخلا عنه ، وكذا الأمم الخالية .

والسنن جمع سنة وهى الطريقة المستقيمة والمثال المتبع . وفى اشتقاق هذه اللفظة وجوه منها : أنها فعلة من سن الماء يسنه إذا والى صبه . والسن الصب للماء . والعرب شبهت الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب . فإنه لتوالى أجزاء الماء فيه على نهج واحد يكون كالشىء الواحد ... »(١) .

والمراد بالسنن هنا : وقائع فى الأمم المكذبة ، أجراها الله ـ تعالى ـ على حسب عادته ، وهى الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم وفسوقهم على أمره .

والمعنى : إنه قد مضت وتقررت من قبلكم ـ أيها المؤمنون ـ سنن ثابتة، ونظم محكمة فيما قدره ـ سبحانه ـ من نصر وهزيمة ، وعزة وذلة ، وعقاب فى الدنيا وثواب فيها ، فالحق يصارع الباطل ، وينتصر أحدهما على الآخر بما سنه ـ سبحانه ـ من سنة فى النصر والهزيمة .

وقد جرت سنته ـ سبحانه ـ فى خلقه أن يجعل العاقبة للمؤمنين الصادقين، وأن يملى للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ١٠ .

فإن كنتم فى شك من ذلك – أيها المؤمنون – « فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

أى : فسيروا فى الأرض متأملين متبصرين ، فسترون الحال السيئة التى انتهى إليها المكذبون من تخريب ديارهم ، وبقايا آثارهم .

قالوا : وليس المراد بقوله « فسيروا فى الأرض – فانظروا » الأمر بذلك لا محالة ، بل المقصود تعرف أحوالهم ، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير فى الأرض كان المقصود حاصلا . ولا يمتنع أن يقال أيضا : إن لمشاهدة آثار المتقدمين أثراً أقوى من أثر السماع كما قال الشاعر :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار(1)

والتعبير بلفظ كيف الدال على الإستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذبين التى تدعو إلى العجب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتعاظ فى قلوب المؤمنين . لأن هؤلاء المكذبين ، مكن الله لهم فى الأرض ، ومنحهم الكثير من نعمه ... ولكنهم لم يشكروه عليها ، فأهلكهم بسبب طغيانهم...

فهذه الآية وأشباهها من الآيات ، تدعو الناس إلى الاعتبار بأحوال من سبقوهم . وإلى الاتعاظ بأيام الله ، والتاريخ وما فيه من أحداث ، وبالآثار التى تركها السابقون ، فإنها أصدق من رواية الرواة ومن أخبار المخبرين .

ثم قال – تعالى – « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

والبيان : هو الدلالة التى تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة .

والهدى : هو الإرشاد إلى ما فيه خير الناس فى الحال والاستقبال .

والموعظة : هى الكلام الذى يفيد الزجر عما لا ينبغى من الأمور الدينيه أو الدنيوية .

قالوا : « فالحاصل أن البيان جنس تحته نوعان : أحدهما الكلام الهادى

(1) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ١٢

إلى ماينبغي في الدين وهو الهدى . والثاني : الكلام الزاجر عما لا ينبغي فى الدين وهو الموعظة . فعطفهما على البيان من عطف الخاص على العام »(١) .

واسم الإشارة يعود إلى ماتقدم هذه الآية الكريمة من أوامر ونواه ، ومن وعد ووعيد ، ومن حض على السير فى الأرض للاعتبار والاتعاظ .

أى هذا الذى ذكرناه لكم من وعد ووعيد ، ومن أوامر ونواه ، ومن حض على الاعتبار بأحوال المكذبين ، « بيان للناس » يكشف لهم الحقائق ويرفع عنهم الالتباس « وهدى » يهديهم إلى مافيه خيرهم وسعادتهم « وموعظة » أى تخويف نافع « للمتقين » الذين يعتبرون بالمثلات ، وينتفعون بالعظات .

وقيل إن اسم الإشارة يعود إلى القرآن .

أى هذا القرآن بيان للناس وهدى وموعظة المتقين .

وقد رجح ابن جرير الرأى الأول فقال : وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب : قول من قال : قوله «هذا» إشارة إلى ماتقدم هذه الآية من تذكير الله - عز وجل - المؤمنين ، وتعريفهم حدوده ، وحضهم على لزوم طاعته ، والصبر على جهاد أعدائه ، لأن قوله «هذا» إشارة إلى حاضر إما مرئى وإما مسموع وهو فى هذا الموضع إلى حاضر مسموع من الآيات المتقدمة . فمعنى الكلام : هذا الذى أوضحت لكم وعرفتكموه بيان للناس . . . »(٢) .

والمراد بالناس جميعهم ؛ إذ أن ماساقه الله — تعالى — من دلالات وهدايات وعظات هى للناس كافة ، إلا أن الذين ينتفعون بها هم المتقون ؛ لأنهم هم الذين أخلصوا قلوبهم لله ، وهم الذين طلبوا الحق وسلكوا طريقه . . .

وللكلمة الهادية لا يستفيد بها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى ، والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب الخاشع المنيب ، والناس فى كل زمان ومكان

(١) حاشية الجمل على الجلالين .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ١٠١

لا ينقصهم - فى الغالب - العلم بالحق وبالباطل ، وبالهدى وبالضلال . . . وإنما الذى ينقصهم هو القلب السليم الذى يسارع إلى الحق فيعتنقه ويدافع عنه بإخلاص وإصرار . ولذا وجدنا القرآن فى هذه الآية - وفى عشرات الآيات غيرها - يصرح بأن المنتفعين بالتذكير هم المتقون فيقول : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

وبعد هذا البيان الحكيم ، يتجه القرآن إلى المؤمنين بالتثبيت والتعزية فينهاهم عن أسباب الفشل والضعف . ويأمرهم بالصمود وقوة اليقين ، ويبشرهم بأنهم هم الأعلون فيقول: ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »

وقوله « تهنوا » من الوهن - بسكون الهاء وفتحهـــا - وهو الضعف . وأصله ضعف الذات كما فى قوله - تعالى - حكاية عن زكريا : « قال رب إنى وهن العظم منى ... » أى ضعف جسمى .

وهو هنا مجاز عن خور العزيمة ، وضعف الإرادة ، وانقلاب الرجاء يأسا والشجاعة جبنا ، واليقين شكا . ولذلك نهوا عنه .

وقوله « تحزنوا » من الحزن وهو ألم نفسى يصيب الإنسان عند فقد ما يحب أو عدم إدراكه ، أو عند نزول أمر يجعل النفس فى هم وقلق .

والمقصود من النهى عن الوهن والحزن ، النهى عن سببهما وعن الاسترسال فى الألم مما أصابهم فى غزوة أحد .

والمعنى : لا تسترسلوا - أيها المؤمنون - فى الهم والألم مما أصابكم فى يوم أحد ، ولا تضعفوا عن جهاد أعدائكم فإن الضعف ليس من صفات المؤمنين ولا تحزنوا على من قتل منكم فإن هؤلاء القتلى من الشهداء الذين لهم منزلتهم السامية عند الله .

وقوله « وأنتم الأعلون » جملة حالية من ضمير الجماعة فى ولا تهنوا ولا تحزنوا والمقصود بها بشارتهم وتسليتهم وإدخال الطمأنينة على قلوبهم .

أى لا تضعفوا ولا تحزنوا والحال أنكم أنتم الأعلون الغالبون دون عدوكم، فأنتم قد أصبتم منهم فى غزوة بدر أكثر مما أصابوا منكم فى غزوة أحد وأنتم تقاتلون من أجل إعلاء كلمه الله وهم يقاتلون فى سبيل الطاغوت .

أنتم سيكون لكم النصر عليهم فى النهاية ، لأن الله - تعالى - قدو عدكم بذلك فهو القائل : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »(١) .

وقوله « إن كنتم مؤمنين » جملة شرطية ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله .

أى : إن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا بل اعتبروا بمن سبقكم ، ولا تعودوا لما وقعتم فيه من أخطاء فإن الإيمان يوجب قوة القلب ، وصدق العزيمة . والصمود فى وجه الأعداء ، والإصرار على قتالهم حتى تكون كلمة الله هى العليا .

والتعليق بالشرط فى قوله « إن كنتم مؤمنين » المراد منه التهييج لنفوسهم حتى يكون تمسكها بالإيمان أشد وأقوى، إذ قد علم الله - تعالى - أنهم مؤمنون، ولكنهم لما لاح عليهم الوهن والحزن بسبب ما أصابهم فى أحد صاروا بمنزلة من ضعف يقينه ، فقيل لهم : إن كنتم مؤمنين حقا فاتركوا الوهن والحزن وجدوا فى قتال أعدائكم ، فإن سنة الله فى خلقه اقتضت أن تصيبوا من أعدائكم وأن تصابوا منهم إلا أن العاقبة ستكون لكم .

فالآية الكريمة تحريض المؤمنين على الجهاد والصبر ، وتشجيع على القتال، وتسلية لهم عما أصابهم ، وبشارة بأن النصر فى النهاية سيكون حليفهم .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ذلك تسلية جديدة لهم ، فأخبرهم بأن ما أصابهم

(١) سورة غافر الآية ٥١

من جراح وآلام قد أصيب أعداؤهم . بمثله فقال ـ تعالى ـ : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » .

قال الفخر الرازى : واعلم أن هذا من تمام قوله ـ تعالى ـ « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . . » فبين ـ تعالى ـ أن الذى يصيبهم من القرح لا يصح أن يزيل جدهم واجتهادهم فى جهاد العدو ، وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك ، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك فى الحرب ، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى[1] .

والمراد بالمس هنا : الإصابة بالجراح ونحوها .

والقرح ـ بفتح القاف ـ الجرح الذى يصيب الإنسان ، والقرح ـ بضم القاف ـ الألم الذى يترتب على ذلك وقيل هما لغتان بمعنى واحد وهو الجرح وأثره .

والمعنى : إن تكونوا ـ أيها المؤمنون ـ قد أصابتكم الجراح من المشركين فى غزوة أحد ، فأنتم قد أنزلتم بهم من الجراح فى غزوة بدر مثل ما أنزلوا بكم فى أحد ، ومع ذلك فإنهم بعد بدر قد عادوا لقتالكم ، فأنتم أولى بسبب إيمانكم ويقينكم ألا تهنوا وألا تحزنوا لما أصابكم فى أحد وأن تعقدوا العزم على منازلتهم حتى يظهر أمر الله وهم كارهون .

وقيل : إن المعنى إن تصبكم الجراح فى أحد فقد أصيب القوم بجراح مثلها فى هذه المعركة ذاتها .

وقد ذكر صاحب الكشاف هذين المعنيين فقال : والمعنى : إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى أن لا تضعفوا . ونحوه « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون »

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ١٤

وقيل : كان ذلك يوم أحد ، فقد نالوا منهم قبل مخالفتهم أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فإن قلت : كيف قيل « قرح مثله » وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين ؟ قلت : بلى كان مثله . ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار . ألا ترى إلى قوله - تعالى - « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون ... »[1] .

ويبدو لنا أن الظاهر هو الرأى الأول ، وهو أن الكلام عن غزوتى بدر وأحد ، لأن الله - تعالى - قد ساق هذه الآية الكريمة لتسلية المؤمنين بأن ماأصابهم فى أحد من المشركين قد أصيب المشركون بمثله على أيدى المؤمنين فى غزوة بدر ، فلماذا يحزنون أو يضعفون ؟ ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك « وتلك الأيام نداولها بين الناس » يؤيد هذا المعنى - كما سنبينه بعد قليل - .

وجواب الشرط فى قوله « إن يمسسكم قرح إلخ ... » محذوف . والتقدير إن يمسسكم قرح فاصبروا عليه واعقدوا عزمكم على قتال أعدائكم ، فقد مسهم قرح مثله قبل ذلك .

وعبر عما أصاب المسلمين فى أحد بصيغة المضارع « يمسسكم » لقربه من زمن الحال ، وعما أصاب المشركين بصيغة الماضى لبعده ؛ لأن ماأصابهم كان فى غزوة بدر .

وقوله «وتلك الأيام نداولها بين الناس» بيان لسنة الله الجارية فى كونه ، وتسلية للمؤمنين عما أصابهم فى أحد .

وقوله « نداولها » من المداولة ، وهى نقل الشىء من واحد إلى آخر .

يقال : هذا الشىء تداولته الأيدى ، أى انتقل من واحد إلى آخر ....

والمعنى : لاتجزعوا أيها المؤمنون لما أصابكم من الجراح فى أحد على أيدى المشركين فهم قد أصيبوا منكم بمثل ذلك فى غزوة بدر ، وإن أيام الدنيا هى

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤١٨ .

دول بين الناس، لا يدوم سرورها ولا غمها لأحد منهم، فمن سره زمن ساءته أزمان، ومن أمثال العرب «الحرب سجال»، والأيام دول فهى تارة لهؤلاء وتارة لأولئك، كما قال الشاعر:

فلا وأبى الناس لا يعلمون فلا الخير خير ولا الشر شر
فيوم علينا، ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

وإبهام الاشارة «تلك» مشاربه إلى ما بعده، كما فى الضمائر المبهمة التى يفسرها ما بعدها، ومثل هذا التركيب يفيد التفخيم والتعظيم.

والمراد بالأيام: الأوقات والأزمان المختلفة لا الأيام العرفية التى يتكون الواحد منها من مدة معينة.

وقد فسر صاحب الكشاف مداولة الأيام بتبادل النصر، فقال: وقوله: «وتلك الأيام» تلك مبتدأ، والأيام صفته «ونداولها» خبره.

ويجوز أن يكون «تلك الأيام» مبتدأ وخبرا، كما تقول: هى الأيام تبلى كل جديد.

والمراد بالأيام: أوقات الظفر والغلبة. ونداولها: نصرفها بين الناس، نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء...»[1].

وقد تكلم الامام الرازى عن الحكمة فى مداولة الأيام بين الناس فقال ما ملخصه: واعلم أنه ليس المراد من هذه المداولة أن الله - تعالى - ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين، وذلك لأن نصرة الله منصب شريف، وإعزاز عظيم فلا يليق بالكافر، بل المراد من هذه المداولة أنه تارة يشدد المحنة على الكفار وأخرى على المؤمنين والفائدة فيه من وجوه،

الأول: أنه - سبحانه - لو شدد المحنة على الكفار فى جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين فى جميع الأوقات. لحصل العلم الاضطرارى بأن الايمان

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤١٨

حق وما سواه باطل . ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب ، فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الايمان وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية ، والمكلف يدفعها بواسطة النظر فى الدلائل الدالة على صحة الاسلام فيعظم ثوابه عند الله .

والثانى : أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصى ، فيكون تشديد المحنة عليه فى الدنيا أدبا ، وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضبا من الله عليه . . »(١) .

ثم كشفت السورة الكريمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث فى غزوة أحد ، وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس فقال - تعالى - : « وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء » .

أى فعلنا ما فعلنا فى أحد . واقتضت حكمتنا أن نداول الأيام بينكم وبين عدوكم ، ليظهر أمركم - أيها المؤمنون - ، وليتميز قوى الايمان من ضعيفه .

فمعنى علم الله هو تحقق ماقدره فى الأزل فيعلمه الناس ، ويعلمه الله - تعالى - واقعا حاضرا ، وذلك لأن العلم الغيبى لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ، وإنما يترتبان على المعلوم إذا صار مشاهدا واقعا فى الحس .

قال صاحب الكشاف : وقوله « وليعلم الله الذين آمنوا » فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعلل محذوفا والمعنى : وليتميز الثابتون على الايمان منكم من الذين على حرف فعلنا ذلك ، وهو من باب التمثيل . بمعنى : فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الايمان منكم من غير الثابت ، وإلا فالله - عز وجل - لم يزل عالما بالأشياء قبل كونها ، والثانى : أن تكون العلة محذوفة ، وهذا عطف عليه والمعنى : وفعلنا ذلك ليكون كيت وليعلم الله .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١٥

وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ، ليسليهم عما جرى عليهم ، وليبصرهم بأن العبد يسوءه ما يجرى عليه من المصائب ، ولا يشعر أن لله فى ذلك من المصالح ما هو غافل عنه »[1] .

وقوله « ويتخذ منكم شهداء » بيان لحكمة أخرى لما أصاب المسلمين يوم أحد .

أى : وليكرم ناسا منكم بالشهادة ليكونوا مثالا لغيرهم فى التضحية بالنفس من أجل إعلاء كلمة الله والدفاع عن الحق ، وهو - سبحانه - يحب الشهداء من عباده ، ويرفعهم إلى أعلا الدرجات ، وأسمى المنازل .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - « ويتخذ منكم شهداء » أى يكرمكم بالشهادة ، أى ليقتل قوم منكم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم . وقيل : لهذا قيل شهيد .

وقيل : سمى شهيداً لأنه مشهود له بالجنة . وقيل : سمى شهيدا ؛ لأن أرواحهم احتضرت دار السلام لأنهم أحياء عند ربهم ، فالشهيد بمعنى الشاهد أى الحاضر للجنة . والشهادة فضلها عظيم ويكفيك فى فضلها قوله - تعالى - « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... الآية » . وفى الحديث الشريف أن رجلا قال : يارسول الله ، ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة »[2] .

وقوله - تعالى - « والله لا يحب الظالمين » جملة معترضة لتقرير مضمون ما قبلها .

أى : والله - تعالى - لا يحب الناس الذين ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٢٠

(٢) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٢٨١

ونفاقهم وتخاذلهم عن نصرة الحق ، وإنما يحب المؤمنين الثابتين على الحق ، المجاهدين بأنفسهم وأموالهم فى سبيل إعلاء دين الله ، ونصرة شريعته .

ثم ذكر - سبحانه - حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين فى غزوة أحد فقال : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

وقوله « وليمحص » من المحص بمعنى التنقية والتخليص . يقال . محصت الذهب بالنار ومحصته إذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث . أو من التمحيص بمعنى الابتلاء والاختبار .

وقوله « ويمحق » من المحق وهو محو الشىء والذهاب به وأصله نقص الشىء قليلا قليلا حتى يفنى . يقال : محق فلان هذا الطعام إذا نقصه حتى أفناه . ومنه المحاق ، لآخر الشهر ، لأن الهلال يبلغ أقصى مدى النقصان فيختفى .

والمعنى : ولقد فعل - سبحانه - ما فعل فى غزوة أحد ، لكى يطهر المؤمنين ويصفيهم من الذنوب ، ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم ، ولكى يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيهم وبطرهم .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذكر أربع حكم لما حدث للمؤمنين فى غزوة أحد وهى : تحقق علم الله - تعالى - وإظهاره للمؤمنين ، وإكرام بعضهم بالشهادة التى توصل صاحبها إلى أعلا الدرجات . وتطهير المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين ، ومحق الكافرين واستئصالهم رويدا رويدا .

ثم بين - سبحانه - أن طريق الجنة محفوف بالمكاره ، وأن الوصول إلى رضا الله - تعالى - يحتاج إلى جهاد عظيم ، وصبر طويل فقال - تعالى - : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » و « أم » هنا يرى كثير من العلماء أنها منقطعة ، بمعنى بل الانتقالية ، لأن الكلام إنتقال من تسليتهم إلى معاتبتهم على ما حدث منهم فى غزوة أحد من مخالفة بعضهم لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفرارهم عنه فى ساعة الشدة . والهمزة المقدرة معها للإنكار والاستبعاد .

وقوله « أم حسبتم .. » معطوف على جملة « ولا تهنوا ... » وذلك أنهم

لما مسهم القرح حزنوا واعتراهم شيء من الضعف ، بين الله لهم أن لا وجه لهذا الضعف أو الحزن لأنهم هم الأعلون ، والأيام دول ،وما أصابهم فقد سبق أن أصيب بمثله أعداؤهم ، ثم بين لهم هنا : أن دخول الجنة لا يحصل لهم إذا لم يبذلوا مهجهم وأرواحهم فى سبيل الله ، فإذا ظنوا غير ذلك فقد أخطأوا .

والمعنى : بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة ، وتنالوا كرامة ربكم ، وشرف المنازل عنده مع أنكم لم تجاهدوا فى سبيل الله جهاد الصابرين على شدائده ومتاعبه ومطالبه إن كنتم تحسبون هذا الحسبان فهو ظن باطل يجب عليكم الإقلاع عنه .

ويحتمل أن تكون « أم » هنا للمعادلة ، بمعنى أنها متصلة لا منقطعة ويكون المعنى عليه : أعلمتم أن لله - تعالى - سننا فى النصر والهزيمة ، وأن الأيام دول وأن الوصول إلى الجنة يحتاج إلى إيمان وجهاد وصبر . . . أم حسبتم وظننتم أنكم تدخلون الجنة من غير مجاهدة واستشهاد ؟ .

وقوله « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » معناه : ولم تجاهدوا جهاد الصابرين فيعلم الله ذلك منكم .

قال صاحب الكشاف : وقوله « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » بمعنى ولما تجاهدوا ، لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه ، لأنه منتف بانتفائه . يقول الرجل : ما علم الله فى فلان خيراً ، يريد ما فيه خير حتى يعلمه ، و « لما » بمعنى « لم » إلا أن فيها ضرباً من التوقع ، فدل على نفى الجهاد فيما مضى ، وعلى توقعه فيما يستقبل . وتقول : وعدنى أن يفعل كذا ولما . تريد . ولما يفعل ، وأنا أتوقع فعله »(١) .

وجملة « ولما يعلم الذين جاهدوا منكم » حالية من ضمير « تدخلوا »

مؤكدة للإنكار ، فإن رجاء الأجر من غير عمل مستبعد عند ذوى العقول السليمة ، ولذا قال بعضهم :

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٠٢

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

وقال بعض الحكماء «طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة عمن لا يطاع حمق وجهالة».

وقوله «ويعلم الصابرين» أى ويتميز الصابرون فى جهادهم عن غيرهم فالآية الكريمة تشير إلى أن الشدائد من شأنها أن تميز المجاهدين الصادقين فى جهادهم، الثابتين فى البأساء والضراء من غيرهم، وأن تميز الصابرين الذين يتحملون مشاق القتال وتبعاته بقلب راسخ، ونفس مطمئنة من الذين يجاهدون ولكنهم تطيش أحلامهم عند الشدائد والأهوال.

فالجهاد فى سبيل الله يستلزم الصبر، لأن الصبر هو عدة المجاهد وأساس نجاحه ولقد سئل بعضهم عن الشجاعة فقال. الشجاعة صبر ساعة.

وقال بعض الشعراء يعتذر عن انتصار أعدائهم عليهم.

سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

ولقد كان عدم صبر الرماة فى غزوة أحد، ومسارعتهم إلى جمع الغنائم، من أهم الأسباب التى أدت إلى هزيمة المسلمين فى تلك المعركة.

والآية الكريمة كذلك تشير إلى أن الطريق إلى الجنة ليس سهلا يسلكه كل إنسان وإنما هو طريق محفوف بالمكاره والشدائد، ولا يصل إلى غايته إلا الذين جاهدوا وصبروا وصابروا، ولذا قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — «حفت الجنه بالمكاره وحفت النار بالشهوات».

ثم ذكرهم — سبحانه — بما كان منهم من تمنى الشهادة فى سبيله فقال «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون».

قال ابن جرير ما ملخصه: كان قوم من أصحاب النبى صلى الله عليه

وسلم - ممن لم يشهد بدرا ، يتمنون قبل يوم أحد يوما مثل يوم بدر ، فيعطون الله من أنفسهم خيرا ، وينالون من الأجر مثل ما قال أهل بدر ، فلما كان يوم أحد ، فر بعضهم وصبر بعضهم ، حتى أوفى بما كان عاهد الله عليه قبل ذلك . فعاتب الله من فر منهم بقوله : « ولقد كنتم تمنون الموت . . . الآية » .

وعن الحسن قال : بلغني أن رجالا من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - كانوا يقولون: لئن لقينا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - المشركين لنفعلن ولنفعلن ، فابتلوا بذلك - في أحد - ، فلا والله ما كلهم صدق فأنزل الله - تعالى - « ولقد كنتم ... الآية »[1] .

والخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين الذين لم يفوزوا بالشهادة في غزوة أحد ، وهو خطاب يجمع بين الموعظة والملام .

والمراد بالموت هنا الشهادة في سبيل الله ، أو الحرب والقتال لأنهما يؤديان إلى الموت .

والمعنى : ولقد كنتم - يا معشر المؤمنين - « تتمنون الموت » أي الحرب أو الشهادة في سبيل الله « من قبل أن تلقوه » أي تشاهدوه وتعرفوا أهواله « فقد رأيتموه » أي فقد رأيتم ما تتمنونه من الموت بمشاهدة أسبابه وهي الحرب وما يترتب عليها من جراح وآلام وقتل «وأنتم تنظرون» أي رأيتموه معاينين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أنتم أيها الأحياء أن تقتلوا .

وقوله «من قبل أن تلقوه» متعلق بقوله «تمنون» مبين لسبب إقدامهم على التمني . أي من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا مصاعبه .

ففي الجملة الكريمة تعريض بأنهم تمنوا أمرا دون أن يقدروا شدته عليهم، ودون أن يوطنوا أنفسهم على تحمل مشقاته ونعماته .

(١) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ١٠٩ .

والفاء فى قوله « فقد رأيتموه » للإفصاح عن شرط مقدر دل عليه صدر الكلام . والتقدير: إذا كنتم قد تمنيتم الموت فقد وقع ماتمنيتموه ورأيتموه رأى العين ، فأين بلاؤكم وصبركم وثباتكم ؟

وقوله « وأنتم تنظرون » جملة حالية من ضمير المخاطبين مؤكدة لمعنى رأيتموه . أى رأيتموه معاينين له ، وهذا على حد قولك : رأيته وليس فى عينى علة : أى رأيته رؤية حقيقية لاخفاء فيها ولا التباس .

والتعبير بالمضارع « تنظرون » يفيد التصوير، وإحضار الصورة الواقعة فى الماضى كأنها واقعة فى الحاضر ، فيستحضرها العقل كما وقعت ، وكما ظهرت فى الوجود .

والنظر الذى قرره الله - تعالى - بقوله « وأنتم تنظرون » يتضمن النظر إلى الموقعة كلها ، وكيف كان النصر فى أول الأمر للمسلمين ؛ ثم كيف كانت الهزيمة بعد ذلك بسبب تطلع بعضهم إلى أعراض الدنيا . ثم كيف تفرقت صفوفهم بعد إجتماعها ، وكيف تضعضعت بعض العزائم بعد مضائها وقوتها .

ولقد حكت الآية الكريمة أن المسلمين كانوا يتمنون الموت، وليس فى ذلك من بأس ، بل إن هذا هو شعار المؤمن الصادق ، لأن المؤمن الصادق هو الذى يتمنى الشهادة فى سبيل الله ومن أجل نصرة دينه ، ولقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لوددت أنى أقتل فى سبيل الله، ثم أحيي ، ثم أقتل ، ثم أحيي ثم أقتل » .

وقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - « اللهم إنى أسألك شهادة فى سبيلك » . ولكن الذى يكرهه الإسلام هو أن يتمنى المسلم الشهادة ثم لا يفى بما تمناه ، بمعنى أن يفر من الميدان أو يفعل ما من شأنه أن يتنافى مع الجهاد الحق فى سبيل الله .

ولذا قال الآلوسى : والمقصود من هذا الكلام عتاب المنهزمين على تمنيهم

شهادة، وهم لم يثبتوا حتى يستشهدوا، أو على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم بنهم وانهزامهم لا على تمنى الشهادة نفسها الآن ذلك مما لا عتاب عليه كما هو[١].

فالآية الكريمة تعظ المؤمنين بأن لا يتمنوا أمراً حتى يفكروا في عواقبه، يعدوا أنفسهم له، ويلتزموا الوفاء بما تمنوه عند تحققه، ولقد رسم النبى صلى الله عليه وسلم - الطريق القويم الذى يجب أن يسلكه المسلم فى حياته ال فى حديثه الصحيح: « أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله افيه، فإذا لقيتموهم فاصبروا. واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف[٢].

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أمرت المؤمنين بأن يعتبروا حوال من سبقهم، وأن يتجنبوا ما كان عليه المكذبون من ضلال وعصيان أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المصائب والآلام فإن العاقبة لهم. وأن يعلموا ن الحياة لا تخلو من نصر وهزيمة، وسراء وضراء حتى يتميز الخبيث من طيب، وأن يعرفوا أن الطريق إلى الجنة يحتاج إلى إيمان عميق، وصبر ويل، وجهاد شديد، واستجابة كاملة لتعاليم الإسلام وآدابه...

ثم تمضى السورة الكريمة فى حديثها عن غزوة أحد، فتذكر المؤمنين بما كان بهم عندما أشيع بأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قتل، وترشدهم إلى الآجال بيد الله، وأن المؤمنين الصادقين قاتلوا مع أنبيائهم فى سبيل إعلاء ة الله بدون ضعف أو ملل فعليهم أن يتأسوا بهم فى ذلك، وأن الله - تعالى - تكفل بأن يمنح المؤمنين الصادقين المجاهدين فى سبيله أجرهم الجزيل فى نيا والآخرة.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعانى بأسلوبه البليغ الحكيم نول:

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٤ ص ٧٢

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد جـ ٤ ص ٦٢ ومسلم فى كتاب الجهاد سير جـ ٥ ص ١٣٩.

«وما محمدٌ إلاَّ رَسُولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسلُ، أفإِنْ ماتَ أَوْقُتِلَ انقلبتُم على أَعْقَابِكُم ، ومَنْ ينقلبْ على عقبيْهِ فلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً وسيَجْزِي اللهُ الشاكرينَ (١٤٤) وما كانَ لِنَفْسٍ أن تموتَ إلا بإِذْنِ اللهِ كتاباً مؤجَّلاً ، ومَنْ يرِدْ ثوابَ الدُّنيا نؤتِهِ منها ، ومَنْ يرِدْ ثوابَ الآخرةِ نُؤتِه منها ، وسنَجزِي الشاكرينَ (١٤٥) وكأَيِّنْ مِنْ نبيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ فما وهَنوا لِمَا أصابَهم في سبيلِ اللهِ وما ضَعُفوا وما استَكانُوا واللهُ يحبُّ الصابرينَ (١٤٦) وما كانَ قولَهُمْ إلاَّ أَنْ قالُوا : ربَّنَا اغفر لنا ذنوبنا وإسْرَافنا في أَمْرِنَا وثبِّتْ أقْدَامَنا وانْصُرْنَا على القوْمِ الكافرينَ (١٤٧) فآتَاهُمُ اللهُ ثوابَ الدُّنْيَا وحُسْنَ ثوابِ الآخرةِ واللهُ يحبُّ المُحْسِنِينَ (١٤٨) » .

قال ابن كثير : لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد . وقتل من قتل منهم ، نادى الشيطان : ألا إن محمدا قد قتل ، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم : قتلت محمدا . وإنما كان قد ضرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فشجه في رأسه : فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قتل . . . فحصل ضعف ووهن وتأخر - بين المسلمين - عن القتال . ففي ذلك أنزل الله - تعالى - «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . » الآية[1] .

وقوله - تعالى - «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . » تقرير لحقيقة ثابتة ، ولأمر مؤكد ، وهو أن محمدا - صلى الله عليه وسلم -واحد من البشر ، وأنه سيموت كما يموت جميع البشر ، وأنه ليس له صفة تميزه عن سائر البشر سوى الرسالة التي وهبها الله- تعالى - له ، ومنحه إياها ، وأن هذه الرسالة

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٠٩ .

تقتضى بقاءه أو خلوده ، إذ الرسل الذين سبقوه قد أدوا رسالتهم فى الحياة أمرهم خالقهم ثم ماتوا أو قتلوا .

وما دام الأمر كذلك فمحمد – صلى الله عليه وسلم – سيموت وينتقل لى الرفيق الأعلى كما مات الذين سبقوه من الأنبياء ، وكما سيموت جميع البشر .

والقصر فى قوله - تعالى : « وما محمد إلا رسول » من باب قصر الموصوف لى الصفة ، أى قصر محمد - صلى الله عليه وسلم - على وصف الرسالة قصراً ضافياً

وفى هذا القصر رد على ما صدر من بعض المسلمين من اضطراب وضعف دين أرجف المنافقون فى غزوة أحد بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - د قتل .

فكأنه - تعالى - يقول لهم : إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسول ن الرسول الذين أرسلهم الله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وسيكون مصيره إلى الموت إن عاجلا أو آجلا كما هو شأن سائر البشر الذين أصطفى الله - تعالى - منهم رسله ، إلا أن رسالته التى جاء بها من عند الله لن تموت من بعده ، بل ستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا يصح أن يضعف أتباعه فى عقيدتهم أو فى تبليغ رسالته من بعده ، بل عليهم أن يستمسكوا بما جاءهم به ، وأن يدافعوا عنه بأنفسهم وأموالهم .

ولذا فقد وبخ الله - تعالى - بعض المسلمين الذين صدر منهم اضطراب أو ضعف عندما أشاع ضعاف النفوس بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قتل فى غزوة أحد فقال - تعالى - : « أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ؟

أى : إذا مات محمد - أيها المؤمنون - وقد علمتم أن موته حق لا ريب فيه ، أو قتل وهو يدافع عن دينه وعقيدته ، « انقلبتم على أعقابكم » أى : رجعتم

إلى ما كنتم عليه من الكفر والضلال . والانقلاب : الرجوع إلى المكان . وهو هنا مجاز فى الرجوع إلى الحال التى كانوا عليها قبل الإسلام .

يقال لكل من رجع إلى حاله السىء الأول : نكص على عقبيه ، وارتد على عقبيه . والعقب مؤخر الرجل . وجمعه أعقاب .

قال صاحب الكشاف : قوله « أفإن مات ... » الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب . والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل ، مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا للانقلاب عنه .

فإن قلت : لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل ؟ قلت : لكونه مجوزا عند المخاطبين .

فإن قلت : أما علموه من ناحية قوله : « والله يعصمك من الناس » ؟ قلت: هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوى البصيرة ... (١)

وفى قوله « انقلبتم على أعقابكم » تنفير شديد من الرجوع إلى الضلال بعد الهدى ، وتصوير بليغ لمن ارتد عن الحق بعد أن هداه الله إليه .

فقد صور ـ سبحانه ـ حالة من ترك الهداية إلى الضلال ، بحالة من رجع إلى الوراء وبصره إلى الأمام ، وأعقابه هى التى تقوده إلى الخلف ، وهو فى حالة انتكاس ، بأن جعل إلى أسفل وعقبه إلى اعلا . ولا شك أن هذا أقبح منظر يكون عليه الإنسان .

وقوله « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » الغرض منه تأكيد الوعيد ، لأن كل عاقل يعلم أن الله ـ تعالى ـ لا يضره كفر الكافرين .

أى : ومن ينقلب على عقبيه بعد وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يرجع إلى ما كان عليه من الكفر والضلال ، فلن يضر الله شيئاً من الضرر

(١) تفسير الكشاف ج ٨ س ٤٢٣ .

إن قَـلّ يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ، وبحرماتها من الأجر الثواب .

ثم أتبع ـ سبحانه ـ هذا الوعيد بالوعد فقال: « وسيجزى الله الشاكرين » ى : وسيثيب الله ـ تعالى ـ الثابتين على الحق ، الصابرين على الشدائد ، الشاكرين ، نعمه فى السراء والضراء ، سيثيبهم على ذلك بالنصر فى الدنيا وبرضوانه ، الآخرة .

وعبر هنا بالشاكرين ولم يعبر بالصابرين مع أن الصبر فى هذا الموطن ظهر ، وذلك لأن الشكر فى هذا المقام هو أسمى درجات الصبر ، لأن هؤلاء لمؤمنين الصادقين الذين وقفوا إلى جانب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ساعة عسرة ، لم يكتفوا بتحمل البلاء معه فقط ، بل تجاوزوا حدود الصبر إلى حدود الشكر على هذه الشدائد التى ميزت الخبيث من الطيب ، فالشكر هنا صبر زيادة ، وقليل من الناس هو الذى يكون على هذه الشاكلة ، ولذا قال ـ تعالى ـ « وقليل من عبادى الشكور » فالآية الكريمة قد تضمنت عتابا وتوبيخا لأولئك المسلمين الذين ضعف يقينهم ، وفترت همتهم ، عندما أرجف المرجفون ، غزوة أحد بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قتل .

كما تضمنت الثناء الجزيل على أولئك الثابتين الصابرين الذين لم تؤثر فى قوة يمانهم تلك الأراجيف الكاذبة ، بل مضوا فى جهادهم وثباتهم بدون تردد أو زعزع ولقد كان الثابتون حول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة حد كثيرين ومن بينهم أنس بن النضر ـ رضى الله عنه ـ ، فقد روى البخارى ن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، قال : يا رسول الله . غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لئن أشهدنى لله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع .

فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون . قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ ! ! الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أحد .

قال سعد فما استطعت يا رسول الله أن أصنع ما صنع .

قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل .وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه .

قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه . « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ... (١)

كما تضمنت الآية الكريمة التحذير من الارتداد عن دين الله بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبيان أنه بشر من البشر ، وأنه يموت كما يموت سائر البشر ،وأن رسالته هى الخالدة الباقية،فمن تمسك بها فقد سعد وفاز، ومن أعرض عنها فلن يضر الله شيئا .

ثم بين - سبحانه - أن الآجال بيد الله وحده ، وأنه - سبحانه - قد جعل لكل أجل وقتا محددا لا يعدوه فقال - تعالى - : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » .

أى : ما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس مطلقا ، لأى سبب من الأسباب ، إلا بمشيئة الله وأمره وإذنه - سبحانه - الذى كتب لكل نفس عمرها كتابا مؤقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر .

والمراد بالنفس هنا : جنسها . أى كل نفس لا تموت إلا بإذن الله .

والمراد بإذنه - : أمره ومشيئته . فكل نفس لا تحيا إلا بأمره ، ولا تموت إلا بإذنه .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد . باب « من المؤمنين رجال .. » ج٤ ص ٢٣

و « كان » ناقصة . وقوله « أن تموت » في محل رفع اسمها . وقوله « لنفس » متعلق بمحذوف وقع خبرا لها . والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والأسباب . أي ما كان لها أن تموت في حالة من الأحوال أو لسبب من الأسباب إلا مأذونا لها منه - سبحانه - .

والباء في قوله « إلا بإذن الله » للمصاحبة .

وقوله « كتابا » مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة التي قبله ، وعامله مضمر والتقدير : كتب الله ذلك كتابا مؤجلا . أي له أجل معلوم لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وهو آت لا ريب فيه .

وقوله « مؤجلا » صفة لقوله « كتابا » .

ثم ذم - سبحانه - الذين يؤثرون متاع الدنيا على الآخرة ، فقال : « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها أي من يرد بعمله ثواب الدنيا أي جزاءها وثمارها كالأموال والغنائم نؤته منها ما نشاء أن نؤتيه ، ولا يكون له في الآخرة من نصيب .

وهذا تعريض بمن شغلوا بجمع الغنائم عن الجهاد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو بمن تركوا أماكنهم التي وضعهم فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسارعوا إلى جمع حطام الدنيا ، فنتج عن ذلك هزيمة المسلمين في غزوة أحد .

ثم مدح - سبحانه - الذين يبتغون بأعمالهم ثواب الآخرة فقال : « ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » .

أي ومن يرد بعمله وجهاده ثواب الآخرة وما ادخره الله فيها لعباده المتقين من أجر جزيل نؤته منها ما نشاء من عطائنا الذي تشتهيه النفوس ، وتقر له العيون .

وقوله « وسنجزي الشاكرين » تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، ووعد بالمزيد من عطاء الله لمن يشكره على نعمه ويثبت على شرعه .

ونفى عنهم - ثانيا - الضعف الذى هو ضد القوة ، وهو ينتج عن الوهن .

ونفى عنهم ثالثا - الإستكانة وهى الرضا بالذل وبالخضـــوع للأعداء ليفعلوا بهم ما يريدون .

وقد نفى - سبحانه - هذه الأوصاف الثلاثة عن هؤلاء المؤمنين الصادقين مع أن واحداً منها يكفى نفيه لنفيها لأنها متلازمة - وذلك لبيان قبح مايقعون فيه من أضرارا فيما لو تمكن واحدا من هذه الأوصاف من نفوسهم .

وجاء ترتيب هذه الأوصاف فى نهاية الدقة بحسب حصولها فى الخارج . فإن الوهن الذى هو خور فى العزيمه إذا تمكن من النفس أنتج الضعف الذى هو لون من الاستسلام والفشل ، ثم تكون بعدهما الاستكانة التى يكون معها الخضـوع لكل مطالب الأعداء ، وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة فى حياته كان الموت أكرم له من الحياة .

وقوله « والله يحب الصابرين » تذييل قصـد به حض المؤمنين على تحمل المكاره وعلى مقاسـاة الشدائد ، ومعاناة المكاره من أجل إعلاء دينهم حتى يفوزوا برضا الله ورعايته كما فاز أولئك الربيون الأتقياء الأوفياء .

أى : والله - تعالى - يحب الصابرين على آلام القتال ، ومصاعب الجهاد ، ومشاق الطاعات ، وتبعات التكاليف التى كلف الله - تعالى - بها عباده .

ثم أتبع - سبحانه - محاسنهم الفعلية ببيان محاسنهم القولية فقال - تعالى - « وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا إغفر لنا ذنوبنـا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين » .

أى أن هؤلاء الأتقياء الأوفياء الصابرين ما كان لهم من قول فى مواطن القتال وفى عموم الأحوال إلا الضراعة إلى الله - تعالى - بثلاثة أمور :

أولها : حكاه القرآن عنهم فى قوله : « ربنا أغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا » .

أى : إنهم يدعون الله — تعالى — بأن يغفر لهم ذنوبهم ما كان صغيرا منها وما كان كبيرا ، وأن يغفر لهم « إسرافهم فى أمرهم » أى ماتجاوزوه من الحدود التى حدها لهم وأمرهم بعدم تجاوزها .

وثانيها : حكاه القرآن عنهم فى قوله « وثبت أقدامنا » أى اجعلنا ياربنا ممن يثبت لحرب أعدائك وقتالهم ، ولا تجعلنا ممن يولهم الأدبار .

وثالثها : حكاه القرآن عنهم فى قوله « وانصرنا على القوم الكافرين » أى أجعل النصر لنا ياربنا على أعدائك وأعدائنا الذين جحدوا وحدانيتك ، وكذبوا نبيك ، وضلوا ضلالا بعيدا .

وتأمل معى — أخى القارىء — هذه الدعوات الكريمة ، تراها قد جمعت ما جمعت من صدق اليقين ، وحسن الترتيب .

فهم قد التمسوا — أولا — من خالقهم مغفرة ذنوبهم ، والتجاوز عما وقعوا فيه من أخطاء . وهذا يدل على سلامة قلوبهم ، وتواضعهم ، وإستصغار أعمالهم مهما عظمت أمام فضل الله ونعمه . ثم التمسوا منه — ثانيا — تثبيت أقدامهم عند لقاء الأعداء حتى لا يفروا من أمامهم . ثم التمسوا منه — ثالثا — النصر على الكافرين وهو غاية القتال ، لأن الانتصار عليهم يؤدى إلى منع وقوع الفتنة فى الأرض ، وإلى إعلاء كلمة الحق .

قال صاحب الكشاف : « قوله « وما كان قولهم . . الخ » هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضما لها وإستقصارا . والدعاء بالإستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام فى مواطن الحرب والنصرة على العدو ، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع . وهو أقرب إلى الاستجابة [1] » .

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٢٤ .

و « كان » هنا ناقصة ، وقوله « قولهم » بالنصب خبرها . واسمها المصدر المتحصل من «أن» وما بعدها فى قوله « إلا أن قالوا . . » والاستثناء مفرغ.

أى : ماكان قولهم فى ذلك المقام وفى غيره من المواطن إلا قولهم هذا الدعاء أى هو دأبهم وديدنهم .

ثم بين - سبحانه - الثمار التى ترتبت على هذا الدعاء الخاشع ، والإيمان الصادق ، والعمل الخالص لوجهه - سبحانه - فقال : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » .

والفاء فى قوله « فآتاهم » لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

أى أن هؤلاء الذين آمنوا بالله حق الإيمان ، وجاهدوا فى سبيله حق الجهاد ، لم يخيب الله - تعالى - سعيهم ، ولم يقفل بابه عن إجابة دعائهم ، وإنما أعطاهم الله - تعالى - ثواب الدنيا من النصر والغنيمة وقهر الأعداء ، وصلاح الحال ...

كما أعطاهم حسن ثواب الآخرة بأن منحهم رضوانه ورحمته ومثوبته وإنما خص ثواب الآخرة بالحسن للتنبيه على عظمته وفضله ومزيته ، وأنه هو المعتد به عنده - تعالى - ، لأنه غير زائل ، وغير مشوب ، بتنغيص أو قلق .

وقوله « والله يحب المحسنين » تذييل مقرر لمضمون ماقبله ، فإن محبة الله - تعالى - للعبد مبدأ كل خير وسعادة .

وبذلك ترى هذه الآيات الكريمة قد قررت فى مطلعها حقيقة ثابتة ، وهى أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - بشر من البشر . وأنه يموت كما يموت سائر البشر ، وأن رسالته لاتموت من بعده ؛ بل على أتباعه أن يسيروا على طريقته وأن يحملوا عبء تبليغ تعاليم الإسلام الذى جاء به من بعده ثم قررت بعد ذلك أن الآجال بيد الله ، وأن الحذر لايمنع القدر ، وأن أحداً لن يموت

قبل انتهاء أجله ، وما دام الأمر كذلك فعلى المؤمنين أن يجاهدوا الكفار والمنافقين وأن يغلظوا عليهم ...

ثم ذكرت الناس بعد ذلك بما كان من أتباع الرسل السابقين من إيمان عميق ، وجهاد صادق ، وثبات فى وجه الباطل ، ودعاء مخلص خاشع ... حتى يتأسى بهم فى أقوالهم وأعمالهم كل ذى عقل سليم .

ثم ختمت هذه الآيات ببيان النتائج الطيبة التى منحها الله - تعالى - لعباده المؤمنين الصادقين فى دنياهم وآخرتهم ، حتى يسارع الناس فى كل زمان ومكان إلى الأعمال الصالحة التى تكون سببا فى سعادتهم وعزتهم . ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين ، نهاهم فيه عن طاعة أعداء الله وأعدائهم ، وأمرهم بالتمسك بتعاليم دينهم ، وبشرهم بسوء عاقبة أعدائهم فقال - تعالى - :

« يَأَيُّهَا الذينَ آمنُوا إنْ تُطِيعُوا الذينَ كفرُوا يردُّوكُم عَلَى أعقابِكم فتَنقَلِبوا خاسِرين (١٤٩) بَلِ اللهُ مَولاَكُم وهو خيرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِى فى قلوبِ الذينَ كفرُوا الرُّعبَ بما أشركُوا باللهِ مالمْ ينزِّلْ به سُلطانا ، ومأواهُم النارُ وبئْسَ مَثْوَى الظالمينَ (١٥١) » .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ... » شروع فى زجر المؤمنين عن متابعة الكفار ببيان مضارها ، إثر ترغيبهم فى الاقتداء بأنصار الأنبياء ببيان فضائله . وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه ، لإظهار الاعتناء بما فى حيزه . ووصفهم بالإيمان لتذكيرهم بحال ينافى تلك الطاعة فيكون الزجر على أكمل وجه . والمراد من الذين كفروا إما المنافقون لأنهم هم الذين قالوا للمؤمنين عند هزيمتهم فى أحد : ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم ... وإما أبو سفيان وأصحابه وحينئذ فالمراد بإطاعتهم الاستكانة لهم وطلب الأمان منهم ... وإما اليهود والنصارى لأنهم هم الذين

كانوا يلقون الشبه فى الدين ويقولون : لو كان محمد نبيا حقا لما غلبه أعداؤه .... وإما سائر الكفار »(١) .

فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن طاعة الكفار ، لأن الكفر والإيمان نقيضان لا يجتمعان .

وجاء التعبير « بإن » الشرطية دون « إذا » ، لأن إذا لتحقق الشرط والجزاء ، أما إن فإنها لا تفيد التحقيق بل تفيد الشك ، وهذا هو المناسب لحال المؤمنين لأن إيمانهم يردهم عن طاعة الذين كفروا ويمنعهم من الوقوع فى ذلك . والنداء متوجه إبتداء للمؤمنين المجاهدين الذين حضروا غزوة أحد، وسمعوا ما سمعوا من أراجيف أعدائهم وأكاذيبهم. إلا أنه يندرج تحت مضمونه كل مؤمن فى كل زمان أو مكان ، لأن الكافرين فى كل العصور لا يريدون بالمؤمنين إلا خبالا ، ولا يتمنون لهم إلا الشرور والمصائب .

ثم بين - سبحانه - النتيجة السيئة التى تترتب على طاعة المؤمنين للكافرين فقال : « يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » .

أى : إن تطيعوهم يرجعوكم إلى ما كنتم عليه قبل الإسلام من ضلال وكفران ، أو يردوكم إلى الحالة التى كنتم عليها قبل مشروعية الجهاد وهى حالة الضعف والهوان التى رفعها الله عنكم بأن أذن لكم فى مقاتلة أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم بغير حق .

وقوله « فتنقلبوا خاسرين » أى فترجعوا خاسرين لخيرى الدنيا والآخرة، أما خسران الدنيا فبسبب انقيادكم لهم ، واستسلامكم لمطالبهم ... وأما خسران الآخرة فبسبب ترككم لوصايا دينكم ، ومخالفتكم لأوامر خالقكم ، وتوجيهات نبيكم - صلى الله عليه وسلم - وكفى بذلك خسارة شنيعة .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد نهت المؤمنين عن طاعة الكافرين ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ٨٧ .

ثم بينت لهم نتيجتين سيئتين تترتبان على هذه الطاعة، وهما: الرجوع إلى الضلال بعد الهدى، والخسران فى الدنيا والآخرة.

والتعبير بقوله «فتنقلبوا..» يفيد أن إطاعة الكافرين يؤدى بالمؤمنين إلى انقلاب حالهم، وانتكاس أمرهم، وجعل أعلاهم أسفلهم.. وفى ذلك مافيه من التنفير عن إطاعة الكافرين والاستماع إلى وساوسهم.

ثم أمرهم - سبحانه - بطاعته والاعتماد عليه والاستعانة به وحده فقال «بل الله مولاكم وهو خير الناصرين».

وحرف «بل» هنا للإضراب الانتقالى، لأنه - سبحانه - بعد أن حذر المؤمنين من إطاعة الكافرين وما يترتب عليها من مضار. إنتقل إلى توجيههم إلى مافيه عدتهم وكرامتهم وسعادتهم.

والمولى هنا بمعنى النصير والمعين. وهذا اللفظ لايدل على النصرة والعون فقط، وإنما يدل على كمال المحبة والمودة والقرب، والنصرة تجىء ملازمة لهذه المعانى، لأنه من كان الله محبا له، كان - سبحانه - ناصرا له لا محالة.

والمعنى: إنى أنهاكم - أيها المؤمنون - عن إطاعة الكافرين. لأنهم ليسوا أولياء لكم فتطيعوهم؛ بل الله - تعالى - هو وليكم ومعينكم وهو خير الناصرين، لأنه هو الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء؛ فأخلصوا له العبادة والطاعة:

ثم بشرهم - سبحانه - بأنه سيلقى الرعب والفزع فى قلوب أعدائهم فقال - تعالى -: «سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا».

والرعب: الخوف والفزع. يقال رعبه يرعبه أى خوفه. وأصله من الملء يقال: سيل راعب، إذا ملأ الأودية. ورعبت الحوض: ملأته.

والسلطان: الحجة والبرهان وسميت الحجة سلطانا لقوتها ونفوذها: وأصل المادة يدل على الشدة والقوة. ومنها السليط للشديد. واللسان الطويل.

والمعنى : سنملأ قلوب المشركين خوفا وفزعا ، بسبب إشراكهم مع الله — تعالى — آلهة لم ينزل الله بها حجة والمراد : أنه لا حجه لهم حتى ينزلها .

قال الآلوسى : قوله « ما لم ينزل به » أى بإشراكه ، أو بعبادته ، و « ما » نكرة موصوفة أو موصولة اسميه وليست مصدرية . و « سلطانا » أى حجة والإتيان بها للإشارة بأن المتبع فى باب التوحيد هو البرهان السماوى دون الآراء والأهواء الباطلة . . . وذكر عدم إنزال الحجة مع استحالة تحققها من باب انتفاء المقيد لانتفاء قيده اللازم . أى : لا حجة حتى ينزلها ، فهو على حد قوله فى وصف مفازة :

لا تفزع الأرنب أهوالها ... ولا ترى الضب بها ينجحر

إذ المراد : لا ضب بها حتى ينجحر . فالمراد نفيهما جميعا ...[1] .

فالآية الكريمة قد بشرت المؤمنين بأن الله — تعالى — سيلقى الرعب والفزع فى قلوب أعدائهم حتى لا يتجاسروا عليهم .

ومن مظاهر الرعب التى ألقاها الله — تعالى — فى قلوب المشركين ، أنهم بعد أن انتصروا على المسلمين فى غزوة أحد ، كان فى قدرتهم أن يوغلوا فى مهاجمتهم وقتالهم ؛ إلا أن الرعب صدهم عن ذلك . . .

ولقد حاولوا وهم فى طريقهم إلى مكة أن يعودوا للقضاء على المسلمين ، إلا أن الخوف داخل قلوبهم ، وجعل أحد زعمائهم وهو صفوان بن أمية يقول لهم : « يا أهل مكة لا ترجعوا لقتال القوم ، فإنى ارى أنه سيكون للقوم قتال غير الذى كان » .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : قوله « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ... » اختلفوا فى أن هذا الوعد هل هو مختص بيوم أحد ، أو هو عام فى جميع الأوقات ؟

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ٨٨ .

قال كثير من المفسرين: إنه مختص بهذا اليوم، وذلك لأن جميع الآيات المتقدمة إنما وردت فى هذه الواقعة.

ثم القائلون بهذا القول ذكروا فى كيفية إلقاء الرعب فى قلوب المشركين فى هذا اليوم وجهين: الأول: أن الكفار لما إستولوا على المسلمين وهزموهم أوقع الله الرعب فى قلوبهم فتركوهم وفروا منهم من غير سبب ... والثانى: أن الكفار لما ذهبوا إلى مكة، فلما كانوا فى بعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئا، قتلنا الأكثرين منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون. إرجعو حتى نستأصلهم بالكلية. فلما عزمو على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم.

والقول الثانى: أن هذا الوعد غير مختص بيوم أحد، بل هو عام. كأنه قيل: إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة فى يوم أحد، إلا أن الله – تعالى – سيلقى الرعب منكم بعد ذلك فى قلوب الكافرين حتى يقهر الكفار، ويظهر دينكم على سائر الأديان.

وقد فعل ذلك حتى صار دين الإسلام قاهرا لجميع الأديان والملل.

ونظير هذه الآية قوله – صلى الله عليه وسلم – «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[1].

ثم ختم – سبحانه – الآية ببيان سوء عاقبة هؤلاء الكافرين فقال: «ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين».

والمأوى: إسم مكان من أوى يأوى. وهو المكان الذى يرجع إليه الشخص، ويعود إليه.

والمثوى: إسم مكان – أيضا – يقال: ثوى بالمكان وفيه يثوى ثواء وثويا وأثوى به. إذا أطال الإقامة به والنزول فيه.

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٣٢.

والمعنى : أن هؤلاء الكافرين سيلقى الله ـ تعالى ـ الرعب والفزع فى قلوبهم حتى لايتجاسروا على المؤمنين ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة ، فالمكان الذى يأوون إليه ويستقرون فيه هو النار ، لامأوى لهم غيرها ، وبئس هذه النار موضع إقامة دائمة لهم .

وقد أظهر ـ سبحانه ـ الإسم فى موضع الإضمار ، فلم يقل : وبئس النار مثواهم ، بل قال : « وبئس مثوى الظالمين » ، للإشارة إلى أن هذا المآل الأليم إنما هو جزاء عادل لهم بسبب ظلمهم ، إذ هم الذين ظلموا أنفسهم فأضلوها وصدوها عن الحق ، فكانت نهايتهم تلك النهاية المهينة ، « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

وفى جعل هذه النار مثواهم بعد جعلها مأواهم . إشارة إلى خلودهم فيها ، فإن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث ، وأما المأوى فهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان .

وقدم المأوى على المثوى لأن هذا هو الترتيب الوجودى فى الخارج ، لأن الإنسان يأوى إلى المكان ثم يثوى فيه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين عن إطاعة الكافرين وبينت لهم النتائج الوخيمة التى تترتب على إطاعتهم ، ثم دعتهم إلى الاعتصام بدين الله ، وبشرتهم بسوء عاقبة أعدائهم فى الدنيا والآخرة .

ثم ذكر الله ـ تعالى ـ المؤمنين بما حدث لهم فى غزوة أحد ، وكيف أنهم إنتصروا على أعدائهم فى أول المعركة ، ثم كيف أنهم أصيبوا بالهزيمة بعد ذلك بسبب فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم لرسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم صور ـ سبحانه ـ أحوالهم فى هذه المعركة تصويرا بليغا مؤثرا ، وحكى أقوال ضعاف الإيمان ورد عليها بما يدحضها . إستمع إلى القرآن الكريم يحكى كل ذلك فيقول :

« ولقد صَدَقكُم اللهُ وعْدَه ، إذْ تَحسُّونَهم بإذْنِه ، حتى إذَا فَشِلْتُم وتنازَعتُم فى الأمرِ وعصَيتُم مِنْ بَعْدِ ما أَراكُم ما تُحبُّون ، منكُم مَنْ يريدُ الدُّنيا ومنكُم مَن يريدُ الآخرةِ ، ثم صرَفكُم عنْهُم ليبتَلِيكُم ، ولقَد عفاَ عنكم ، واللهُ ذو فَضْلٍ عَلَى المؤمنين (١٥٢) إذْ تُصْعِدُونَ ولا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ والرسولُ يدْعوكُم فى أُخْراكُم ، فأثابكُم غمًّا بِغَمٍّ لكيلاَ تحزَنُوا عَلَى ما فاتكُم ولا ما أصابكُم واللهُ خبيرٌ بما تعملونَ (١٥٣) ثم أنزلَ عليكم مِن بَعْدِ الغَمِّ أمنةً نُعاساً يغشى طائفةً منكُم ، وطائفةٌ قد أهمتْهم أنفُسُهم ، يظنُّونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهليةِ يقولونَ هَلْ لنا من الأمْرِ مِنْ شيء ؟ قل إنَّ الأمْرَ كُلَّهُ لله ، يُخفُونَ فى أنفُسِهم مالا يُبْدُونَ لك ، يقولُونَ لو كانَ لنا من الأمرِ شيء ماقتلنا هاهُنا ، قلْ لو كنتُم فى بيوتِكم لبرزَ الذينَ كُتِبَ عليهم القتْلُ إلى مضاجِعِهم ، وليَبْتَلِيَ اللهُ مافى صُدُورِكم ، وليمحِّصَ ما فى قلوبِكُم واللهُ عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ (١٥٤) إنَّ الذينَ تولَّوْا منكُم يومَ التقى الجمعانِ إنما استزلَّهم الشيطانُ ببَعْضِ ما كسَبُوا ، ولقد عفاَ اللهُ عنهُم إن اللهَ غفورٌ حليمٌ (١٥٥) » .

قال القرطبى : قال محمد بن كعب القرظى : لما رجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة بعد أحد ، وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ؟ ! ! فنزل قوله ـ تعالى ـ « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه . . . الآية » .

وذلك أنهم قتلوا صاحب لواء المشركين وسبعة نفر منهم بعده على اللواء

وكان الظفر إبتداء المسلمين ، غير أنهم إشتغلوا بالغنيمة وترك بعض الرماة أيضا مراكزهم طلبا للغنيمة ، فكان ذلك سبب الهزيمة » .

وقد روى البخارى عن البراء بن عازب قال : لما كان يوم أحد ولقينا المشركين ، أجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أناسا من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم : « لاتبرحوا من مكانكم . إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا . وإن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا » قال : فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل - أى يسرعن الفرار - يرفعن عن سوقهم ، قد بدت خلاخلهن . فجعلوا يقولون - أى الرماة - « الغنيمة الغنيمة . فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير . أمهلوا . أما عهد إليكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألا تبرحوا أما كنكم ؟ فأبوا - وإنطلقوا لجمع الغنائم - فلما أتوهم صرف الله وجوههم ، وقتل من المسلمين سبعون رجلا . . . »[1] .

وصدق الوعد معناه: تحقيقه والوفاء به، إذ الصدق: مطابقة الخبر للواقع .

والمراد بهذا الوعد ، ما وعد الله به المؤمنين من النصر والظفر فى مثل قوله - تعالى - « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[2] .

وفى مثل قوله - تعالى - : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا »[3] .

وفى مثل قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - للرماة قبل أن تبدأ المعركة « لا تبرحوا أماكنكم فلن نزال غالبين مائبتم مكانكم » .

ومعنى « تحسونهم » تقتلونهم قتلا شديدا يفقدون معه حسهم وحركتهم يقال : حسه حسا إذا قتله . وحقيقته : أصاب حاسته بآفة فأبطلها ، يقال : كبده وفاده أى : أصاب كبده وفؤاده ومنه جراد محسوس ، وهو الذى قتله البرد ، أو مسته النار فأهلكته .

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٣٣ - بتصرف يسير .

(٢) سورة محمد الآية ٧ (٣) سورة آل عمران الآية ١٥١

والمعنى : ولقد حقق الله - تعالى - لكم - أيها المؤمنون - ما وعدكم به من النصر على أعدائكم ، إذا أيدكم فى أول معركة أحد بعونه وتأييده فصرتم تقتلون المشركين قتلا ذريعا شديدا بإذنه وتيسيره ورعايته . وكان حليفا لكم فى أول المعركة .

و « صدق » يتعدى لاثنين أحدهما بنفسه والآخر بحرف الجر تقول : صدقت زيداً فى الحديث . وقد يتعدى بنفسه إلى المفعولين كما هنا، إذ المفعول الأول ضمير المخاطبين ، والثانى قوله « وعده » .

وقوله « إذ تحسونهم » معمول لصدقكم . أى صدقكم فى هذا الوقت وهو وقت قتلهم وقوله « بإذنه » متعلق بمحذوف لأنه حال من فاعل « تحسونهم » أى تقتلونهم مأذونا لكم فى ذلك .

فالجملة الكريمة تذكر المؤمنين بما كان من نصر الله - تعالى - لهم عندما أقبلوا على معركة أحد بقلوب مخلصة ، ونفوس ثابتة ، وعزيمة صادقة . . .

ثم بين - سبحانه - أن ما أصابهم من هزيمة بعد ذلك كان بسبب فشلهم وتنازعهم فقال - تعالى - : حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون » : . . .

والفشل : بمعنى الجبن والضعف . يقال : فشل يفشل فهو فشل وفشل .

والتنازع : التخاصم والتخالف .

والمعنى : ولقد صدقكم الله وعده فى النصر - أيها المؤمنون - عندما كنتم تقاتلون أعدائكم بإيمان صادق ، وإخلاص لله - تعالى - حتى إذا ضعفت نفوسكم ، وعجزتم عن مقاومة أهوائكم ، وتنازعتم فيما بينكم أنتبع الغنائم نجمعها أم نبقى فى أماكننا التى حددها الرسول - صلى الله عليه وسلم - لنا ، ومال أكثركم إلى طلب الغنائم مخالفا أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - من بعد ما أراكم الله فى أول المعركة من نصر - مؤزر تحبونه وترجونه ، ومن مغانم تتطلعون إليها بلهفة وشوق . . .

حتى إذا فعلتم ذلك منع الله ـ تعالى ـ عنكم نصره ، وتحول نصركم إلى هزيمة وفقدتم أنفسكم وما جمعتموه من غنائم .

وهكذا نرى أن ما أصاب المسلمين فى أحد من هزيمة كان بسبب فشل بعضهم وتنازعهم وعصيانهم أمر رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدق الله إذ يقول : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » (١) .

ولقد رتب الله ـ تعالى ـ ما حدث من بعض المؤمنين فى غزوة أحد ترتيبا دقيقا ، يتفق مع ما حصل منهم ، وذلك لأنهم حدث منهم ـ أولا ـ الفشل بمعنى العجز النفسى عن الثبات والصبر ، ثم ترتب على ذلك أن تنازعوا فيما بينهم ونتج عن هذا التنازع أن ترك معظمهم مكانه ونزل إلى ميدان المعركة لجمع المغانم ، ثم ترتب على كل ذلك معصيتهم لأمر رسولهم وقائدهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال الجمل ما ملخصه: وقوله «حتى إذا فشلتم ... «حتى» هذه فيها قولان أحدهما أنها حرف جر بمعنى « إلى » وفى متعلقها حينئذ ثلاثة أوجه . أحدها: أنها متعلقة بقوله : « تحسونهم » أى تقتلونهم إلى هذا الوقت . والثانى أنها متعلقة « بصدقكم » أى صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم . والثالث : أنها متعلقة بمحذوف دل عليه السياق تقديره : دام لكم ذلك إلى وقت فشلكم .

والقول الثانى أنها حرف إبتداء داخلة على الجملة الشرطية و « إذا » على بابها من كونها شرطيه ، والصحيح أن جوابها محذوف أى حتى إذا فشلتم وتنازعتم منع الله عنكم نصره » (٢) .

وقال الفخر الرازى : فإن قيل ما الفائدة فى قوله « من بعد ما أراكم ما تحبون » ؟ .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٥

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٣٢٤ .

فالجواب عنه : أن المقصود منه التنبيه على عظام المعصية ، لأنهم لما شاهدوا أن الله - تعالى - أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، فلما أقدموا عليها لاجرم سلبهم الله ذلك الإكرام وأذاقهم وبال أمرهم ،(١) وقوله «منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة» تفصيل للتنازع الذي كان بين الرماة ، وبين بعض أفراد المسلمين الذين اشتركوا فى هذه الغزوة .

أى : منكم - أيها المسلمون - من يريد الدنيا ومغانمها حتى حمله ذلك على ترك مكانه المخصص له مخالفا نصيحة قائدة ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ولو أن هذا البعض منكم خالف هواه ، وحارب مطامعه ، وأطاع أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - لتم لكم النصر ، ولأتتكم الدنيا بغنائمها وهى صاغرة . . .

ومنكم من يريد بجهاده وعمله ثواب الآخرة ، وهم الذين أطاعوا أمر رسولهم - صلى الله عليه وسلم - وثبتوا إلى جانبه يدافعون عنه وعن عقيدتهم وعن أنفسهم دفاع الأبطال الصامدين ، وهؤلاء هم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .

قال ابن جرير : قال ابن عباس : لما هزم الله المشركين يوم أحد ، قال الرماة : أدركوا الناس لا يسبقوكم إلى الغنائم ، فتكون لهم دونكم . وقال بعضهم : لا نريم حتى يأذن لنا النبى - صلى الله عليه وسلم - فنزلت : «منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة» .

وقال ابن مسعود : ما علمنا أن أحدا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد ,(٢) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٢٧ .

(٢) ابن جرير ج ٤ ص ١٣٠ .

وقوله « ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » عطف على جواب « إذا » المقدر ، وما بينهما إعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه .

والتقدير : منع الله نصره عنكم بسبب فشلكم وتنازعكم ومعصيتكم لنبيكم ؛ ثم ردكم عنهم دون أن تنالوا ما تبتغون « ليبتليكم » أى ليعاملكم الله - تعالى - معاملة من يمتحن غيره ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وليتبين لكم الصابر المخلص من غيره .

وجاء العطف بثم فى قوله « ثم صرفكم » للاشعار بالتفاوت الكبير بين المقصد الأصلى الذى خرجوا من أجله وهو النصر والحصول على الغنيمة ، وبين النتيجة التى انتهوا اليها وهى العودة مقهورين .

وكان التعبير بكلمة « صرفكم » دون كلمة «هزمتم»لأن ماحدث فى أحد لم يكن هزيمة وإن لم يكن نصرا؛ لأن الهزيمة تقتضى أن يولى المسلمون الأدبار وأن يتحكم فيهم أعداؤهم، وماحدث فى أحد لم يكن كذلك ، وإنما كان زيادة فى عدد الشهداء من المسلمين عن عدد القتلى من المشركين ، لأن بعض المسلمين خالفوا وصية نبيهم - صلى الله عليه وسلم - وتطلعوا إلى زهرة الدنيا وزينتها بطريقة تتعارض مع مايقتضيه الإيمان الصادق،فكان من الله - تعالى -التأديب لهم . . وفى هذا التعبير « ثم صرفكم عنهم ... » تسلية لهم عما أصابهم ، وتخفيف لمصابهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن ما حدث فى أحد إنما هو نوع من الصرف عن الغاية التى من أجلها خرجتم لحكم من أهمها : تمييز الخبيث من الطيب ،وتربيتكم على تحمل المصائب والآلام، وتاديبكم بالأدب المناسب حتى لاتعودوا مرة أخرى إلى مخالفة رسولكم - صلى الله عليه وسلم

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بمايمسح آلامهم ، ويذهب الحسرة من قلوبهم - تعالى - : « ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » .

أى : ولقد عفا - سبحانه - عما صدر منكم تفضلا منه وكرما ، والله تعالى هو صاحب الفضل المطلق الدائم على المؤمنين .

ولقد أكد — سبحانه — هذا العفو باللام وبقد وبالتعبير بالماضي ، ليفتح أمامهم طريق الأمل ، وليحفزهم على التوبة الصادقة ، والإيمان العميق ، حتى لا ييأسوا من رحمة الله .

والتذييل بقوله « والله ذو فضل على المؤمنين » مؤكد لمضمون ماقبله .

قال الآلوسى: إيذان بأن ذلك العفو ، ولو كان بعد التوبة ، بطريق التفضل لا الوجوب أى: شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو . أو فى جميع الأحوال أديل لهم أو أديل عليهم ، إذ الابتلاء أيضا رحمة »[1] .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ذكرت المؤمنين بأن الله — تعالى — قد حقق وعده معهم فى أول المعركة ، بأن سلطهم على المشركين يقتلونهم بتأييده ورعايته قتلا ذريعا ، فلما صدر من بعض المؤمنين الفشل والتنازع والعصيان، منع الله عنهم عونه ، وصرفهم عن الغاية التى كانوا يتمنونها ليتميز الخبيث من الطيب ، ومع ذلك فقد عفا الله عما صدر منهم من أخطاء ، لأنه هو صاحب الفضل الدائم على المؤمنين .

ثم ذكرهم — سبحانه — بعد ذلك بما كان من بعضهم بعد أن اضطربت أحوالهم ، وجاءهم أعداؤهم من أمامهم ومن خلفهم بسبب ترك معظم الرماة لأماكنهم، فقال — تعالى — : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم » .

وقوله : « تصعدون » من الإصعاد وهو الذهاب فى صعيد الأرض والإبعاد فيه .

يقال : أصعد فى الأرض إذا أبعد فى الذهاب وأمعن فيه ، فهو مصعد .

قال القرطبى : الإصعاد : السير فى مستوى الأرض وبطون الأودية والشعاب .

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ٩٠

والصعود : الإرتفاع على الجبال والدرج » .

وقوله « تلوون » من لوى بمعنى عطف ومال ، وكثيراً ما يستعمل بمعنى وقف وانتظر ، لأن من شأن المنتظر أن يلوى عنقه .

وقوله « إذ تصعدون » متعلق بقوله « صرفكم » أو بقوله « ليبتليكم » أو بمحذوف تقديره أذكروا .

أى اذكروا — أيها المؤمنون — وقت أن كنتم مصعدين تهرولون بسرعة فى بطن الوادى بعد أن أختلت صفوفكم ، واضطرب جمعكم . وصرتم لا يعرج بعضكم على بعض ، ولا يلتفت أحدكم إلى غيره من شدة الهرب ، والحال أن رسولكم — صلى الله عليه وسلم — « يدعوكم فى أخراكم » أى يناديكم فى آخركم أو فى جماعتكم الأخرى أو من خلفكم يقال . جاء فلان فى آخر الناس وأخراهم إذا جاء خلفهم ، كما يقال : جاء فى أولهم وأولاهم .

والمراد أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان يدعو المنهزمين إلى الثبات وإلى ترك الفرار من الأعداء ، وإلى معاودة الهجوم عليهم ، وهو ثابت لم يتزعزع ومعه نفر من أصحابه .

قال ابن جرير : لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها ، فجعل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يدعو الناس : إلىّ عباد الله ! ! فذكر الله صعودهم إلى الجبل ، ثم ذكر دعاء النبى — صلى الله عليه وسلم — إياهم فقال : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم »(١).

فى هذه الجملة الكريمة تصوير بديع معجز لحال المسلمين عندما اضطربت صفوفهم فى غزوة أحد ، فهى تصور حالهم وهم مصعدون فى الوادى بدون تمهل أو تثبت ، وتصور حالهم وقد أخذ منهم الدهش مأخذه بحيث أصبح بعضهم

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٢٣ .

لا يلتفت إلى غيره أو يسمع له نداء ، أو يجيب له طلبا ، وتصور حال النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد ثبت كالطود الأشم بدون اضطراب أو وجل ومعه صفوة من أصحابه ، وقد أخذ ينادي الفارين بقوله : « إلى عباد الله ، إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكر فله الجنة » .

وقوله - تعالى - « فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم » .

بيان للنتيجة التي ترتبت على هذا الاضطراب ، وهو معطوف على قوله « صرفكم » أو على قوله « تصعدون ولا تلوون » ولا يضركونهما مضارعين في اللفظ لأن إذ المضافة إليهما صيرتهما ماضيين في المعنى .

وأصل الإثابة إعطاء الثواب ، وهو شيء يكون جزاء على عطاء أو فعل ، ولفظ الثواب لا يستعمل في الأعم الأغلب إلا في الخير . والمراد به هنا العقوبة التي نزلت بهم . وسميت العقوبة التي نزلت بهم ثوابا على سبيل الاستعارة التهكمية كما في قوله « فبشرهم بعذاب أليم » .

ويجوز أن يكون اللفظ مستعملا في حقيقته ، لأن لفظ الثواب في أصل اللغة معناه ما يعود على الفاعل من جزاء فعله ، سواء أكان خيرا أو شرا .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « فأثابكم غما بغم » الغم في اللغة التغطية . يقال : غممت الشيء أي غطيته : ويوم غم وليلة غمة إذا كانا مظلمين .

قال مجاهد وقتادة وغيرهما والغم الأول القتل والجراح والغم الثاني الإرجاف بقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - : وقيل . الغم الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة . والثاني : إستعلاء المشركين عليهم . وعند ذلك قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم لا يَعْلُنَّ علينا » .

والباء في « بغم » على هذا بمعنى على . وقيل هي على بابها . والمعنى أنهم

غموا النبي - صلى الله عليه وسلم - بمخالفتهم إياه فأثابهم بذلك غموم بمن أصيب منهم .... »(١) .

ويجوز أن يكون الكلام لمجرد التكثير أى جازاكم بغموم وأحزان كثيرة متصل بعضها ببعض بأن منع عنكم نصره ، وحرمكم الغنيمة. وأصابتكم الجراح الكثيرة ، وأشيع بينكم أن نبيكم قد قتل ... وكل ذلك بسبب أنكم خالفتم وصية نبيكم - صلى الله عليه وسلم - ، وتغلب حب الدنيا وشهواتها على قلوب بعضكم ، فلم تخلصوا لله الجهاد ، فأصابكم ما أصابكم .

وقوله « لكى لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم » تعليل لقوله « ولقد عفا عنكم » أى : ولقد عفا الله - تعالى - عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من غنائم ونصر ، ولا على ما أصابكم من جراح وآلام ، فإن عفو الله - تعالى - يذهب كل حزن ، ويمسح كل ألم .

ويرى صاحب الكشاف أن معنى « لكى لا تحزنوا ... » لتتمرنوا على تجرع الغموم ، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ، ولا على مصيب من المضار .

ثم قال : ويجوز أن يكون الضمير فى « فأثابكم » للرسول. أى : فآساكم فى الاغتمام - أى فصار أسوتكم - لأنه كما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما فقد غمه ما نزل بكم ، فأثابكم غما أى اغتم لأجلكم بسبب غم اغتممتموه لأجله ، ولم يثرب عليكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره ، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو »(٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله « والله خبير بما تعملون » أى : والله

---

(١) تفسير القرطبي - بتصرف وتلخيص - ج ٤ ص ٢٤٠ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٢٨

- تعالى - عليم بأعمالكم ونياتكم علما كاملا ، خبير بما إنطوت عليه نفوسكم ، فهو - سبحانه - لا تخفى عليه خافية مهما صغرت ، فاتقوه وراقبوه وإتبعوا ما كلفكم به لتنالوا الفوز والسعادة .

ثم ذكرهم - سبحانه - ببعض مظاهر لطفه بهم ورحمته لهم ، حيث أنزل على طائفة منهم النعاس الذى أدخل الطمأنينة على قلوبهم ، وأزال الخوف والفزع من نفوسهم فقال - تعالى - : « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم » . والجملة الكريمة معطوفة على قوله « فأثابكم » .

والأمنة - بفتحتين - مصدر كالأمن . يقال : أمن أمنا وأمانا وأمنة

والنعاس : هو الفتور فى أوائل النوم ، ومن شأنه أن يزيل عن الإنسان بعض متاعبه ولا يغيب صاحبه ، ولذلك كان أمنة لهم ، لأنه لو كان نوما ثقيلا لهاجمهم المشركون .

أى : ثم أنزل عليكم - أيها المؤمنون - بعد أن أصابكم من الهم والغم ما أصابكم ، أمنا كان مظهره نعاسا أطمأنت معه نفوسكم ، وإستراحت معه أبدانكم من غير فزع ولا قلق ، وكان هذا الأمان والاطمئنان لطائفة معينة منكم أخلصت جهادها لله ، وخافت مقام ربها ونهت نفسها عن الهوى .

قال ابن كثير : يقول - تعالى - ممتنا على المؤمنين فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة وهو النعاس الذى غشيهم وهم مشتملون السلاح فى حال همهم وغمهم ، والنعاس فى مثل تلك الحال دليل على الأمان ، كما قال فى سورة الأنفال : « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه » . فعن ابن مسعود قال : النعاس فى القتال من الله ، وفى الصلاة من الشيطان » :

وروى البخارى عن أبى طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مرارا ، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه » [1] .

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٠٣

وقوله « نعاسا » بدل من « أمنة » أو عطف بيان .

قال الفخر الرازى : واعلم أن ذلك النعاس فيه فوائد : أحدها : أنه وقع على كافة المؤمنين لا على الحد المعتاد، فكان ذلك معجزة للنبى - صلى الله عليه وسلم - . ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ومتى صاروا كذلك ازداد جدهم فى محاربة العدو، ووثوقهم بأن الله منجز وعده .

وثانيها : أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال والنوم يفيد عود القوة والنشاط وإشتداد القوة والقدرة .

وثالثها : أن الكفار لما إشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله النوم على عين من بقى منهم لئلا يشاهدوا قتل أعزتهم فيشتد خوفهم .

ورابعها : أن الأعداء كانوا فى غاية الحرص على قتلهم ، فبقاؤهم فى النوم مع السلامة فى مثل تلك المعركة من أول الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم ، وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم، ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله[1]

هذا جانب مما أمتن الله به على المؤمنين من فضل ورعاية، حيث أنزل عليهم النعاس فى أعقاب ما أصابهم من هموم ليكون راحة لأبدانهم وأمانة لنفوسهم.

أما غير المؤمنين الصادقين فلم ينزل عليهم هذا النعاس ، بل بقوا فى قلقهم وحيرتهم . وقد عبر الله - تعالى - عنهم بقوله : « وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » .

وقوله « أهمتهم أنفسهم » حملتهم على الهم ، والهم ما يهتم له الإنسان أو ما يحزنه ، يقال أهمنى الأمر أى اقلقنى وأزعجنى ، كما يقال : أهمنى الشىء أى جعلنى مهتما به إهتماما شديدا .

والمعنى: أن الله - تعالى - أنزل النعاس أمانا واطمئنانا للمؤمنين الصادقين

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٤٤ .

بعد أن أصابتهم الغموم ، وهناك طائفة أخرى من الذين إشتركوا فى غزوة أحد لم تكن صادقة فى إيمانها ، لأنها كانت لايهمها شأن الإسلام إنتصر أو إنهزم ، ولا شأن النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه؛ وإنما الذى كان يهمها هو شيء واحد وهو أمر نفسها وما يتعلق بذلك من الحصول على الغنائم ومتع الدنيا .

أو المعنى : أن هذه الطائفة قد أوقعت نفسها فى الهم والحزن بسبب عدم إطمئنانها وعدم صبرها ، وجزعها المستمر .

وإلى هذين المعنيين أشار صاحب الكشاف بقوله : « قد أهمتهم أنفسهم، أى ما بهم إلا هم أنفسهم ، لاهم الدين ولا هم الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين . وقد أوقعتهم أنفسهم وما حل بهم فى الهموم والأشجان ، فهم فى التشاكى والتباث » (١) .

والجملة الكريمة مستأنفة مسوقة لبيان حال ضعاف الإيمان ، بعد أن بين - سبحانه - ما امتن به على أقوياء الإيمان .

وقوله « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » وصف آخر لسوء أخلاق هذه الطائفة التى ضعف إيمانها ، وصارت لايهمها إلا ما يتعلق بمنافعها الخاصة

أى أن هذه الطائفة لم تكتف بما إستولى عليها من طمع وجشع وحب لنفسها ، بل تجاوزت ذلك إلى سوء الظن بالله ، بأن توهمت بأن الله - تعالى - لن ينصر رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وأن الإسلام ليس دينا حقا ، وأن المسلمين لن ينتصروا على المشركين بعد معركة أحد . . . إلى غير ذلك من الظنون الباطلة التى تتولد عند المرء الذى ضعف إيمانه ، وصار لا يهمه إلا أمر نفسه .

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٢٨ .

وقوله « يظنون بالله . . . » حال من الضمير المنصوب فى « أهمتهم » أو إستئناف على وجه البيان لما قبله .

وقوله « غير الحق » مفعول مطلق وصف لمصدر محذوف ، أى يظنون بالله ظنا غير الحق الذى يجب أن يتحلى به المؤمنون ؛ إذ من شأن المؤمنين الصادقين أن يستسلموا لقدر الله بعد أن يباشر الأسباب التى شرعها لهم ، وأن يصبروا على ما أصابهم وأن يوقنوا بأن ما أصابهم هو بتقدير الله وبحكمته وبإرادته « وكل شىء عنده بمقدار » .

وقوله « ظن الجاهلية » بدل أو عطف بيان مما قبله .

أى يظنون بالله شيئا هو من شأن أهل الجاهلية ، الذين يتوهمون أن الله لا ينصر رسله ، ولا يؤيد أولياءه ولا يهزم أعداءه .

ثم بين - سبحانه - ما صدر عنهم من كلام باطل بسبب ظنونهم السيئة فقال - تعالى - : « يقولون هل لنا من الأمر شىء » والاستفهام للانكار بمعنى النفى ، وهم يريدون بهذا القول تبرئة نفوسهم من أن يكونوا سببا فيما أصاب المسلمين من آلام يوم أحد ، وأن الذين تسببوا فى ذلك هم غيرهم :

أى : يقول بعضهم لبعض ليس لنا من الأمر شىء أى شىء فلسنا مسئولين عن الهزيمة التى حدثت للمسلمين فى أحد ، لأننا لم يكن لنا رأى يطاع ولأن الله - تعالى - لو أراد نصر محمد - صلى الله عليه وسلم - لنصره . . .

وهذا القول قاله عبد الله بن أبى سلول حين أخبروه بمن استشهد من قبيلة الخزرج فى غزوة أحد .

وذلك أن عبد الله بن أبى لما إستشاره النبى - صلى الله عليه وسلم - فى شأن الخروج لقتال المشركين فى أحد ، أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة إلا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - خرج لقتال المشركين بناء على إلحاح بعض الصحابة .

فلما أخبر ابن أبى بمن قتـل من الخزرج قال : هل لنا من الأمر شىء ؟ يعنى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يقبل قوله حين أشار عليه بعـــدم الخروج من المدينة .

وقد أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد على هؤلاء الظانين بالله ظن السوء بقوله : « قل إن الأمر كله لله » .

أى قل لهم إن تقدير الأمور كلها لله - تعالى - وحده ، وإن العاقبة ستكون للمتقين ، إلا إنه - سبحانه - قد جعل لكل شىء سببا فمن أخلص لله فى جهاده وباشر الأسباب التى شرعها للنصر نصره الله - تعالى - ، ومن تطلع إلى الدنيا وزينتها وخالف أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أدبه الله - تعالى - بحجب نصره عنه حتى يفىء إلى رشده ، ويتوب توبة صادقة إلى ربه ، ويتخذ الوسائل التى شرعها الله - تعالى - الوصـول إلى الفوز والظفر .

فالجملة الكريمة معترضة للرد عليهم فيما تقولوه من أباطيل .

ثم كشف - سبحانه عما تخفيه نفوسهم من أمور سيئة فقـال يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك . يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا » .

أى : أن هؤلاء الذين أهمتهم انفسهم ، والذين يظنون بالله غـير الحق يخفون فى أنفسهم من الأقوال القبيحة . والظنون السيئة ،أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ، مالا يستطيعون إظهاره أمامك .

وهذه الجملة حال من الضمير فى قوله « يقولون هل لنا .» السابقة .

وقوله « يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا » بيان لبعض ما يخفون أو لما يقولونه فيما بينهم .

أى يقولون لو كان لنا من الأمر المطاع أو المسموع شىء ما خرجنا من المدينة إلى هذا المكان الذى قتل فيه أقاربنا وعشائرنا .

فأنت ترى أن القرآن يحكى عنهم أنهم يريدون تهوئة أنفسهم مما نزل بالمسلمين بأحد ، وأنهم لو كان لهم رأى مطاع لبقوا فى المدينة ولم يخرجوا منها لقتال المشركين ، وأن التبعة فى كل ما جرى فى غزوة أحد يتحملها النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الذين ألحوا عليه فى الخروج لقتال المشركين خارج المدينة ، وأن النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه لو كانوا على الحق لانتصروا ...

قال ابن جرير : وذكر أن ممن قال هذا القول - « لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا » - معتب بن قشير من بنى عمرو بن عوف . فعن عبد الله بن الزبير عن الزبير قال ، والله إنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ، ما أسمعه إلا كالحلم حين قال : لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا »[1] .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما يدفع أقوالهم الباطلة فقال : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » .

وقوله « لبرز » من البروز وهو الخروج من المكان الذى يستتر فيه الإنسان و « المضاجع » جمع مضجع وهو مكان النوم . والمراد به هنا المكان الذى استشهد فيه من استشهد من المسلمين .

والمعنى . قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتل أقاربنا فى هذا المكان من جبل أحد . قل لهم لو كنتم فى بيوتكم ومنازلكم بالمدينة ولم تخرجوا للقتال بجملتكم، لخرج لسبب من الأسباب الداعية إلى الخروج ، الذين كتب عليهم القتل فى اللوح المحفوظ إلى مضاجعهم أى أماكن قتلهم التى قدر الله لهم أن يقتلوا فيها ، لأنه ما من نفس تموت إلا بإذن الله وبإرادته ، ولن يستطيع أحد أن ينجو من قدر الله المحتوم ، وقضائه النافذ ، فإن الحذر لا يدفع القدر ، والتدبير لا يقاوم التقدير .

(١) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ١٤٣ .

وفى هذا الرد مبالغة فى إبطال ماقاله هؤلاء الذين يظنون بالله الظنون السيئة حيث لم يقتصر — سبحانه — على تحقيق القتل نفسه متى قدّره ، بل عيّن مكانه — أيضا — .

ثم بين — سبحانه بعض الحكم من وراء ماحدث للمسلمين فى أحد فقال : « وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور » .

والابتلاء : الاختبار ، وهو هنا كناية عن أثره ، وهو إظهاره للناس ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

والتمحيص : تخليص الشىء عما يخالطه مما فيه عيب له .

والجملة معطوفة على كلام سابق يفهم من السياق . والتقدير . نزل بكم ما نزل من الشدائد فى أحد لتتعودوا تحمل الشدائد والمحن ، وليعاملكم — سبحانه — معاملة المختبر لنفوسكم ، فيظهر ماتنطوى عليه من خير أوشر ، حتى يتبين الخبيث من الطيب ، وليخلص مافى قلوبكم ويزيل ماعساه يعلق بها من أدران ، ويطهرها مما يخالطها من ظنون سيئة . فإن القلوب يخالطها بحكم العادة وتزيين الشيطان ، واستيلاء الغفلة ، وحب الشهوات . مايضاد ما أودع الله فيها من إيمان وإسلام وبر وتقوى .

فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة . ولم تتمحص من الآثام . فاقتضت حكمة الله — تعالى — أن ينزل بها من المحن والبلاء ما يكون بالنسبة لها كالدواء الكريه لمن عرض له دواء .

وقوله « والله عليم بذات الصدور » أى عليم بأسرارها وضمائرها الخفية التى لاتفارقها ، فهو القائل « إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء »(١) . وهو القائل « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى »(٢) .

(١) سورة آل عمران الآية ٥

(٢) سورة طه الآية ٧

ثم أخبر - سبحانه - عن الذين لم يثبتوا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم أحد ، وبين السبب فى ذلك ، وفتح لهم باب عفوه فقال : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » .

قوله « تولوا » من التولى ويستعمل هذا اللفظ بمعنى الإقبال وبمعنى الإدبار فإن كان متعديا بنفسه كان بمعنى الإقبال كما فى قوله - تعالى - « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا » . وإذا كان متعديا بعن أو غير متعد أصلا كان بمعنى الإعراض كما فى الآية التى معنا .

والتولى الذى وقع فيه من ذكرهم الله - تعالى - فى الآية التى معنا يتناول الرماة الذين تركوا أماكنهم التى أمرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالبقاء فيها لحماية ظهور المسلمين . كما يتناول الذين لم يثبتوا بجانب النبى - صلى الله عليه وسلم ، بل فروا إلى الجبل أو إلى غيره عندما اضطربت الصفوف . . . .

ولقد حكى لنا التاريخ أن هناك جماعة من المسلمين ثبتت إلى جانب النبى - صلى الله عليه وسلم - بدون وهن أو ضعف ، وقد أصيب ممن كان حوله أكثر من ثلاثين ، وكلهم كان يفتدى النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه ويقول : وجهى لوجهك الفداء ، ونفسى لنفسك الفداء ، وعليك السلام غير مودع[(1)].

ومعنى « استزلهم الشيطان » طلب لهم الزلل والخطيئة ، أو حملهم عليها بوسوسته لهم : أن يخالفوا أمر رسول - صلى الله عليه وسلم - لهم بالثبات فى مواقعهم التى عينها لهم . فكانت مخالفتهم لرسولهم وقائدهم طاعة للشيطان . فحرمهم الله تأييده وتقوية قلوبهم .

قال الراغب : « استزله إذا تحرى زلته » وقوله - تعالى - « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » أى استجرهم الشيطان حتى زلوا : فإن

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ١٤

الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه ، والزلة فى الأصل : استرسال الرجل من غير قصد »[١] .

والمراد بالزلة هنا ما حدث منهم من مخالفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ترتب عليها هزيمتهم .

والمعنى : إن الذين تولوا منكم - يا معشر المؤمنين - عن القتال أو تركوا أماكنهم فلم يثبتوا فيها طلبا للغنيمة يوم التقيتم بالمشركين فى معركة أحد ، « إنما استزلهم الشيطان » أى طلب منهم الزلل والمعصية ، ودعاهم إليها بمكر منه وكان ذلك « ببعض ما كسبوا » أى بسبب بعض ما اكتسبوه من ذنوب ، لأن نفوسهم لم تتجه بكليتها إلى الله ، فترتب على ذلك أن منعوا النصر والتأييد وقوة القلب والثبات .

قال ابن القيم : « كانت أعمالهم جنداً عليهم ازداد بها عدوهم قوة . فإن الأعمال جند للعبد ، وجند عليه . ولابد للعبد فى كل وقت من سرية من نفسه تهزمه أو تنصره . فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتل بها ، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه .

فأعمال العبد تسوقه قسرا إلى مقتضاها من الخير والشر ، والعبد لا يشعر ، أو يشعر ويتعامى .

ففرار الإنسان من عدوه وهو يطيقه إنما هو بجند من عمله ، بعثه له الشيطان واستزله به »[٢] .

ثم أخبر - سبحانه - أنه قد عفا عن هؤلاء الزالين ؛ حتى تكون أمامهم الفرصة لتطهير نفوسهم . وبعثها على التوبة الصادقة ، والإخلاص لله رب العالمين فقال - تعالى - « ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم » .

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٢١٤ :
(٢) تفسير القاسمى : تفسير سورة آل عمران ص ١٠١٣ .

أى - ولقد عفا - سبحانه - عنهم لصدق توبتهم وندمهم على مافرط منهم، لأن فرارهم لم يكن عن نفاق، بل كان عارضا عرض لهم عندما اضطربت الصفوف، واختلطت الأصوات: ثم عادوا إلى صفوف الثابتين من المؤمنين ليكونوا معهم فى قتال أعدائهم.

وقد أكد الله - تعالى - هذا العفو بلام التأكيد، وبقد المفيدة للتحقيق، وبوصفه - سبحانه - لذاته بالمغفرة، فإن هذا الوصف يؤكد أن العفو شأن من شئونه، وبوصفه - سبحانه - لذاته بالحلم، فإن هذا الوصف يفيد أنه لا يعاجل عباده بالعقاب، بل إن ما أصابهم من مصائب فهو بسبب مااقترفوه من ذنوب ويعفو - سبحانه - عن كثير.

وصدق الله إذ يقول: «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة»[1].

وقد أكد - سبحانه - شأن هذا العفو، لتذهب عن نفوس هؤلاء الذين استزلهم الشيطان حيرتها، ولتنخلع عن الماضى، ولتستقبل الحاضر والمستقبل بقلوب عامرة بالإيمان، وبنفوس متغلبة على أهوائها مطيعة لتعاليم دينها...

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت المؤمنين بعض الأسباب الظاهرة والخفية لما أصابهم فى أحــد، وفتحت لهم باب التوبة لتطهير أنفسهم، وأخبرتهم بعفو الله عنهم، وفى ذلك مافيه من عظات وعبر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وبعد هذا الحديث الحكيم عن أحداث معركة أحد، وعما تم للمسلمين فى أولها من نصر، ثم عما جرى لهم بعد ذلك من اضطراب وتفرق بسبب مخالفة بعضهم لوصايا نبيهم - صلى الله عليه وسلم - ....

بعد كل ذلك وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن التشبه بالكافرين،

---

(١) سورة فاطر الآية ٤٥.

وعن الاستماع إلى أباطيلهم ، وحضهم فيه على مواصلة الجهاد فى سبيل الله ، حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وأخبرهم بأن الآجال بيد الله ، وأن موتهم من أجل الدفاع عن الحق أشرف لهم من الحياة الذليلة . . .

استمع إلى القرآن وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البليغ فيقول :

«يا أيها الذين آمنُوا لا تكونوا كالذينَ كفرُوا وقالُوا لإخْوانهم إذَا ضربُوا فى الأرضِ أوْ كانُوا غُزَّى لو كانُوا عِندَنَا ما ماتُوا وما قُتِلُوا ، لِيَجْعَلَ اللهُ ذلك حسرةً فى قُلوبِهم، واللهُ يُحيي ويُميتُ، واللهُ بما تعملونَ بصيرٌ (١٥٦) ولئِنْ قُتِلتُم فى سبيلِ اللهِ أو مُتُّم لمغفرةٌ من اللهِ ورحمةٌ خيرٌ ممَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) ولئِنْ مُتُّم أو قُتِلتُم لإلَى اللهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)» .

فقوله «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم . . الخ» كلام مستأنف قصد به تحذير المؤمنين من التشبه بالكافرين ومن الاستماع إلى أقوالهم الذميمة .

والمراد بالذين كفروا : المنافقون كعبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه من المنافقين الذين سبق للقرآن أن حكى عنهم أنهم قالوا : «لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا . . .» .

وإنما ذكرهم بصفة الكفر للتصريح بمباينة حالهم لحال المؤمنين ، وللتنفير عن مماثلتهم ومسايرتهم . وقيل المراد بهم جميع الكفار .

والمراد بإخوانهم : إخوانهم فى الكفر والنفاق والمذهب أو فى النسب وقوله «إذا ضربوا فى الأرض» أى سافروا فيها للتجارة أو غيرها فماتوا . وأصل الضرب : إيقاع شىء على شىء ، ثم استعمل فى السير ؛ لما فيه من ضرب الأرض بالأرجل ، ثم صار حقيقة فيه .

وقوله : «غزى» جمع غاز كراكع وركع ، وصائم وصوم ، ونائم ونوم

والمعنى : ياءن آمنتم بالله واليوم الآخر لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا بفزع وجزع من أجل إخوانهم الذين فقدوهم بسبب سفرهم للتجارة ، أو بسبب غزوهم فى سبيل الله ...

قالوا على سبيل التفجع : لو كان هؤلاء الذين ماتوا فى السفر أو الغزو مقيمين معنا ، وملازمين بيوتهم ، ولم يضربوا فى الأرض ولم يغزوا فيها لبقوا أحياء ، ولما ماتوا أو قتلوا .

وقولهم هذا يدل على جبنهم وعجزهم ، كما يدل على ضعف عقولهم، وعدم إيمانهم بقضاء الله وقدره ، إذ لو كانوا مؤمنين بقضاء الله وقدره لعلموا أن كل شىء عنده بمقدار، وأن العاقل هو الذى يعمل مايجب عليه بجد وإخلاص ثم يترك بعد ذلك النتائج لله يسيرها كيف يشاء .

وقولهم هذا بجانب ذلك يدل على سوء نيتهم ، وخبث طويتهم ؛ لأنهم قصدوا به تثبيط عزائم المجاهدين عن الجهاد ، وعن السعى فى الأرض من أجل طلب الرزق الذى أحله الله .

والنهى فى قوله - تعالى - « لاتكونوا كالذين كفروا . . » يشعر بالتفاوت الشديد بين المقامين : مقام الإيمان ومقام الكفران ، وأنه لا يليق بالمؤمن أن ينحدر إلى المنحدر الدون وهو التشبه بالكافرين، بعد أن رفعه الله بالإيمان إلى أعلى عليين ، وفى هذا تقبيح للمنهى عنه بأبلغ وجه وبأدق تصوير .

واللام فى قوله « لإخوانهم » يرى صاحب الكشاف أنها للتعليل فقد قال:

قوله : « وقالوا لإخوانهم » أى لأجل إخوانهم ، كقوله - تعالى - « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ماسبقونا إليه »(١) .

ويجوز أن تكون اللام للدلالة على موضع الخطاب ، ويكون المعنى : لاتكونوا أيها المؤمنون كهؤلاء الذين كفروا وقالوا لإخوانهم الأحياء :

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٣٠ .

لو كان أولئك الذين فقدناهم ملازمين لبيوتهم ولم يضربوا فى الأرض ولم يجاهدوا، لما أصابهم ما أصابهم من الموت أو القتل.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: فإن قيل إن قوله «قالوا لإخوانهم» يدل على الماضى، وقوله «إذا ضربوا فى الأرض» يدل على المستقبل فكيف الجمع بينهما؟

فالجواب من وجوه: أولها أن قوله «قالوا» تقديره: يقولون، فكأنه قيل: لا تكونوا كالذين كفروا ويقولون لإخوانهم كذا وكذا...

وإنما عبر عن المستقبل بلفظ الماضى للتأكيد وللإشعار بأن جدهم فى تقرير الشبهة قد بلغ الغاية. وصار بسبب ذلك الجد لأمر المستقبل كالكائن الواقع.

وثانيها: أن الكلام خرج على سبيل حكاية الحال الماضية. والمعنى أن إخوانهم إذا ضربوا فى الأرض، فالكافرون يقولون لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فمن أخبر عنهم بعد ذلك فلا بد أن يقول: قالوا...

وثالثها: قال «قطرب» كلمة «إذ» و «إذا» تجوز إقامة كل واحدة منهما مقام الأخرى وهو حسن، لأنا إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول، فلأنه يجوز إثباتها بالقرآن العظيم أولى...»(1).

وقوله «أو كانوا غزى» معطوف على «ضربوا فى الأرض» من عطف الخاص بعد العام، إعتناء به لأن الغزو هو المقصود فى هذا المقام وما قبله توطئة له.

قالوا: على أنه قد يوجد الغزو بدون الضرب فى الأرض، بناء على أن المراد بالضرب فى الأرض السفر البعيد، فيكون على هذا بين الضرب فى الأرض وبين الغزو عموم من وجه.

وإنما لم يقل أوغزوا، للإيذان باستمرار إتصافهم بعنوان كونهم غزاة، أو لا نقضاء ذلك، أى كانوا غزاة فيما مضى.

---

(1) تفسير الفخر الرازى - بتصرف وتلخيص - ج ٩ ص ٥٤

وقوله « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » في محل نصب مقول القول .
ثم بين - سبحانه - ما ترتب على أقوالهم من عواقب سيئة فقال : « ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » .

والحسرة - كما يقول الراغب - هي غم الإنسان على ما فاته ، والندم عليه ، كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه ، أو انحسرت قواه - أي انسلخت - من فرط الغم ، وأدركه إعياء عن تدارك مافرط ... »(١)

فالحسرة هي الهم المضنى الذي يلقى على النفس الحزن المستمر والألم الشديد.

واللام في قوله «ليجعل ... » هي التي تسمى بلام العاقبة ، وهي متعلقة بقالوا أي قالوا ماقالوه لغرض من أغراضهم التي يتوهمون من ورائها منفعتهم ومضرة المؤمنين ، فكان عاقبة قولهم ومصيره إلى الحسرة والندامة . لأن المؤمنين الصادقين لن يلتفتوا إلى هذا القول ، بل سيمضون في طريق الجهاد الذي كتبه الله عليهم وسيكون النصر الذي وعدهم الله إياه حليفهم ، وبذلك يزداد الكافرون المنافقون حسرة على حسرتهم .

ويجوز أن تكون اللام للتعليل ويكون المعنى : أن الله - تعالى - طبع الكفار على هذه الأخلاق السيئة بسبب كفرهم وضلالهم، لأجل أن يجعل الحسرة في قلوبهم ، والغم في نفوسهم ، والضلال بهذه الأقوال والأفعال في عقولهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما متعلق ليجعل ؟ قلت: قالوا . أي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون « حسرة في قلوبهم » . على أن اللام مثلها في « ليكون لهم عدوا وحزنا » . أو لا تكونوا بمعنى : لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده ، ليجعله الله حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم. فإن قلت: ما معنى إسناد الفعل إلى الله ؟ قلت : معناه أن الله - تعالى - عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة في قلوبهم ، ويضيق صدورهم عقوبة لهم . . كما قال - تعالى - « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » .

(١) مفردات القرآن للراغب الاصفهاني ص ١١٨ - بتصرف يسير -

ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مادل عليه النهى ، أى لاتكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم ، لأن مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادتهم عما يغمهم ويغيظهم »[1] .

والجعل هنا بمعنى التصيير . وقوله « حسرة » مفعول ثان له ، وقوله « فى قلوبهم » متعلق بيجعل .

وذكر القلوب مع أن الحسرة لاتكون إلا فيها، لإرادة التمكن والإيذان بعدم الزوال .

وقوله « والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير » رد على قولهم الباطل أثر بيان سوء عاقبته ، وحض للمؤمنين على الجهاد فى سبيل الله وترغيب لهم فى العمل الصالح . أى أن الأرواح كلها بيد الله يقبضها متى شاء ، ويرسلها متى شاء . فالقعود فى البيوت لا يطيل الآجال ، كما أن الخروج للجهاد فى سبيل الله أو للسعى فى طلب الرزق لا ينقصها ، ومادام الأمر كذلك فعلى العاقل أن يسارع إلى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، وأن يسعى فى الأرض ذات الطول والعرض ليأكل من رزق الله . وأن يباشر الأسباب التى شرعها الله بدون عجز أو كسل وليعلم أن الله مطلع على أعمال الناس وأقوالهم ، وسيجازيهم عليها يوم القيامة بما يستحقون من خير أو شر .

ثم رد الله — تعالى — على أولئك الكافرين برد آخر . فيـــه تثبيت المؤمنين ، وترغيب لهم فى الجهاد فقال : « ولئن قتلتم أيها المؤمنون وأنتم تجاهدون » فى سبيل الله أو متم ، على فراشكم بدون قتل بعد أن أديتم رسالتكم فى الحياة على أكمل وجه وأطعتم ربكم فيما أمركم به أو نهاكم عنه لنلتم « مغفرة من الله » — تعالى — لذنوبكم ، ولغفرتم برحمته الواسعة التى تسعدكم .

وقوله « خير مما يجمعون » أى خير مما يجمعه الكفرة من متع الدنيا وشهواتها الزائلة ، بخلاف مغفرة الله ورحمته فإنهما باقيتان ولا كدر معهما

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٣١

ولا تعب ولا قلق ، واللام فى قوله « ولئن قتلتم » موطئة للقسم. أى : والله لئن قتلتم فى سبيل الله أو متم

وقوله « لمغفرة من الله ورحمة » جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ووفائه بمعناه .

ثم بين – سبحانه – أن مصير العباد جميعاً إليه وحده فقال . « ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » .

أى ولئن متم – أيها المؤمنون – وأنتم فى بيوتكم أو فى أى مكان ، أو قتلتم بأيدى أعدائكم وأنتم تجاهدون فى سبيل الله ، فعلى أى وجه من الوجوه كان انقضاء حياتكم ، فإنكم إلى الله وحده جميعا تعودون وتحشرون فيجازيكم على أعمالكم .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أبلغ ألوان الترغيب فى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنها قد بينت أن الحياة والموت بيد الله وحده ، وأنه سبحانه قد يكتب الحياة المسافر والغازى مع إقتحامهما لموارد الحتوف ، وقد يميت المقيم والقاعد فى بيته مع حيازته لأسباب السلامة .

وأن الذين يموتون على الإيمان الحق ، أو يقتلون وهم يجاهدون فى سبيل الله ، فإن لهم من مغفرة الله ورحمته ما هو خير مما يجمعه الكافرون من حطام الدنيا .

وأن جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم سيعودون إلى الله ليجازيهم على أعمالهم يوم الدين .

قال الفخر الرازى : واعلم أن فى قوله « لإلى الله تحشرون » دقائق : أحدها : أنه لم يقل : تحشرون إلى الله ، بل قال : لإلى الله تحشرون ، وهذا يفيد الحصر ، وهذا يدل على أنه لا حاكم فى ذلك اليوم ولا نافع ولا ضار إلا هو .

وثانيها : أنه ذكر من أسماء الله هذا الاسم ، وهذا الاسم أعظم الأسماء ، وهو دال على كمال الرحمة ، وكمال القهر ، فهو لدلالته على كمال الرحمة أعظم أنواع الوعد ، ولدلالته على كمال القهر أشد أنواع الوعيد .

وثالثها : أن قوله « تحشرون » فعل لم يسم فاعله ، مع أن فاعل ذلك الحشر هو الله ، وإنما لم يقع التصريح به ، لأنه ـ تعالى ـ هو العظيم الكبير الذي شهدت العقول بأنه هو الله الذي يبدىء ويعيد، ومنه الإنشاء والإعادة، فترك التصريح فى مثل هذا الموضع أدل على العظمة .

ورابعها أن قوله « تحشرون » خطاب مع الكل فهو يدل على أن جميع العالمين ، يحشرون إلى الله فيجتمع المظلوم مع الظالم ، والمقتول مع القاتل ، والله ـ تعالى ـ هو الذي يتولى الحكم بينهم . . . »(١) .

وقبل أن تتمم السورة حديثها مع الذين آمنوا عن أحداث غزوة أحد وماداو فيها من نصر وهزيمة ، وعن الأسباب الظاهرة والخفية لذلك . . . أخذت فى بيان حال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان عليه من قيادة حكيمة ، وأخلاق كريمة ، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يقابل مخالفة المخالفين له والفارين عنه بالانتقام منهم ، وإنزال العقوبات بهم ، وإنما قابل ذلك بالحلم واللين والسياسة الرشيدة ، فقال ـ تعالى ـ :

« فبما رحمةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لهُم، ولو كنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانفضُّوا مِنْ حَولِكَ ، فاعفُ عنْهُمْ واستغْفِرْ لهم ، وشاوِرْهُمْ فى الأمر ، فإذا عزمتَ فتوكَّلْ عَلَى اللهِ إن اللهَ يحبُّ المتوكلين (١٥٩) إنْ ينصرْكم اللهُ فلا غالبَ لكمْ وإنْ يَخذُلْكمْ فمنْ ذا الذى ينصركم مِنْ بعْدِهِ ، وعلى اللهِ فليتوكَّلِ المؤمنون(١٦٠) وما كان لنَبِيٍّ أن يَغُلَّ ومن يَغْلُلْ يأتِ بما غَلَّ يومَ القيامة ، ثم تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وهم لا يُظلَمون (١٦١) أفمَنِ اتَّبعَ رِضْوانَ اللهِ كمَنْ باءَ بِسخَطٍ مِنَ اللهِ ، ومأواهُ جهنَّم وبئسَ المصيرِ (١٦٢) هُمْ درجاتٌ عند اللهِ ، واللهُ بصيرٌ بما يعملونَ (١٦٣)

لقد مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمنين إذ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسِهم يتلُو عليهم آياتِهِ ، ويزَكيهم ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ ، وإنْ كانُوا مِنْ قبل لفي ضلالٍ مبين (١٦٤) » .

فالخطاب فى قوله - تعالى - « فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ... الخ » للنبى - صلى الله عليه وسلم - .

والفاء لترتيب مضمون الكلام على ماينبىء عنه السياق من إستحقاق الفارين والمخالفين للملامة والتعنيف منه - صلى الله عليه وسلم - بمقتضى الجبلة البشرية .

والباء هنا للسببية . و « ما » مزيدة للتأكيد ولتقوية معنى الرحمة و « لنت » من لان يلين لينا وليانا بمعنى الرفق والسهولة وسعة الخلق و « الفظ » الغليظ الجافى فى المعاشرة قولا وفعلا .

وأصل اللفظ - كما يقول الراغب - : ماء الكرش ، وهو مكروه شربه بمقتضى الطبع ولا يشرب إلا فى أشد حالات الضرورة .

وغلظ القلب عبارة عن قسوته وقلة تأثره من الغلظة ضد الرقة ، وتنشأ عن هذه الغلظة الفظاظة والجفاء .

والمعنى : فبسبب رحمة عظيمة فياضة منحك الله إياها يا محمد ، كنت لينا مع أتباعك فى كل أحوالك ، ولكن بدون إفراط أو تفريط ، فقد وقفت من أخطائهم التى وقعوا فيها فى غزوة أحد موقف القائد الحكيم الملهم ، فلم تعنفهم على ماوقع منهم وأنت تراهم قد إستغرقهم الحزن والهم ... بل كنت لينا رفيقا معهم ...

وهكذا القائد الحكيم لا يكثر من لوم جنده على أخطائهم الماضية ، لأن كثرة اللوم والتعنيف قد تولد اليأس ، وإنما يلتفت إلى الماضى ليأخذ منه العبرة والعظة لحاضره ومستقبله ، ويغرس فى نفوس الذين معه مايحفز همتهم ، ويشحذ

عزيمتهم ويجعلهم ينظرون إلى حاضرهم ومستقبلهم بثقة واطمئنان وبصيرة مستنيرة ...

وإن الشدة فى غير موضعها تفرق ولا تجمع، وتضعف ولا تقوى، ولذا قال - تعالى - «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك».

أى ولو كنت - يا محمد - كريه الخلق، خشن الجانب، جافيا فى أقوالك وأفعالك، قاسى القلب لا تتأثر لما يصيب أصحابك.. لو كنت كذلك «لانفضوا من حولك» أى لتفرقوا عنك، ونفروا منك، ولم يسكنوا إليك

فالجملة الكريمة تنفى عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يكون فظا أو غليظا، لأن «لو» تدل على نفى الجواب لنفى الشرط. أى أنك لست - يا محمد فظا ولا غليظ القلب ولذلك التف أصحابك من حولك، يفتدونك بأرواحهم وبكل مرتخص وغال، ويحبونك حبا يفوق حبهم لأنفسهم ولأولادهم ولآبائهم ولأحب الأشياء إليهم.

وقال - سبحانه - «ولو كنت فظا غليظ القلب...» لينفى عنه - صلى الله عليه وسلم - القسوة والغلظة فى الظاهر والباطن، إذ القسوة الظاهرية تبدو أكثر ما تبدو فى الفظاظة التى هى خشونة الجانب، وجفاء الطبع، والقسوة الباطنية تكون بسبب يبوسة القلب، وغلظ النفس، وعدم تأثرها بما يصيب غيرها. والرسول - صلى الله عليه وسلم - كان مبرأ من كل ذلك، ويكفى أن الله - تعالى - قد قال فى وصفه: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم»[1].

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: «إنى أرى صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الكتب المتقدمة. إنه ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»[2].

(١) سورة التوبة . الآية الأخيرة.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢٠

ولقد كان من أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - مداراة الناس إلا أن يكون في المداراة حق مضيع فمن عائشة رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله أمرنى بمدارة الناس كما أمرنى بإقامة الفرائض »(١) .

ثم أمر الله الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بما يترتب على الرفق والبشاشة فقال : « فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر » .

فالفاء هنا تفيد ترتيب مابعدها على ماقبلها . أى أنه يترتب على لين جانبك مع أصحابك ، ورحمتك بهم ، أن تعفو عنهم فيما وقعوا فيه من أخطاء تتعلق بشخصك ، أو ماوقعوا فيه من مخالفات أدت إلى هزيمتهم فى أحد ، فقد كانت زلة منهم وقد أدبهم الله عليها .

وأن تلتمس من الله - تعالى - أن يغفر لهم مافرط منهم ، إذ فى إظهارك ذلك لهم تأكيد لعفوك عنهم ، وتشجيع لهم على الطاعة والاستجابة لأمرك . وأن تشاورهم فى الأمر أى فى أمر الحرب ونحوه مما تجرى فيه المشاورة فى العادة من الأمور التى تهم الأمة .

وقد جاءت هذه الأوامر للنبى - صلى الله عليه وسلم - على أحسن نسق ، وأحكم ترتيب ، لأن الله - تعالى - أمره أولا بالعفو عنهم فيما يتعلق بخاصة نفسه ، فإذا ما انتهو إلى هذا المقام ، أمره بأن يستغفر لهم مابينهم وبين الله - تعالى - لتنزاح عنهم التبعات، فإذا صاروا إلى هذه الدرجة ، أمره بأن يشاورهم فى الأمر لأنهم قد أصبحوا أهلا لهذه المشورة .

وقد تكلم العلماء كلاما طويلا عن حكم المشورة وعن معناها ، وعن فوائدها . فقد قال القرطبى ما ملخصه :

« والاستشارة مأخوذة من قول العرب : شرت الدابة وشورتها إذا علمت خبرها وحالها بجرى أو غيره . . وقد يكون من قولهم شرت العسل واشترته إذا أخذته من موضعه . .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٢٠ .

ثم قال : واختلف أهل التأويل فى المعنى الذى أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يشاور فيه أصحابه فقالت طائفة : ذلك فى مكائد الحروب ، وعند لقاء العدو ، تطييباً لنفوسهم ورفعاً لأقدارهم ، وإن كان الله - تعالى - قد أغناه عن رأيهم بوحيه . . . .

وقال آخرون : ذلك فيما لم يأته فيه وحى . فقد قال الحسن : ما أمر الله تعالى - نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما فى المشاورة من الفضل ، ولتقتدى به أمته من بعده .

ثم قال : والشورى من قواعد الشريعة ، وعزائم الأحكام، والذى لا يستشير أهل العلم والدين - والخبرة - فعزله واجب . وهذا مما لا خلاف فيه .

وقد استشار النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه فى كثير من الأمور ، وقال « المستشار مؤتمن » وقال « ماندم من استشار ولا خاب من استخار » وقال : « ما شقى قط عبد بمشورة وما سعد باستغناء رأى » .

وقال البخارى : « وكانت الأئمة بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها . . . »[1] .

وقال الفخر الرازى ما ملخصه : « اتفقوا على أن كل ما نزل فيه وحى من عند الله لم يجز للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يشاور فيه الأمة ، لأنه إذا جاء النص بطل الرأى والقياس ، فأما ما لا نص فيه فهل تجوز المشاورة فيه فى جميع الأشياء أو لا ؟

قال بعضهم : هذا الأمر مخصوص بالمشاورة فى الحروب ، لأن الألف واللام فى لفظ « الأمر » تعود على المعهود السابق وهو ما يتعلق بالحروب - إذ الكلام فى غزوة أحد .

(١) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٢٤٩ بتصرف وتلخيص

وقال آخرون : اللفظ عام خص منه مانزل فيه وحي فتبقى حجته في الباقي وظاهر الأمر في قوله « وشاورهم » للوجوب . وحمله الشافعي على الندب..[١]

والحق أن الشورى أصل من أصول الحكم في الإسلام ، وقد استشار النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه في غزوات بدر وأحد والأحزاب وفي غير ذلك من الأمور التي تتعلق بمصالح المسلمين ، وسار على هذا المنهج السلف الصالح من هذه الأمة .

ولقد كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يكتب لعماله يأمرهم بالتشاور ويتمثل لهم في كتبه بقول الشاعر :

خليلي ليس الرأي في صدر واحد … أشيرا على بالذي تريان

وقد تمدح الحكماء والشعراء بفضيلة الشورى وما يترتب عليها من خير ومنفعة ومن ذلك قول بشار بن برد :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن … برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولاتحسب الشورى عليك غضاضة … فإن الخوافي قـــوة للقوادم

والحكام العقلاء المنصفون المتحرون للحق والعدل هم الذي يقيمون حكمهم على مبدأ الشورى . ولا يعادي الشورى من الحكام إلا أحد اثنين :

إما رجل قد أصيب بداء الغرور والتعالي ، فهو يتوهم أن قوله هو الحق الذي لايخالطه باطل ، وأنه ليس محتاجا إلى مشورة غيره وإما رجل ظالم مستبد مجانب للحق ، فهو ينفذ مايريده بدون مشورة أحد لأنه يخشى إذا استشار غيره أن يطلع الناس على ظلمه وجوره وفجوره .

هذا ومتى تمت المشورة على أحد الوجوه وأصلحها ، واستقرت الأمور على وجه معين ، فعلى العاقل أن يمضي على ما استقر عليه الرأي بدون تردد أو تخاذل ولذا قال - سبحانه - « فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين »

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٩ ص ٦٧

أى فإذا عقدت نيتك على إتمام الأمر وإمضائه بعد المشاورة السليمة وبعد أن تبين لك وجه السداد فيما يجب أن تسلكه فبادر بتنفيذ ماعقدت العزم على تنفيذه ، و « توكل على الله » أى اعتمد عليه فى الوصول إلى غايتك ، فإن الله تعالى - يحب المعتمدين عليه ، المفوضين أمورهم إليه مع مباشرة الأسباب التى شرعها لهم لكى يصلوا إلى مطلوبهم .

فالجملة الكريمة تأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - وتأمر كل من يأتى له الخطاب بأن يبذل أقصى جهده لمعرفة ماهو صواب ، بأن يستشير أهل الخبرة كل فى مجال تخصصه ، فإذا ما استقر رأيه على وجهة نظر معينة - بعد أن درسها دراسة فاحصة واستشار العقلاء الأمناء فيها - فعليه أن يبادر إلى تنفيذها بدون تردد فإن التردد يضيع الأوقات ، والتأخر كثيرا مايحول الحسنات إلى سيئات وعليه مع حسن الاستعداد أن يكون معتمدا على الله، مظهرا العجز أمام قدرته سبحانه - ، لأنه هو الخالق للأسباب والمسببات وهو القادر على تغييرها .

وكم من أناس اعتمدوا على قوتهم وحدها ، أو على مباشرتهم للأسباب وحدها دون أن يجعلوا للاعتماد على الله مكانا فى نفوسهم ، فكانت نتيجتهم الفشل والخذلان وكانت الهزيمة المنكرة المرة هى النتيجة التى اكتسبوها بسبب غرورهم وفجورهم وفسوقهم عن أمر الله . ورحم الله القائل .

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ولقد أكد الله - تعالى - وجوب التوكل عليه بعد ذلك فى قوله : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم . وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » ؟

والمراد بالنصر هنا العون الذى يسوقه لعباده حتى ينتصروا على أعدائهم والمراد بالخذلان ترك العون . والمخذول ، هو المتروك الذى لا يعبأ به .

يقال : خذلت الوحشية إذا أقامت على ولدها فى المرعى وتركت صواحباتها .

والمعنى : إن يرد الله - تعالى - نصركم كما نصركم يوم بدر - « فلا غالب لكم » أى فإنه لا يوجد قوم يستطيعون قهركم ؛ لأن الله معكم ، ومن كان الله معه فلن يغلبه أحد من الخلق .

وإن يرد أن يخذلكم ويمنع عنكم عونه كما حدث لكم يوم أحد ، فلن يستطيع أحد أن ينصركم من بعد خذلانه ، لأنه لا يوجد أحد عنده قدرة يقف أمام قدرة الله - تعالى - ومشيئته .

والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى ، أى لا أحد يستطيع نصركم إن أراد الله خذلانكم . وهو جواب للشرط الثانى .

وفيه لطف بالمؤمنين . حيث صرح لهم بعدم الغلبة فى الأول ، ولم يصرح لهم بأنهم لا ناصر لهم فى الثانى ، بل أتى به فى صورة الاستفهام وإن كان معناه نفيا ليكون أبلغ ، إذ فى مجيئه على هذه الصورة الاستفهامية توجيه لأنظار المخاطبين إلى البحث عن قوى تكون قدرته كافية للوقوف أمام إرادة الله - تعالى - . ولا شك أنهم لن يجدوه ، وعندئذ سيعتقدون عن يقين بأن الله وحده هو الكبير المتعال ، وأنه لا ناصر لهم سواه .

وقوله « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » أى وعلى الله وحده لا على أحد سواه ، فليجعل المؤمنون اعتمادهم واتكالهم ؛ لأن الذين يعتمدون على أى قوة سوى الله - تعالى - لن يصلوا إلى العاقبة الطيبة التى أعدها - سبحانه - لعباده المتقين .

فالآية الكريمة كلام مستأنف ، وقد سيق بطريق تلوين الخطاب ، تشريفا للمؤمنين لإيجاب التوكل عليه ، والترغيب فى طاعته التى تؤدى إلى النصر ، وتحذير لهم من معصيته التى تفضى إلى الخسران والخذلان .

ثم نهى - سبحانه - عن الغلول ، ونزه النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فقال - تعالى - : « وما كان لنبي أن يغل ، ومن يغلل يأت بما غل يوم

القيامة ، وقوله «يغل» من الغلول . وهو الأخذ من الغنيمة خفية قبل قسمتها . يقال : غل فلان شيئا من المغنم يغل غلولا إذا أخذه خفية . ويقال : أغل الجازر أو السالخ إذا أبقى فى الجلد شيئا من اللحم على طريق الخفية .

وأصله من الغلل وهو دخول الماء فى خلل الشجر خفية . والغلل : الحقد الكامن فى الصدر وسميت هذه الخيانة غلولا ، لأنها تجرى فى المال على خفاء من وجه لا يحل .

والمعنى : ماصح ولا استقام لنبى من الأنبياء أن يخون فى المغنم ، لأن الخيانة تتنافى مع مقام النبوة الذى هو أشرف المقامات ، «ومن يغلل» أى ومن يرتكب شيئا من ذلك ، «يأت بما غل يوم القيامة» أى يأت بما غله يوم القيامة حاملا إياه ليكون فضيحة له يوم الحشر ، وليؤخذ بإثم غلوله وخيانته .

وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه أبو داود والترمذى عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية «ما كان لنبى أن يغل» فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر . فقال بعض الناس : لعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذها ، وأكثروا فى ذلك فأنزل الله الآية » .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أيضا أن المنافقين اتهموا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشىء فُقِدَ ، فأنزل الله ـ تعالى ـ «وما كان لنبى أن يغل ....» .

قال ابن كثير ـ بعد أن ساق هاتين الروايتين ـ : وهذا تنزيه له ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة ، وقسمة الغنيمة وغير ذلك[1] .

وفى ورود هذه الآية الكريمة فى سياق الحديث عن غزوة أحد ، حكمة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢١ .

عظيمة ، وتأديب من الله المؤمنين ، وتحذير لهم من الغلول ، ذلك أن الرماه الذين تركوا أماكنهم مخالفين أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد دفعهم إلى ذلك خشيتهم من أن ينفرد المقاتلون بالغنائم ، ففعلوا مافعلوا . ولقد روى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال للرماة « أظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم(١) » .

وقد نهى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كثير من الأحاديث عن الغلول ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قام فينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، ثم قال : لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يارسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك ، ولا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يارسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول : يارسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يارسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق ـ أى ثياب ـ فيقول: يارسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت ـ أى ذهب وفضة ـ فيقول : يارسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك » .

هذا ، وجمهور العلماء على أن الغال يأتى بما غله يوم القيامة بعينه على سبيل الحقيقة لأن ظواهر النصوص من الكتاب والسنه تؤيد ذلك ، ولأنه لا موجب لصرف الألفاظ عن ظواهرها .

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ١٠٩

ومن العلماء من جعل الإتيان بالغلول يوم القيامة مجاز عن الإتيان بإثمه تعبيراً بما غل عما لزمه من الإثم مجازا

قال الفخر الرازى : واعلم أن هذا التأويل ـ المجازى ـ يحتمل ، إلا أن الأصل المعتبر فى علم القرآن أنه يجب إجراء اللفظ على الحقيقة ، إلا إذا قام دليل يمنع منه . وهنا لا مانع من هذا الظاهر فوجب إثباته »(١) .

ومن المفسرين الذين حملوا الإتيان على ظاهره الإمام القرطبى فقد قال عند تفسيره لقوله ـ تعالى ـ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، أى يأتى به حاملا له على ظهره ورقبته ، معذباً بحمله وثقله ، ومرعوبا بصوته ، وموبخاً بإظهار خيانته على رءوس الإشهاد .

وقال بعد إيراده للحديث السابق الذى رواه مسلم عن أبى هريرة : قيل الخبر محمول على شهرة الأمر . أى يأتى يوم القيامة قد شهر الله أمره كما يشهر لو حمل بعيراً له رغاء أو فرساً له حمحمة .

قلت . وهذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز والتشبيه ، وإذا دار الكلام بين الحقيقة والمجاز فالحقيقة الأصل ـ كما فى كتب الأصول ـ . وقد أخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم بالحقيقة ولا عطر بعد عروس »(٢) :

ثم نبه ـ سبحانه ـ على العقوبة التى ستحمل بالخائن ، بعد أن بين ماسينا له من فضيحة وخزى فقال . « ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون » .

أى : ثم تعطى كل نفس يوم القيامة جزاء ما كسبت من خير أو شر وافيا تاماً ، وهم لايظلمون شيئاً . لأن الحاكم بينهم هو ربك الذى لا يظلم أحداً .

وهذه الجملة معطوفة على ماقبلها وقوله « ومن يغلل ... » وجاء العطف

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٧٣ .

(٢) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٢٥٧ .

بثم المفيدة للتراخي ، للإشعار بالتفاوت الشديد بين عمله ماغل وبين جزائه وسوء عاقبته يوم القيامة .

وقال - سبحانه - ثم توفى كل نفس .. » بصيغة العموم ، ولم يقل ثم «يوفى الغال مثلا - لأن من فوائد ذكر هذا الجزاء بصيغة العموم ، والإعلام والأخبار للغال وغيره من جميع الكاسبين بأن كل إنسان سيجازى على عمله سواء أكان خيراً أو شراً ، فيندرج الغال تحت هذا العموم أيضاً فكأنه قد ذكر مرتين .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : فإن قلت : هلا قيل : ثم يوفى ما كسب ليتصل به ؟ قلت : جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره فاتصل به من حيث المعنى ، وهو أبلغ وأثبت ، لأنه إذا علم الغال أن كل كاسب خيراً أو شراً يجزى فوفى جزاءه ، علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب(١) .

ثم أكد - سبحانه - نفى الظلم عن ذاته فقال : « أفمن اتبع رضوان الله » بأن واظب على مايرضيه ، والتزم طاعته ، وترك كل مانهى عنه من غلول وغيره « كمن باء بسخط من الله » أى كمن رجع بغضب عظيم عليه من الله بسبب غلوله وخيانته وارتكابه لما نهى الله عنه من أقوال وأفعال ؟

فالآية الكريمة تفريع على قوله - تعالى - قبل ذلك « ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » وتأكيد لبيان أنه لا يستوى المحسن والمسيء والأمين والخائن .

والاستفهام إنكارى بمعنى النفى ، أى لا يستوى من اتبع رضوان الله مع من باء بسخط منه .

وقد ساق - سبحانه - هذا الكلام الحكيم بصيغة الاستفهام الإنكارى ، للتنبيه على أن عدم المساواة بين المحسن والمسيء أمر بدهى واضح لا تختلف فيه

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٣٥ .

العقول والأفهام ، وأن أى إنسان عاقل لو سئل عن ذلك لأجاب بأنه لا يستوى من اتبع رضوان الله مع من رجع بسخط عظيم منه بسبب كفره أو فسقه وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً ، لا يستوون »(١) .

وقوله «أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض(٢)...»؟

والفاء فى قوله « أفمن اتبع ... » للعطف على محذوف والتقدير : أمن اتقى فاتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ؟

ثم عقب - سبحانه - ذكر سخطه بذكر عقوبته فقال . « ومأواه جهنم وبئس المصير » أى أن هذا الذى رجع بغضب عظيم عليه من الله تعالى - بسبب كفره أو فسوقه أو خيانته ، سيكون مثواه ومصيره إلى النار وبئس ذلك المصير الذى صار إليه وكان له مرجعا ونهاية .

ثم بين - سبحانه - النتيجة التى ترتبت على عدم تساوى المحسن والمسىء فقال « هم درجات عند الله ، والله بصير بما يعملون » .

والضمير « هم » يعود على « من » فى قوله « أفمن اتبع رضوان الله ... » وفى قوله « كمن باء بسخط من الله » أى على الفريقين . وبعضهم جعل مرجعه إلى الفريق الأول فقط .

والدرجات : جمع درجة وهى الرتبة والمنزلة ، ومنه الدرج بمعنى السلم لأنه يصعد عليه درجة بعد درجة .

وأكثر ما تستعمل الدرجة فى القرآن فى المنزلة الرفيعة ، كما فى قوله - تعالى - « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات »(٣) . بخلاف الدركة فإنها تستعمل

---

(١) سورة السجدة . الآية ١٨

(٢) سورة ص . الآية ٢٨ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٣٢

فى عكس ذلك ، كما فى قوله - تعالى - « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار »[١] .

ولذا قال الراغب : الدرك كالدرج لكن الدرج يقال اعتبارا بالصعود ، والدرك اعتبارا بالحدور ، ولهذا قيل : درجات الجنة ودركات النار . ولتصور الحدور فى النار سميت هاوية ... »[٢] .

والمعنى : هم أى الأخيار الذين اتبعوا رضوان الله ، والأشرار الذين رجعوا بسخط منه متفاوتون فى الثواب والعقاب على حسب أعمالهم كما تتفاوت الدرجات وإطلاق الدرجات على الفريقين من باب التغليب للأخيار على الأشرار والمراد : أن الذين اتبعوا رضوان الله يتفاوتون فى الثواب الذى يمنحهم الله إياه على حسب قوة إيمانهم ، وحسن أعمالهم .

كما أن الذين باءوا بسخط منه يتفاوتون فى العقاب الذى ينزل بهم على حسب ما اقترفوه من شرور وآثام ، فمن أوغل فى الشرور والآثام كان عقابه أشد من عقاب من لم يفعل فعله وهكذا .

والذين قالوا إن الضمير « هم » يعود على الفريق الأول فقط احتجوا بأن التعبير بالدرجات يستعمل فى الغالب فى الثواب ، وبأن الله قد أضاف هذه الدرجات لنفسه فدل ذلك على أن المقصود بقوله « هم » الذين اتبعوا رضوان الله ، وبأن هؤلاء الذين اتبعوا رضوان الله قد فضل الله بعضهم على بعض كما جاء فى بعض الآيات ومنها قوله : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »[٣] .

والذى نراه أن عودة الضمير « هم » على الفريقين أقرب إلى الحق ، لأن

(١) سورة النساء الآية ١٤٥

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٦٧

(٣) سورة الإسراء الآية ٢١

تفاوت الدرجات موجود بين الأخيار كما أن تفاوت العقوبات موجود بين الأشرار، فالذين أدوا جميع ما كلفهم الله به من طاعات ليسوا كالذين اكتفوا بأداء الفرائض . والذين انحدروا فى المعاصى إلى النهاية ليسوا كالذين وقعوا فى بعضها .

وقوله « عند الله » أى فى حكمه وعلمه وهو تشريف لهم والظرف متعلق بدرجات على المعنى ، أو متعلق بمحذوف وقع صفة لها . أى درجات كائنة عند الله .

وقوله « والله بصير بما يعملون » أى مطلع على أعمال العباد صغيرها وكبيرها ظاهرها وخفيها ، لا يغيب عنه شىء ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه على حسب عمله ، بمقتضى علمه الكامل ، وعدله الذى لا ظلم معه

وبعد أن نزه الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - عن الغلول وعن كل نقص ، وبين أن الناس متفاوتون فى الثواب والعقاب على حسب أعمالهم ...

بعد أن بين ذلك اتبعه ببيان فضله - سبحانه - على عباده فى أن بعث فيهم رسولا منهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور فقال - تعالى - : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم . . . » .

قال الرازى: قال الواحدى: المن فى كلام العرب معان . أحدها أنه الذى يسقط من السماء ، وهو قوله : « وأنزلنا عليكم المن والسلوى » . وثانيها : أن تمن بما أعطيت كما فى قوله « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » . وثالثها : القطع كما فى قوله « وإن لك لأجرا غير ممنون » ورابعها الإنعام والإحسان إلى من لا تطلب الجزاء منه - وهو المراد هنا - »[1] .

والمعنى : لقد أنعم الله على المؤمنين ، وأحسن إليهم « إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » أى بعث فيهم رسولا عظيم القدر ، هو من العرب أنفسهم، وهم يعرفون حسبه ونسبه وشرفه وأمانته .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ٨٧

وعلى هذا المعنى يكون المراد بقوله « من أنفسهم » أى من نفس العرب ، ويكون المراد بالمؤمنين مؤمنى العرب ، وقد بعثه الله عربيا مثلهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع بتوجيهاته .

ويصح أن يكون معنى قوله « من أنفسهم » أنه بشر مثل سائر البشر إلا أن الله ـ تعالى ـ وهبه النبوة والرسالة ، ليخرج الناس ـ العربى منهم وغير العربى ـ من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، وجعل رسالته عامة فقال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

وخص الله ـ تعالى ـ منته وفضله بالمؤمنين ؛ لأنهم هم الذين انتفعوا بنعمة الإسلام ، الذى لن يقبل الله دينا سواه ، والذى جاء به محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

والجملة الكريمة جواب قسم محذوف ، والتقدير : والله لقد منّ الله على المؤمنين . . . » .

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر هذه المنة والفضل ببعثة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

والتلاوة : هى القراءة المتتابعة المرتلة التى يكون بعضها تلو بعض .

والتزكية : هى التطهير والتنقية .

أى لقد أعطى الله ـ تعالى ـ المؤمنين من النعم ما أعطى ، لأنه قد بعث فيهم رسولا من جنسهم يقرأ عليهم آيات الله التى أنزلها لهدايتهم وسعادتهم ، « ويزكيهم » أى يطهرهم من الكفر والذنوب . أو يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين طاهرين مما كانوا عليه من دنس الجاهلية ، والاعتقادات الفاسدة .

« ويعلمهم الكتاب » بأن يبين لهم المقاصد التى من أجلها نزل القرآن الكريم ، ويشرح لهم أحكامه ، ويفسر لهم ما خفى عليهم من ألفاظه ومعانيه التى قد تخفى على مداركهم .

فتعليم الكتاب غير تلاوته ، لأن تلاوته قراءته مرتلا مفهوما ، أما تعليمه
ناه بيان أحكامه وما اشتمل عليه من تشريعات وآداب

ويعلمهم كذلك « الحكمة » أى الفقه فى الدين ومعرفة أسراره وحكمه
قاصده التى يكمل بها العلم بالكتاب .

هذه الآية الكريمة قد اشتملت على عدة صفات من الصفات الجليلة التى
حها الله — تعالى — لنبيه محمد — صلى الله عليه وسلم — .

ثم بين — سبحانه — حال الناس قبل بعثة الرسول — صلى الله عليه وسلم —
ال « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

أى : إن حال الناس وخصوصا العرب أنهم كانوا قبل بعثة الرسول
صلى الله عليه وسلم — إليهم فى ضلال بين واضح لا يخفى أمره على أحد
، ذوى العقول السليمة والأذواق المستقيمة .

وحقا لقد كان الناس قبل أن يبزغ نور الإسلام الذى جاء به — صلى الله
يه وسلم — من عند ربه ، فى ضلال واضح ، وظلام دامس ، فهم من ناحية
بادة كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى ، ومن ناحية الأخلاق تفشت فيهم
ذائل حتى صارت شيئا مألوفا ، ومن ناحية المعاملات كانوا لا يلتزمون
لحق والعدل فى كثير من شئونهم ...

والخلاصة أن الضلال والجهل وغير ذلك من الرذائل ، كانت قد استشرت
العالم بصورة لا تخفى على عاقل .

فكان من رحمة الله بالناس ومنته عليهم أن أرسل فيهم نبيه محمدا — صلى الله
يه وسلم — لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان إلى نور
هدايه والاستقامة والإيمان .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن غزوة أحد ، فحكت ما قاله ضعاف

الإيمان فى أعقابها ، وردت عليهم بما يبطل مقالتهم ، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم . فقال - تعالى - :

« أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا ، لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) » .

فقوله - تعالى - : « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا .. الخ » كلام مستأنف مسوق لإبطال بعض ما نشأ من الظنون الفاسدة ، إثر إبطال بعض آخر تقدم الحديث عنه ، فإن من فوائد غزوة أحد أنها كشفت عن قوى الإيمان من ضعيفه ، وميزت الخبيث من الطيب .

وإذا كان انتصار المسلمين فى بدر جعل كثيرا من المنافقين يدخلون فى الإسلام طمعا فى الغنائم .. فإن عدم انتصارهم فى أحد قد أظهر المنافقين على حقيقتهم ، ويسر للمؤمنين معرفتهم والحذر منهم .

والهمزة فى قوله « أو لما ... » للاستفهام الإنكارى التعجيبى . و « الواو » للعطف على محذوف . و « لما » ظرف بمعنى حين مضافة إلى ما بعدها مستعملة فى الشرط . والمصيبة : أصلها فى اللغة الرمية التى تصيب

الهدف ولا تخطئه ، ثم أطلقت على ما يصيب الإنسان فى نفسه أو أهله أو ماله أو غير ذلك من مضار . وقوله « مثليها » أى ضعفها ، فإن مثل الشيء ما يساويه ، ومثليه ضعفه .

والمعنى : أفعلتم ما فعلتم من أخطاء ، وحين أصابكم من المشركين يوم أحد نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك فى بدر تعجبتم وقلتم « أنى هذا » أى من أين لنا هذا القتل والخذلان ، ونحن مسلمون نقاتل فى سبيل الله ، وفينا رسوله - صلى الله عليه وسلم ، وأعداؤنا الذين قتلوا منا من قتلوا مشركون يقاتلون فى سبيل الطاغوت .

فالجملة الكريمة توبيخ لهم على ما قالوه ، لأنه ما كان ينبغى أن يصدر عنهم إذ هم قتلوا من المشركين فى بدر سبعين من صناديدهم ، وأسروا منهم قريبا من هذا العدد ، وفى أحد كذلك كان لهم النصر فى أول المعركة على المشركين ، وقتلوا منهم قريبا من عشرين إلا أنهم حين خالفوا وصية رسولهم - صلى الله عليه وسلم - وتطلعوا إلى الغنائم منع الله عنهم نصره ، فقتل المشركون منهم قريبا من سبعين .

وقوله « قد أصبتم مثليها » فى محل رفع صفة « لمصيبة » . وفائدة هذا القول التنبيه على أن أمور الدنيا لا تبقى على حال واحدة ، وإن من شأن الحرب أن تكون سجالا ، إلا أن العاقبة جعلها الله للمتقين .

وقوله « قلتم أنى هذا » هو موضع التوبيخ والتعجيب من شأنهم ، لأن قولهم هذا يدل على أنهم لم يحسنوا وضع الأمور فى نصابها ، حيث ظنوا أن النصر لابد أن يكون حليفهم حتى ولو خالفوا أمر قائدهم ورسولهم - صلى الله عليه وسلم ، ولذا فقد رد الله - تعالى - عليهم بما من شأنه أن يعيد إليهم صوابهم ، وبما يعرفهم السبب الحقيقى فى هزيمتهم فقال : « قل هو من عند أنفسكم » .

أى قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا ما قالوا : إن ما أصابكم فى أحـد سببه أنتم لا غيركم .

فأنتم الذين أبيتم إلا الخروج مع أن النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد أن أشار عليكم بالبقاء فيها . . وأنتم الذين خالفتم وصيته بترككم أماكنكم التى حددها لكم وأمركم بالثبات فيها . وأنتم الذين تطلعت أنفسكم إلى الغنائم فاشغلتم بها وتركتم النصيحة . وأنتم الذين تفرقتم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى ساعة الشـدة والعسرة . فلهذه المخالفات التى نبعت من أنفسكم أصابكم ما أصابكم فى أحد ، وكان الأولى بكم أن تعرفوا ذلك وأن تعتبروا ، وأن تقلعوا عن هـذا القول الذى لا يليق بالعقلاء ، إذ العـاقل هو الذى يحاسب نفسه عندما يفاجئه المكروه ويعمل على تدارك أخصائه . ويقبل على حاضره ومستقبله بثبات وصبر ، مستفيدا بماضيه ، ومتعظا بما حدث له فيه .

وما أحوج الناس فى كل زمان ومكان إلى الأخذ بهـذا الدرس ، فإن كثيرا منهم يقصرون فى حق الله وفى حق أنفسهم وفى حق غيرهم ، ولا يباشرون الأسباب التى شرعها الله للوصول إلى النصر . . . بل يبنون حياتهم على الغرور والإهمال ، فإذا ما أصابتهم الهزيمة مسحوا عيوبهم فى القضاء والقدر ، أو فى غيرهم من النـاس ، أو شـدهوا لهول ما أصابهم - بسبب تقصيرهم - ثم قالوا : أنى هـذا ؟ وما دروا - لجهلهم وغرورهم - أن الله - تعالى - قد جعل لـكل شىء سببا فمن باشر أسباب النجاح وصـل إليهما بإذن الله ، ومن أعرض عنها حرمه الله - تعالى - من عونه ورعايته .

ولقد أكد - سبحانه - قدرته على كل شىء فقـال : « إن الله على كل شىء قدير » أى إن الله - تعالى - قدرته فوق كل شىء ، فهو القدير على نصركم وعلى خذلانكم ، وبمـا أنكم قد خالفتم نبيكم - صلى الله عليه وسلم - فقد حرمكم الله نصره ، وقدر لـكم الخذلان ، حتى تعتبروا ولا تعودوا إلى ما حدث من بعضكم فى غزوة أحد ، ولتذكروا دائما قوله - تعالى - « وما أصابكم من

مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »[١] .

ثم أكد — سبحانه — عموم قدرته وإرادته فقال : « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين » .

أى : وما أصابكم — أيها المؤمنون — من قتل وجراح وآلام يوم التقى جمعكم وجمع أعدائكم فى أحد ، « فبإذن الله » أى فبإرادته ، إذ ما من شىء يقع فى هذا الكون إلا بتقدير الله وعلمه . فعليكم أن تستسلموا لإرادة الله ، وأن تعودوا إلى أنفسكم لتهذبوها وتروضوها على تقوى الله وطاعته . حتى تكونوا أهلا لنصرته وعونه

و « ما » موصولة بمعنى الذى فى محل رفع بالابتداء ، وجملة « أصابكم » صلة الموصول ، وقوله « فبإذن الله » هو الخبر . ودخلت الفاء فى الخبر لشبه المبتدأ بالشرط . وقوله « وليعلم المؤمنين » بيان لبعض الحكم التى من أجلها حدث ماحدث فى غزوة أحد .

والعلم هنا كناية عن الظهور والتقرر فى الخارج لما قدره — سبحانه — فى الأزل أى أراد الله أن يحدث ما حدث فى غزوة أحد ليظهر للناس ويميز لهم المؤمنين من غيرهم .

وقوله : « وليعلم الذين نافقوا » حكمة ثانية لما حدث فى غزوة أحد . أى : حدث ماحدث فى غزوة أحد ليعلم — سبحانه — المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية وظهور يتميز معه عند الناس كل فريق عن الآخر تميزا ظاهرا .

إذ أن نصر المسلمين فى بدر فتح الطريق أمام المنافقين للتظاهر باعتناق الإسلام وعدم انتصارهم فى أحد ، كشف عن هؤلاء المنافقين وأظهرهم

(١) سورة الشورى الآية ٣٠

حقيقتهم ، فإن من شأن الشدائد أنها تكشف عن معادن النفوس وخبايا القلوب .

ثم بين - سبحانه - بعض النصائح التي قيلت لهؤلاء المنافقين حتى يقلعوا عن نفاقهم ، وحكى ما رد به المنافقون على الناصحين فقال : « وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم » .

أي فعل - سبحانه - ما فعل في أحد ليميز المؤمنين من المنافقين الذين قيل لهم من النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن بعض أصحابه : تعالوا معنا لتقاتلوا في سبيل الله ، فإن لم تقاتلوا فادفعوا أي فانضموا إلى صفوف المقاتلين فيكثر عددهم بكم ، فإن كثرة العدد تزيد في خوف الأعداء .

أو المعنى : تعالوا معنا لتقاتلوا من أجل إعلاء كلمة الله ، فإن لم تفعلوا ذلك لضعف إيمانكم ، واستيلاء الشهوات والأهواء على نفوسكم ، فلا أقل من أن تقاتلوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن مدينتكم عار الهزيمة .

أي إن لم تقاتلوا طلبا لمرضاة الله ، فقاتلوا دفاعا عن أوطانكم وعزتكم قال الجمل : وهذه الجملة وهي قوله - تعالى - « وقيل لهم تعالوا ... » تحتمل وجهين . أحدهما أن تكون مستأنفة ، أخبر الله أنهم مأمورون إما بالقتال وإما بالدفع أي تكثير سواد المسلمين - أي عددهم - والثاني . أن تكون معطوفة على « نافقوا » فتكون داخلة في خبر الموصول . أي وليعلم الذين حصل منهم النفاق والقول المذكور وإنما لم يأت بحرف العطف بين تعالوا وقاتلوا . لأن المقصود أن تكون كل من الجملتين مقصودة بذاتها »[1] .

وقوله « قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم » حكاية لردهم القبيح على من نصحهم بالبقاء مع المجاهدين .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٣٢٤

أى قال المنافقون ـ وهم عبد الله بن أبى وأتباعه ـ . لو تعلم أنكم تقاتلون حقا لسرنا معكم ، ولكن الذى نعلمه هو أنكم ستذهبون إلى أحد ثم تعودون بدون قتال لأى سبب من الأسباب .

أو المعنى - كما يقول الزمخشرى - « لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا « لاتبعناكم » يعنون أن ما أنتم فيـه لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشىء ، ولا يقال لمثله قتال ، إنما هو إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، لأن رأى عبد الله بن أبى كان فى الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج[١] .

وقال ابن جرير . خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أحد فى ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة . انخزل عنهم عبد الله بن أبى ابن سلول بثلث الناس وقال . أطاعهم ـ أى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرج وعصانى . والله ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق والريب ، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بنى سلمة ـ يقول لهم . ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم ـ وقاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ـ فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أن يكون قتال .

فلما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف عن المؤمنين قال لهم . أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغنى الله رسوله عنكم ، ثم مضى مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ »[٢] .

هـذا هو موقف المنافقين فى غزوة أحد ، وهو موقف يدل على فساد قلوبهم ، وخبث نفوسهم ، وجبنهم عن لقاء الأعداء .

ولقد كان المؤمنون الصادقون على نقيض ذلك ، فلقد خرجوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وثبتوا إلى جانبه فكانوا ممن قال الله فيهم: «من المؤمنين

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ص ٤٢٧ . (٢) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ١٦٨

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا، ولقد حكى لنا التاريخ أن بعض المؤمنين الذين كانت لهم أعذارهم التى تسقط عنهم الخروج للجهاد، كانوا يخرجون مع المجاهدين لتكثير عددهم.

فعن أنس بن مالك قال: رأيت يوم القادسية عبد الله بن أم مكتوم - وكان رجلا أعمى - وعليه درع يجر أطرافها وبيده راية سوداء. فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ فقال: بلى ولكنى أحب أن أكثر المسلمين بنفسى[1] هذا، وقد أصدر - سبحانه - حكمه العادل على أولئك المنافقين فقال: «هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون».

أى هم يوم أن قالوا هذا القول الباطل قد بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مؤمنون، لأنهم قبل أن يقولوا: «لو نعلم قتالا لاتبعناكم»، كانوا يتظاهرون بالإيمان، وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر.

أو المعنى: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانخزال تقوية للمشركين.

قال الجمل: وقوله «هم» مبتدأ، وقوله «أقرب» خبره، وقوله «للكفر» وقوله «للإيمان» متعلقان بأقرب، لأن أفعل التفضيل فى قوة عاملين: فكأنه قيل: قربوا من الكفر وقربوا من الإيمان، وقربهم للكفر فى هذا اليوم أشد لوجود العلامه وهى خذلانهم المؤمنين»[2].

---

(١) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٢٦٦.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٣٢٤ بتصرف يسير

وقوله « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » جملة مستأنفة مبينة لحالهم مطلقا لا فى ذلك اليوم فحسب .

أى أن هؤلاء القوم من صفاتهم الذميمة أنهم يقولون بألسنتهم قولا يخالف ما انطوت عليه قلوبهم من كفر ، وما امتلأت به نفوسهم من بغضاء لكم — أيها المؤمنون — .

قال صاحب الكشاف : وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم ، وأن إيمانهم موجود فى أفواههم معدوم فى قلوبهم ، بخلاف صفة المؤمنين فى مواطأة قلوبهم لأفواههم[1] .

وقوله « والله أعلم بما يكتمون » تذييل قصد به زجرهم وتوعدهم بسوء المصير بسبب نفاقهم وخداعهم .

أى والله — تعالى — أعلم منكم — أيها المؤمنون — بما يضمره هؤلاء المنافقون من كفر ومن كراهية لدينكم ، لأنه — سبحانه — يعلم ما ظهر وما خفى من أمورهم ، وقد كشف الله لكم أحوالهم لكى تحذروهم ، وسيحاسبهم يوم القيامة على أعمالهم ، وسينزل بهم ما يستحقونه من عذاب مهين .

ثم حكى — سبحانه — لونا آخر من أراجيفهم وأكاذيبهم التى قصدوا من ورائها الإساءة إلى المؤمنين ، والتشكيك فى صدق تعاليم الإسلام فقال — تعالى — « الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا . لو أطاعونا ما قتلوا » .

أى أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بما ارتكبوه من جنايات قبيل غزوة أحد وخلالها . بل إنهم بعد انتهاء المعركة قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم فى المشرب والإتجاه : قالوا لهم وقد قعدوا عن القتال : لو أن هؤلاء الذين

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٣٧

استشهدوا فى أحد أطاعونا وقعدوا معنا فى المدينة لما أصابهم القتل ، ولكنهم خالفونا فكان مصيرهم إلى القتل .

ويجوز أن تكون اللام فى قوله « لإخوانهم » للتعليل فيكون المعنى : أنهم قالوا من أجل إخوانهم الذين استشهدوا فى غزوة أحد ، لو أن هؤلاء الذين قتلوا أطاعونا ولم يخرجوا لبقوا معنا على قيد الحياة ، كما هو حالنا الآن، ولكنهم لم يستمعوا إلى نصحنا وخرجوا للقتال فقتلوا .

وعلى كلا التفسيرين فقولهم هذا يدل على خبث نفوسهم، وانطماس بصيرتهم، وجهلهم بقدرة الله ونفاذ إرادته ، وشماتتهم فيما حل بالمسلمين من قتل وجراح يوم أحد .

ولذا فقد رد الله عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويدحض قولهم ، ويكشف عن جهلهم وسوء تفكيرهم فقال — تعالى — « قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » .

أى قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتهكم بعقولهم الفارغة : إذا كنتم تظنون أنكم دفعتم عن أنفسكم الموت بقعودكم فى بيوتكم ، وامتناعكم عن الخروج للقتال ، إذا كنتم تظنون ذلك « فادرءوا » أى ادفعوا عن أنفسكم الموت المكتوب عليكم ، والذى سيدرككم ولو كنتم فى بروج مشيدة .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة الرد عليهم بما يبطل أقوالهم عن طريق الحس والمشاهدة، ذلك ببيان أن القعود عن الجهاد لا يطيل الحياة كما أن الخروج إلى ساحات القتال لا ينقص شيئا من الآجال . فكم من مجاهد عاد من جهاده سالما . وكم من قاعد أتاه الموت وهو فى عقر داره .

فزعم هؤلاء المنافقين بأن اولئك الذين استشهدوا فى أحد لو أطاعوهم ولم يخرجوا للقتال لما أصابهم القتل زعم باطل . وإلا فإن كانوا صادقين فى هذا الزعم فليدفعوا عن أنفسهم الموت الذى سينزل بهم حتما فى الوقت الذى يشاؤه الله . ولا شك أنهم لن يستطيعوا دفعه فثبت كذبهم وافتراؤهم .

وقوله - تعالى « الذين قالوا لإخوانهم ... » فى محل نصب بدل من قوله « الذين نافقوا » .

أو فى محل رفع بدل من الضمير فى قوله « يكتمون » فكأنه قيل والله أعلم بما يكتم هؤلاء الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا ...

وقوله « وقعدوا » حال من الضمير فى « قالوا » بتقدير حرف قد. أى قالوا ما قالوا والحال أنهم قد قعدوا عن القتال .

وجواب الشرط فى قوله « إن كنتم صادقين » محذوف لدلالة ماقبله عليه وهو قوله « فادرأوا عن أنفسكم الموت » .

والتقدير : إن كنتم صادقين فى زعمكم أن الذين قتلوا فى أحد لو أطاعوكم وقعدوا كما قعدتم لما أصابهم القتل ، إن كنتم صادقين فى هذا الزعم فادرءوه عن أنفسكم الموت عند حلوله .

قال الآلوسى: والمراد أن ما ادعيتموه سببا للنجاة ليس بمستقيم، ولو فرض إستقامته فليس بمفيد . أما الأول : فلأن أسباب النجاة كثيرة : غايته أن القعود والنجاة وجدا معا وهو لا يدل على السببية .

وأما الثانى : فلأن المهروب عنه بالذات هو الموت الذى القتل أحد أسبابه فإن صح ما ذكرتم فادفعوا سائر أسبابه ، فإن أسباب الموت فى إمكان المدافعة بالحيل وامتناعها سواء ، وأنفسكم أعز عليكم وأمرها أهم لديكم »[1] .

وقال ابن القيم : وكان من الحكم التى اشتملت عليها غزوة أحد، أن تكلم المنافقون بما فى نفوسهم ، فسمعه المؤمنون ، وسمعوا رد الله عليهم ، وجوابه لهم ، وعرفوا مراد النفاق . وما يؤول إليه ، كيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة .

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ١٢٠

فكم من حكمة فى ضمن هذه القصة بالغة ، ونعمة على المؤمنين سابغة ، وكم فيها من تحذير وتخويف وإرشاد وتنبيه . وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلها وعاقبتهما(١) .

وبعد هذا الحديث الكاشف عن طبيعة المنافقين وعن أحوالهم ، إنتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الشهداء وفضلهم وما أعده الله لهم من نعيم مقيم فقال - تعالى - :

« ولا تَحسَبَنّ الذينَ قُتِلوا فى سبيلِ اللهِ أمواتاً بل أحياءٌ عند ربِّهم يرزَقون (١٦٩) فَرِحينَ بما آتاهمُ اللهُ من فضله ، ويَستبشِرونَ بالذينَ لم يَلحقُوا بهم مِنْ خَلْفِهم ، ألاَّ خوفٌ عليهم ولا همُ يحزَنون (١٧٠) يَسْتبشِرُونَ بِنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ وأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المؤمنين(١٧١) الذينَ استجابوا للهِ والرسولِ مِنْ بَعد ما أصابَهم القَرحُ ، للذينَ أحسَنُوا منهم واتَّقَوْا أَجرٌ عظيمٌ (١٧٢) الذينَ قالَ لهم النَّاس إنَّ الناسَ قد جمَعُوا لكم فاخشَوهُم فزادَهم إيماناً وقالُوا حسبُنَا اللهُ ونعم الوكيل(١٧٣) فانقلبُوا بنعمةٍ من اللهِ وفَضْلٍ لم يَمسَسْهُمْ سوءٌ واتَّبعوا رِضْوانَ اللهِ واللهُ ذُو فضلٍ عظيم (١٧٤) إنما ذلكم الشيطانُ يُخَوِّفُ أولياءه فلا تخافوهُمْ وخافونِ إنْ كنتُم مؤمنين (١٧٥) » .

فقوله - تعالى - « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء . . . » كلام مستأنف ساقه الله - تعالى - لبيان أن القتل فى سبيل الله الذى يحذره المنافقون ويحذرون الناس منه ليس مما يحذر، بل هو أجل المطالب وأسناها،

(١) زاد المعاد لابن القيم . نقلا عن تفسير القاسمى ص ١٠٣٢ .

إثر بيان أن الحذر لا يدفع القدر ، لأن من قدر الله له القتل لا يمكنه الاحتراز عنه ، ومن لم يقدر له ذلك لا خوف عليه منه .

فهذه الآيات الكريمة رد على شماتة المنافقين إثر الردود السابقة. وتحريض المؤمنين على القتال ، وتقرير لحقيقة إسلامية ثابتة هي أن الاستشهاد فى سبيل الله ليس فناء بل هو بقاء .

والخطاب فى قوله « ولا تحسبن » للنبى - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يتأتى له الخطاب .

والحسبان : الظن ، والنهى بلا هنا منصب على هذا الظن ، أى أنهاكم عن أن تظنوا أنهم أموات ، ونون التوكيد فى قوله « ولا تحسبن » لتأكيد هذا النهى .

أى : لا تحسبن أيها الرسول الكريم ، أو أيها المؤمن أن الذين قتلوا فى سبيل الله ، ومن أجل إعلان كلمته ، لا تحسبنهم أمواتا لا يحسون شيئا ولا يلتذون ولا يتنعمون ، بل هم أحياء عند ربهم ، يرزقون رزق الأحياء ، ويتنعمون بألوان النعم التى أسبغها الله عليهم ، جزاء إخلاصهم وجهادهم وبذلهم أنفسهم فى سبيل الله .

وقوله « الذين » مفعول أول لقوله : « تحسبن » وقوله «أمواتا» مفعوله الثانى وقوله « أحياء » خبر لمبتدأ محذوف أى بل هم أحياء .

وقوله « عند ربهم » يصح أن يكون خبرا ثانيا للمبتدأ المقدر أو صفة لأحياء أو ظرفا له لأن المعنى : يحيون عند ربهم .

والمراد بالعندية هنا المجاز عن القرب والإكرام والتشريف ، أى هم أحياء مقربون عنده ، قد خصهم بالمنازل الرفيعة ، والدرجات العالية ، وليس المراد بها القرب المكانى لاستحالة ذلك فى حق الله - تعالى - .

وقوله « يرزقون » صفة لقوله « أحياء » أو حال من الضمير فيه أى يحيون مرزوقين .

هذا وقد وردت أحاديث متعددة تصرح بأن هذه الآيات الكريمة قد نزلت فى شهداء أحد ، ويدخل فى حكمهم كل شهيد فى سبيل الله ، ومن هذه الأحاديث ماأخرجه أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش . فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عند الحرب . فقال الله - تعالى - : أنا أبلغهم عنكم . قال : فأنزل الله هؤلاء الآيات « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا . . . » الخ الآيات .

وأخرج الترمذى وابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال : لقينى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ياجابر مالى أراك منكسا مهتما » ؟ قلت يارسول الله استشهد أبى - فى أحد - وترك عيالا وعليه دين . فقال : ألا أبشرك بما لقى الله - عز وجل - به أباك ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحا - أى مواجهة ليس بينهما حجاب - وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب ، فقال له ياعبدى تمن أعطك . قال يارب فردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية . فقال الرب - تعالى - إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون . قال : يارب فأبلغ من ورائى فأنزل الله - تعالى - « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتاً . . . » الآية .

قال القرطبى - بعد أن ساق هذين الحديثين وغيرهما - ما ملخصه : « فقد أخبر الله - تعالى - فى هذه الآيات عن الشهداء أنهم أحياء فى الجنة يرزقون . والذى عليه الكثيرون أن حياة الشهداء محققة . ثم منهم من يقول :

ترد إليهم الأرواح فى قبورهم فينعمون ، كما يحيا الكفار فى قبورهم فيعذبون . وصار قوم إلى أن هـــذا مجاز ، والمعنى أنهم فى حكم الله مستحقون للتنعم فى الجنة . وقال آخرون أرواحهم فى أجواف طير خضر وأنهم يرزقون فى الجنة ويأكلون ويتنعمون . وهذا هو الصحيح من الأقوال ، لأن ماصح به النقل فهو الواقع . وحديث ابن عباس ـ الذى سقناه قبل قليل ـ نص يرفع الخلاف ... »(1) .

والذى تطمئن إليه النفس : أن الآية الكريمة تنبه على أن للشهداء مزية خاصة تجعلهم يفضلون الموتى المعروفين لدى الناس ، وهى أنهم فى حياة سارة ، ونعيم لذيذ ، ورزق حسن عند ربهم . وهذه الحياة الممتازة ترفعهم عن أن يقال فيهم كما يقال فى غيرهم : أموات . وإن كان المعنى اللغوى للموت ـ بمعنى مفارقة الروح للجسد فى ظاهر الأمر ـ حاصلا للشهداء كغيرهم من الموتى .

إلا أن هذه الحياة البرزخية التى أخبر الله بها عن الشهداء نؤمن بها كما ذكرها الله ـ تعالى ـ ولا ندرك حقيقتها . إذ لا يمكن إدراكها إلا من طريق الوحى فقد قال ـ تعالى ـ فى آية أخرى : ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » أى ولكن لا تحسون ولا تدركون حال هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله بمشاعركم وحواسكم ؛ لأنها من شئون الغيب التى لا طريق للعلم بها إلا الوحى .

ثم بين ـ سبحانه ـ ماهم فيه من مسرة وحبور فقال : « فرحين بما آتاهم الله من فضله » أى فرحين فرحا عظيما بعد انتقالهم من الدنيا ، بما أعطاهم الله فى حياتهم الجديدة من ضروب النعم المتعددة التى من بينها الثواب العظيم ، والنعيم الدائم ؛ والسعادة التى ليس بعدها سعادة

وقوله « فرحين » يصح أن يكون حالا من الضمير فى « يرزقون » أو من الضمير فى « أحياء » وقوله « من فضله » متعلق بآتاهم .

---

(1) تفسير القرطبى ـ جـ ٤ ص ٢٦٨

و « من » يصح أن تكون للسببية أى الذى آتاهم متسبب عن فضـــله . أو لابتداء الغاية وقوله « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم » معطوف على فرحين لتأويله بيفرحون . أو هو حال من الضمير فى «فرحين» أى . وهم يستبشرون ..

وأصل الاستبشار : طلب البشارة وهو الخبر السار الذى تظهر آثاره على البشرة إلا أن المراد به هنا السرور إستعمالا للفظ فى لازم معناه .

أى : أن هؤلاء الشهداء فرحين بما آتاهم الله من فضله من شرف الشهادة ، ومن الفوز برضا الله ، ويسرون بما تبين لهم من حسن مآل إخوانهم الذين تركوهم من خلفهم على قيد الحياة ، لأن الأحياء عندما يموتون شهداء مثلهم سينالون رضا الله وكرامته ، وسيظفرون بتلك الحياة الأبدية الكريمة كما ظفروا هم بها . فالمراد بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم : رفقاؤهم الذين كانوا يجاهدون معهم فى الدنيا ولم يظفروا بالشهادة بعد ، لأنهم مازالوا على قيد الحياة .

وفى هـذا دلالة على أن أرواح هؤلاء الشهداء قد منحها الله — تعالى — من الكشف والصفاء ما جعلها تطلع على ما يسرها من أحوال الذين يهمهم شأنهم فى الدنيا .

وقيل : إن معنى « لم يلحقوا بهم » لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم .

وقوله « من خلفهم » متعلق بمحذوف حال من فاعل « يلحقوا » أى لم يلحقوهم متخلفين عنهم باقين بعد فى الدنيا . أو متعلق بقوله « يلحقوا » ذاته على معنى أنهم قد بقوا بعدهم وهؤلاء الشهداء قد تقدموهم .

وقوله « ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » بدل اشتمال من قوله « الذين لم يلحقوا بهم » مبين لكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم .

والمعنى : ويستبشرون بما تبين لهم من حال الذين تركوهم من خلفهم

فى الدنيا من رفقائهم المجاهدين ، وهو أنهم لاخوف عليهم فى المستقبل ولاهم يحزنون على ما تركوه فى الدنيا ، بل هم سيكونون آمنين مطمئنين بعد فراقهم الدنيا وعندما يبعثون يوم القيامة .

ونفى عنهم الخوف والحزن . لأن الخوف يكون بسبب توقع المكروه النازل فى المستقبل .

والحزن يكون بسبب فوات المنافع التى كانت موجودة فى الماضى . فبين - سبحانه - أنه لاخوف عليهم فيما سيأتيهم من أحوال القيامة ولاحزن لهم فيما فاتهم من متاع الدنيا .

وقوله « يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين » استئناف مبين لما هم عليه من سرور يتعلق بذواتهم ، بعد أن بين - سبحانه - سرورهم بحال الذين لم يلحقوا بهم ،

والمعنى أن هؤلاء الشهداء يستبشرون أيضاً لأنفسهم بسبب ما أنعم الله عليهم به من نعم جزيلة . وبسبب ما تفضل به عليهم من زيادة للكرامة ، وسمو المنزلة .

وهذا يدل على أن هؤلاء الشهداء لا يهتمون بشأن أنفسهم فقط ، وإنما يهتمون أيضا بأحوال إخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا ، وفى ذلك ما فيه من صفاء نفوسهم . وطهارة قلوبهم ، حيث أحبوا الخير لغيرهم كما أحبوه لأنفسهم ، بل إن تقديم استبشارهم بحال إخوانهم على استبشارهم بما يتعلق بأنفسهم ليشعر بأن اهتمامهم بحال إخوانهم أشد من اهتمامهم بحال أنفسهم .

ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله « يستبشرون بنعمة ... » يعود على الذين لم يلحقوا بهم ؛ فتكون جملة « يستبشرون . » حالا من الذين لم يلحقوا

وعليه يكون المعنى : أن هؤلاء الذين لم يلحقوا بهم لا خوف عليهم ولا حزن فهم مستبشرون بنعمة من الله وفضل ... » .

وقوله « وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » معطوف على « نعمة من الله وفضل » ، وهذا على قراءة الجمهور بفتح همزة أن على معنى وبأن . .

والتقدير : يستبشرون بنعمة من الله وفضل وبأن الله ـ تعالى ـ لا يضيع أجر المؤمنين ، وإنما سيعطيهم النصر والعزة والكرامة جزاء جهادهم .

وقرأ الكسائى « وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين » بكسر همزة إن على الاستئناف والمقصود من الآية الكريمة بيان أن كل مؤمن يخاف مقام ربه وينهى نفسه عن الهوى ، ويجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله فإن الله ـ تعالى ـ لا يضيع شيئا من أجره ، بل يعطيه من الجزاء الحسن ـ بفضله وإحسانه ـ أكثر مما يستحق .

ثم مدح ـ سبحانه ـ المؤمنين الصادقين الذين لم تمنعهم جراحهم وآلامهم عن الاستجابة لأمر رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ـ تعالى ـ : « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : اعلم أن الله ـ تعالى ـ مدح المؤمنين على غزوتين تعرف إحداهما : بغزوة حمراء الأسد،والثانية : بغزوة بدر الصغرى. وكلاهما متصلة بغزوة أحد .

أما غزوة حمراء الأسد فهى المرادة من هذه الآية ، فإن الأصح فى سبب نزولها أن أبا سفيان وأصحابه بعد أن انصرفوا من أحد وبلغوا الروحاء ، ندموا وقالوا : إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل فلم تركناهم ؟ بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم ، فهموا بالرجوع .

فبلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهب الكفار ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة . فندب أصحابه إلى الخروج فى طلب

أبي سفيان وقال : لا أريد أن يخرج الآن معى إلا من كان معى فى القتال ـ فى أحد ـ

فخرج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع قوم من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد . وهى مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة .

فألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فانهزموا .

وروى أنه كان فيها من يحمل صاحبه على عنقه ساعة ، ثم كان المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى . وكان كل ذلك لإثخان الجراح فيهم . وكان فيهم من يتوكأ على صاحبه ساعة ويتوكأ عليه صاحبه ساعة .

وقوله « استجابوا » بمعنى أجابوا . وقيل : استجابوا ، أصلها طلبوا الإجابة لأن الأصل فى الاستفعال طلب الفعل . والقرح : الجراح الشديدة

والمعنى : أن الله ـ تعالى ـ لا يضيع أجر هؤلاء المؤمنين الصادقين ، الذين أجابوا داعى الله وأطاعوا رسوله ، بأن خرجوا للجهاد فى سبيل عقيدتهم بدون وهن أو ضعف أو استكانة مع ما بهم من جراح شديدة، وآلام مبرحة. ثم بين ـ سبحانه ـ جزاءهم فقال : للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » أى الذين أحسنوا منهم بأن أدوا جميع المأمورات، واتقوا الله فى كل أحوالهم بأن صانوا أنفسهم عن جميع المنهيات ، لهؤلاء أجر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ـ تعالى ـ .

وقوله « الذين استجابوا ... » فى موضع رفع على الابتداء وخبره قوله « للذين احسنوا ... » ويجوز أن يكون فى موضع جر على أنه صفة للمؤمنين فى قوله : « وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين قال صاحب الكشاف : و « من » فى قوله « للذين أحسنوا منهم » للتبيين مثلها فى قوله ـ تعالى « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجر عظيما » . لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم ... »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٠٤

ثم مدحهم - سبحانه - على ثباتهم وشجاعتهم وحسن اعتمادهم على خالقهم - عز وجل - ، بعد أن مدحهم قبل ذلك على حسن إستجابتهم لله ولرسوله فقال - تعالى - : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : نزلت هذه الآية فى غزوة بدر الصغرى ، وذلك أن أبا سفيان لما عزم على الانصراف إلى مكة فى أعقاب غزوة أحد نادى . يا محمد موعدنا موسم بدر الصغرى فنقتتل بها إن شئت . فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لعمر : قل له بيننا وبينك ذلك إن شاء الله .

فلما حضر الأجل خرج أبو سفيان مع قومه حتى نزل بمر الظهران ، فألقى الله الرعب فى قلبه ، فبدا له أن يرجع . فلقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فقال له : يا نعيم : إنى وعدت محمداً أن نلتقى بموسم بدر ، وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ، ونشرب فيه اللبن . وقد بدأ لى أن أرجع . ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاد بذلك جراءة علينا ،فاذهب إلى المدينة فثبطهم ولك عندى عشرة من الإبل

فخرج نعيم إلى المدينة فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم :ماهذا بالرأى، أتوكم فى دياركم وقتلوا أكثركم فإن ذهبتم إليهم لم يرجع منكم أحد .

فوقع هذا الكلام فى قلوب قوم منهم .فلما رأى النبى -صلى الله عليه وسلم- ذلك قال « والذى نفسى بيده لأخرجن إليهم ولو وحدى » .

ثم خرج - صلى الله عليه وسلم - فى جمع من أصحابه ، وذهبوا إلى أن وصلوا إلى بدر الصغرى - وهى ماء لبنى كنانة وكانت موضع سوق لهم يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام - ولم يلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه أحدا من المشركين .

ووافقوا السوق وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا أدما وزبيباً ، وربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين .

أما أبو سفيان ومن معه فقد عادوا إلى مكة بعد أن وصلوا إلى مر الظهران[1] ...

وقيل إن الذين قابلهم أبو سفيان عند خروجه من مكة هم جماعة من بنى عبد القيس وقد قال لهم ما قاله لنعيم بن مسعود عند ما أزمع العودة إلى مكة بعد أن قذف الله الرعب فى قلبه من لقاء المسلمين .

وعلى أية حال ففى سبب نزول هذه الآية والتى قبلها أقوال أخرى للمفسرين اكتفينا بما ذكرناه خشية الإطالة ...

وقوله « الذين قال لهم الناس » بدل من قوله « الذين استجابوا لله والرسول » أو صفة له ، أو فى محل نصب على المدح أى أمدح الذين قال لهم الناس .. الخ .

والمراد بالموصول فى الآيتين طائفة واحدة من المؤمنين وهم الذين لم تمنعهم الجراح عن الخروج للقتال ، ولم يرهبهم قول من قال لهم بعد ذلك إن الناس قد جمعوا لكم .

والمراد من الناس الأول وهو قوله « الذين قال لهم الناس » جماعة بنى عبد القيس أو نعيم بن مسعود .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف قيل « الناس » إن كان نعيم هو المثبط وحده ؟ قلت : قيل ذلك ، لأنه من جنس الناس كما يقال: فلان يركب الخيل ، ويلبس البرود وما له إلا فرس واحد وبرد فرد . أو لأنه حين قال

(١) تفسير للفخر الرازى ج ٩ ص ٩٩ .

ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه ، ويصلون جناح كلامه ، ويثبطون مثل تثبيطه(١) .

والمراد من الناس الثانى وهو قوله : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » أبو سفيان ومن معه . فأل فيهما للعهد ، والناس الثانى غير الأول .

وقوله - تعالى - حكاية عن هؤلاء المثبطين : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » أى إن أعداءكم المشركين قد جمعوا لكم جموعا كثيرة ليستأصلوكم ، فاخشوهم ولا تخرجوا لقتالهم .

وحذف مفعول « جمعوا » فلم يقل : جمعوا جيشا كبيرا أو جمعوا أنفسهم وعددهم وأحلافهم وذلك ليذهب الخيال كل مذهب فى مقدار ما جمعوا من رجال وسلاح وأموال ، ولكن هذا القول الذى صدر من هؤلاء المثبطين ، لم يلتفت إليه المؤمنون الصادقون المخلصون فى جهادهم وفى اعتمادهم على خالقهم ، بل كانوا كما أخبر الله - تعالى - عنهم « فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

أى أن هذا القول الذى قاله المثبطون ، زاد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، ويقينا على يقينهم ، وثباتا على ثباتهم ، وجعلهم يقولون للمرجفين بثقة واطمئنان : « حسبنا الله » أى كافينا الله أمر أعدائنا « ونعم الوكيل » أى نعم النصير خالقنا - عز وجل - فهو الموكول إليه أمرنا ومصيرنا .

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على قوة إيمانهم ، وشدة ثقتهم فى نصر الله - تعالى - لهم ، مهما كثر عدد أعدائهم ، ومهما تعددت مظاهر قوتهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف زادهم نعيم أو مقوله إيمانا ؟ قلت : لما لم يسمعوا قوله وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد ، وأظهروا

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٤١ .

حمية الإسلام كان ذلك أثبت ليقينهم ، وأقوى لاعتقادهم . كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج . ولأن خروجهم على أثر تثبيطه إلى جهة العدو طاعة عظيمة ، والطاعات من جملة الإيمان ، لأن الإيمان إعتقاد وإقرار وعمل . وعن ابن عمر : قلنا يارسول الله : إن الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم . يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار . وعن عمر - رضى الله عنه - أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نزدد إيمانا . وعنه : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به[1] .

وقال ابن كثير : روى البخارى عن ابن عباس : قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى به فى النار . وقالها محمد صلى الله عليه وسلم - حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : «حسبنا الله ونعم الوكيل»[2] .

ثم حكى - سبحانه - ما تم لهؤلاء المجاهدين الذين خرجوا للقاء أعدائهم من عاقبة حسنة وعود حميد فقال - تعالى - : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

فالفاء فى قوله «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل . . » للتعقيب ، وهى معطوفة على مقدر دل عليه السياق .

ومعنى « انقلبوا » عادوا ورجعوا .

والنعمة : هى العطاء الذى ينفع صاحبه . والفضل : الزيادة فى العطاء والنعمة .

---

(١) تفسير ج ١ ص ٤٤٢

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٣٠

والمعنى : أن هؤلاء المجاهدين الصادقين خرجوا للقاء أعدائهم بدون وهن أو ضعف أو استكانة فلم يجدوهم ، فرجعوا إلى ديارهم مصحوبين « بنعمة » عظيمة « من الله » ـ تعالى ـ ، إذ خذل أعداءهم ، وسلمهم من شرورهم ، ومصحوبين بفضل جليل منه ـ سبحانه ـ حيث أغدق عليهم ربحا وفيرا فى تجارتهم ، وأجراً جزيلا بسبب قوة إيمانهم ، وإخلاصهم فى دينهم .

قال الآلوسى : روى البيهقى عن ابن عباس أن عيراً مرت فى أيام الموسم ـ أى موسم بدر ـ فاشتراها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فربح مالا فقسمه بين أصحابه فذلك الفضل » .

وأخرج ابن جرير عن السدى قال : أعطى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين خرج فى غزوة بدر الصغرى أصحابه دراهم ابتاعوا بها فى الموسم ، فأصابوا تجارة ـ فربحوا فيها ـ(١) .

وقوله « بنعمة » فى موضع الحال من الضمير فى « فانقلبوا » ، فتكون الباء للملابسة أو للمصاحبة فكأنه قيل : فانقلبوا ملتبسين بنعمة أو مصاحبين لها .

وقوله « من الله » متعلق بمحذوف صفة لنعمة ، وهو مؤكد لفخامتها وأنها نعمة جزيلة لا يقدر قدرها .

وقوله « لم يمسسهم سوء » أى لم يصبهم أى أذى أو مكروه عند خروجهم وعودتهم .

والجملة فى موضع الحال من فاعل « انقلبوا » أى رجعوا منعمين مبرئين من السوء والأذى .

وقوله « واتبعوا رضوان الله » معطوف على قوله « فانقلبوا » .

أى اتبعوا ما يرضى الله ويوصلهم إلى مثوبته ورحمته ، باستجابتهم لرسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخروجهم للقاء أعدائهم بإيمان عميق ، وعزم وثيق .

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ١٢٩

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أخبر عن هؤلاء المجاهدين المخلصين أنهم قد صحبهم فى عودتهم أمور أربعة :

أولها النعمة العظيمة . وثانيها الفضل الجزيل ، وثالثها السلامة من السوء . ورابعها : إتباع رضوان الله .

وهذا كله قد منحه الله لهم جزاء إخلاصهم وثباتهم على الحق الذى آمنوا به . ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله « والله ذو فضل عظيم » .

أى والله - تعالى - صاحب الفضل العظيم الذى لا يحده حصر ، ولا يحصيه عد هو الذى تفضل على هؤلاء المؤمنين الصادقين بما تفضل به من عطاء كريم . وثواب جزيل .

وفى هذا التذييل زيادة تبشير للمؤمنين برعاية الله لهم ، وزيادة تحسير للمتخلفين عن الجهاد فى سبيله - عز وجل - ، حيث حرموا أنفسهم عما فاز به المؤمنون الصادقون .

ثم أمر الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يجعلوا خشيتهم وخوفهم منه وحده ، فقال - تعالى - : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

فالخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين ، والإشارة بذلكم إلى المثبط بالذات أو بالواسطة .

وقوله « إنما » أداة حصر ، و « ذلكم » مبتدأ و « الشيطان » خبره ، وقوله « يخوف أولياءه » جملة مستأنفة مبينة لشيطنته .

وقيل إن « ذلكم » مبتدأ أول ، و « الشيطان » مبتدأ ثان . وقوله « يخوف أولياءه » خبر للمبتدأ الثانى ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول .

والمراد بالشيطان إبليس لأنه علم بالغلبة عليه ولأنه هو الذى يخوف بالوسوسة . وقيل المراد به أتباعه الذين دسهم لكى يرهبوا المؤمنين من الكافرين وهم جماعة بنى عبد القيس أو نعيم بن مسعود الأشجعى .

. إنما ذلكم المثبط لكم عن لقاء أعدائكم هو الشيطان ، الذى يوسوس فى قلوبكم بالشر بذاته، أو بواسطة أتباعه الضالين. ومن شأن المؤمنين الصادقين أنهم لا يتأثرون بهذه الوساوس الكاذبة، وإنما الذين يتأثرون بها هم ضعاف الإيمان:

وقوله « يخوف أولياءه » أى يخوف أولياءه المنافقين وضعفاء الإيمان ليقعدوا عن مقاتلة المشركين، أما أنتم أيها المؤمنون الصادقون فإنكم لن يقعدكم تخويفه ، لأن هذا التخويف لا أثر له فى قلب من آمن بالله حق الإيمان ، واتقاه حق تقاته .

وقيل إن معنى « يخوف أولياءه » يخوفكم بأوليائه فحذف المفعول الثانى وحذف الجار . كما فى قوله « فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » أى فإذا خفت عليه فرعون . فحذف المفعول . وكما فى قوله « لينذر يوم التلاق » أى لينذركم بيوم التلاق .

وقيل إن المعنى: يخوفكم أولياءه فحذف المفعول الأول كما تقول: أعطيت الأموال . أى أعطيت القوم الأموال .

وقوله « فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » أى فلا تخافوا أولياء الشيطان ، بل اجعلوا خوفكم منى وحدى ، إن كنتم مؤمنين حقا .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة تشجيعهم ، وتقويتهم ، وإلهاب شعورهم ، إذ الإيمان الحق يستلزم الخوف من الله دون أحد سواه .

والمراد بالنهى عن الخوف وهو أمر نفسى : النهى عن أسبابه التى من أهمها حب الدنيا وكراهية الموت . أى خذوا بأسباب القوة التى من أهمها التمسك بتقوى الله فإن ذلك يزيل الخوف من قلوبكم ،

وفى المقابلة بين النهى عن الخوف من أولياء الشيطان ، وبين الأمر بأن يكون خوفهم من الله وحده ، فى هذه المقابلة إرشاد إلى العلاج الذى يزيل الخوف والفزع من نفوسهم . لأن الذى يجعل خشيته وخوفه من الله وحده

لن يستطيع الشيطان أو أولياؤه أن يصدوه عن الطريق القويم وصدق الله إذ يقول : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد رفعت منازل الشهداء إلى أعـلا الدرجات ، وصرحت بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ... كما أثنت ثناء مستطابا على الذين لبوا دعوة رسولهم - صلى الله عليه وسلم - حين دعاهم إلى الجهاد فى سبيل الله ، ولم يمنعهم عن إجابة دعوته مابهم من جراح ، أو ماقاله لهم المرجفون من أقوال باطلة ، فرضى الله عنهم وأرضاهم .

ثم أخذ القرآن فى تسلية النبى - صلى الله عليه وسلم - عما يراه من كفر الكافرين وعناد المعاندين ، وفى بيان أن كفر الكافر إنما يعود عليه ضرره لا على غيره ، وأنه - سبحانه - يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وأن حكمته - سبحانه - تقتضى تمييز الخبيث من الطيب ، فقال - تعالى - :

« ولا يَحْزُنْكَ الذينَ يُسَارِعُونَ فى الكفرِ إنَّهم لن يَضُرُّوا اللهَ شيئاً يريدُ اللهُ ألاَّ يجْعَلَ لهم حَظًّا فى الآخرةِ ولهم عذابٌ عظيمٌ (١٧٦) إنَّ الذينَ اشتَرَوْا الكفرَ بالإيمانِ لن يَضُرُّوا اللهَ شيئاً ولهم عذابٌ أليمٌ (١٧٧) ولا يحسبنَّ الذينَ كفرُوا أنَّما نُملِى لَهُم خيرٌ لأنفسِهم، إنما نُملى لهم ليزْدَادُوا إثماً ولهُمْ عذابٌ مُهِينٌ (١٧٨) ما كانَ اللهُ ليَذرَ المؤمنين على ما أنتم عليهِ حتَّى يميزَ الخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وما كانَ اللهُ ليُطْلِعَكُم على الغيبِ ، ولكنَّ اللهَ يَجْتَبِى من رُسُله مَنْ يشاءُ ، فآمِنُوا باللهِ ورُسُله، وإن تُؤمِنوا وتَتَّقُوا فلكم أجرٌ عظيمٌ (١٧٩) ولا يحسَبَنَّ الذينَ يبخلُونَ بما آتاهمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه هو خيراً لهم بل هُو شرٌّ لهم ، سيُطوَّقُونَ ما بَخِلُوا به يومَ القيامةِ ، ولله ميراثُ السَّمواتِ والأرضِ واللهُ بما تعملونَ خبيرٌ (١٨٠) » .

الخطاب فى قوله - تعالى - « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر . . . » للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمقصود منه تسليته وإدخال الطمأنينة على قلبه، حتى لا يتأثر بما يراه من كفر الكافرين ، ونفاق المنافقين ، وفسق الفاسقين .

أي : لا يحزنك ولا يثر فى نفسك الحسرات يا محمد ، حال أولئك القوم الذين « يسارعون فى الكفر » أي يتوغلون فيه، ويتعجلون فى إظهاره وتأييده والعمل به عند سنوح الفرص ، ويقعون فيه سريعا من غير تريث أو تدبر أو تفكير . والمقصود بالنهي عن الحزن النهي عن الاسترسال فيه وفى الأسباب التي تؤدى إليه ، كأن يظن - صلى الله عليه وسلم - أن كثرة الضالين ستؤدى إلى انتصارهم على المؤمنين .

وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف فقال : « يسارعون فى الكفر » يقعون فيه سريعا ، ويرغبون فيه أشد رغبة . وهم الذين نافقوا من المتخلفين وقيل : هم قوم ارتدوا عن الإسلام . فإن قلت : فما معنى قوله « ولا يحزنك » ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد ؟ قلت: معناه : لا يحزنوك لخوف أن يضروك ويعينوا عليك . . . »[1] .

ولتضمن المسارعة معنى الوقوع تعدت بحرف « فى » دون حرف « إلى » الشائع تعديتها بها كما فى قوله - تعالى - « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم . . . » .

وقوله « إنهم لن يضروا الله شيئاً » تعليل للنهي عن أن يحزنه تسارعهم فى الكفر أي : لا يحزنك يا محمد حال هؤلاء المارقين الذين يسارعون فى الكفر وينتقلون فيه من دركة إلى دركة أقبح من سابقتها، فإنهم مهما تمادوا فى كفرهم وضلالهم ومحاولتهم إضلال غيرهم ، فإنهم لن يضروا دين الله أو أولياءه بشيء من الضرر حتى ولو كان ضرراً يسيراً .

ففى الكلام حذف مضاف والتقدير إنهم لن يضروا أولياء الله شيئا .

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٤١ .

وفى هذا الحذف تشريف للمؤمنين الصادقين، وإشعار بأن مضادتهم بمنزلة مضارته - سبحانه - وفى الحديث القدسى : من عادى لى وليافقد آذنته بحرب »

ولقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - بمقتضى طبيعته البشرية ، وغيرته على دين الله - تعالى - يحزن لإعراض المعرضين عن الحق الذى جاء به ، ولقد حكى القرآن ذلك فى كثير من آياته ، ومنه قوله - تعالى - « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون » (١) وقوله - تعالى - « لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً (٢) » .

فأراد - سبحانه - فى هذه الآية الكريمة وأمثالها أن يزيل من نفس رسوله - صلى الله عليه وسلم - هذا الحزن الذى نتج عن كفر الكافرين ، وأن يطمئنه إلى أن العاقبة ستكون له ولأتباعه المؤمنين الصادقين .

وقوله « يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة » إستئناف لبيان جزائهم على كفرهم فى الآخرة ، بعد أن بين - سبحانه - عدم إضرارهم لأوليائه فى الدنيا .

أى : لا ينبغى لك يا محمد أن تحزن لمسارعة هؤلاء الضالين فى الكفر ، فإنهم لن يضروا أوليائى بشىء من الضرر ، ولأن كفرهم ليس مراغمة لله حتى تحزن ، وإنما هو بإرادته ؛ لأنه أراد ألا يكون لهم حظ أو نصيب من الخير فى الآخرة بسبب إستحبابهم العمى على الهدى . « ولهم مع هذا الحرمان من الخير فى الآخرة « عذاب عظيم » لا يعلم مقدار آلامه وشدته إلا الله تعالى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : لا يجعل الله لهم حظاً فى الآخرة ، وأى فائدة فى ذكر الإرادة ؟ قلت : فائدته الإشعار بأن الداعى إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصا لم يبق معه صارف قط حين سارعوا

(١) سورة فاطر الآية ٨
(٢) سورة الكهف الآية ٩

فى الكفر ، تنبيها على تماديهم فى الطغيان وبلوغهم الغاية فيه . حتى إن أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم » (١) .

ثم أكد - سبحانه - هذا الحكم وقرره فقال : « إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم » .

والاشتراء فى الآية الكريمة بمعنى الاستبدال على سبيل الاستعارة التمثيلية فقد شبه — سبحانه — الكافر الذى يترك الحق الواضح الذى قامت الأدلة على صحته ويختار بدله الضلال الذى قامت الأدلة على بطلانه ، بمن يكون فى يده سلعة ثمينة جيدة فيتركها ويأخذ فى مقابلها سلعة رديئة فاسدة .

والمعنى أن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان ، لن يضروا دين الله ولا رسوله ولا أولياءه بشىء من الضرر ، وإنما يضرون بفعلهم هذا أنفسهم ضرراً بليغاً ولهم فى الآخرة عذاب مؤلم شديد الإيلام ، بسبب إيثارهم الغى على الرشد والكفر على الإيمان ، والشر على الخير .

ثم بين — سبحانه — أن مايتمتع به الأشرار فى الدنيا من متع إنما هو استدراج لهم ، فقال - تعالى - « ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خير لأنفسهم . . . » .

وقوله « نملى لهم » من الإملاء وهو الإمهال والتخلية بين العامل والعمل ليبلغ مداه .

يقال : أملى فلان لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء . . .

ويطلق الإملاء على طول المدة ورغد العيش .

والمعنى : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم » بتطويل أعمارهم ، وبإعطائهم الكثير من وسائل العيش الرغيد هو « خير لأنفسهم » كلا ،

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٤١

بل هو سبب للمزيد من عذابهم ، لأننا « إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » بكثرة إرتكابهم للمعاصى، ولهم ، فى الآخرة « عذاب مهين » أى عذاب ينالهم بسببه الذل الذى ليس بعده ذل والهوان الذى يتصاغر معه كل هوان .

وقوله « ولا يحسبن ... إلخ » عطف على قوله ـ تعالى ـ « ولا يحزنك .» ويكون النهى عن الظن متجها للذين كفروا ليعلموا سوء عاقبتهم .

ويكون مفعولا يحسب قد سد مسدهما أن المصدرية وما بعدها و « ما » فى قوله « أنما نملى لهم » يجوز أن تكون مصدرية ، وأن تكون موصولة حذف عائدها . وقد كتبت متصلة بأن مع ان من حقها أن تكتب منفصلة عنها إتباعا للمصحف الإمام أى لا يحسبن الكافرون أن إملاءنا لهم أو أن الذى نمليه لهم من تأخير حياتهم ، وإنتصارهم فى الحروب فى بعض الأحيان هو خير لهم .

وقرأ حمزة « ولا تحسبن الذين كفروا ... فيكون الخطاب بالنهى متجها إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويكون المفعول الأول لحسب هو « الذين كفروا » وقوله : « أنما نملى لهم خير لأنفسهم » بدل من الذين كفروا سادا مسد المفعول الثانى ، أو يكون هو المفعول الثانى .

والمعنى : لاتحسبن يا محمد ولا يحسبن أحد من أمتك أن إملاءنا للذين كفروا هو خير لأنفسهم ، بل هو شر لهم ، لأننا ما أعطيناهم الكثير من وسائل العيش الرغيد إلا على سبيل الإستدراج ، وسنعاقبهم على ما إرتكبوه من آثام عقابا عسيرا .

وقوله « أنما نملى لهم ليزدادوا إثما ... » إستئناف واقع موقع التعليل للنهى عن حسبان الإملاء خيرا للكافرين .

أى إنما نزيدهم من وسائل العيش الرغيد ليزدادوا آثاما بكثرة إرتكابهم للسيئات فتكون نتيجة ذلك أن نزيدهم من العذاب المهين الذى لا يستطيعون دفعه أو التهرب منه .

و « إنما » فى قوله « إنما نملى لهم .. » أداة حصر مركبة من « إن » التى هى حرف توكيد ومن « ما » الزائدة الكافة .

واللام فى قوله « ليزدادوا إثما » هى التى تسمى بلام العاقبة كما فى قوله — تعالى — « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا »(١) .

أى انما نملى لهم فيزدادوا اثما . فلما كان ازدياد الإثم ناشئا عن الإملاء كان كالعلة له . وكانت نتيجة هذا الإملاء أن وقعوا فى العذاب المهين .

وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون »(٢) .

وقوله — تعالى — « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم ان كيدى متين »(٣) .

ثم بين — سبحانه — بعض الحكم التى اشتملت عليها غزوة أحد فقال — تعالى — : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ... » .

وقوله « ليذر » أى ليترك . والمراد بالمؤمنين : المخلصون الذين صدقوا فى ايمانهم والمراد بقوله « على ما أنتم عليه » أى اختلاط المؤمنين بالمنافقين واستواؤهم فى إجراء الأحكام .

ومعنى يميز يفصل . وقرىء يميز أى يحدد ويبين .

والمراد بالخبيث : المنافق ومن على شاكلته من ضعاف الإيمان .

والمراد بالطيب : الصادق فى ايمانه .

والمعنى : ليس من شأن الله — تعالى — ولا من حكمته وسنته فى خلقه

---

(١) سورة القصص الآية ٨ .

(٢) سورة التوبة الآية ٨٥

(٣) سورة القلم الآيتان ٤٤ ، ٤٥

ن يترككم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه من الالتباس واختلاط المنافقين كم، بل الذي من شأنه وسنته أن يبتليكم ويمتحنكم بالوان المصائب والشدائد حتى يتميز المؤمن من المنافق، وينفصل الأخيار عن الأشرار.

قال ابن كثير: أي لابد أن يعقد سبباً من المحنة، يظهر فيه وليه ويفضح ه عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد لذي امتحن الله به المؤمنين فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم له ولرسوله وهتك به أستار المنافقين، فظهرت مخالفتهم، ونكولهم عن الجهاد، رخيانتهم لله ولرسوله. قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد..»[1].

وعبر - سبحانه - عن المؤمن بالطيب، وعن المنافق بالخبيث، ليسجل على كل منهما ما يليق به من الأوصاف، والإشعار بعلة الحكم.

وقوله «وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء» معطوف على قوله «ما كان الله ليذر ...».

والغيب: ضد المشاهد. وهو كل ما غاب عن الحواس ولا تمكن معرفته إلا عن طريق الوحي من الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

واجتبى: من الاجتباء بمعنى الاختيار والاصطفاء.

أي: وما كان الله - تعالى - ليعطي أحداً منكم - معشر المؤمنين - علم الغيوب الذي به تعرفون المؤمن من المنافق، إذ علم ذلك له وحده. ولكنه - سبحانه - يصطفي من رسله من يريد اصطفاءه فيطلعه على بعض الغيوب، ذلك كما حدث لنبيكم - صلى الله عليه وسلم - فقد أطلعه - سبحانه - على ما دبره له اليهود حين هموا باغتياله، وأطلعه على حال تلك المرأة التي أرسلها حاطب بن أبي بلتعة برسالة إلى قريش لتخبرهم باستعداد الرسول - صلى الله عليه وسلم - لحربهم، وأطلعه على بعض أحوال المنافقين.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٣٢.

قال - تعالى - « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول . . . » وفى قوله - تعالى - « ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » إيذان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية ، لا يتأتى إلا ممن رشحه الله - تعالى - لمنصب جليل ، تقاصرت عنه همم الأمم ، واصطفاه على الناس لإرشادهم .

ثم أمر الله - تعالى - عباده ان يثبتوا على الإيمان وبشرهم بالأجر العظيم إذا هم استمروا على ذلك فقال : « فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

أى : إذا علمتم أيها المؤمنون أن الله لا يطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول(١) ، فإنه يجب عليكم أن تؤمنوا بالله - وبرسله حق الإيمان ، وتتقوا المخالفة فى الأمر والنهى ، فلكم فى مقابلة ذلك من الله تعالى - ما لا يقادر قدره من الثواب العظيم ، والأجر الجزيل .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء مصير الذين يبخلون بنعم الله فلا يؤدون حقها ، ولا يقومون بشكرها فقال - تعالى - : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم . . . »

وقوله « يبخلون » من البخل وهو ضد الجود والسخاء ، ومعناه : أن يقبض الإنسان يده عن إعطاء الشىء لغيره ، وأن يحرص حرصا شديدا على ما يملكه من مال أو علم أو غير ذلك .

ويرى جمهور المفسرين أن المراد بالبخل هنا البخل بالمال ، لأنه هو الذى يتفق مع السياق .

---

(١) سورة الجن : الآية ٢٦ ، ٢٧ .

ويرى بعضهم أن المراد بالبخل هنا البخل بالعلم وكتمانه، وذلك لأن اليهود كتموا صفات النبي - صلى الله عليه وسلم - التي جاءت بها التوراة.

والذي نراه أن ما عليه الجمهور هو الأرجح، لأنه هو المتبادر من معنى الآية، وهو المتفق مع سياق الكلام.

ولذا قال الآلوسي: قوله - تعالى - «ولا يحسبن الذين يبخلون ...» بيان لحال البخل وسوء عاقبته، وتخطئة لأهله في دعوام خيريته حسب بيان حال الإملاء.

وقيل: وجه الارتباط أنه - تعالى - لما بالغ في التحريض على بذل الأرواح في الجهاد وغيره، شرع هنا في التحريض على بذل المال، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل به ...»

والمعنى: ولا يظنن أولئك الذين يبخلون بما أعطاهم الله من نعم وأموال أن بخلهم به فيه خير لهم، كلا، بل إن بخلهم هذا فيه شر عظيم لهم.

والنهي عن الحسبان بأن البخل فيه خير في قوله «ولا يحسبن الذين يبخلون ...» يدل على النفي المؤكد.

أي لا يصح لهم أن يظنوا بأية حال من الأحوال أن ذلك البخل فيه خير لهم، بل الحقيقة أن فيه شراً كبيراً لهم.

وفي قوله «بما آتاهم الله» إشعار بسوء صنيعهم، وخبث نفوسهم، حيث بخلوا بشيء ليس وليد علمهم واجتهادهم، وإنما هذا الشيء منحه الله - تعالى - لهم بفضله وجوده، فكان الأولى لهم أن يشكروه على ما أعطى، وأن يبذلوا مما أعطاهم في سبيله.

والضمير «هو» يعود على البخل المستفاد من قوله «يبخلون».

ويرى الزمخشري أنه ضمير فصل لتأكيد نفي الظن في الخيرية.

وفي إعادة الضمير، وذكر الجملة الإسمية في قوله «بل هو شر لهم» تأكيد

لمعنى الشر فى البخل ، وأنه لا خير من ورائه قط ، ففى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم ... » .

ثم بين - سبحانه - المصير المؤلم لأولئك البخلاء فقال - تعالى - « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » .

وقوله « سيطوقون » مشتق من الطوق . وهو ما يلبس من أسفل الرقبة . أى تجعل أموالهم أطواقا حول رقابهم . وأغلالا حول أجسادهم ، فيعذبون عذابا أليما بحملها .

وجمهور المفسرين على أن الكلام على ظاهره ، وأن عذاب هؤلاء البخلاء بنعم الله ، سيكون نوعا من العذاب الأخروى المحسوس . وقد أيد القرطبى هذا الاتجاه فقال :

« وهذه الآية نزلت فى البخل بالمال والإنفاق فى سبيل الله وأداء الزكاة المفروضة ذهب إلى هذا جماعة من المتأولين ، منهم : ابن مسعود وابن عباس وأبو وائل ...

قالوا : ومعنى « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » هو الذى ورد فى الحديث عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مُثِّلَ له يومَ القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - أى شدقيه - ثم يقول له : أنا مالك أنا كنزك . ثم تلا هذه الآية : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » (١) .

(١) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٢٩١ والشجاع : الثعبان الذكر الذى يقوم على ذنبه ويواثب الراجل والفارس والأقرع : هـو الذى يكون أملس الجلد كثير السم . والزبيبتان النكتتان السوداوان فوق عينيه .

ويرى بعض العلماء أن هذا الوعيد على سبيل التمثيل . وأن الظاهر غير مراد ومعنى قوله « سيطوقون ما بخلوا به . . . » عند هـــذا البعض ؛ أى : سيكلفون أن يأتوا بمثل مابخلوا به من أموالهم يوم القيامة عقوبة لهم ، فلا يأتون لأنهم ليس فى قدرتهم ذلك .

أو المعنى : سيلزمون وبال مابخلوا به لزوم الطوق ، ويتحملون وزر ذلك يوم القيامة .

فالآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى الجود والسخاء من أجل إعلاء كلمة الله ، وتتوعد البخلاء بأقسى ألوان الوعيد وأفظعها . وتبين أن كل مافى هذا الكون إنما هو ملك لله - تعالى - وحده ، فهو المعطى وهو المانع ، ولذا قال - تعالى - : « ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير » .

والميراث : مصدر كالميعاد . وأصله موراث فقلبت الواو ياء لانكسار ماقبلها . والمراد به مايتوارث .

والمعنى : أن لله - تعالى - وحده لا لأحد غيره مافى السموات والأرض مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره،فما بال هؤلاء القوم يبخلون عليه بما يملكه، ولا ينفقونه فى سبيله . وعلى هذا يكون الكلام جار على حقيقته ولا مجاز فيه.

ويصح أن يكون المعنى : أن الله - تعالى - يرث من هؤلاء مافى أيديهم مما بخلوا به من مال وغيره وينتقل منهم إليه حين يميتهم ويفنيهم ، وتبقى الحسرة والندامة عليهم . وعلى هذا يكون الكلام على سبيل المجاز .

قال الزجاج : أى أن الله - تعالى - يفنى أهلهما . فيفنيان بما فيهما ، فليس لأحد فيهما ملك . فخوطبوا بما يعلمون ؛ لأنهم يجعلون مايرجع إلى الإنسان ميراثا ، ملكا له .

وقوله « والله بما تعملون خبير » تذييل قصد به حضهم على الإنفاق، ونهيهم عن البخل . أى أن الله - تعالى - خبير ومطلع على مايصدر عنكم من سخاء

أو بخل أو غيرهما، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ساقت ألوانا من التسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأتباعه، وبشرتهم بأن العاقبة ستكون لهم، وفضحت المنافقين وهتكت ما استتروا به من رياء وخداع، وبينت أن من سنن الله في خلقه أن يبتلى عباده بشتى ألوان البلاء ليتميز الخبيث من الطيب، وأنه - سبحانه - يملى للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وأن البخلاء بما آتاهم الله من فضله ستكون عاقبتهم شرا، ومصيرهم إلى العذاب الأليم.

ثم أخذت السورة الكريمة - بعد أن فضحت المنافقين - في الحديث عن بعض رذائل أهل الكتاب، وفي التحذير من شرورهم، وفي بيان طبيعة هذه الحياة وما تحمله من بلاء واختبار فقال - تعالى -:

«لَقد سَمِعَ اللهُ قولَ الذينَ قالُوا إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياء، سنكتبُ ما قالوا وقَتْلَهم الأنبياء بغير حقٍّ ونقولُ ذوقُوا عذابَ الحريق (١٨١) ذلكَ بما قدَّمتْ أيديكم وأنَّ اللهَ ليس بظلَّامٍ للعبيد (١٨٢) الذينَ قالُوا إنَّ اللهَ عَهِدَ إلينا ألَّا نؤمِنَ لرسولٍ حتَّى يأتِينا بقربانٍ تأكلُه النارُ قلْ قد جاءكُم رُسلٌ مِنْ قَبْلِي بالبيِّناتِ وبالَّذِي قُلْتُم فلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إنْ كُنتُم صادقِينَ (١٨٣) فإنْ كذَّبُوكَ فقد كُذِّبَ رُسلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاءوا بالبينات والزُّبُر والكتابِ المنير (١٨٤) كل نفسٍ ذائقةُ الموتِ وإنما تُوفَّونَ أُجُورَكُم يومَ القيامةِ، فمن زُحْزِحَ عن النَّارِ وأُدْخِلَ الجنةَ فقدفازَ، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور (١٨٥) لَتبلوُنَّ في أموالِكم وأنفسِكم ولتسمعنَّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكتابَ من قبلِكم ومِنَ الذينَ أشركُوا

أَذًى كثيراً ، وإن تَصْبِروا وتتقُوا فإنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمورِ (١٨٦) وإذْ أَخذَ اللهُ ميثاقَ الذينَ أوتُوا الكتابَ لَتُبيِّنُنَّه للناسِ ولاتكتُمونَه فنَبذُوه وراءَ ظُهورِهِم واشتَرَوْا به ثمناً قليلاً فبئسَ ما يشترون (١٨٧) لا تَحسبنَّ الذينَ يفرَحونَ بما أتَوْا ويُحِبونَ أنْ يُحمَدُوا بما لم يفعلُوا فلا تحسبَنَّهُم بمفازَةٍ من العذابِ ولهم عذابٌ أليمٌ (١٨٨) .

قال ابن كثير: عن ابن عباس قال: لما نزل قوله ـ تعالى ـ « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسناً ، فيضاعفه له أضعافا كثيرة » قالت اليهود : يا محمد !! افتقر ربك فسأل عباده القرض ، فأنزل الله هذه الآية .

وروى محمد بن إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس ، فوجد من يهود ناسا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له « فنحاص » وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له « أشيع » .

فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ماتتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء . ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك ياعدو الله ..

فذهب فنحاص إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا محمد : أبصر ما صنع بى صاحبك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماحملك على ماصنعت ياأبا بكر ؟

(١) أى المكان الذى يتدارسون فيه علومهم .

فقال أبو بكر : يارسول الله ، إن عدو الله قال قولا عظيما . يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء . فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه .

فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذاك . فأنزل الله فيما قال فنحاص : « لقد سمع الله قول الذين قالوا . . . »(١) .

والمعنى : لقد سمع الله ـ تعالى ـ قول أولئك اليهود الذين نطقوا بالزور والفحش فزعموا أن الله ـ تعالى ـ فقير وهم أغنياء .

والمقصود من هذا السماع لازمه وهو العلم والإحاطة بما يقولون من قبائح ، ثم محاسبتهم على ما تفوهوا به من أقوال ، وما ارتكبوه من أعمال ، ومعاقبتهم على جرائمهم بالعقاب المهين الذى يستحقونه .

وقوله « سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق » أى سنسجل عليهم فى صحائف أعمالهم قولهم هذا ، كما سنسجل عليهم قتلهم أنبياء الله بغير حق ، فالإسناد مجازى والكتابة حقيقية .

أو المعنى : سنحفظه فى علمنا ولا نهمله ، وسنعاقبهم بما يستحقون من عقوبات ، فيكون الإسناد حقيقة والكتابة مجازا .

والسين للتأكيد ، أى لن يفوتنا أبدا تدوينه وإثباته ، بل سنسجله عليهم ونعاقبهم عليه عقابا أليما بسبب أقوالهم القبيحة ، وأعمالهم المنكرة .

وقد قرن ـ سبحانه ـ قولهم المنكر هذا ، بفعل شنيع من أفعال أسلافهم، وهو قتلهم الأنبياء بغير حق ، وذلك لإثبات أصالتهم فى الشر ، وإستهانتهم بالحقوق الدينية ، وللتنبيه على أن قولهم هذا ليس أول جريمة إرتكبوها ، ومعصية إستباحوها ، فقد سبق لأسلافهم أن قتلوا الأنبياء بغير حق ، والإشعار بأن هاتين الجريمتين من نوع واحد ، وهو التجرؤ على الله ـ تعالى ـ ، فقتل الأنبياء هو تعد على أمناء الله فى الأرض الذين اختارهم لتبليغ رسالاته . وقولهم

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٣٤ .

« إن الله فقير ... » هو تطاول على ذات الله ؛ وكذب عليه ، ووصف له بما لا يليق به - سبحانه - وبهذا كله يكونون قد عتوا عتوا كبيرا ، وضلوا ضلالا بعيدا

وأضاف - سبحانه - القتل إلى المعاصرين للعهد النبوى من اليهود ؛ مع أنه حدث من أسلافهم لأن هؤلاء المعاصرين كانوا راضين بفعل أسلافهم ولم ينكروه وإن لم يكونوا قد باشروه ، ومن رضى بجريمة قد فعلها غيره فكأنما قد فعلها هو .

وفى الحديث الشريف : « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها . ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » .

ووصف - سبحانه - قتلهم للأنبياء بأنه « بغير حق » مع أن هذا الإجرام لا يكون بحق أبدا ، للإشارة إلى شناعة أفعالهم ، وضخامة شرورهم ، وأنهم لخبث نفوسهم ، وقسوة قلوبهم لا يبالون أكان فعلهم فى موضعه أم فى غير موضعه .

ثم صرح - سبحانه - بالعقوبة بعد أن كنى عنها فقال - : « ونقول ذوقوا الحريق » أى : سنجازيهم بما فعلوا ، ونلقى بهم فى جهنم ، مخاطبين إياهم بقولنا : ذوقوا عذاب تلك النار المحرقة التى كنتم بها تكذبون .

ففى الآية الكريمة إيجاز بالحذف دل عليه سياق الكلام .

والذوق حقيقته إدراك المطعومات . والأصل فيه أن يكون فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه ، والتعبير به هنا عن ذوق العذاب هولون من التهكم عليهم ، والاستهزاء بهم كما فى قوله - تعالى - « فبشرهم بعذاب أليم » .

ثم صرح - سبحانه - بأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بوقوعهم فى العذاب المحرق فقال : «ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

أى : ذلك العذاب الشديد الذى حاق بكم - أيها اليهود - بسبب ماقدمته أيديكم من عمل سىء ، ومانطقت به أفواهكم من قول منكر ، فقد اقتضت حكمته وعدالته ألا يعذب إلا من يستحق العذاب ، وأنه - سبحانه - لا يظلم

عباده مثقال ذرة . واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى العذاب المحقق المنزل منزلة المحسوس المشاهد . والمراد بالأيدى : الأنفس ، والتعبير بالأيدى عن الأنفس من قبيل التعبير بالجزء عن الكل .

وخصت الأيدى بالذكر ، للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته ، ولأن أكثر الأفعال يكون عن طريق البطش بالأيدى ، ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به ، والاتصال بذاته ،

قال الآلوسى ما ملخصه :

وقوله « وأن الله ليس بظلام للعبيد » عطف على قوله « بما قدمت أيديكم فهو داخل تحت حكم باء السببية ، وسببيته للعذاب من حيث إن نفى الظلم يستلزم العدل المقتضى إثابة المحسن ومعاقبة المسىء ...

وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم . . . وقيل إن صيغة « ظلام » للنسب كعطار أى : لا ينسب إليه الظلم أصلا ... »[1] .

ثم ذكر - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل اليهود فقال . « الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار .. » .

وقوله « الذين قالوا إن ... الخ » فى محل نصب بتقدير أعنى . أو فى محل رفع بتقديرهم الذين قالوا . . ويجوز أن يكون فى محل جر على البدلية من قوله « الذين قالوا إن الله فقير . . . . » .

والمراد بالموصول جماعة من اليهود منهم كعب بن الأشرف ، وفنحاص بن عازوراء ، وحيى بن أخطب .. وغيرهم ، فقد ذكر جماعة من المفسرين أنهم أتوا النبى - صلى الله عليه وسلم - وقالوا له هذا القول وهو : « إن الله عهد إلينا ... الخ » :

(١) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ١٤٣

و « القربان » هو ما يتقرب به إلى الله من نعم أو غير ذلك من القربات.

والمعنى : أن عذابنا الأليم سيصيب أولئك اليهود الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، والذين قالوا إن الله أمرنا فى التوراة وأوصانا بأن لا نصدق ونعترف لرسول يدعى الرسالة إلينا من قبل الله - تعالى - حتى يأتينا بقربان يتقرب به إلى الله ، فتنزل نار من السماء فتأكل هذا القربان ، فإذا فعل ذلك كان صادقا فى رسالته .

ومقصدهم من وراء هذا القول الذى حكاه القرآن عنهم ، أن يظهروا أمام الناس بمظهر المحافظين على عهود الله ، وأنهم ما تركوا الإيمان بالنبى - صلى الله عليه وسلم - حسدا له ، وإنما تركوا الإيمان به ، لأنه لم يأت بالمعجزات التى أتى بها الأنبياء السابقون ، فهم معذورون إذا لم يؤمنوا به لأنه ليس نبيا صادقا - فى زعمهم - :

ولا شك أن قولهم هذا ظاهر البطلان ، لأن الإتيان بالقربان إذا كان معجزة لرسول لا يستلزم أن يكون معجزة لكل رسول ، إذ أن آيات الله فى إثبات رسالات رسله متعددة النواحى ، مختلفة المناهج ، وكون هذا الإتيان بالقربان الذى تأكله النار معجزة لبعض الرسل لا يستدعى أن يكون معجزة لجميعهم ولذا فقد أمر الله - تعالى - رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما يبطل قولهم فقال : « قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين » .

أى : قل لهم يا محمد « قد جاءكم رسل من قبلى » كثير عددهم « بالبينات » أى بالحجج الواضحة ، وبالمعجزات الساطعة الدالة على صدقهم « وبالذى قلتم » أى وجاءكم هؤلاء الرسل بالقربان الذى تأكله النار « فلم قتلتموهم » بعد أن جاءوكم بتلك المعجزات الباهرة « إن كنتم صادقين » فى دعواكم أنكم تتبعون الحق . وتطيعون الرسل متى أتوكم بما يشهد بصدقهم ؟

فالجملة الكريمة ترد على هؤلاء اليهود بأبلغ الوجوه التى تثبت كذبهم وبما يدعون

لأن قتلهم الأنبياء بعد أن جاءوهم بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم، دليل على أن هؤلاء اليهود قد بلغوا منتهى الجحود والظلم والعدوان، وأن زعمهم أن إيمانهم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ متوقف على مجيئهم بالقربان الذي تأكله النار دعوى كاذبة، لأن من جاءهم بالقربان كان جزاؤه القتل منهم.

قال الفخر الرازي: وقد بين الله بهذه الدلائل أنهم يطلبون هذه المعجزة على سبيل الاسترشاد، وإنما على سبيل التعنت، وذلك لأن أسلافهم طلبوا هذه المعجز من الأنبياء المتقين مثل: زكريا ويحيى وعيسى، فلما أظهروا لهم هذا المعجز سعوا في قتلهم بعد أن قابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وذلك يدل على أن مطالبهم كانت على سبيل التعنت إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما سعوا في قتلهم. ومتأخر واليهود راضون بفعل متقدميهم. وهذا يقتضى كونهم متعنتين ـ أيضا ـ في مطالبهم، ولهذا لم يجبهم الله فيها»[1].

«فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك. جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير».

والبينات: جمع بينة وهي الآيات المبينة للحق، والأدلة التي يستشهد بها الرسول على أنه صادق فيما يبلغه عن ربه.

والزبر: جمع زبور ـ كالرسول والرسل ـ وهو الكتاب المقصور على على الحكم من زبرته بمعنى حسنته.

وخص الزبور بالكتاب الذي أنزله الله على داود ـ عليه السلام ـ: قال ـ تعالى ـ «وآتينا داود زبورا».

وقيل الزبر اسم للمواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته.

والمعنى فإن كذلك هؤلاء اليهود يا محمد بعد أن قام الدليل على صدقك وعلى كذبهم وتعنتهم وجحودهم، فلا تبتئس ولا تحزن، فإن الأنبياء من قبلك

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٩ ص ١٣٢.

قد قوبلوا بالتكذيب من أقوامهم بعد أن جاءهم بالدلائل الواضحة الدالة على صدقهم وبعد أن جاءهم « بالزبر » أي بالكتب الموحى بها من الله - تعالى - لوعظ الناس وزجرهم ، وبعد أن جاءوهم بالكتاب المنير أي بالكتاب الواضح المستنير المشتمل على سعادة الناس في دنياهم وآخرتهم .

فالآية الكريمة مسوقة على سبيل التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - والتخفيف عنه مما يلقاه من الجاحدين والمكذبين .

ثم بين - سبحانه - أن مرد الخلق جميعاً إلى الله ، وأن كل نفس مهما طال عمرها لابد أن يصيبها الموت ، وأن الدار الباقية إنما هي الدار الآخرة التي سيحاسب الناس فيها على أعمالهم فقال - تعالى - : « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » .

قال ابن كثير : « يخبر - تعالى - إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت ، كقوله - تعالى - « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

فهو - تعالى - وحده الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون ، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخراً كما كان أولا . وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت . . . . . .

وقوله « ذائقة الموت » من الذوق وحقيقته إدراك الطعوم ، والمراد به هنا حدوث الموت لكل نفس .

وعبر عن حدوث الموت لكل نفس بذوقه ، للإشارة إلى أنه عند ذوق المذاق إما مراً لما يستتبعه من عذاب ، وإما حلواً هنيئاً بسبب ما يكون بعد من أجر وثواب .

وأسند ذوق الموت إلى النفس ولم يسنده إلى الشخص لأن النفس روح

والشخص جزءان جسم ونفس ، والنفس هى التى تبقى بعد مفارقتها للجسد ، فهى التى تذوق الموت كما ذاقت الحياة الدنيا .

وقوله « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » أى : وإنما تعطون جزاء أعمالكم وافيا تاما يوم القيامة . يوم يقوم الناس لرب العالمين ليحاسبهم على أعمالهم ، فيجازى الذين أساؤا بما عملوا . ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف أتصل قوله - تعالى - « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » بما قبله ؟ قلت : إتصاله به على معنى أن كلكم يموتون ، ولابد لكم من الموت ، ولا توفون أجوركم على طاعتكم ومعصيتكم عقيب موتكم ، وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور .

فإن قلت : فهذا يوهم نفى ما يروى من أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار؟ قلت : كلمة التوفية تزيل هذا الوهم ، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون فى ذلك اليوم ، وما يكون قبل ذلك فهو بعض الأجور » (١) .

وقال الفخر الرازى : بين - سبحانه - أن تمام الأجر والثواب لا يصل إلى المكلف إلا يوم القيامة ، لأن كل منفعة تصل إلى المكلف فى الدنيا فهى مكدرة بالغموم والهموم وبخوف الإنقطاع والزوال ، والأجر التام والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة ، لأن هناك يحصل السرور بلا غم ، والأمن بلا خوف ، واللذة بلا ألم ، والسعادة بلا خوف الإنقطاع . . .

وكذا القول فى العقاب ، فإنه لا يحصل فى الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة ، بل يمتزج به راحات وتخفيفات ، وإنما الألم التام الخالص الباقى هو الذى يكون يوم القيامة » (٢) .

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٤٥ بتصريف يسير .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ١٣٧ .

ثم قال ـ تعالى ـ « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » .

الزحزحة عن النار : هى التنحية عنها ، وعدم الإقتراب منها . والفعل زحزح مضاعف الفعل زحَّه عن المكان إذا جذبه وأبعده عنه بعجلة وسرعة.

والمعنى : أن كل نفس سيدركها الموت لا محالة ، وأن الناس سيحاسبون على أعمالهم يوم القيامة ، فمن كانت نتيجة حسابه الإبعاد عن النار ، والنجاة من سعيرها ، فقد فاز فوزا عظيما ، وأدرك البغية التى ليس بعدها بغية .

والفاء فى قوله « فمن زحزح » للتفريع على قوله « توفون أجوركم » .

وجمع ـ سبحانه ـ بين « زحزح عن النار وأدخل الجنة » مع أن فى الثانى غنية عن الأول ، للاشعار بأن دخول الجنة يشتمل على نعمتين عظيمتين وهما : النجاة من النار ، والتلذذ بنعيم الجنة .

وفى الحديث الشريف عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ، أقرءوا إن شئتم « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » (1) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » (2) .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

والمتاع : هو ما يتمتع به الإنسان وينتفع به مما يباع ويشترى .

والغرور ـ بضم الغين ـ مصدر غره أى خدعه وأطمعه بالباطل .

أى : ليست هذه الحياة الدنيا التى نعيش فيها ، ونستمتع بلذاتها ومنافعها. إلا متاعا يستمتع به المغتر بها ، الذى لا يفكر فى أى شىء سواها ، ثم يحاسب

---

(1)،(2) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٣٥

على ذلك حسابا عسيرا يوم القيامة ، أما الذى يأخذ من متاعها بالطريقة التى أمر الله - تعالى - بها ، فإنه يكون من السعداء فى دنياهم وآخرتهم .

قال صاحب الكشاف : شبه - سبحانه - الدنيا بالمتاع الذى يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه ، ثم يتبين له فساده ورداءته . والشيطان هو المدلس الغرور . وعن سعيد بن جبير : إنما هذا لمن آثرها على الآخرة . فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ »(١) .

فالآية الكريمة ترغيب للمؤمنين فى الطاعة ، وتحذير للعصاة من المعصية ، وتذكير للجميع بأن مرجعهم إلى الله إن عاجلا أو آجلا ، وسيلقى كل إنسان جزاءه على عمله ، وأن السعادة الحقة لمن نال رضا الله يوم يلقاه .

ثم بين - سبحانه - للمؤمنين أنهم سيتعرضون فى المستقبل للمحن والآلام كما تعرضوا لذلك فى أيامهم الماضية ، وأن من الواجب عليهم أن يتقبلوا ذلك بعزيمة صادقة ، وصبر جميل فقال - تعالى - : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم . ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ... » .

وقوله « لتبلون » جواب قسم محذوف أى : والله لتبلون أى لتختبرن . والمراد لتعاملن معاملة المختبر والممتحن ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق ، ومن التمسك بمكارم الأخلاق ، فإن المصائب محك الرجال .

وإنما أخبرهم - سبحانه - بما سيقع لهم من بلاء ، ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه ، وليستعدوا لتلقيه من غير فزع أو جزع ، فإن الشدة المتوقعة يسهل احتمالها ، أما الشدة التى تقع من غير توقع فإنها يصعب احتمالها

والمعنى : لتبلون - أيها المؤمنون - ولتختبرن « فى أموالكم » بما يصيبها

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٤٥ .

من الآفات ، وبما تطلقون به من إنفاق فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ولتختبرن أيضا فى « أنفسكم » بسبب ما يصيبكم من جراح وآلام من قبل أعدائكم ، وبسبب ما تتعرضون له من حروب ومتاعب وشدائد ، وفضلا عن ذلك فإنكم « لتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » وهم اليهود والنصارى « ومن الذين أشركوا » وهم كفار العرب ، لتسمعن من هؤلاء جميعاً « أذى كثيراً » كالطعن فى دينكم ، والاستهزاء بعقيدتكم ، والسخرية من شريعتكم والاستخفاف بالتعاليم التى أتاكم بها نبيكم ، والتفنن فيما يضركم .

وقد رتب - سبحانه - ما يصيب المؤمنين ترتيباً تدريجياً ، فبدأ بأدنى ألوان البلاء وهو الإصابة فى المال ، فإنها مع شدتها وقسوتها على الإنسان إلا أنها أهون من الإصابة فى النفس لأنها أغلى من المال ، ثم ختم ألوان الابتلاء ببيان الدرجة العليا منه وهى التى تختص بالإصابة فى الدين ، وقد عبر عنها بقوله: «ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً » .

وإنما كانت الإصابة فى الدين أعلى أنواع البلاء ، لأن المؤمن الصادق يهون عليه ماله ؛ وتهون عليه نفسه ، ولكنه لا يهون عليه دينه ، ويسهل عليه أن يتحمل الأذى فى ماله ونفسه ولكن ليس من السهل عليه أن يؤذى فى دينه . . .

ولقد كان أبو بكر الصديق مشهوراً بلينه ورقته . ولكنه مع ذلك - لقوة إيمانه - لم يحتمل من « فنحاص » اليهودى أن يصف الخالق - عز وجل - بأنه فقير ، بل ما كان من الصديق إلا أن شج وجه فنحاص عند ما قال ذلك القول الباطل .

وقد جمع - سبحانه - بين أهل الكتاب وبين المشركين فى عداوتهم وإيذائهم المؤمنين ، للإشعار بأن الكفر ملة واحدة ، وأن العالم بالكتاب

والجاهل به يستويان فى معاداتهم للحق ، لأن العناد إذا إستولى على القلوب زاد الجاهلين جهلا وحمقا ، وزاد العالمين حقدا وحسدا .

ثم أرشد — سبحانه — المؤمنين إلى العلاج الذى يعين على التغلب على هذا البلاء فقال : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

أى : وإن تصبروا على تلك الشدائد ، وتقابلوها بضبط النفس ، وقوة الاحتمال ، « وتتقوا » الله فى كل ما أمركم به ونهاكم عنه ، تنالوا رضاه — سبحانه — وتنجوا من كيد أعدائكم .

والإشارة فى قوله « فإن ذلك من عزم الأمور » تعود إلى المذكور ضمنا من الصبر والتقوى ، أى فإن صبركم وتقواكم من الأمور التى يجب أن يسير عليها كل عاقل ، لأنها تؤدى إلى النجاح والظفر .

وقوله « فإن ذلك من عزم الأمور » دليل جواب الشرط . والتقدير : وإن تصبروا وتتقوا تنالوا ثواب أهل العزم فإن ذلك من عزم الأمور .

فالآية الكريمة إستئناف مسوق لإيقاظ المؤمنين ، وتنبيههم إلى سنة من سنن الحياة ، وهى أن أهل الحق لابد من أن يتعرضوا للابتلاء والامتحان، فعليهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل كل ذلك ، لأن ضعفاء العزيمة ليسوا أهلا لبلوغ النصر .

ولقد بين النبى - صلى الله عليه وسلم - أن قوة الإيمان وشدة البلاء متلازمان ، فقد روى الترمذى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت يا رسول الله ، أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان دينه صلبا إشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة إبتلى على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة » .

ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل الكتاب فقال : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » .

الميثاق : هو العهد الموثق المؤكد . وقد أخذ - سبحانه - العهد على الذين أوتوا الكتاب بأمرين : أولهما بيان ما فى الكتاب من أحكام وأخبار . وثانيهما : عدم كتمان شيء مما فى هذا الكتاب .

والمعنى : واذكر أيها المخاطب وقت أن أخذ الله العهد المؤكد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يبينوا جميع ما فى الكتاب من أحكام وأخبار وبشارات بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وألا يكتموا شيئا من ذلك ، لأن كتمانهم للحق سيؤدى إلى سوء عاقبتهم فى الدنيا والآخرة .

والضمير فى قوله « لتبيننه » يعود إلى الكتاب المشتمل على الأخبار والشرائع والأحكام والبشارات الخاصة ببعث النبي - صلى الله عليه وسلم - .

أى لتبينن ما فى هذا الكتاب الذى بين أيديكم من أحكام وشرائع وأخبار وبشارات وقيل الضمير يعود إلى الميثاق ، ويكون المراد من العهد الذى وثقه الله عليهم هو تعاليمه وشرعه ونوره .

وقوله « ولا تكتمونه » عطف على « لتبيننه » ، وإنما لم يؤكد بالنون لكونه منفيا . وجمع - سبحانه - بين أمرهم المؤكد بالبيان وبين نهيهم عن الكتمان مبالغة فى إيجاب ما أمروا به حتى لا يقصروا فى إظهار ما فى الكتاب من حقائق وحتى لا يلجأوا إلى كتمان هذه الحقائق أو تحريفها .

ولكن أهل الكتاب - ولا سيما العلماء منهم نقضوا عهودهم مع الله - تعالى - ؛ وقد حكى - سبحانه ذلك فى قوله : فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » .

النبذ : الطرح والترك والإهمال .

أى أن أهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهود الموثقة بأن يبينوا ما فى الكتاب ولا يكتموا شيئا منه، لم يكونوا أوفياء بعهودهم، بل إنهم نبذوا ما عاهدهم الله عليه، وطرحوه وراء ظهرهم بإستهانة وعدم إعتداد. وأخذوا فى مقابل هذا النبذ والطرح والإهمال شيئا حقيراً من متاع الدنيا وحطامها، فبئس الفعل فعلهم.

والتعبير عنهم بقوله «فنبذوه وراء ظهورهم» كناية عن إستهانتهم بالمنبوذ وإعراضهم عنه بالكلية، وإهمالهم له إهمالا تاما، لأن من شأن الشىء المنبوذ أن يهمل ويترك، كما أن من شأن الشىء الذى هو محل إهتمام أن يحرس ويجعل نصب العين.

والضمير فى قوله «فنبذوه» يعود على الميثاق بإعتبار أنه موضع الحديث إبتداء.

ويصح أن يعود إلى الكتاب، لأن الميثاق هو الشرائع والأحكام والكتاب وعاؤها، فنبذ الكتاب نبذ للعهد.

والمراد «بالثمن القليل» ما أخذوه من أموال ومتاع دنيوى من غيرهم فى مقابل عدم بيانهم لما فى الكتاب من حقائق، وكتمانهم لذلك إرضاء للشهوات وللأهواء الباطلة.

وليس وصف الثمن بالقلة من الأوصاف المخصصة للنكرات، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل فى مقابل نبذهم لكتاب الله وعهوده، إذ لا يكون هذا الثمن المحصل الاقليلا وان بلغ مابلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - تعالى -.

وقوله «فبئس مايشترون» أى بئس شيئا يشترونه ذلك الثمن.

فما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس، وجملة يشترونه صفته، والمخصوص بالذم محذوف

وقيل « ما » مصدرية فاعل بئس ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى بئس شراؤهم هذا الشراء لاستحقاقهم به العذاب الأليم .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب إظهار الحق ، وتحريم كتمانه . . .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : وكفى به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس ، وألا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطييب لنفوسهم ، واستجلاب لمسارهم ، أو لجر منفعة وحطام دنيا ، أو لتقية ، أو لبخل بالعلم وغيرة من أن ينسب إلى غيرهم . وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار ، وعن علي - رضى الله عنه - قال : ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلِّموا »[1] .

وقال ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة : هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، وأن ينوهوا بذكره فى الناس فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوى السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم . وفى هذا تحذير للعلماء من أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم . ويسلك بهم مسلكهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، ولا يكتموا منه شيئا ... »[2] .

ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل الكتاب المتعددة ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص٣٤٦ بتصرف يسير .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٣٦

وهى أنهم يحبون أن يحمدوا بمـا لم يفعلوا ، ويفرحون بما أتوا ، وبين سوء عاقبتهم بسبب تلك الأخلاق القبيحة فقال : «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العـــذاب ولهم عذاب أليم » .

والخطاب فى قوله « لا تحسبن » موجه إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - أو لـكل من يصلح له الخطاب .

والنهى موجه إلى حسبان أن يكون فى هؤلاء الأشرار خير .

أى أن الله - تعالى - ينهى نبيه - صلى الله عليـه وسلم - نهيا مؤكدا عن أن يظن خيرا فى هؤلاء الذين يفرحون بمـا أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا .

و « المفازة » مصـدر ميمى بمعنى الفوز . وقيـل هى اسم مكان أى محل فوز ونجاة .

والمعنى . لا تظن يا محمد أن هؤلاء الأشرار « الذين يفرحون بمـا أتوا » أى يفرحون بما فعلوا من بيعهم الدين بالدنيا واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير ، والذين « يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » أى يحبون أن يمدحهم الناس على ما لم يفعلوه من الوفاء بالعهود ، ومن إظهار الحق وعدم كتمانه ، فإنهم فعلوا الشرور والآثام ، ثم لم يحاولوا أن يستروا ما اقترفوه من آثام ، بل يطلبون من الناس أن يمدحوهم على ما ارتـكبوه من منـكرات ، فهم ممن قال الله فيهم « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » .

لا تحسبن هؤلاء الأشرار « بمفازة من العذاب » أى بمنجاة منه ، بل لهم عذاب مؤلم أشد الإيلام بسبب ما اجترحوه من سيئات .

وقوله « الذين يفرحون ... » هو المفعول الأول لتحسب ، والمفعول الثانى محذوف والتقدير : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا موفقين أو مهتدين ، أو صالحين .

وحذف هـــذا المفعول الثاني لدلالة مابعده عليه وهو قوله « فلا تحسبنهم بمفازة... » ولتذهب النفس كل مذهب فيما يتناسب مع الوصف الذي وصفهم به - سبحانه - ، وهو أنهم يفعلون القبيح ويحبون أن يحمدهم الناس عليه .

وقوله « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » بيان لسوء عاقبتهم بسبب أفعالهم السيئة وهو تأكيد لقوله « لا تحسبن ... » .

قال الزجاج : جرت عادة العرب أنهم إذا طالت القصة أو الكلام أعادوا لفظ حسب وما أشبهه ، للإعلام بأن الذي جرى متصل بالكلام الأول ومتصل به ؛ فتقول . لاتظن زيدا إذا جاء وكلمك بكذا وكذا فلا تظنه صادقا . فيفيد لا تظنن توكيدا وتوضيحا »[1] .

والتعبير عن النجاة من العذاب الأليم بقوله - تعالى - « بمفازة » للإشعار بأن أقصى ما يكون لهم من فوز أن ينجوا من العذاب الأليم، ولكنهم لن ينجو منه أبدا ، ولذا أكد - سبحانه - عدم نجاتهم بقوله « ولهم عذاب أليم » .

فذكر - سبحانه - عذابهم الأليم بالسلب والإيجاب ، فنفى أولا أنهم بمنجاة منه . وأخبر ثانيا أنهم واقعون فيه .

هذا . وقد ذكر كثير من العلماء أن هذه الآية الكريمة نزلت في شأن أحبار اليهود فقد روى الشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم عن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف أن مروان قال لبوابه رافع : اذهب يارافع إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن جميعا .

فقال ابن عباس : مالكم وهذه ، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب ثم تلا ابن عباس : وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب .... إلى قوله « ولهم عذاب أليم » وقال ابن عباس : سألهم النبي - صلى الله عليه وسلم - عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، ثم خرجوا وقد أروه أن قد أخبروه

(١) تفسير الآلوسي ج ٤ ص ١٥١ .

بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه » .

وذكر بعض العلماء أن هذه الآية نزلت في شأن المنافقين، فقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رجالا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الغزو وتخلفوا عنه ، فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فإذا قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الغزو، اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت « لا تحسبن الذين يفرحون ... »[1] .

قال العلماء : ولا منافاة بين الروايتين ، لأن الآية عامة في جميع ما ذكر. وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد حدثتنا عن جملة من رذائل أهل الكتاب ، فقد حكت قولهم « إن الله فقير ونحن أغنياء » وحكت قولهم لن نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار » ووصفتهم بكتمان الحق ونبذه وراء ظهورهم ، كما وصفتهم بأنهم يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وردت على أكاذيبهم بما يدحضها ، وأنذرتهم بسوء مصيرهم ، وساقت للمؤمنين من ألوان التسلية ما يخفف عنهم مصابهم ، ويجعلهم يسيرون في هذه الحياة بعزم ثابت ، وهمة عالية ، ونفس مطمئنة .

ثم ختم - سبحانه - سورة آل عمران بالحديث عن مظاهر قدرته . وأدلة وحدانيته . وبشر أصحاب العقول السليمة الذين يعتبرون ويتعظون ويتفكرون ويكثرون من ذكره برضوانه وجنته . وأمر عباده بألا يغتروا بما عليه الكافرون من سلطان وجاه فإنه - سبحانه - قد جعل العاقبة للمتقين ، كما أمرهم بالصبر والمصابرة والمرابطة ومداومة خشيته فقال - تعالى - :

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ج ٦ ص ٥١ باب « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ... » .

« ولله مُلكُ السموات والأرض والله على كل شيء قدير (١٨٩)
إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي
الألباب (١٩٠) الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم
ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً
سبحانك فقنا عذاب النار (١٩١) ربنا إنك من تدخل النار فقد
أخزيته وما للظالمين من أنصار (١٩٢) ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي
للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا
وتوفنا مع الأبرار (١٩٣) ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا
يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد (١٩٤) فاستجاب لهم ربهم أني
لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ،
فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا في سبيلي ، وقاتلوا
وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها
الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب (١٩٥) لا يغرنك
تقلب الذين كفروا في البلاد (١٩٦) متاع قليل ثم مأواهم جهنم
وبئس المهاد (١٩٧) لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من
تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله ، وما عند الله خير
للأبرار (١٩٨) وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل
إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً
قليلاً ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب (١٩٩)

يأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، واتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُون (٢٠٠) » .

قوله - تعالى - « ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير » أى له وحده - سبحانه - ملك السموات والأرض بما فيهما ، فهو وحده صاحب السلطان القاهر فى هذا العالم يتصرف فيه كيفما يشاء ويختار : إيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، وتعذيبا وإثابة ، وهو - سبحانه - على كل شيء قدير ، لا يعجزه أمر ، ولا يدفع عقابه دافع ، ولا يمنع عقابه مانع ، فعليكم أيها الناس أن تطيعوه وأن تحذروا غضبه ونقمته .

وبعد أن بين - سبحانه - أن ملك السموات والأرض بقبضته ، أشار - سبحانه - إلى مافيهما من عبر وعظات فقال : « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » .

أى : إن فى إيجاد السموات والأرض على هذا النحو البديع ، ومافيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب وبحار وزروع وأشجار ... وفى إيجاد الليل والنهار على تلك الحالة المتعاقبة ، وفى اختلافهما طولا وقصرا .. فى كل ذلك لأمارات واضحة ، وأدلة ساطعة ، لأصحاب العقول السليمة على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وباهر حكمته .

وصدرت الجملة الكريمة بحرف « إن الاهتمام بالخبر ، وللاعتناء بتحقيق مضمون الجملة .

أى إن فى إيجاد السموات والأرض وإنشائهما على ماهما عليه من العجائب ، وما اشتملتا عليه من البدائع ، وفى اختلاف الليل والنهار .. إن فى كل ذلك من العبر والعظات مايحمل كل عاقل على الاعتراف بوحدانية الله ، وكمال قدرته وحكمته .

والمراد بأولى الألباب : أصحاب العقول السليمة ، والأفكار المستقيمة ، لأن لب الشيء هو خلاصته وصفوته .

ولقد قال الزمخشري فى صفة أولى الألباب : « الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار ، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطرة . وفى الحكم : املأ عينيك من زينة هذه الكواكب ، وأجلهما فى جملة هذه العجائب ، متفكرا فى قدرة مقدرها ، متدبرا فى حكمة مدبرها ، قبل أن يسافر بك القدر ، ويحال بينك وبين النظر »(١) .

هذا ، وقد أورد المفسرون كثيرا من الآثار فى فضل هذه الآيات العشر التى اختتمت بها سورة آل عمران ، ومن ذلك قول ابن كثير - رحمه الله - :

وقد ثبت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل للتهجد . فقد روى البخاري - رحمه الله - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : بت عند خالتى ميمونة ، فتحدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أهله ساعة ثم رقد : فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : « إن فى خلق السموات والأرض .... الآيات » . ثم قام فتوضأ واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة . ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح .

وروى مسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج ذات ليلة بعد ما مضى شطر من الليل فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية . إن فى خلق السموات والأرض ... إلى آخر السورة .

ثم قال : اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وعن يمينى نوراً . وعن شمالى نوراً ، ومن بين يدى نوراً ، ومن خلفى نوراً ، ومن فوقى نوراً ، ومن تحتى نوراً ، وأعظم لى نوراً يوم القيامة » .

وروى ابن مردويه عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة - رضى الله عنها - فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب .... فقال

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٤٨ .

لها ابن عمر: أخبرينا بأعجب مارأيتيه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا ! ! أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال : يا عائشة : ذرينى أتعبد لربى - عز وجل ، قالت : فقلت والله إنى لأحب قربك وإنى أحب أن تعبد ربك .

فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ، ثم إضطجع على جنبه فبكى ... حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت : فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : ويحك يا بلال ! ! وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله على فى هذه الليلة : « إن فى خلق السموات والأرض الخ الآيات .

ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » (١) .

ثم وصف - سبحانه - اولى الألباب بصفات كريمة فقال : الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . . .

فقوله « الذين يذكرون . . . الخ » فى موضع جر على أنه نعت لأولى الألباب . ويجوز أن يكون فى موضع رفع أو نصب على المدح .

أى : إن فى خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار ، لآيات واضحات على وحدانيته وقدرته ، لأصحاب العقول السليمة ، الذين من صفاتهم أنهم « يذكرون الله » أى يستحضرون عظمته فى قلوبهم ، ويكثرون من تسبيحه و تمجيده بألسنتهم ، ويداومون على ذلك فى جميع أحوالهم ، فهم يذكرونه قائمين ، ويذكرونه قاعدين ، ويذكرونه وهم على جنوبهم فالمراد بقوله « قياماً وقعوداً على جنوبهم ، أن ذكرهم لله - تعالى - بقلوبهم و ألسنتهم يستغرق عامة أحوالهم » .

وقوله « قياما وقعودا » منصوبان على الحالية من ضمير الفاعل فى قوله : « يذكرون » .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٣٩ .

وقوله «وعلى جنوبهم» متعلق بمحذوف معطوف على الحال أى: وكائنين على جنوبهم أى مضطجعين.

ثم وصفهم - سبحانه - بوصف آخر فقال: «ويتفكرون فى خلق السموات والأرض» أى أن من صفات هؤلاء العباد أصحاب العقول السليمة أنهم يكثرون من ذكر الله - تعالى -، ولا يكتفون بذلك، بل يضيفون إلى هذا الذكر التدبر والتفكر فى هذا الكون وما فيه من جمال الصنعة، وبديع المخلوقات، ليصلوا من وراء ذلك إلى الإيمان العميق، والإذعان التام، والاعتراف الكامل بوحدانية الله، وعظيم قدرته...

فإن من شأن الأخيار من الناس أنهم يتفكرون فى مخلوقات الله ومافيها من عجائب المصنوعات، وغرائب المبتدعات، ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه - فيعلموا أن لهذا الكون قادراً مدبراً حكيما، لأن عظم آثاره وأفعاله، تدل على عظم خالقها.

ولقد ذكر العلماء كثيراً من الأقوال التى تحض على التفكير السليم، وعلى التدبر فى عجائب صنع الله، ومن ذلك قول سليمان الداراني: إنى أخرج من بيتى فما يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله على فيه نعمة، ولى فيه عبرة، وقال الحسن البصرى: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال الفخر الرازى: دلائل التوحيد محصورة فى قسمين: دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس، ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم، كما قال - تعالى -: «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس...»

ولما كان الأمر كذلك، لا جرم أمر فى هذه الآية بالتفكر فى خلق السموات والأرض، لأن دلالتها أعجب، وشواهدها أعظم...»(1).

وقد وبخ - سبحانه - الذين يرون العبر فلا يعتبرون، وتمر أمامهم العظات

(1) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ١١٠

فلا يتعظون ولا يتفكرون فقال - تعالى - « وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ثم حكى - سبحانه - ثمرات ذكرهم لله وتفكرهم فى خلقه فقال : « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

أى أنهم بعد أن أذعنت قلوبهم للحق ، ونطقت ألسنتهم بالقول الحسن ، وتفكرت عقولهم فى بدائع صنع الله تفكيراً سليما ، استشعروا عظمة الله استشعاراً ملك عليهم جوارحهم ، فرفعوا أكف الضراعه إلى الله بقولهم :

ياربنا إنك ما خلقت هذا الخلق البديع العظيم الشأن عبثاً ، أو عاريا عن الحكمة ، أو خاليا من المصلحة ، « وسبحانك » أى ننزهك تنزيها تاماً عن كل ما لا يليق بك ، « فقنا عذاب النار » أى فوفقنا للعمل بما يرضيك ، وأبعدنا عن عذاب النار .

وقوله « ربنا ما خلقت هذا باطلا ... إلخ » جملة واقعة موقع الحال على تقدير قوله : أى يتفكرون قائلين ربنا .. لأن هذا الكلام أريد به حكاية قولهم بدليل مابعده من الدعاء .

وقوله : باطلا صفة لمصدر محذوف أى خلقاً باطلا ، أو حال من المفعول والمعنى ياربنا ما خلقت هذا المخلوق العظيم الشأن عارياً عن الحكمة ، خالياً من المصلحة ، بل خلقته مشتملا على حكم جليلة ، منتظما لمصالح عظيمة .

وكان نداؤهم لخالقهم - عز وجل - بلفظ « ربنا » اعترافاً منهم بأنه هو مربيهم وخالقهم فمن حقه عليهم أن يفردوه بالعبادة والخضوع .

وسبحان اسم مصدر بمعنى التسبيح أى التنزيه ، وهو مفعول بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه أى تنزهت ذاتك وتقدست عن كل ما لا يليق وجىء بفاء التعقيب فى حكاية قولهم « فقنا عذاب النار » لأنه ترتب على اعتقادهم بأنه

سبحانه - لم يخلق هذا الكون عبثاً أن هناك ثواباً وعقاباً ، فسألوا الله - تعالى أن يجعلهم من أهل الجنة لا من أهل النار .

وقوله - تعالى - حكاية عنهم « ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته » في مقام التعليل لضراعتهم بأن يبعدهم عن النار .

أي : أبعدنا ياربنا عن عذاب النار ، فإنك من تدخله النار تكون قد أخزيته أي أهنته وفضحته على رءوس الأشهاد .

والخزى : مصدر خزى يخزى بمعنى ذل وهان بمرأى من الناس . وفي هذا التعليل مبالغة في تعظيم أمر العقاب بالنار ، وإلحاح في طلب النجاة منها، لأن من سأل ربه حاجة ، إذا شرح عظمها وقوتها ، كان رجاؤه في القبول أشد ، وإخلاصه أتم ، وشعوره بالعطاء أقوى .

وقوله « وما للظالمين من أنصار » أي ليس لهم ناصر ينصرهم من عقاب الله — تعالى — أو يخلصهم مما وقعوا فيه من بلاء .

و « من » للدلالة على استغراق النفي . أي لا ناصر لهم أيا كان هـــذا الناصر : وفي ذلك إشارة إلى انفراد الله - تعالى - بالسلطان ونفاذ الإرادة .

ثم حكى - سبحانه - لوناً آخر من ألوان ضراعتهم يدل على قوة إيمانهم فقال — تعالى - « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . . . »

أي أنهم يقولون على سبيل الضراعة والخضوع لله رب العالمين : يا ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي أي داعياً يدعو إلى الإيمان وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - فاستجبنا لدعوته . وآمنا بما دعانا إليه بدون تردد أو تسويف .

وفي وصفه - صلى الله عليه وسلم - بالمنادى . دلالة على كمال اعتنائه بشأن دعوته التي يدعو إليها . وأنه حريص على تبليغها للناس تبليغا تاما .

قال صاحب الكشاف فإن قلت : فأي فائدة في الجمع بين « المنادى » و « ينادى » ؟ قلت : ذكر النداء مطلقا . ثم مقيداً بالإيمان . تفخيما لشأن المنادى ؛

لأنه لا منادى أعظم من مناد ينادي للإيمان . ونحوه قولك :مررت بهاد يهدى للإسلام . وذلك أن المنادى إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع . وكذلك الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأى وغير ذلك .

فإذا قلت : ينادي للإيمان، ويهدى للإسلام، فقد رفعت من شأن المنادى والهادي وفخمته (١) .

و « أن » فى قوله « أن آمنوا » تفسيرية لما فى فعل « ينادى » من معنى القول دون حروفه . وجيء بفاء التعقيب فى قوله - تعالى - حكاية عنهم - « فآمنا » ، للدلالة على المبادرة والسبق ، إلى الإيمان، وأنهم قد أقبلوا على الداعى إلى الله بسرعة وامتثال ، وفى ذلك دلالة على سلامة فطرتهم ، وبعدهم عن المكابرة والعناد .

ثم حكى - سبحانه - مطالبهم فقال : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا . وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » .

أى نسألك ياربنا بعد أن آمنا بنبيك ، واستجبنا للحق الذى جاء به ، أن تغفر لنا ذنوبنا بأن تسترها وتعفو عنها ، وأن تكفر عنا سيئاتنا بأن تزايلها وتمحوها وتحولها إلى حسنات أو بأن تحشرنا مع الابرار أى مع عبادك الصالحين المستقيمين الأخيار . إذ الأبرار جمع بر وهو الشخص الكثير الطاعة لخالقه - تعالى - .

فأنت تراهم قد طلبوا من خالقهم ثلاثة أمور ، غفران الذنوب، وتكفير السيئات . والوفاة مع الأبرار الأخيار ، وهى مطالب تدل على قوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وزهدهم فى متع الحياة الدنيا .

وقد جمعوا فى طلبهم بين غفران الذنوب وتكفير السيئات ، لأن السيئة

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٥٠

عصيان فيه إساءة، والذنب عصيان فيه تقصير وتباطؤ عن فعل الخير، والغفران والتكفير كلاهما فيه معنى الستر والتغطية، إلا أن الغفران يتضمن معنى عدم العقاب، والتكفير يتضمن ذهاب أثر السيئة.

ومعنى «وفاتهم مع الأبرار» أن يموتوا على حالة البر والطاعة بأن تلازمهم تلك الحالة إلى الممات، وألا يحصل منهم ارتداد على أدبارهم، بل يستمروا على الطاعة استمرارا تاما.

وبذلك يكونون فى صحبة الأبرار وفى جملتهم.

ثم حكى القرآن أنهم ترقوا فانتقلوا من طلب الغفران إلى طلب الثواب الجزيل، والعطاء الحسن فقال - تعالى - حكاية عنهم «ربنا وآتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد».

أى نسألك يا ربنا أن تعطينا وتمنحنا بعد وفاتنا، وحين قيامنا من قبورنا يوم القيامة، وما وعدتنا به من ثواب فى مقابل تصديقنا لرسلك، وطاعتنا لهم، واستجابتنا لأوامرهم ونواهيهم «ولا تخزنا يوم القيامة» أى ولا تذلنا أو تفضحنا يوم المحشر على رءوس الأشهاد. إنك لا تخلف الميعاد» أى إنك - سبحانك - لا تخلف وعدك الذى وعدته لعبادك الصالحين.

فهم قد جعلوا هذا الدعاء وهو طلب الثواب الجزيل يوم القيامة، ختاما لدعواتهم؛ لشعورهم بهفواتهم وبتقصيرهم أمام فضل الله ونعمه.

والمراد بقولهم «ما وعدتنا» الثواب والعطاء الكائن منه - سبحانه - و «ما» موصولة أى آتنا الذى وعدتنا به أو وعدتنا إياه.

وقوله «على رسلك» فيه مضاف محذوف أى آتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من ثواب. أو آتنا ما وعدتنا على تصديق رسلك والإيمان بهم من جزاء حسن.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد والله لا يخلف الميعاد؟

قلت : معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد . أو هو من باب الملجأ إلى الله والخضوع له، كما كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - « يستغفرون مع علمهم بأنهم مغفور لهم ، يقصدون بذلك التذلل لربهم ، والتضرع إليه والملجأ الذى هو سيما العبودية »(١) .

تلك هى الدعوات الخاشعات التى حكاها - سبحانه - عن أصحاب العقول السليمة ، وهم يتضرعون بها إلى خالقهم - عز وجل - فماذا كانت نتيجتها ؟ .

لقد كانت نتيجة دعواتهم ، أن أجاب الله لهم سؤالهم وحقق لهم مطلوبهم فقال - تعالى - « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . . . ! ! .

قال الحسن البصرى : « ما زالوا يقولون ربنا حتى استجاب لهم » .

وقال جعفر الصادق : « من حزبه أمر فقال خمس مرات (ربنا) أنجاه الله مما يخاف ، وأعطاه ما أراد » . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : إقرءوا إن شئتم قوله - تعالى - « الذين يذكرون الله قياما . . إلخ » فإن هؤلاء الأخيار قد نادوا ربهم خمس مرات فأجاب الله لهم دعاءهم .

ودلت الفاء فى قوله « فاستجاب » على سرعة الإجابة ، لأن الفاء للتعقيب، فهم لأنهم دعوا الله بقلب سليم ، أجاب لهم دعاءهم بدون إبطاء .

واستجاب هنا بمعنى أجاب عند جمهور العلماء ؛ إذ السين والتاء للتأكيد ، مثل استوقد واستخلص .

وقال بعضهم : أن استجاب أخص من أجاب ، لأن استجاب يقال لمن قَبِل ما دُعى إليه ، وأجاب أعم فيقال لمن أجاب بالقبول وبالرد .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٥١ .

والمعنى : أن الله - تعالى - قد بشر هؤلاء الأخيار برضاه عنهم ، بأن أخبرهم بأنه قد أجاب لهم دعاءهم ، وأنه - سبحانه - لا يضيع عمل عامل منهم، بل سيجازيهم بالجزاء الأوفى ، وسيمنحهم من الثواب فوق ما عملوا لأنه هو الكريم الوهاب ، ولن يفرق فى عطائه بين ذكر وأنثى ، لأن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر وقد خلقهم جميعا من نفس واحدة .

وفى التعبير باللفظ السامى « ربهم » إشارة إلى أن الذى سيجزيهم هو خالقهم ومربيهم والمنعم عليهم ، والرحيم بهم .

ومعنى « لا أضيع عمل منكم » لا أزيل ثواب عمل أى عامل منكم ، بل أكافئه عليه بما يستحقه ، وأعطيه من ثوابى ورحمتى مايشرح صدره ، ويدخل البهجة والسرور على نفسه .

وقوله « من ذكر أو أنثى » بيان لعامل وتأكيد لعمومه ، أى لا أضيع عمل أى شخص عامل سواء أكان هذا العامل ذكرا أم أنثى .

ومعنى « بعضكم من بعض » أن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر ، كلكم بنو آدم وهذه جملة معترضة مبينة لسبب شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده من أجر جزاء أعمالهم الصالحة .

روى الترمذى عن أم سلمة قالت : يا رسول الله ، لا أسمع الله - تعالى - ذكر النساء فى الهجرة ، فأنزل الله - تعالى - « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ... »

ثم بين - سبحانه - الأعمال الصالحة التى استحق بها هؤلاء الأبرار حسن الثواب منه - سبحانه - فقال « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ... » .

أى : فالذين هاجروا بأن تركوا أوطانهم التى أحبوها إلى أماكن أخرى من أجل إعلاء كلمة الله « وأخرجوا من ديارهم » فرارا بدينهم من ظلم

الظالمين ، واعتداء المعتدين ، «وأوذوا فى سبيلى » أى تحملوا الأذى والاضطهاد فى سبيل الحق الذى آمنوا به « وقاتلوا » أعداء الله « وقتلوا » وهم يجاهدون من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل ....

هؤلاء الذين فعلوا كل ذلك ، وعدهم الله - تعالى - بالأجر العظيم فقال : « لأكفرن عنهم سيئاتهم » أى لأمحون عنهم ما ارتكبوه من سيئات ، ولأسترنها عليهم حتى تعتبر نسيا منسيا « ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » أى تجرى من تحت قصورها الأنهار التى فيها العسل المصفى ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

وقوله « ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب » أى لأثيبنهم ثوابا عظيما من عندى ، والله - تعالى - عنده حسن الجزاء لمن آمن وعمل صالحا .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد منح هؤلاء الأخيار ذلك الأجر الجزيل ؛ لأنهم قد هاجروا من الأرض التى أحبوها إلى غيرها من أجل إعلاء كلمة الله ، وأخرجوا منها مضطرين لا مختارين فرارا بدينهم ، ولقد ذكر المؤرخون أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما خرج من مكة مهاجرا التفت إليها وقال : « يامكة والله لأنت أحب بلاد الله إلى ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت » .

ولأنهم قد تحملوا ما تحملوا من الأذى فى سبيل الله ، ولأنهم قدجاهدوا أعداء الله وأعداءهم حتى استشهدوا وهم يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله .

وقوله « فالذين هاجروا . . » مبتدأ ، وهو تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له ، والتفخيم لشأنه ... وخبره قوله « لأكفرن عنهم سيئاتهم ... » .

وقوله « وأخرجوا من ديارهم » معطوف على « هاجروا » . وجمع بينهما للإشعار بأنهم قد تركوا أوطانهم تارة باختيارهم ليبحثوا عن مكان أصلح لنماء

دعوتهم ، وانتشار الحق الذي اعتنقوه ، وتارة بغير اختيارهم بل تركوهـا مجبرين ومضطرين بعد أن ألجأهم أعداؤهم إلى الخروج منها بسبب ما نالهم منهم من ظلم واعتداء .

وقوله « وأوذوا في سبيلي » معطوف على ما قبله . والمراد من الإيذاء ما هو أعم من أن يكون بالإخراج من الديار ، أو غير ذلك مما كان يصيب المؤمنين من جهة المشركين .

وجمع — سبحانه — بين قوله « وقاتلوا وقتلوا » الإشارة إلى أن للقسمين ثوابا وأنهم لن يصيبهم إلا إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة وقوله « لأكفرن عنهم سيئاتهم » جواب قسم محذوف . أي والله لأكفرن عنهم سيئاتهم .

وقدم — سبحانه — تكفير سيئاتهم على إدخالهم الجنة ، لأن التخلية — كما يقولون — مقدمة على التحلية ، فهو أولا طهرهم من الذنوب والآثام ونقاهم منها ، ثم أدخلهم بعد ذلك جنته . وأعطاهم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وقوله « ثوابا .. » مصدر مؤكد لما قبله ، لأن المعنى لأثيبنهم على ما عملوه ثوابا عظيما .

وقوله « من عند الله » صفة لقوله « ثوابا » وهو وصف مؤكد ؛ لأن الثواب لا يكون إلا من عنده — تعالى — ، لكنه صرح به — سبحانه — تعظيما للثواب ، وتفخيما لشأنه .

وقوله « والله عنده حسن الثواب » تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

وقد ختم - سبحانه - الآية بهذه الجملة الكريمة ، لبيان اختصاصه بالثواب الحسن ، كأن كل جزاء للأعمال في الدنيا لا يعد حسنا ، بجوار ما أعده - سبحانه - في الآخرة لعباده المتقين .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد دعت المؤمنين إلى الإكثار من ذكر الله ، وإلى التفكر السليم فى عجائب صنعه ، وساقت لنا ألوانا من الدعوات الطيبات الخاشعات التى تضرع بها الأخيار إلى خالقهم ، وبينت لنا الثواب الجزيل ، والعطاء العظيم الذى منحه الله لهم فى مقابل إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح ، فقد جرت سنته ـ سبحانه ـ أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأنه لا يرد دعاء الأبرار من عباده .

وبعد أن بشر ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين الصادقين بهذا الثواب الحسن ، نهاهم عن الاغترار بما عليه الكافرون من قوة وسطوة ومتاع دنيوى فقال ـ تعالى ـ : لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد .

يغرنك : من الغرور وهو الإطماع فى أمر محبوب على نية عدم وقوعه . أو إظهار الأمر المضر فى صورة الأمر النافع . وهو مشتق من الغرة ـ بكسر الغين ـ وهى الغفلة . ويقال : رجل غر إذا كان ينخدع لمن خادعه .

والتقلب فى البلاد : التصرف فيها على جهة السيطرة والغلبة ونفوذ الإرادة .

والمتاع : الشىء الذى يتمتع الإنسان به لمدة معينة والمعنى : لا يصح أن يُخدَع أحد بما عليه الكافرون من تقلب فى البلاد ومن تصرفهم فيها تصرف الحاكم المسيطر عليها ، المستغل لثرواتها وخيراتها ، فإن تصرفهم هذا لن يستمر طويلا ، بل سيبقى مدة قليلة يتمتعون فيها بما بين أيديهم ثم يزول عنهم كل شىء . وسوف يعودون إلى خالقهم فيعذبهم العذاب الأكبر على ظلمهم وبغيهم وكفرهم .

والخطاب فى قوله «لا يغرنك» للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو لكل من يتأتى له الخطاب . وهو نهى للمؤمنين عن أن يغتروا بما عليه الكافرون من جاه ونفوذ وسلطان وغنى ...

وليس من مقتضى النهى أن يكون قد وقع المنهى عنه ، فإن الإنسان قد ينهى عن شيء لم يقع منه لتحذيره من الوقوع فيه فى الحال أو المآل .

ولذا روى عن قتادة أنه قال : « والله ماغروا نبى الله حتى قبضه الله إليه » .

ولقد قال صاحب الكشاف فى الجواب على أن النهى موجه إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فإن قلت : كيف يغتر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك حتى ينهى عن الاغترار به ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما : أن مدره القوم ومتقدمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعا فكأنه قيل : لا يغرنكم .

والثانى : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان غير مغرور بحالهم فأكد ما كان عليه وثبت ما كان على التزامه كقوله « ولا تكونن من المشركين »[1] .

وقوله « متاع » خبر لمبتدأ محذوف أى هو متاع ، وقوله « قليل » صفة لمتاع . ووصف بأنه قليل لقصر مدته ، ولكونه متعة فانية زائلة ، بخلاف ما أعده الله للمتقين من نعيم فى الآخرة فإنه دائم لا يزول .

وجاء العطف « بثم » فى قوله « ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » للإشعار بالتفاوت الكبير بين حالهم فى الدنيا وما هم فيه من متاع زائل ، وبين ماسينالهم فى الآخرة من عذاب دائم لا ينقطع .

أى أنهم يتمتعون بهذه المتع العاجلة لفترة قليلة « ثم مأواهم » أى مكانهم الذى يأوون إليه ويستقرون فيه « جهنم » التى لا يحيط الوصف بشدة عذابها « وبئس المهاد » أى بئس ما مهدوا لأنفسهم وفرشوا جهنم .

وفيه إشارة إلى أن مصيرهم إلى جهنم هم الذين كانوا سببا فيه بكفرهم واستحبابهم العمى على الهدى .

وفى هذا تعزية للمؤمنين ، وتسلية لهم عما يرونه من غنى وجاه وسلطان

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٥٢ .

للمشركين ، وتحريض الأخيار على أن يجعلوا همهم الأكبر فى العمل الصالح الذى يوصلهم إلى رضوان الله الباقى . ففى الحديث الشريف أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم ، فلينظر بم يرجع » .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين أثر بيانه لسوء عاقبة الكافرين فقال : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . . . » .

وافتتحت الآية الكريمة بحرف « لكن » الذى معناه الاستدراك ، لأن مضمونها ضد الكلام الذى قبلها ، ولكى تكون هناك مقابلة بين عاقبة المشركين الفجار وبين عاقبة المؤمنين الأخيار .

والمعنى . هذا هو شأن الكافرين يتقلبون فى البلاد لفترة قصيرة من الزمان هى مدة حياتهم فى هذه الدنيا الفانية ثم يتركون كل شىء عند موتهم ليلاقوا مصيرهم المحتوم وهو عذاب جهنم الذى لا ينقطع .... لكن الذين اتقوا ربهم وخافوا مقامه ونهوا أنفسهم عن الهوى ليسوا كذلك، فقد أعد الله لهم جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار المليئة بأنواع المشارب الطيبة اللذيذة ، وهم خالدون فى تلك الجنات خلودا أبدا لا انقطاع له ولا زوال . . . فأين مصير أولئك الأشرار من مصير هؤلاء الأخيار ؟ .

فالآية الكريمة بيان لكمال حسن حال المؤمنين ، إثر بيان سوء عاقبة الكافرين .

ثم قال - تعالى - : « نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار » .

والنزل : ما يعد للنزيل والضيف لإكرامه والحفاوة به من طعام وشراب وغيرهما . وهو منصوب على أنه حال من « جنات » لتخصيصها بالوصف ، والعامل فيه مافى الظرف من معنى الاستقرار . .

أى لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها حالة كون هذه الجنات منزلا مهيئا لهم من عند الله - تعالى - على سبيل الإكرام لهم، والتشريف لمنزلتهم،

وقوله « وما عند الله خير للأبرار » أى ما عند الله من نعيم مقيم لعباده المتقين خير مما يتقلب فيه الكافرون من المتاع القليل الزائل .

ثم بين - سبحانه - أن أهل الكتاب ليسوا سواء ، بل منهم الأشرار ومنهم الأخيار، وقد بين - سبحانه - هنا صفات الأخيار منهم فقال: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ...) .

أى : « وإن من أهل الكتاب » وهم اليهود والنصارى لفريقا « يؤمن بالله » إيمانا حقا منزها عن الإشراك بكل مظاهره ، ويؤمن بما « أنزل إليكم » من القرآن الكريم على لسان نبيكم محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ويؤمن بحقيقة ما « أنزل إليهم » من التوراة والإنجيل ولا يزالون مع هذا الإيمان العميق « خاشعين لله » أى خاضعين له - سبحانه - خائفين من عقابه ، طالبين لرضاه « لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا » أى لا يبيعون آيات الله أو حقيقة من حقائق دينهم فى نظير ثمن هو من أعراض الدنيا الفانية ، لأن هذا الثمن المأخوذ قليل حتى ولو بلغ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصفهم بخمس صفات كريمة ، تدل على صفاء نفوسهم، وطهارة قلوبهم ، وفى هذا إنصاف من القرآن الكريم للمهتدين من أهل الكتاب .

وقد ذكر القرآن ما يشبه هذه الآية فى كثير من سورة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ..... » .

وقوله - تعالى - « منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

وقدم - سبحانه - إيمانهم بالقرآن على إيمانهم بما أنزل عليهم ، لأن القرآن هو المهيمن على الكتب السماوية والأمين عليها ، فما وافقه منها فهو حق

وما خالفه فهو باطل وقوله « خاشعين لله » حال من فاعل « يؤمن » وجمع حملا على المعنى .

ثم بين - سبحانه - جزاءهم الطيب بعد بيان صفاتهم الكريمة فقال: «أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب » .

أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة لهم أجرهم الجزيل فى مقابل أعمالهم الصالحة ، وأفعالهم الحميدة .

وقوله « إن الله سريع الحساب » كناية عن كمال علمه بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق ، وأنه يوفيها لكل عامل على ماينبغى وقدر ماينبغى .

ويجوز أن يكون كناية عن قرب إنجاز ما وعد من الأجر ، فإن سرعة الحساب تستدعى سرعة الجزاء ، فكأنه قيل : لهم أجرهم عند ربهم عن قريب ، لأن الله - تعالى - سريع الحساب والجزاء .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بنداء جامع للمؤمنين ، دعاهم فيه إلى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى فقال : « يأيها الذين آمنوا اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

والصبر معناه : حبس النفس عن أهوائها وشهواتها ، وترويضها على تحمل المكاره وتعويدها على أداء الطاعات .

والمصابرة : هى المغالبة بالصبر ، بأن يكون المؤمن أشد صبراً من عدوه .

ورابطوا من المرابطة وهى القيام على الثغور الإسلامية لحمايتها من الأعداء ، فهى استعداد ودفاع وحماية لديار الإسلام من مهاجمة الأعداء .

والمعنى : « يأيها الذين آمنوا اصبروا » على طاعة الله وعلى تحمل المكاره والآلام برضا لا سخط معه ، فإن الصبر جماع الفضائل ، وأساس النجاح والظفر ، « وصابروا » أى قابلوا صبر أعدائكم بصبر أشد منه وأقوى فى كل موطن من المواطن التى تستلزم الصبر وتقتضيه .

قال صاحب الكشاف : « وصابروا » أعداء الله فى الجهاد ، أى غالبوهم

فى الصبر على شدائد الحرب ، ولا تكونوا أقل منهم صبرا وثباتا ، فالمصابرة باب الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدته وصعوبته[1].

« ورابطوا » أى أقيموا على مرابطة الغزو فى نحر العدو بالترصد له ، والاستعداد لمحاربته وكونوا دائما على حذر منه حتى لا يفاجئكم بما تكرهون.

ولقد كان كثير من السلف الصالح يرابطون فى سبيل الله نصف العام ، ويطلبون قوتهم بالعمل فى النصف الآخر .

ولقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث التى وردت فى فضل المرابطة من أجل حماية ديار الإسلام ، ومن ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » .

وروى مسلم فى صحيحه عن سلمان الفارسى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان »[2]

وبعضهم جعل المراد بالمرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة ، مستدلا بالحديث الذى رواه مسلم والنسائى عن أبى هريرة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة . فذلكم الرباط » .

قال القرطبى ـ بعد أن ساق هذا الحديث ـ : والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة فى سبيل الله . وأصلها من ربط الخيل ، ثم سمى كل ملازم لثغر من ثغور المسلمين مرابطا فارسا كان أو راجلا . واللفظ مأخوذ من الربط . وقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « فذلكم الرباط » إنما هو تشبيه بالرباط فى سبيل الله »[3] .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٥٤
(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٤٤
(٣) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٣٢٣

ومما يدل على أن المرابطة فى سبيل الله من أجل حماية الديار الإسلامية من أفضل الأعمال . وأن الصالحين الأخيار من المسلمين كانوا لا ينقطعون عنها ، مما يدل على ذلك ما كتبه عبد الله بن المبارك - وهو يرابط بطرسوس - إلى صديقه الفضيل بن عياض - وكان الفضيل معتكفا بالمسجد الحرام - كتب إليه عبد الله يقول :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلما قرأ الفضيل هذه الأبيات بكى وقال : صدق عبد الله . .

وقوله « واتقوا الله لعلكم تفلحون » أى اتقوا الله بأن تصونوا أنفسكم عن محارمه وعن مخالفة أمره ، رجاء أن يكتب لكم الفوز بالنصر فى الدنيا ، والثواب الحسن فى الآخرة .

وبعد : فهذه سورة آل عمران ، وهذا تفسير مفصل لما اشتملت عليه من توجيهات نافعة ، وعظات بليغة ، وآداب عاليه ، وتشريعات سامية ، وتربية رشيدة ، وعبادات قويمة ، وحجج تثبت الحق وتدحض الباطل . . .

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ونافعا لعباده . . .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

١٨ من رمضان سنة ١٤٠٧ هـ
١٥ من مايو سنة ١٩٨٧ م

الدكتور
محمد سيد طنطاوى
مفتى الديار المصرية

فهرس إجمالى لتفسير «سورة آل عمران»

رقم الإيداع ٣٦٥٥ / ٧٧